الكتاب الأكثر مبيعًا على قائمة نيويورك تايمز

RICHARD DAWKINS

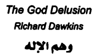
ريتشارد دوكينز

وهم الإله



ترجمة: نور ياسين

التدقيق اللغوي: علي ياري



The God Delusion

Richard Dawkins

وهم الإله

ريتشارد دوكينز

ترجمة: نور ياسين

التدقيق اللغوي: علي ياري

ISBN: 978-9953-592-43-5

الطبعة الاولى 2022

بكل لغات الوطن

منشورات الشمال

لبنان - بيروت - شارع الحمرا - بناية ربيز

info@shamalpublishing.com

www.shamal-publishing.com

الكتاب الأكثر مبيعًا على قائمة نيويورك تايمز

ريتشارد دوكينز





ترجمة: نور ياسين
التدقيق اللغوي: علي ياري

لذكرى دوغلاس آدمز

1952 - 2001

ألا يكفي النظر لروعة الحديقة
دون ان يكون علينا الإعتقاد
بأن هناك جنيات تعيش تحتها أيضًا؟

المحتويات

المقدمة 11

الفصـل الأول «غيرُ مؤمنٍ بعُمـق» 21

احترام مستحق 23

احترامٌ غيرُ مستحق 34

الفصل الثاني « فرضيةُ الإلـه» 45

تعدّد الآلهـة 48

ديانات التوحيـد 55

العلمانية والآباء المؤسسون والدين في أمريكا 57

فقر اللاأدريـة 66

هل يسـتطيع العلم أن ينفي وجود الله؟ 76

تجربة الصلاة (الدعـاء) الكبرى 85

مدرسة نافيل تشـامبرلاين للتطوريين 91

رجال صغار بلون أخـضر 96

الفصـل الثالث «الدليل على وجـود الله» 103

حجة الرهان لتوماس اكوينـاس 105

الحجة الوجودية وحجج أخرى سالفة لها........................ 109
حجة الجمال.. 116
الحجة من التجربة الشخصية........................ 118
الحجج من الكتاب المقدس........................ 125
الحجة من العلماء الكبار المتدينين........................ 131
رهان باسكال.. 139
حجة بايس.. 141
الفصل الرابع «لماذا الاحتمال الأكبر هو عدم وجود إله»........................ 147
طائرة البوينغ 747 الكبرى........................ 147
الإنتخاب الطبيعي والوعي........................ 151
التعقيد المتعذر الإنقاص........................ 157
لعبة الحلقة المفقودة........................ 166
المبدأ الأنثروبي: النسخة الكوكبية........................ 179
المبدأ الأنثروبي: النسخة الفلكية........................ 188
استراحة في كامبريدج........................ 201
الفصل الخامس «منشأ الدين»........................ 213
الأولوية الداروينية........................ 215
الفوائد المباشرة للدين........................ 220
الانتخاب الجماعي........................ 224
الدين كناتج عرضي لشيء آخر........................ 228
التهيئة النفسية للدين........................ 238
اخطوا بهدوء، لأنك تدعس على ميماتي........................ 254
طائفة الشحن........................ 268
الفصل السادس «منشأ الأخلاق لماذا نحن طيبون؟»........................ 277
هل للمعاني الأخلاقية أصلٌ دارويني؟........................ 283
حالة دراسية عن منشأ الأخلاقيات........................ 294
لو لم يكن هناك إله، فلماذا نكون صالحين؟........................ 300
الفصل السابع «الكتاب الصالح وأخلاقيات روح العصر المتغيرة»........ 311
العهد القديم........................ 314
هل العهد الجديد أفضل بأيّةِ حال من الأحوال؟........................ 331

حب قريبك 336
روح العصر الأخلاقية 347
ماذا عن هتلر وستالين؟ أليسا ملحدين؟ 360
الفصل الثامن «ما هي مشكلةُ الدين؟ ما سببُ كلِّ هذه العدوانية؟» 369
التطرف وفتنة العلم 372
الوجه المظلم للأحكام المطلقة 378
الإيمان والمثلية الجنسية 381
الإيمان وقدسية الحياة الإنسانية 385
حجة بيتهوفن الكاذبة 394
كيف يعطي الإعتدال الديني الحاجة للتطرّف 399
الفصل التاسع «الطفولة الاعتداء والهروب من الدين» 409
الاعتداء الجسدي والنفسي 417
دفاعًا عن الأطفال 430
فضيحة تربوية 438
الوعي مرة أخرى 446
التعليم الديني كأي جزء من الثقافة الأدبية 450
الفصل العاشر «الفجوة المهمة جدًا» 455
بينكر 458
العزاء 464
الإلهام 476
أم البراقع 477

المقدمة

عندما كانت زوجتي طفلةً صغيرة، كرهتِ المدرسة وتمنّت لو تركتها.. وبعدها بأعوام وعندما كانت في العشرينات صارحت أمها بتلك الحقيقة المرة وبدهشة حزينة قالت الأم: ولِمَ لم تأتِ وتقولي يا عزيزتي؟ وجواب ليلى يومها هو عبارتي لهذا اليوم: لم أعرف أني كنت أستطيع أن أفعل ذلك.

لم أعرف أني أستطيع أن أفعل ذلك..

أعتقد بحزم أنَّ هناك العديدين من الذين تربَّوا على دينٍ ما، وليسوا سعداءَ معه، أو قلقين على ما يرتكب باسمه من شرور، أناس يحنّون لتركِ دينِ آبائهم ويتمنَّون لو استطاعوا لذلك سبيلاً، ولكنهن لا يدركون أن ذلك هو أحد الخيارات بالفعل.. لو كنتَ واحدًا منهم فهذا الكتاب من أجلك.. كتاب المراد به لفتُ الانتباه لحقيقةِ أنَّ الإلحاد هو تطلّع واقعيٌّ وشجاعٌ ورائعٌ. من الممكنِ أن تكونَ ملحدًا، سعيدًا، متوازنًا، ومقتنعًا فكريًا ومعنويًا بشكلٍ كامل. هذه أوّلُ رسالةٍ للفت الانتباه. وستأتي ثلاثُ رسائل أخرى لاحقًا..

في كانون الثاني 2006، قدمت برنامجًا وثائقيًا على التلفزيون البريطاني (القناة الرابعة) بعنوان «جاذرة الشر»، بادئ ذي بدء لم يعجبني العنوان. فالدين ليس أصل كل الشرور وليس هناك من شيء معين بذاته والذى هو أصل لكل شيء آخر. ولكنني سُررتُ بالإعلان الذى وضعته القناة الرابعة على الجريدة الوطنية. وهي عبارة عن صورةٍ لأفقِ مدينة مانهاتن

بعنوان «تخيل العالم بدون دين» وما هي صلة الوصل هنا؟ البرجين كانا على الصورة!

تخيل مع جون لينون (مغنّي له أغنية اسمها تخيل - المترجم) عالمًا بدون دين. لا انتحاريين، لا حملاتٍ صليبية، لا مؤامرة باردو، لا تقسيم الهند، لا حرب فلسطينية إسرائيلية، لا مذابحَ صرب، كراوات، إسلام، لا اضطهادَ لليهود كونهم قتلة المسيح، لا مشاكل في شمال إيرلندا، لا جرائم شرف، لا أنجيلي بهندامٍ لامعٍ على التلفزيون الأمريكي يجز أموال السذّج. الرب يريدك أن تعطي حتى الألم.. تخيل أنه لا وجود لطالبان ليفجّروا تماثيلَ أثرية. لا قطعًا للرؤوس بشكلٍ علني ولا سوطًا على جلد أنثى؛ لأنَّ أحدًا رأى بوصة منه.. لقد تصادف أن أخبرني صديق أسمه ديزموند موريس بأن أغنية جون لينون العظيمة تغنّي بعضَ الأحيان في أمريكا مع تحوير أو حذف العبارة وبدون دين أيضًا لا بل إنهم في بعض الأحيان يبدّلونها بعبارةٍ ودينٍ واحدٍ أيضًا وبكل وقاحة.

ربما تفكر هنا بأنَّ اللاأدرية هي الموقف المعقول، وأن الإلحاد هو توجّه عقائديٌّ كالدين؟ لو أنك كذلك، فأعتقد أنَّ الفصلَ الثاني من هذا الكتاب سيغيّر رأيك، وذلك باقناعك بأنَّ «فرضية الإله» هي عبارة عن فرضيةٍ علميةٍ عن الكونِ ويجب تحليلها ودراستها بشكٍّ كأي فرضية أخرى. وربما أنك درست بأنَّ الفلاسفةَ وعلماء الدين لديهم العديد من الأسباب الجيدة للإيمان بالله..

لو أنك ممن يفكر بذلك، فربما أنك ستستمتع بقراءةِ الفصل الثالث الذي يناقش الحججَ عن وجودِ الله وفيه يظهر الضعفُ المدهشُ لهذه الحجج. ربما تعتقد بأنَّ وجودَ الإله هو من المسلّمات الواضحة وإلا فكيف

خلق الكون ووصل إلى ما وصل إليه الآن؟ وكيف يمكن تفسير الحياة وتنوعها الغنيّ وكل كائن حي يبدو كما لو كان مصمّمًا؟ لو أنَّ تفكيرك طابقَ ما ذُكِر في السطورِ السابقة؛ فأرجو أن يجيبَ الفصلُ الرابع «لماذا من المؤكد تقريبًا عدم وجود إله» عن بعض هذه التساؤلات بعيدًا عن فكرة المصمم، والوهم عن تصميم الحياة يمكن تفسيره بطريقةٍ أكثر أناقةً واقتصاديةً بكثير، بناءً على نظريةِ الانتخاب الطبيعي لداروين. وعلى الرغم من أنَّ نظريةَ الانتخاب الطبيعة محصورةٌ بتفسيرِ العالم الحي، فباستطاعتها أن ترفعَ مستوى الوعي للإدراك والقابلية للمقارنة عندنا، مما يساعد على فهم الكون نفسه. إنَّ قوةَ نظرية «الانتخاب الطبيعي» وقدرتها على رفع مستوى الوعي هي ثاني رسالة للفت الانتباه من الرسائل الأربعة...

ربما أنك تفكر بأنه من الواجب أن يوجد إله؛ لأنَّ علماء التاريخ والإنسانيين أخبرونا بأنَّ المؤمنين كانوا العامل الأكبر في إنشاء كل حضارة. لو وجدت هذه الفكرة مقنعة، فأرجو أن تقرأ الفصل الخامس، عن «أصل الديانات»، والذي يشرح سبب انتشار الإيمان في كل مكان..

هل أنت ممن يفكر بأنَّ الدين ضروري لوجود مبرر ومغزى؟ فنكون جيدين؟ أرجو قراءة الفصلين السادس والسابع لمعرفة إنَّ الأمر ليس كذلك أبدًا. لو أنك فقدت إيمانك ولكنك ما تزال تفكر بأنْ لا بأس لوجود الدين في الحياة؟ أقرأ الفصل الثامن وسيدعوك للتفكير بأنَّ الدين ليس بالفكرة الجيدة لهذا العالم.

لو فكرت بأنك عالق في دينٍ تربّيت عليه، فإنَّ السؤال الذى يطرح نفسه هو: كيف تم ذلك؟ والجواب عادة هو التلقينُ منذ الطفولة. لو أنك

متديـن فالاحتمال الأعظم أنك على دين آبائك. لو ولدت في أركنسـاس ستفكر بأنَّ المسيحية هي الحقيقة والإسلام كذبة. ونعلم تمامًا بأنَّ العكس هو الأكيد، لو كنت مولودًا في أفغانستان. ولذا فأنت ضحيةُ تلقينٍ طفولي.

الفصل التاسـع يعني بالدين والطفولة بشكل خاص، والذي يتضمن رسـالة رفع لفت الانتبـاه الثالثة. وكما يجفل المنـادون بحقوق المرأة عندما يسمعون «هو» عوضًا عن «هو أو هي» أو «ترجل» عوضًا عن «شخص»، أريـد مـن الجميع أن يجفلوا عند سـماع كلـمات مثل «طفـل كاثوليكي» أو «طفل مسلم». لنتكلم عن «طفل لأبوين كاثوليكيين» لو أردنا ولو سمعنا أحـدًا يتكلم عـن «طفل كاثوليكـي» فنوقفه ونحاول بلباقةٍ لفـتَ انتباههِ؛ لأنَّ الأطفـال لا يعرفون موقفهـم من الدين، مثلما لا يعرفون موقفهم من الأحـداث الاقتصاديـةِ والسياسـية. ولأنَّ موقفي هنا هـو موقفُ توعية؛ فلـن أعتذر عن التكـرار وذكر هذا الأمـر مرة أخرى في الفصل التاسـع. لـن نكرر ذلك عددًا كافيًا مـن المرات مهما حاولنا. وسـأقولها ثانية: ليس هناك طفل مسلم، بل هناك طفلٌ لأبوين مسلمين. الطفل صغير جدًا على معرفة إذا ما كان مسلمًا. ليس هناك ما يمكن تسميته بالطفل المسلم، ليس هناك ما نسمّيه طفلاً مسيحيًا.

الفصل الأول والعاشر يستهلان ويختمان الكتاب بالشرح وبطريقتيهما المختلفتين، كيف أنه وبواسطة فهم روعة العالم الحقيقي وبدون أي تدين، أن نحصـلَ علـى ما يكفي من حقنا في الإلهام، الحـق الذي اغتصبه رجال الدين وحرموا منه الآخرين عبر التاريخ.

الرسالة الرابعة تلفت الانتباه لمسألة فخر الملحد، الإلحاد ليس مما يدعو للاعتـذار. على العكس، إنـه شيء يدعو للفخر مع شـموخ المواجهة مع

الأفق البعيد، لطالما كان الإلحاد مصحوبًا باستقلالية صحية للعقل. هناك العديـدون ممن يعرفون بأنهم ملحدين ولكنهم لا يجرؤون على الاعتراف لعائلاتهم أو حتى لأنفسهم في بعض الحالات..

و سبب ذلك بشكلٍ جزئي هو أنَّ كلمة «ملحد» قد أُعطيتْ من العناية الشيء الكثير لتعنى شيئًا مرعبًا ومخيفًا. الفصل التاسع يقتبس مشهدًا من الممثلة الكوميدية جوليا سويني وقصتها مع أهلها بعد أن عرفوا عن طريق الجريدة أن ابنتهم ملحدة. لقد تقبّلوا على مضض عدم إيمانها بالله، ولكن أن تكون ملحدة.. ملحدة (صوت الأم يعلو لحد الصراخ في المشهد) أريد أن أقولَ شيئًا للقرّاء الأمريكيين فيما يخص هذه النقطة، إنَّ ظاهرة الدين في أمريكا لهي ظاهرة تستحق الاهتمام فعلاً. وليس من المبالغة ما قالته المحامية ويندى كامينير عن أنَّ السخرية من الدين فى أمريكا هي كإحراق علم أمريكى في مركز للجنود الأمريكان. وضعُ الملحدين في أمريكا الآن يشابه وضع الشاذين جنسيًا فيها منذ حوالى 50 عامًا. والآن بعد حركة الفخر بالشذوذ، أصبح من الممكن إلى حد ما أن ينتخبَ شاذ جنسيًا لمركز حكومي. وفي استفتاء جرى عام 1999 عن الاستعداد لانتخابِ شخص بمواصفات ممتازة لتولّي منصب إداري كانت النتائج كالآتي: فيما لو كان امرأة 95 % وروم كاثوليكي 94 % ويهودي 92 % ومورمون 79 % وشاذ جنسيًا 79 % وملحد 49 %.

من الواضح أن هناك طريقًا طويلاً أمامنا. ولكن الملحدين أكثر عددًا مما بدَوا، خصوصًا بين النخبة المثقفة. والحال كان كذلك حتى في القرن التاسع عشر، عندما قال جون ستيوارت» من المحتم أنها ستكون صدمة هائلة لو عرف العالم كم هي نسبة المشككين في الدين بين الحاصلين على

أعلى الأوسمة لتميزهم اللامع في مجالات العلم والفكر». وفي أيامنا هذا تصح هذه المقولة أكثر بدون شك ولدي الأدلة لبرهان ذلك في الفصل الثالث من الكتاب. إنَّ السبب الرئيسي لعدم انتشار فكرة وجود الملحدين بين عامة الشعب، هي أننا نتردد في إظهارها. وأمليَ أن يساعد كتابي الناسَ ليتجرأوا بالظهور. وكما كان الحال مع المثليين، فكلما ظهر عدد أكبر منهم سيصبح من الأسهل للآخرين أن ينضموا للمجموعة.. ربما كان هناك ما يسمى بالكتلة الحرجة لبدء التفاعل التسلسلي...

استطلاعات الرأي الأمريكية تنبّئ عن أنَّ عدد المحلدين واللاأدريين في أمريكا أكثر بكثير من عدد اليهود المتدينين، وحتى أكثر من العديد من المجموعات الدينية الأخرى. ولكن على عكس اليهود كونهم الأشهر في مجال اللوبي في أمريكا وعلى عكس المسيحين الأنجليين، وقوتهم السياسية التي تفوق تلك التي لليهود، لا يوجد تنظيم للملحدين واللاأدريين. وبالتالي ليس لهم أي تأثير. لا عجب في ذلك؛ لأنَّ تنظيم الملحدين سيكون أشبه برعي قطيع من القطط، لأنهم معتادون على التفكير المستقل وعدم الأنصياع لأي نوع من السلطة الفكرية. ولكن بناء عدد كاف من الذين يرغبون بإظهار أنفسهم؛ وبالتالي تشجيع الآخرين على عمل الشيء نفسه سيكون جيدًا بشكل كافٍ كخطوة أولى.. وبرغم أننا لا نستطيع تنظيم قطيع من القطط ولكن وجود عدد كافٍ منهم سيؤدي لضجّة كافية ولن يكون من الممكن إهمالهم...

كلمة «الوهم» في العنوان أرقت بعض علماء الطب النفسي والذين يعتبرونها كلمة تكنيكية بحتة يمنع تناقلها بالألسن. وثلاثة منهم اقترحوا في رسائلهم لي استعمال كلمات جديدة تمامًا كـ «دهم من دين ووهم»

للتعبير عن حالة الوهم الديني. ربما إنَّ كلمةً كهذه سيكتب لها الانتشار ولكنني سأبقى على كلمة وهم في الوقت الحاضر ولهذا فأنا بحاجة لتبرير استعمالي لهذه الكلمة بالذات.

يعرف القاموس كلمة وهم كالآتي» إيمان خاطئ أو مزيف». وللمفاجأة فإنَّ الشرح المصاحب للكلمة هو من مقولة لفليب جونسون: الداروينية هي قصة تحرير الإنسان من الوهم القائل بأنَّ مصيره مرتبط بقوةٍ أعلى منه. هل من الممكن أن يكونَ هذا نفسه فيلبى الذي قاد حملة الاعتقاد بالخالق وقاضى الداروينية في أمريكا؟ بالتأكيد، وهذا الشرح المصاحب الذي أوردته - كما لاحظتم - لهو مجتزئ من المحتوى. آملُ بملاحظة أنني قد وفيت الحق الكامل للفكرة باعترافي هذا؛ لأنني لم أحصل على نفس الحق من بعض المنادين بنظرية الخالق والذين اجتزأوا بعض الجمل من سياقها في أعمالي وبقصد ومعرفة كاملة استعملوها لتضليل الآخرين. وبغضّ النظر عن المعنى الذي قصده جونسون، سأكون سعيدًا بتبنّي العبارة كما هي حرفيًا.. يعرف القاموس المرافق لبرنامج وورد لشركة ميكروسوفت ب «الاعتقاد الخاطئ والمستمر بالفكرة بعنادٍ يواجه الأدلة العكسية التي تنفيها، ما هو إلا حالة نفسية مرضية». القسم الأول من التعرف ينطبق بدقة على حالة الإيمان الديني. وفيما يخص الجزء الخاص بالمرض النفسي فأنا أميل لإتباع روبرت بيرسيغ، كاتب (الزن وفن صيانة الدراجة النارية) في قولة «الجنون صفة لشخص واحد يعاني من وهمٍ ما. أما عندما يعانيه العديدون فذلك هو الدين.

نيّتي في هذا الكتاب، إن القارئ المتدين سينهيه وقد أصبح ملحدًا. يالهذا التفاؤل المتعجرف! من المؤكد أن ما نطلق عليه اسم العقل المؤمن.

(و الذي نشبه بالصوب المصبوغ) عنده مناعة هائلة ضد الحجج والنقاش العقـلاني. وهـذه المقاومـة بنيت عبر سـنين طويلة من التلقين المسـتمر في الطفولـة باسـتعمال طرق نضجـت عبر مئات السـنين (سـواء بالتطور أو بالتصميم لا خلاف هنا). ومن أشد أجهزة المناعة نجاحًا تحذيرات خطرة لتجنـب حتى فتـح كتاب كهذا، والـذي هو بالتأكيد من عمل الشـيطان. ولكننـي أؤمن بأنَّ هناك العديد من العقول النيّرة هنا وهناك: ولأسـباب عديـدة مثـل قلة المكر في التلقين الذين تلقوه كأطفال أو لأي سـببٍ آخرَ، كأن يكـون ذكاؤهم الشـخصي كافيًا لخرق هذا التلقـين. عقول نيّرة لتلك يكفيها القليل من التشجيع للتحرّر من كل نوّاب الدين وتعاليمهم. وعلى أضعـف التقدير، آملُ ألا يقول أحدٌ بعـد قراءة هذا الكتاب «لم أعرف أني أستطيع أن أفعل ذلك».

سـاعدني في التحضير لهذا الكتاب العديد مـن الأصدقاء وأنا ممتنٌّ لهم جميعًـا وليس بالمسـتطاع ذكرهم جميعًـا ولكن وكيل أعـمالي جون بروكمان ومحررا مقالاتي سـالى غامينارا (ترانسـورلد) وأيمـون دولان (هوغوتان ميفلين)، كلاهما قرأ الكتاب بتمعّن وحساسـية وألمعية شـديدة وأعطياني مزيجًـا مفيـدًا جدًا مـن النقـد والنصائح. إيمانهـم العميـق والمتحمّس بهذا الكتـاب زادني الكثير من الشـجاعة. جيليان سـومر سـكايل كانت مثالاً للمحـرر والناسـخ بأفكارهـا واقتراحاتهـا البنّـاءة كـما كانـت بعمقها في التدقيق. ممتن أيضًا لمن سـاهم في تدقيق ونقد المسـوّدات المختلفة، جاري حوين، ج. اندرسون تومسون. ر. إليزابيت كورنويلل. أورسولا غودنو. لاثـا مينـون وأخص كارين أونـز، الناقدة المثالية والتـي معرفتها بتجزيء وتكميل المسوّدات المختلفة يوازي معرفتي بتلك التفاصيل.

يدين هذا الكتاب بأمور والعكس بالعكس للبرنامج الوثائقي التلفزيوني «جذرة الشر» والذي قدمته على القناة الرابعة في كانون الثاني من عام 2006 وأُدين بالأمتنان لكل من شارك في هذا البرنامج، ديبرا كيدو، راسل بارنز، تيم كراغ، آدام بريسكود، لالان كليمنت وهاميش مايكورا على سماحهم لي باستعمال جملٍ استخدمت في البرنامج. أشكر أي دبليو سي والقناة الرابعة. البرنامج حصل على تقدير ممتاز في بريطانيا، وطلبته هيأة البث الأسترالية أيضًا. بقي أن نرى إن كانت أية قناة في التلفزيون الأمريكي ستجرؤ على بثّهِ.

فكرة هذا الكتاب دارت في رأسي لسنوات. وبعض الأفكار التي فيه طرحتها في بعض المحاضرات كما في محاضرتي في هارفارد، وبعضها طرحته في مقالاتٍ صحفية. والذي يقرأ مقالاتي في جريدة التحقيق الحر سيجد بأنَّ بعضَ الجمل مألوفة. وأنا ممتنٌّ لـ «توم فلين»، محرّرِ هذه الصحيفة الجديرة بالإعجاب، كان دافعًا معنويًا لئن أكونَ كاتبًا مستمرًا لعمود الجريدة. وآمل أن أعاود الكتابة بعد انقطاعي لفترة أنهيت بها هذا الكتاب، وبدون شك سأستعمل عمودي لمجابهة ردود الأفعال الناتجة عن الكتاب والرد عليها.

لأسباب مختلفة أدين بالامتنان لكل من دان دانيت، مارك هاوسر، ميشيل ستيرات، سام هاريس، هيلين فيشير، مارغريت داوني، ابن وراق، هيرميون لي، جوليا سويني، دان باركر، جوزفين ولش، يان بيرد وخصوصًا جورج سكالز. وفي أيامنا هذه لا يكتمل كتابٌ إلا إذا كان نواةً لموقع حي على الإنترنت وموضع نقاش في منتدى إلكتروني لامتداد الأفكار فيه وتبادلها من ردود أفعال، نقاشات، أسئلة وإجابات ولا نعرف

مـا يأتي به المسـتقبل. آمل أن يقوم موقع ريتشـارد داوكينـز للعلم والمنطق بملء هذا الدور. وأنا ممتنٌ بشـدة لجـوش تيمونين لعمله الفني والمحترف والجهد الذي بذله لتحقيق ذلك. وإليكم العنوان...

http: / /www.richardawkins.net

قبـل كل شيء أشـكر زوجتـي ليـلا وارد، التـي كانت عامـل أقناعي الأكـبر في معظـم حـالات التردد والشـك، وليـس فقط بالدعـم المعنوي والاقتراحـات المفيـدة ولكن بقـراءة الكتاب بصوت عالٍ على مسـمعي في مرحلتـين مختلفتين من تأليفه، والذي سـاعدني لأفهم وقعه على القرّاء الآخريـن. أنصـح بهـذا التكنيك لـكل الكتّـاب، ولكن عـليّ أن أقول أنه للحصـول على أفضـل النتائج، على القـارئ أن يكون ممثـلاً محترفًا بأذنٍ مجهّزة لاستيعاب موسيقا اللغة..

الفصل الأول

غيرُ مؤمنٍ بعُمق

«لا أحاول تخيّلَ الإلهِ الشخصي، يكفيني الدهشة من هذا البناءِ المُحكمِ للكون. والانبهار به على قدر ما تسمح به حواسنا».

- ألبرت أينشتاين

احترام مستحق:

الطفل منكفئٌ على العشـب، وذقنه بين راحتي يديه. وفجأة يجد نفسه ممتلئًا بالدهشـة لإحساسـه العميق بالجذور المتشـابكة، غابـةٌ من الأحياء الدقيقة، عالمٌ آخرُ مكوّن من نمل وخنافس وبرغم عدم معرفته بالتفاصيل وقتها، مليارات من بكتيريا التربة يساندون بعضهم لخلق العالم المجهري.

فجـأة يكـبر العالم المجهـري للأعشـاب ويتوحد مع الكـون، ويسرح الطفـل بأفـكاره بعيدًا في ذلـك الكون. فـسرَّ الطفلُ بالمصطلحـات دينية وقادته ليكون رجل دين. وأصبح القسّيس الإنجيلي في مدرستنا. أعجبت بـه كثـيرًا. ورجال دين كرماء كهذا الرجل هم البرهان الأكيد بأني لم أرغم على أن أكون متدينًا أبدًا.

كان مـن الممكـن في زمـنٍ ومكان آخريـن أن أكون ذلـك الطفل ينظر للنجوم ويعجب من برج الجوزاء وكاسـيوبيا وأورسا الكبير وتدمع عيناه من الموسـيقا الكونية غير المسـموعة لمجرة درب التبانة، مدفوعًا بالرائحة العطرة لأزهار الحدائق الإفريقية.

ليـس سـهلاً الإجابة عن السـؤال لمـاذا تدفعنـي نفس المشـاعر لاتجاهٍ غير الاتجاه الذى دفعت به قسـيس مدرسـتي. وشائعة جدًا ردود الأفعال النفسـية والغامضة نحو الكون بين العلماء والمفكرين. وليس لها أية علاقة بالإيـمان بالغيـب. ولم يعرف القسـيس في صبـاه (ولا أنا أيضًا) بالأسـطر الأخـيرة والشـاعرية جدًا من كتـاب أصل الأنواع المقطع الشـهير الملقب «البنـك المشـترك»، مـع الطيـور تشـدو في الغابـات، ومع رفرقـة أجنحة الحشرات فوقها، والدود الذي يـسرح زاحفًا في أرضها الرطبة. إلخ». لو عرف بهذا الأسطر وقتها لشعر أنها تنطبق تمامًا على ما يفكر فيه وربما قاده

ذلك ليصف في طرف داروين ووجهة نظره عن أن كل شيء هو ناتج عن قوانين تطبق حولنا.

هكـذا، من الحـروب الطبيعية، مـن المجاعات والموت، ومـن الكائنات الأسـمى والقابلة للتكاثـر والتي هي نحن ويتبعنا بذلـك الحيوانات العليا. هنالـك الكثـير من العظمـة في هذه الرؤيا للحيـاة، بكل أنـواع القوى فيها، وتشـكلها المتعدد. وبينما يستطرد الكوكب في الدوران تماشيًا مع قانون قوى الجاذبيـة، كانـت تلك القوى الأخـرى تعمل حثيثًا. وهكذا، بدأ من أبسـط الأشكال البدائية، تطورت إعداد لا منتهية من الصور والأشكال الرائعة.

كتب كارل ساغان في كتابه النقطة الزرقاء الفاتحة: أعجب أنه لم يحصل قـط أن نظـر دين ما إلى العلم واسـتنتج أن» ذلك أفضل ممـا ظننا! الكون أكبر وأعظم كثيرًا، بل وأدهى وأشـد أناقـة بكثير مما أخبرنا عنه الأنبياء؟» وبدلاً عن ذلك يقولون: لا، إلهي هو ذلك الإله الصغير وأريد له أن يظل كذلك.. لو أنَّ دينًا ما، قديمًا أو حديثًا قد أصر بشـدة على الدهشة بعظمة الكون كما كشفه العلم الحديث لحصل ربما على احتياطٍ كبير من التقديس وبدون أية ضرورة لوجود أي نوع من الإيمان التقليدي المتعارف عليه.

كل نهايـات كتب سـاغان تصيب نهايات الأعصاب وتسـبب دهشـة متعاليـة كانـت حكـرًا علـى الديـن في القـرون الماضيـة. كتبـي لهـا نفس التأثير الطموح. وبالنتيجة أسـمع البعـض يصفني بالتدين. كتبت إحدى الطالبـات الأمريكيـات عـن رأي بروفيسـور لها عندما سـألته عني: «من المؤكـد أن علمـه لا يتطابـق مع الديـن. ولكنه مشـمع بنشـوةٍ عارمةٍ عن الطبيعـة والكون. وهـذا تديّن بالنسـبة لي. ولكن هل الديـن، هو الكلمة المناسبة؟ لا أظن ذلك».

هـذه النقطـة تكلّم عنهـا جامل جائـزة نوبـل للفيزياء الملحد سـتيفن واينـبرغ في أحلام النظرية النهائية. يحمل البعض رؤيا عريضة ومرنة جدًا عن الله ومن المحتم أنهم سـيجدون الإله أينما بحثوا. نُسـمعهم أقوالاً مثل «الله هو النهائي» أو الله هو طبيعتنا المثلى أو «الله هو الكون». بدون شك، يمكـن أن نعطي كلمـة الله، كأية كلمـة أخرى، أي معنى نريـده. وعندما تقول أنَّ «الله طاقة» فستجده في مصباح الفحم.

واينـبرغ على حق بدون شـك، وحتى لا تكون الكلمـة «الله» عديمة المعنـى وبالتالي الفائدة؛ علينا أن نضعَ لها تعريفًا عامًا يفهمه الجميع: كلمة تـدل على خالـق من عالم مـا وراء الطبيعة و«من المناسـب والمفروض أن نعبده».

الكثير من اللغط والحيرة سـببها الفشـل في التمييز بين ما نسميه الدين الأينشـتيني مـن الدين الغيبي. اسـتعمال أينشـتين لكلمـة الله (و هو ليس الملحد الوحيد الذي فعل ذلك) بتضرّع، كان وما يزال سبب لسوء الفهم من قبـل العديد من الغيبيين المتدينين والمتلهفين لسـوء الفهـم ليسـتطيعوا الادّعـاء بـأن ذلك العالم اللامع هـو واحد منهم. كذلـك النهاية الدرامية (هل كانت مؤذية أيضًا؟) لكتاب ستيفن هاوكينغ «تاريخ موجز للزمن». وبذلك نعرف مكنونات تفكير الإله يسـاء فهما بشـكل ملحوظ. وسـبب ذلـك الاعتقـاد الخاطـئ طبعًا عنـد البعض بـأن هاوكينج رجـل متدين. عالمة البيولوجيا الخلوية أرسـولا غودنوف، في كتابها المقدسـات في أعماق الطبيعـة، تبـدو أكثـر تدينًا مـن هاوكينغ وأينشـتاين. إنها تحـب الكنائس والمسـاجد والمعابـد، وبعض العبـارات في كتبها تبدو وكأنها تتوسـل لأنَّ تتجـزأ من المحتـوى العام وتسـتخدمه كذخـيرة للمتدينـي الغيبيين. بل

تفعل هي أكثر من ذلك بأن تدعو نفسها «متدينة نصيرة للطبيعية» ولكن قراءة دقيقة لكتبها تكشف بأنها في الحقيقة ملحدة قوية مثلي.

نصير الطبيعة كلمة تحمل عدة معاني. وبالنسبة لي فإني أناشد بطلَ طفولتي، دكتور دوليتل للكاتب هيف لوفتينغ (والذي له تأثير أكثر من ملموس في موضوع الفيلسوف الطبيعي لكلبِ الصيد التي كتبت عنه). لا تزال كلمة طبيعي تعني ما تعنيه في القرنين الماضيين: دارس للطبيعة. ومنذ عهد جلبرت وايت وفي هذا السياق كان معظم الطبيعيين رجال دين. كان من المقدر على داروين نفسه أن يلتحق بالكنيسة، آملاً منه بأنَّ حياة الرغد الريفية سوف تعطيه الإمكانية لمتابعة شغفه بالخنافس. ولكن الفلاسفة يستعملون كلمة طبيعي بطريقة مختلفة تمامًا كمضاد لكلمة «ما وراء الطبيعي».

جوليان باغيني يشرح في الإلحاد: مقدمة صغيرة معنى التزام الملحد بالطبيعة: «ما يؤمن به غالبية الملحدون هو أنه على الرغم من أن الكون مادي بحت؛ فإن العقل والجمال والعواطف والقيم الإخلاقية، وباختصار كل ما في سلسلة الظواهر التي تعطى الحياة الإنسانية قيمتها، قد انبثقت منه.

إنَّ عواطفَ وأفكارَ الإنسان تظهر من خلال عمليات متشابكة شديدة التعقيد في المخ. والملحد في هذه الحالة بنظر الفيلسوف الطبيعي هو شخص لا يؤمن بأنَّ هناك شيئًا ما وراء العالم الطبيعي الفيزيائي وليس هناك من خالق مفكّر ما وراء الطبيعي يراقب من وراء الكون، ليس هناك روح تبقى بعد بلا جسد ولا معجزات، عدا عن بعض الظواهر الطبيعية التي لم نفهمها بعد. وستتمكن من المستقبل من تقديم تفسيرات لبعض

الظواهر غير المفهومة بشكل كامل حاليًا باستخدام القوانين الطبيعية، كما حصل في الماضي عند اكتشاف سبب قوس قزح، ونأمل ألا يقلل ذلك من روعتها في تفكيرنا.

عندما نفحص بعمق إيمان العلماء الكبار في أيامنا والذين يبدون كمتدينين في بعض الأحيان، نرى بأنهم ليسوا كذلك. وهذا بالتأكيد صحيح في حالة أينشتاين وهام كينغ عالم الفضاء المعاصر ورئيس الجمعية الملكية الحالي مارتن ريس، قال لي بأنه يذهب للكنسية كإنجيلي كافر فقط. بسبب ما أطلق عليه تسمية الولاء القبلي. لا يؤمن بالمعتقدات ويستفزه الإحساس الشاعري تجاه الكون ككل الطبيعيين الذين نوّهت عنهم. وفي معرض المناقشات التلفزيونية تحدّيت صديقي طبيب التوليد روبرت وينستون، أحد أركان الجالية اليهودية في إنكلترا، بأن يهوديته هي جزء من شخصيته وأنه لا يؤمن بأي شيء ما وراء طبيعي. وكان على قاب قوسين أو أدنى من الاعتراف بذلك ولكن تغلب عليه خجله في النهاية (الحق يقال، كان من المفترضِ أن يجريَ هو المقابلةَ معي وليس العكس). عندما ضغطتُ عليه، قال بأنه وجدَ أنَّ الالتزام باليهودية ساعده على تنظيم حياته وجعلها جيدة بشكل أو بآخر. ربما كان ذلك صحيحًا ولكن. بالطبع ليس لذلك أي صلة بصحة مقولة الماورائيات. هناك العديدين من اللاّمعين الملحدين والذين يلقبون أنفسهم باليهود ويؤدون الطقوس اليهودية، ربما بسبب الولاء لتقاليد قديمة أو لأقارب قتلوا، ولكن أيضًا بسبب الحيرة والسعي لدمغِ اللائحة «متديّن» على العلامة المميّز المستحق للاحترام الأبدي ألبرت أينشتاين. ربما أنهم لا يؤمنون بالإله ولكن، هنا استعير عبارة دان دينيت، «يؤمنون بالإيمان».

إحدى أشـهر العبارات التي نقلت عن أينشـتاين «علْمٌ بدون دين هو علمٌ أعرج، ودينٌ بدونِ علمٍ هو دينٌ أعمى» ولكنه قال أيضًا:

ما قرأتموه عن موضوع تديني هو كذب بالطبع، كذبةٌ تكررت بشـكلٍ مدروس. أنا لا أؤمن بالإله الشخصي ولم أنكر ذلك أبدًا بل على العكس، فقد عبّرت عن الموضوعِ بشكلٍ واضح. لو كان في داخلي شيء من الممكن دعوتـه بالديـن فهو الإعجـاب غير المحدود ببنـاء الكون بقـدر ما أمكننا الكشف عنه بالعلم حتى الآن.

هـل يناقـض أينشـتاين نفسـه؟ بـأن يعطينا كلمات نسـتطيع بهـا دعم الطرفين النقيضين؟ بالطبع لا. أينشـتاين يعني بكلمة «الدين» شيئًا مختلفًا تمامًـا عن المعنـى المتعارف عليه. وسأسـهب في توضيـح التميّز بين الدين الغيبـي والدين الأينشـتيني، ضع في الاعتبار دائمًا أني ألقب الآلهة الغيبية بالوهميـة.. هاكَ بعضَ العباراتِ المنقولة عن أينشـتاين، لتعطينا فكرة عن نوعية الدين الأينشتيني...

أنـا متديّـنٌ بالكفـر. وهذا بشـكلٍ ما نوعٌ جديـدٌ من الدين. لمْ أنسـب للطبيعةِ هدفًا أو دورًا، أو أي شيءٍ ممكنٍ يمكمن فهمه بشـكل مشـبوه. ما أراه في الطبيعـة هو بناء مدهش ونحن نفهمه بشـكل ناقص على أحسـن الأحوال، هذا ما يملأ المفكّر. التواضع هذا بشكلٍ عام شعورُ تديّنٍ بدون أن يكـونَ لـه علاقة بالروحانيات. فكرة الإله الشـخصي فكرة غريبة تمامًا عني، بل وأعتبرها ساذجة أيضًا.

و منـذ وفاتـهِ والمتدينـون بالطبـع يحاولـون الادّعـاء بأنه واحـدٌ منهم وبأعـدادٍ متزايـدة. ولكـنَّ المتدينـين المعاصرين لـه كانت لهـم وجهة نظر

مختلفة بشـكل كبير. في عام 1940 كتب أينشـتاين مقـالاً ليبرر مقولته «لا أؤمـن بالإلـه الشـخصي» تلك المقالـة وغيرها أثـارت سـيلاً عاصفًا من الرسائل من المتدينين الآرثذوسكيين. والكثير منهم لَمّحَ لأصلِهِ اليهودي. المقاطـع التالية مأخوذة من كتاب أينشـتاين والديـن (والذي هو مرجعي الأساسي عن المقولات المنقولة عن أينشتاين في موضوع الدين).

قال قمص الروم الكاثوليكيين في مدينة كنساس: من المحزن أن نرى رجلاً يعود أصله لقومِ العهدِ القديمِ وتعاليمه، ينفي التعليماتِ العظيمةَ لذويه.

قدّيس آخر اسـتغلَّ الموقف: ليس هناك من إله شـخصي!.. أينشتين لا يعـي ما يقـول. وهو مخطئ كليًا. البعض يعتقد بأنه يحق لهم إبداء الرأي في كلِّ شيءٍ فقـط لأنهـم قد وصلوا لدرجةٍ عُليا في أحـدِ الفروع العلمية. مع أن الديـن هو أحد هذه الفروع، وإن من يدعي الخبرة به فلن تفوت بدون تسـاؤل. القديـس لا ينـوّه عن خبير الخرافـات وخبرته في شـكل أجنحة الجنيّـة هنـا. كلا، القديس والقمـص ظنًا بأن كون أينشـتاين غير متمرّس باللاهوت يعني أنه فهم طبيعة الإله بشكل خاطئ. والحقيقة عكس ذلك تمامًا، أينشتاين فهم تمامًا ماذا كان ينفي.

أحـد المحامين الكاثوليكيين الأمريكيين، والذي يعمل لصالح منظمة التحالف الدولي كتب لأنشتاين:

حزيـنٌ جـدًا لتصريحك، الذي تسـخرُ فيـه من فكرة الإله الشـخصي. وفي خلالِ العشر سـنين الأخيرة لم تكن هناك ملامةٌ من طرد هتلر لليهود كتصريحك هذا. أعترف بحقك في حرية التعبير، ورغم ذلك أعدُّ تصريحك أعظم مصدرٍ للنزاع في أمريكا.

راباي نيويورك صرح بما يأتي: «أنشتاين بلا شك عالم حاذق، ولكن وجهة نظره الدينية تناقض تمامًا الدين اليهودي».

و لكن؟ ولكن؟ لماذا ليست وفقط لتصبح الجملة، عالم حاذق، ووجهة نظره الدينية.. المترجم...

عميد جمعية التاريخيين في نيوجرسي كتب رسالة إدانة صريحة لأينشتاين وفيها أكثر مما يمكن، أن تكون فضحيةً عن نقاطِ الضعف للعقل الديني، وتستحق القراءة مرتين على الأقل:

نحترم علمك د. أينشتاين، ولكن يبدو أنَّ هناك شيئًا ما قد فاتك تعلمه: ذلك بأنَّ الله روح ولا يمكنك رؤيته بالمرصد الفلكي أو المجهر. تمامًا كما لن تجد أفكارًا ومشاعرَ من تحليل المخ. وكما يعرف الجميع فإنَّ الدين مبنيٌّ على الإيمان الغيبي وليس على المعرفة. كل شخص مفكّر قد مر بفترة هاجمته فيها شكوك في الدين. وإيماني أنا بالذات قد اهتزَّ في العديد من المرات. ولكنني لم أجهر لأحد بانحرافاتي لسببين:

1 – خوفي من أنَّ مجرد الاقتراح يمكنه أن يدمّر حياة وأمل إنسانٍ ما.

2 – لإنني أتفق تمامًا مع الكاتب الذي قال: «هناك خيطٌ من الخُبثِ في أيِّ شخص من الممكن أن يدمّرَ إيمانَ شخصٍ آخر»... وآمل يا د. أينشتاين أنه قد أُسيء فهمك وأنك سوف تقول شيئًا لإرضاء الشعب الأمريكي الذي يسرّه فعلاً تقديرك وتشريفك بينهم.

ما أسوأ ما تكشفه هذه الرسالة! كل جملة فيها تقطر بالجبن الفكري والإخلاقي. الوطء أقل ولكنَّ الصدمةَ أكبر عندما تكون رسالةٍ من مؤسسِ جميعةَ معبدِ الجمجمة في أوكلاهوما...

بروفيسـور أينشـتاين، أنا أؤمن بأنَّ كلَّ مسـيحيٍّ في الولايات المتحدة سـيجبيك، «لن نترك إيماننا بإلهنا وابنه المسـيح عيسى، وندعوك جميعًا بأن تعودَ من حيث أتيت إذا لم تؤمن بإلهِ هذه الأمة». لقد باركت إسرائيل بكل ما في طاقتي، والآن تأتي أنت وبجملةٍ واحدةٍ من لسـانك الكافر لتسـبب أذى كبيرًا لشـعبك وأكبر من أن يستسـطيعَ المحبون لإسرائيل والسـاعين لإخماد المعاداة للسامية تحمله في أرضنا.

بروفيسـور أينشـتاين: كل المسيحين الأمريكيين سـيجيبونك مباشرة، خـذ نظريتك المجنونة والخاطئـة عن التطوّر وارحل بها عائـدًا لألمانيا من حيـث أتيـت، وألا فعليك أن تتوقـف عن محاولة هز إيمان الشـعب الذي رحب بك عندما أجبرت على الهروب من بلدك».

الشيء الوحيد الذي أصاب به المؤمنون كان بأنَّ أينشتاين ليس واحدًا منهم. كان سـاخطًا دائمًا على الأقاويل التـي تحاول وصمه بالإيمان. فهل كان إلوهيًـا؟ كـما كان فولتير وديدرو؟ أم كان خلوقيًا، كما كان سـبينوزا، والذي كان معجبًا بفلسـفتهِ أشد الإعجاب: أنا أؤمن بإله سبينوزا والذي يكشـف عن نفسـهِ بالتآلف المرتب لكل الموجـودات، وليس بالإله الذي يشغل نفسه بمصير البشر وتصرفاتهم؟

لنتذكـرَ التعريفات مجددًا: المؤمن هو الذي يفكر بأنَّ هناك خالقًا ذكيًا، يشرف على ما يحصل ويتدخل في أحداث ما خَلَق بالإساس. وفي العديد من الأنظمة الإلوهية، فالإله يتدخل بشكل حميم في أمور البشر. يستجيب للصلـوات ويغفـر ويعاقـب الأخطـاء. ويتدخـل في العـالم بالأعاجيب، ويحكم على سوء وحسن الأفعال، ويعلم متى نفعّلهم (ومتى نفكر بفعله أيضًا). الإلوهي يؤمن أيضًا بالخالق الذكي، ولكن نشاطاته كانت بحدود

صناعة وضبط قوانين الكون وصياغتها. إله لا يتدخل بعد ذلك في شيء وبالتأكيد ليس لديه أي اهتمام بأمورِ الإنسان. الخلوقيون لا يؤمنون بالإله الغيبي بأي شكل، ويستعملون كلمة الله للدلالة على الطبيعة، أو الكون، أو الأحكام والقوانين التي تعملان بها. الإلوهيون يختلفون عن المؤمنين بأنَّ إلههم لا يستجيب للصلوات، وليس له اهتمام بذنوبهم أو اعترافاتهم، لا يقرأ الأفكار ولا يتدخل بمعجزاتِهِ النزوية. الإلهي يختلف عن الخلوقي بأنَّ إله الإلوهي هو نوع من الوجود الكوني الذكي، وقصَدَ ما فعل، بعكس الخلقي الذي يطلق التسمية كبديل لقوانين الكون. الخلوقيون صنيعة الملحدين، والإلهيون نتيجة من نتائج المؤمنين..

لدينا الكثير مما يدل على أنَّ أينشتاين كان خلوقيًا وليس ألوهيًا مثل «الإله خفي ولكنه ليس خبيثًا» أو «الإله لا يلعب النرد» أو «هل كان لله خيارٌ في خلق الكون؟» وبالتأكيد لم يكن مؤمنًا. يمكن تفسير الله لا يلعبَ النرد بالعشوائية ليس من صميم الأشياء. وهل كان لله خيارٌ في خلق الكون يمكن تفسيرها بـ هل هناك إمكانية لتكون بداية الكون مختلفة عن التي حصلت؟ أينشتاين استعمل كلمة الله بشكلٍ مجازي ورمزي، وهكذا فعل ستفين هوكينج والكثيرون من الفيزيائيين الذين عبّروا بلغةِ الدين المَجازية.

باوْل دافيس وفي كتابهِ «عقل الإله» يبدو بشكل ما بين خلوقية أنشتاين وإلوهية غامضة. وكتابة هذا أكسبه جائزة تمبلتون (مبلغ كبير من المال يُدفع سنويًا من منظمة تمبلتون، عادة لعالم مستعد لئن يقول أشياءَ حسنةً عن الدين).

دعني أُلخص دين أينشتاين ببعض ما قاله هو نفسه: « الإحساس بأن خلف ما نعرف ونحس به يوجد شيء ما لا نستطيع إدراكه وهذا

الشيء يمسّنا بجمالهِ وسموّه بطريقة غير مباشرة وبشكل يكاد يكون غير محسوس، هذا شعورٌ ديني. وأنا بهذا المعنى متديّن. حسنًا.. بهذا المعنى فأنا متديّن أيضًا مع التحفّظ على عبارة «لا يمكننا إدراكه» والتي لا يجب أن تعني لن يمكننا أدركه للأبد. ولكنني لا أفضّل نعت نفسي بالتديّن بأي شكل لأنَّ ذلك سيؤدي لسوء الفهم. حيث أنَّ الدين يعني للغالبية المطلقة «الدين الغيبي». كارل ساغان وضعها بطريقة جيدة: «لو عنينا بكلمة الإله مجموعة القوانين التي تحكم الكون، فهذا الإله موجود بالتأكيد، ولكنه إله غير مرضي عاطفيًا.. لأنه من غير المنطقي أن تصلّي وتطلب غفران الخطايا من قانون الجاذبية».

المدهش هنا، إنَّ المعنى الذي نوّه له ساغان، كان بمثابة إنذار في الماضي عام 1940 عندما نوّه إليه البروفيسور الموقر د. فالتون شين، المدرس في الكلية الكاثوليكية في أمريكا، كجزء من هجومه الشرس في الرد على مقولة الإله الشخصي لأنشتاين. شين سال بسخرية فيما إذا كان هناك من يريد وهب حياته لمجرة درب التبانة. وظن بأنه في ذلك يتناقض مقولة أنشتاين ولكن هذا في الحقيقة دعمٌ لها، حيث أنه يستطرد قائلاً:

«هناك خطأ واحد في دينهِ الكوني: حرف زائد ولو رفعناه لأصبح الدين الكوميدي (لعب بالألفاظ الإنكليزية.. المترجم). في الحقيقة أنه لا شيء كوميدي في معتقدات أنشتاين. ولكن وعلى كافة الأحوال آمل أن يتوقّفَ الفيزيائيون عن استعمال كلمة الله بمعناها المجازي. الإله المجازي للخلوقين والذي هو بعيد بسنين ضوئية عن معجزاتِ وتدخّلِ حياة الإنسان فيه، وعقابه على أخطائه أو الاستجابة لصلواته وعن الإله الأنجيلي للقديسين والموالي وراباييات اليهود، وكل ما يعني به في

اللغـة المحكيـة. إنَّ خلـطَ الاثنين معًـا في رأيي هو غشٌّ فكـريٌّ من أعلى المستويات».

احترامٌ غيرُ مستحق:

عنـوان كتـابي «وهم الإلـه» لا يرمز لإله أنشـتاين أو أية آلهـة من التي نـوّه إليهـا العلماء في الفصل السـابق. ولهذا أردت أن أوضـح نقطة الدين الأنشـتايني ووضعهـا جانبًا في البدايـة: لأنه من المثبـت أنَّ نقطةً كهذه لها القدرة على بعث الحيرة. وفي باقي الكتاب سأتكلم فقط عن الآلهة الغيبية الماورائية، وأشـهرها يهـوه إله العهد القديم. وسـأعود إليه لاحقًا. ولكن قبـل أن أترك هـذا الفصل التمهيـدي أرغب بأن أناقش نقطـةً لئلا تكونَ سـببًا لإرباك القـارئ لاحقًا. وهـذه النقطةُ هي السـلوك. مـن الوارد أن يشـعر القرّاءُ المتديّنون بالإهانة لما سـأقوله وسـيجدون ربما أنه ليس هناك كفاية من الاحترام لمعتقداتهم أو معتقدات من يحترمونهم. سيكون مخجلاً لو أن ذلك سيسبب منعهم من الاستمرار في القراءة، ولذلك أريد أن أنهى الأمرَ من البداية.

من المسـلمات، والتي يقبل بها الجميع تقريبًا في مجتمعنا الإنسـاني وغير المتديّنين أيضًا بأنَّ الإيمان الديني هو فكرةٌ هشّةٌ وضعيفةٌ أمام النقد ويجب أحاطتها بجدار سـميك من الإحترام، ونوع الإحترام هذا يختلف عن أي مثيـل لـه في أي موضـوع آخر. لقد عـبر دوغلاس أدام عـن ذلك بدقة في خطاب في كامبريدج قبل وفاته بفترة قصيرة:

هناك أفكار في قالب الدين تسـمى بالمقدسـة أو ما شابه. وذلك يعني: «إليك هذه الفكرة أو الملاحظة والتي لا تسـتطيع أن تقول أي شيء سلبي

حيالها، أي شيء مهما كان.. لم لا؟ فقط هكذا....! عندما يصوت أحدهم لحزب لا تتفق أنت مع أفكاره فبأمكانك مناقشة ذلك قدر ما تشاء، كل لديه فكرة يطرحها بدون أن يسبب الحزن لأحد. عندما يفكر أحد ما أن الضرائب يجب أن تخفَض أو ترفع فإنك حر في مناقشتِهِ بذلك. ولكن من جهةٍ أخرى وعندما يقول أحدٌ ما: «أنا لم أشعل مصباح الكهرباء يوم السبت. تقول: وأنا أحترم ذلك.

لماذا من المقبول جدًا أن ندعم حزب العمل أو حزب المحافظين، الجمهوريين أو الديموقراطيين، هذا المخطط الاقتصادي أو ذاك، ماكنتوش أو ويندوز ولكن عندما نصل للتساؤل عن أصل الكون، عن من خلقه.. لا.. هذا مقدّس؟ لقد اعتدنا عدم مناقشة الأفكار الدينية ولكن من المدهشِ أن نرى كميّةَ الغضب التي سبّبها ريتشار (الكاتب عندما ناقش الموضوع! الكل أصبح مسعورًا تجاهه)؛ لأنك لا تستطيع قول هذه الأشياء. ولكن لو نظرت للموضوع بتعقّل فلن ترى من سبب يمنع أفكارًا كهذه من أن تكون موضوعًا للنقاش العام أقل أو أكثر من غيرها، عدا اتفاقنا على أن شيئًا كهذا لا يجب فعله.

إليكم هذا المثال عن غرورِ مجتمعنا باحترام الدين، مثال مهم فعلاً. التديّن هو الطريق الأسهل لحصول على الإعفاء من الخدمة للمستكفين في زمنِ الحرب بدون شك. بإمكانك أن تكون فيلسوفًا لامعًا بأطروحة دكتوراه، نالت العديد من الجوائز وتشرح فيها شرور الحرب، وعلى الرغم من ذلك ستواجه وقتًا عصيبًا من لجنةِ الخدمة الإلزامية عند تقييم طلبلك للاستنكاف. ولكن لو قلت بأنَّ أحد أو كلا أبويك ينتميان لجمعية الكواكريين «جميعة مسيحية مناهضة للعنف أنشئت في القرن السابع

عشر» لأعفيت على الفور، ولن يكون هنالك أي اعتبار لعدم كفاءتك أو معرفتك بحججِ الدفاع السلبي ولا حتى طبعًا بالنظرية الكواركية نفسها.

وعلى النقيضِ من ذلك، هناك تردّد جبانٌ من وسمِ فصائل متقاتلة بأسماء دينية. في شمال إيرلندا يدعَوْن الكاثوليك والبروتستانت أو القوميون والموالون. نقحت الكلمة دينًا بشكلٍ ما لتعني المجموعة كما هو الحال في كل الحروب الداخلية. العراق، وبنتيجة الغزو الأمريكي الإنكليزي في 2003 تحلل إلى مجموعات ونشأتِ الحربُ الأهلية بين السنة والشيعة. وهذا أوضح الأمثلة على النزاع الديني بالرغم من ذلك فإنَّ جريدة الأندبندنت في عددها الصادر في 20 أيار 2006 وبالخط العريض وفي الصفحة الأولى والموضوع الرئيس وصفت ما يحصل بـ «التطهير العرقي». أرادوا تلطيف الموضوع بإحلال كلمة عرقي، بينما ما نراه في العراق هو تطهيرٌ دينيٌّ واضح، التلطيف لهذه الكلمة بدأ أصلاً في التطهير العرقي الذي وصمت به الحربُ في يوغوسلافيا جدلاً لتعني تطهيرًا دينيًا أطرافه الصرب الآرْثوْذوْكْس، الكروات الكاثوليك، والبوْسْنِيّون المسلمون.

لقد نوهت سابقًا لنقطةِ الدعم الذي يلقيه الدينُ في مناقشاتٍ عامة عن الأخلاقِ في الأوساط الإعلامية والحكومية. عند نشوء أي خلاف على موضوع له علاقة بأخلاقيات الجنس أو الإنجاب فإنه من المؤكّد سيكون أحد قادة الفصائل الدينية في لجنة النظر في هذا الخلاف، أو في أي برنامج يناقش هذا الموضوع في الراديو أو التلفزيون. أنا لا أقترح هنا أن نكمّمَ أفواه هؤلاء أو نستبعد وجهة نظرهم من المجتمع. ولكن أسأل، لماذا يطرق مجتمعنا باب هؤلاء ويعدّون أن لديهم الخبرة

في مواضيع كهذه، بل ويضع آراءهم جنبًا إلى جنب مع آراء فلاسفة ومحامين وأطباء؟

هاكم مثالاً آخر على الدعم الذي يلقاه الدين. في 21 شباط 2006 وفي المحكمة في الولايات المتحدة صدر الحكم باستثناء أعضاء الكنيسة في نيو مكسيكو من قانون يسري على الآخرين جميعًا، ضد تناول عقار للهلوسة. أعضاء هيأة أسبريتا بيبفسينته أونياو دو فيجيتال يعتقدون بأنهم يفهموان الله فقط عندما يتناولون نوعًا من شاي الهواسكا، والذي يحتوى على عقار الهلوسة غير القانوني والممنوع استخدامه المسمّى ديميثيلتريبتامين. لنلاحظ بأنه من الكافي أن يعتقدوا بأن المخدّر يؤدي لتحسين تفهمهم، وليس عليهم أن يقدموا أي أدلة على ذلك. وعلى العكس من ذلك هنالك العديد من الإثباتات على أنَّ الحشيشَ يخفّفُ من الألم ومعاناة المصابين بالسرطان، الخاضعين للمعالجة الكيمياوية. ولكن المحكمة العليا حكمت في 2005 بأن كل الذين يستعملون الحشيش لأغراض صحية معرضون للاتهام والملاحقة القانونية (وحتى في الولايات القليلة التي تسمح قوانينها المحلية بهذه الممارسة) الدين، كالعادة هو الفائز.

تخيّلْ أعضاءَ مجموعةٍ من المشتغلين بالفن يدعون في محكمةٍ ما بأنهم بحاجة لعقارٍ مهلوِس ليحسنَ فهمهم لِلَوحاتِ الانطباعيين أو السرياليين. ولكن عندما تطلب الكنيسة ذلك فإنها تلقي الدعم من أعلى هيأة قانونية في الدولة. هذا مثال على القوة السحرية للدين.

منذ سبعة عشر عامًا، كنتُ أحد أعضاء لجنة مكوَّنة من 36 كاتبًا وفنانًا في مجلة نيوستايسمان بكتابةِ مقال لدعم الكاتب المميز سلمان رشدي، والذي كان محكومًا بهدر الدم لكتابته رواية. استبد بي الغضب وقتها من

التعاطف ضد إيذاء شعور المسلمين والتهجّم الذي أبداه بعض رجالات المسيحية وحتى بعض العلمانيين واستنتجت الخلاصة الآتية:

لو إنَّ دعاةَ التمييز العنصري استعملوا ذكاءهم وادعوا بصدقٍ كالعادة بأنَّ خلطَ الأجناس منافي لديانتهم، لانسحبَ قسمٌ كبيرٌ من معارضيهم على رؤوس أصابعهم. والادّعاء بأن هذا التشبيه في غير محله لن يفيد هنا، فالعنصريون لا يملكون تفسيرًا منطقيًا لنظريتهم. وموضوع الإيمان الديني وقوته وانتصاراته لا يعتمد على أي تفسير منطقي. ولكن من المتوقع منا - نحن الآخرين - أن نبرّرَ إجحافنا بحقه. ولو سألنا أحد المتدينين أن يبرر تديّنه لاعتُبرنا مخالفين لحرية الأديان.

لم أتوقعْ وقتها بأنَّ شيئًا مماثلاً سيحصل في القرن الواحد والعشرين. لوس أنجلوس تايم 10 نيسان 2006 كتبت تقريرًا عن إعداد من مجموعات مسيحية في البعض من المدن الجامعية في الولايات المتحدة أقاموا دعواتٍ قضائية ضد جامعاتهم؛ لأنَّ الجامعات فرضت قوانين عدم التمييز فيها، مما يتضمن منع مضايقة المثليين أو التحامل عليهم.

و إليكم مثال آخر، جيمس نيكسون2004 صبي في الثانية عشرة من العمر من أوهايو، ربح بواسطة القضاءِ الحقَّ في ارتداءِ قميص «تي شرت» يحمل الكلمات التالية المثلية ذنب، الإسلام كذبة، الإجهاض جريمة. بعض الأشياء فيها أسود وأبيض فقط. المدرسة طلبت منه ألّا يلبسَ هذا القميصَ، فرفع أهله دعوى قضائية على المدرسة. ربما سيكون للأهل الحق لو بنَوا قضيتهم على البند الأول من الدستور والذي يعطي حق حرية الرأي. ولكنهم لا يستطيعون ذلك طبعًا لأنَّ حرية الرأي لا تعني الحق في خطابات الكراهية. ولكن بمجرد أن تبرهن أنَّ الكراهية دينية

فلـن تبقى كراهية. وبالتالي فإنَّ محامي العائلة بدلاً من الاعتماد على حرية الـرأي في بنـاء قضيته، اعتمد على حرية الأديـان. والنصر في هذه القضية كان مدعومًـا من جمعية الأصدقاء المدافعين في أريزونا، وهي جمعية هدفها «الضغط لربح المعارك القانونية لحرية الأديان».

ريك سـكاربورو الموقـر، وبدعمه لموجـة القضايا المسـيحية القضائية وصـل لحـد المطالبة باعتبار الدين سـببًا كافيًا لممارسـةِ التمييزِ الطبقي ضد المثليـين والمجموعـات الأخـرى، وسـمّى ذلك حركـة (التحريـر للقرن الحـادي والعشريـن). «المسـيحيون سـيجبرون على أخذ موقـف للدفاع عن حقهم ليعيشـوا كمسـيحيين» ومرة أخـرى لو أن هـؤلاء اعتمدوا في مواقفهـم على مبـدأ حرية التعبـير فلربما حصلوا علـى تعاطف حذر من نـوع ما. ولكن ليس هذا لب الموضـوع. فالقضية المرفوعة لصالح التمييز العنـصري ضـد المثليـين رفعت على أسـاس أنهـا دعوى نقـض لدعوى مزعومة تطالب بالتمييز العنصري ضد المتدينين! ويبدو أن القانون احترم هذا.

لن تفلت من القانون لو أدعيت بأنني «حاولت وقفك عن إهانة إنسانٍ شـاذٍّ جنسيًا وحرمتك من حريتك في الإجحاف بحق الآخرين». ولكنك تفلتْ حتمًا لو قلت أن هذا حرمان من «حرية ممارسـة العقيدة». لنفكر ما هو الفرق هنا؟ ومرة أخرى الدين هو البوق الأعلى صوتًا.

سـأنهي هذا الفصل بدراسـة تلقِـي المزيدَ من الضوء علـى المغالاة من قبـل المجتمـع في احـترام الديـن، وجعلـه فـوق كل مسـتويات الاحـترام للإنسـان. قضية أحدثت ضجة في شـباط 2006 قضية سخيفة تأرجحت بين الكوميديا والتراجيديا.

في شـهر أيلـول 2005 أصدرت صحيفة جيلياند بوسـطون 12 رسـمًا كاريكاتوريًـا يصـورون بـه النبـي محمد. وخـلال الثلاثـة أشـهر التالية، وبطريقة مدروسـة بدقّة تم دس النقمة والامتعاض عبر العالم الإسـلامي من قبل مجموعة صغيرة من المسلمين الذين يعيشون في الدانمارك، وبقيادة إمامين اثنين كانوا قد منحوا حق اللجوء فيها. في نهاية 2005 سـافر هذان المنفيـان الحقودان من الدانمارك إلى مـصر ومعهم مصنف طبع ووزع من هنـاك لـكل العالم الإسـلامي، ومن ضمنه أندونيسـيا لإهميتهـا. المصنف تضمـن معلومـات باطلـة عن المعاملة السيئة التـي يتلقّاها المسـلمون في الدانـمارك، والكذبة المتحيّـزة والتي تقول بأنَّ صحيفة جيلياند بوسـطون هـي صحيفة حكومية. وتتضمن أيضًا الرسـوم الاثنا عـشر والتي أرفقها الإمامـان بثـلاث صـورٍ أخرى غـير معروفـة الأصل ولكن بدون شـك ليسـت لهـا أي صلـة بالدانمارك. وهذه الرسـوم الثلاث كانـت بحق اكثر هجومية من الرسـوم الأخرى أو بالأحرى سـتكون أكثر هجومية لو كان القصد فيها محمد كما ادّعى دعاتنا المتحمسون.

إحدى هذه الصور الأكثر هجوميةً لم تكن رسم كارتوني على الإطلاق، بل كانت صفحة مرسلة بالفاكس فيها صورة رجلٍ مُلتحٍ يلبس أنف خنزير مزيّـف، مربـوط بمطاطـة. وبالنتيجة وبعـد التحريّات كانت هـذه الصورة مأخـوذة من الأسوشـيتدبرس وهي عبارة عن صورة رجل فرنسي يشـترك في مسـابقة محليـة لتقليـد صوت الخنزيـر في أحد معارض القرى في فرنسـا. وليـس لتلك الصورة علاقة بالنبى محمد أو حتى بالإسـلام على الإطلاق، وبالتاكيد لا علاقة لها بالدانمارك أيضًا. ولكن هؤلاء المسـلمون المتحمسون رتّبوا كل شيء لرحلتهم المضلّلة للقاهرة مع معرفة مسبقة بالنتيجة.

و أثمرت الزراعة المُتقنة للشعور بالأذى إلى انفجار امتدَّ بعد حوالي خمسة شهور من نشر الصور. متظاهرين في باكستان وأندونيسيا أحرقوا أعلام دانماركية (أعجب من أين أتوا بها!؟).

وبصيحات هستيرية طالبوا الحكومة الدانماركية بالاعتذار. (لماذا تعتذر الحكومة الدنماركية؟) فليست هي التي رسمت الكارتون أو نشرته. الشعب الدنماركي يعيش في ظلّ حريةٍ كاملة للصحافة، وهذا بحد ذاته صعب الاستيعاب للكثيرين ممن يعيشون في البلاد الإسلامية.

و تضامنًا مع الصحيفة الدنماركية أعادت صحف سويدية ونرويجية وفرنسية وحتى أمريكية (باستثناء الصحف البريطانية) نشر الكارتون، مما أدّى لصبِّ الزيت على النار. فخُرِّبتْ سفارات وقنصليات، وقُوطعتِ البضائع الدنماركية، وتعرّض الدنماركيون خصوصًا وكل الغربيين عمومًا لتهديدات، أحرقت كنائس مسيحية في الباكستان ليس لها أي علاقة بالدنمارك أو حتى أوروبا. وقتلوا في هجومٍ حصل على القنصلية الإيطالية في بنغازي وكما كتب جرمان غريز ما يحبه هؤلاء ويجيدون فعله حقيقة هو أثارة الضوضاء فقط.

أحد الأئمة في باكستان وضع مكافأة بقيمة مليون دولار ثمنًا لرأس الرسام الدنماركي على ما يبدو لم يعرف أن هناك 11 رسامًا للكاريكاتير غيره، وبدون شك لا يعرف بأنَّ الصور الثلاثة الأكثر إثارة للغضب ليس لها أي علاقة بالدنمارك لا من قريب ولا من بعيد (مع ملاحظة هنا.. من أين سيأتي هذا الإمام بالمليون دولار؟).

في نيجيريـا، أحـرق المتظاهـرون المسـلمون عـدة كنائـس مسـيحية واسـتعلموا المناجل للهجوم وقتل مسيحين (نيجيريين سـود البشرة) في الشـوارع. أحـد المسـيحين وضـع في دولاب مطاطي، وأغرق بالسـوائل البترولية وأضرمت النيران فيه. أخذت صور عديدة لمتظاهرين في إنكلترا يحملـون لافتات كتب عليهـا «لنذبح الذيـن أهانوا الإسـلام». «أوروبا: سـتدفعين الثمن، وسـتهدمين قريبًا» علاوة على ذلك وبدون أي سـخرية أو مبالغة، «لنقطع رأس كل من يقول إنَّ الإسلامَ دين عنف».

على أثر ذلك، أجرى الصحفي أندرو موللر مقابلة مع قائد المسـلمين «المعتدلين» في إنكلترا. السـيد إقبال سـاكراني. ربما أنه معتدلٌ في مقاييس المسلمين في هذه الفترة، ولكن بالنسبة لموللر فإن ما قاله يوم صدور فتوى الإعدام على سـلمان رشـدي بسـبب روايته ما يزال مأخذًا عليه حيث أنه قـال «الإعدام قليـل عليه». تصريح مخزٍ جدًا ويضعه على نقيض سـلفه الشـجاع والـذي كان أكثر من أثر في المسـلمين في إنكلـترا وقتها الدكتور زكي بدوي، والذي عرض على سلمان رشدي ملجأ في بيته.

ساكراني صرح لموللر كان بدوره قلقًا، ولكن لأسباب مختلفة: «أنا قلق مـن أن ردّ الفعل السـخيف وغـير المتكافئ بالمرة مع موضـوع نشر صور في جريـدة دنماركيـة غـير معروفـة، الذي حصل هـو إثباتٌ بأن الإسـلام والغـرب متناقضان بشـكل جـذري». من الجهـة الأخرى كان سـاكراني يمتدح الصحف الإنكليزية لأنها لم تعيد نشر الصور، وجواب موللر على ذلـك برأيي يعكس الحقيقة في تفكير كل البريطانيين بأنَّ «منع نشر الصور ليس نتيجة التعاطف والحساسـية تجاه شـعور المسـلمين بقدر ما درء كسر نوافذنا»

ساكراني شرح بأن «تقدير شخصية النبي عليه السلام من الأساسيات في العالم المسلم، والحب والمودة له لا يمكن التعبير عنها بالكلمات. إنها تذهب لأبعد من حب الأهل والأحباب، وحتى الأولاد. ذلك جزء من الإيمان. وهناك تعليمات في الدين ألّا يصوّر النبي برسوم واستنتاج موللر كان الآتي: «يفترض أي مسلم بأنَّ قيمَ الدين الإسلامي تعلو على أي شيء آخر. تمامًا كما يفترض المؤمن من دين آخر بأنَّ طريقه هو الطريق الوحيد، الحقيقة والنور. ولو أختار بعضًا منه أن يحبوا واعظًا من القرن السابع أكثر من محبتهم لعائلاتهم فهذا شأنهم، ولكن لا أحد مجبر أن يأخذ موضوعًا كهذا بجدية». ولكن لو أنك لم تأخذ الموضوع بجد وتصرفت حياله باحترام، فستكون مهددًا بالعنف لدرجة لم يعرفها أي دين منذ العصور الوسطى. ولا أستطيع فهم ضرورة هذا العنف، وهنا نوّهَ موللر لادّعائهم ذاته بقولِهِ: أيها المهرّجون لو صح أنكم مقتنعين بأي شيء مما تدعون فإنَّ هؤلاء الرسامين سيذهبون لجهنم على أية حال، أليس هذا كافيًا لكم؟ ولو أردتم إشعال غيرتكم وحماسكم على الإسلام والإهانات التي يتعرض لها المسلمون فلتقرأوا تقارير هيأة العفو الدولية عن السعودية وسوريا.

الكثيرون لاحظوا التباين بين الادّعاء الهستيري بجرح الشعور الذي صرح به المسلمون والجاهزية والسرعة التي أتمّت بها أجهزة الإعلام العربية نشر صور معادية لليهودية. في إحدى المظاهرات في الباكستان حملت امرأة ترتدي البرقع لافتةً مكتوبًا عليها «ليبارك الله هتلر». كردّةِ فعلٍ على هذه الضوضاء المسعورة، قامت بعض الصحف المحترمة باستهجان العنف وأقامت بعض الضجّة الرمزية مطالبةً بحرية الرأي.

ولكن بنفس الوقت أبدت «الاحـترام» و«التعاطف» ل"الإهانة العميقة» و«الأذى» الذي حلَّ بالمسـلمين وجعلهم «يعانـون». لنتذكّر أنَّ «الأذى» و«المعاناة» المقصودين هنا لا يعنيان ممارسـة العنف الجسـدي وإلحاق الألم بشـخص ما: ليـس هناك أكثر من بعـض طلاء الحبر علـى ورق جرائد لم ولن يراها أحدٌ خارج الدنمارك لو لا الحملة المتعمدة لإثارة الفوضى التي دبّرها هؤلاء.

أنـا لسـت مـع الأذى والإهانـة لأي أحـد. ولكننـي مفتـونٌ بـسر الامتيازات غير المنطقية المعطاة للدين فيما نسـميه مجتمعاتنا العلمانية. على كل السياسـيين أن يعتادوا رؤية رسـومٍ سـاخرةٍ لوجوههم، ولا أحد يهتز للدفـاع عنهم. ما هو الشيء المميز للدين والـذي يجعلنا نعطيه نوعًا فريدًا مـن الاحـترام؟ أورد ما قاله مينكين في هذا الصـدد: «عليك باحترام دين الآخـر ولكـن لا تكثر من احترامـك لاعتقاده بأن زوجتـه جملية وأولاده أذكيـاء في ضوء هذه النظريـة الفريدة لاحترام الدين سـأبدأ أولاً بالقول: لـن أحـاول الإهانة ولكـن في نفس الوقت لـن أعطي اعتبـاراتٍ لدين لا أعطيهـا لأي موضوع آخر. ولن أعامل الدينَ بطريقةٍ مختلفةٍ عن معاملتي لأي شيءٍ آخر.

الفصل الثاني

فرضيةُ الإله

«الدينُ في زمنٍ ما هو التسليةُ الأدبيةُ للزمنِ الذي يليه».

- رالف والدو إيمرسون

لا جـدالَ بأنَّ إلهَ العهدِ القديمِ هو أسـوأ الشـخصياتِ الخيالية: غيورٌ وفخورٌ بذلك، تافهٌ، ظالم، عديمُ الرحمة، مجنونٌ بالسيطرة، حقودٌ متعطّشٌ للدم، مبيدٌ للشـعوب، معقّد من النسـاء والمثليين، عنصريٌّ، قاتلُ أطفال، سـاحقٌ، ذابحُ أبناء، ضارٌّ، مصابٌ بداءِ العظمة، ساديٌّ ومازوشي، نَزَوَيٌّ حقـودٌ شرِس. العديدون منا والذين لُقِّنوا عنـه منذ الطفولة اعتادوا على إرهابه. ولو أخذنا وجهةَ نظرٍ من نعدّه إنسانًا ساذجًا بأمور التديّن لرأيناها مختلفةً تمامًا. بشـكلٍ ما اسـتطاع ونستون تشرشـل تدبّر أمرهِ ليبقى جاهلاً بالنصوصِ المقدّسة حتى اليوم الذي راهنته فيه إيفلين فوش وضابط آخر معـه في الخدمة خلال الحرب بأنه لن يسـتطيعَ قـراءةَ الكتاب المقدّس كله خـلال أُسـبوعين وعن ذلك يقـول الضابط: لخيبة الأمـل لم نحصل على النتيجـة التـي أملناهـا. أنه لم يقـرأ أيًّا مـن الكتـبِ الدينية مسـبقًا والآن، يواظـب علـى القـراءة بحماس وأحيانًا يقـول بصوت عـالٍ أراهن أنك لم تكـن تعرف بأن ذلـك مذكور في الكتـاب المقدس أو يضرب على سـاقهِ براحةِ يدهِ ويترنّم بالإله.. ما هذا القذر. توماس جفرسـون، قارئ أفضل عن هذا الموضوع كان رأيه مشـابهًا: الإله الإنجيلي شخصيةٌ مرعبةٌ قاسية، حقودٌ، نزَوَيٌّ ظالم.

ليـس من العـدلِ أن نهاجـمَ هدفًا سـهلاً كهذا. ونظريـة الإله لا يجب أن تسـقط أو تثبت مـن خلال يهوه، وجهه الكريـه، ولا من خلال الوجه المسـيحي المعاكس له، يسـوع اللطيف الوديع والمعتـدل. (لنكون عادلين علينا أن ننوه بأن الشـخصية المخنثة التي يوصف بها المسـيح تدين لإتباعه الفيكتوريـين اكثـر منـه شـخصيًا، هـل يمكـن لأي شيء أن يكـون مثيرًا للغثيـان كتصريح السـيدة س. ف. الكسـندر «الأطفال المسـيحيون يجب

أن يكونـوا لطيفـين، مطيعـين، جيدين كـما كان هو؟» لن أهاجـمَ أي من المواصفـات المحـدّدة ليهـوه أو المسـيح أو الله أو أي إلهٍ آخـر مثل زيوس بعل أو فوتان. سأعطي تعريفًا محددًا للإله في البدء: يوجد هناك شخص، خـارق القـدرات، والـذي خلق الكـون وكل شيء فيـه بما فيه الإنسـان. وهذا الكتاب سـيحامي عـن وجهةِ نظرٍ أخرى ألا وهـي: القدرات على الخلـق بتعقيدٍ كافٍ لتصميم أي شيء، تـأتي كنتيجة لتراكم تدريجي طويل الأمـد لعمليـة تطورية. وأي تطـورات للقدرات الخلقيـة، يجب أن تكون بالضرورةِ قد حصلت في وقتٍ متأخّر من تاريخ الكون، وبالتالي لا يمكن أن تكونَ مسؤولةً عن تصميمه، وبهذا المعنى فإن الإله سيكون وهمًا، وفي فصل آخر سأبيّنُ بأنه وهمٌ خبيث أيضًا.

ليـس مـن المفاجئ، كـون الأمر كله مبنـيٌّ على إيحـاءات محلية عوضًا عن أدلة مثبتة، أن يكون لنظرية الإله عدّة نسـخ. ودارسي التاريخ الديني يعرفون عن التطور لهذه السلسلة والذي يبدأ بالروحانيات القبلية البدائية مارًّا بتعدد الآلهة كالإغريقيين، الرومان، وغيرهم، حتى الوصول للتوحيد في اليهودية ومشتقاتها، المسيحية والإسلام.

تعدّد الآلهة:

ليـس من الواضـح لماذا يُعدُّ الانتقال من نظـامِ تعدّد الآلهة للتوحيد كتطـوّرٍ بديهي وواضح وليس بحاجة للنقـاش. التعليق الذي كتبه ابن وراق (كاتـب لماذا لسـت مسـلمًا) فيه الكثير مـن النباهـة، إنَّ التوحيد سـيصاب بـدوره بنفس نكبـة إنقاص عدد الآلهـة واحدًا آخـرَ ليصبح إلحادًا.

الموسوعة الكاثوليكية تكذّب كلاً من التعددية والإلحاد في عبارة واحدة وبدون أي مبالاة: «الإعتقاد الإلحادي يدحض نفسَهُ بنفسِهِ، ولعدم واقعيته لم يحصل على مصداقيةٍ إلا من فئة قليلة العدد. وكذلك الأمر فلن تستطيع التعدّدية، رغم شيوعها بين العوام أن تنال من عقل فيلسوف مفكّر وتجعله يؤمن بها.

كان التعصّب للتوحيد ظاهرًا حتى فترة قريبة في قوانين التبرعات في إنكلترا وأسكتندا، التمييز ضد التعددية كان واضحًا في قوانين الإعفاء من الضرائب لمن أخذ على عاتقه الدعوة لدين توحيدي، وعدم التدقيق الصارم والمطلوب في حالةِ التبرّعات لجهات علمانية. أطمح بعض الأحيان في خيالي بأن أقنعَ أحدَ أعضاء الجالية الهندوسية لرفع دعوى قانونية ضد هذا التكبّر المعادي للتعددية.

الحل الأفضل بالطبع هو أن نتركَ موضوعَ التبرّعات للدعوة الدينية برمّتِهِ. سيكون لذلك فوائد كبيرة وخصوصًا في الولايات المتحدة حيث الأموال الممتصّة من قبل الكنائس، ولتلميع أحذية الدعاة الإنجيليين في محطات الدعوة التلفزيونية، تصل لحد من الممكن وصفه بالبذاءة بدون أن نكون ظالمين. الداعية أورال روبرتس قال لمشاهديه في التلفزيون بأنّ الله سوف يقتله إن لم يعطوه 8 ملايين دولارًا. وصدّقْ أو لا تصدّقْ، فقد حصل عليها.

و بدون ضرائب! فإنّ روبرتس يزيد قوة يومًا بيوم. جامعة أورال روبرتس في تولسا بأوكلاهوما والتي تقدر قيمة أبنيتها بـ 250 مليون دولار، بنيت بتكليف من الله نفسِه كما في الخطاب الآتي: لترفع تلاميذك حتى يسمعوا صوتي، وليذهبوا حيث يشعّ نوري بشكلٍ خافت ويسمع

صـوتي كالهمس، إلى أقـاصي حدود الأرض. عملهم سـيتجاوز عملك، وعندها سأكون راضيًا.

و بذلك فمن الأفضل أن يلعبَ صديقي الهندوسي التخيّلي لعبة «إذا لم يكن بإمكانك أن تهزمهم، فالأفضل أن تنضمَّ لهم».

التعدّدية ليسـت في الحقيقة إلا توحيدًا متنكّرًا في شـكلٍ تعددية. هناك إلـهٌ واحـدٌ فقط. الـرب إبراهما الخالـق، أما الرب فيشـنو الحافظ، والرب شـيفا المدمر، والربّات سارا سفاتي ولاكسمي وبارافاتي (زوجات إبراهما، فيشنو وشيفا، والرب غانيش إله الفِيَلة، والمئات الآخرون، فهم ليسوا إلا تجسيدًا ووجوهًا متعددة لهذا الإله الواحد.

علـى المسـيحيين أن يتعاطفوا مع سفسـطاء كتلك. فقـد أُريقت أنهارٌ مـن الحـبر، إن لم نقل الدم أيضًا، في العصور الوسـطى علـى سرِّ الثالوث الأقدس وأي تغيير فيها جُوبِهَ بالقمعِ كما حصل مع أريوس الاسـكندري في القرن الرابع ميلادي، حيث أنه نفى أن يكونَ المسـيح من جوهرِ الإله. ربما إنك تسـأل، هـل هناك معنى لجملة كهذه؟ جوهـر؟ أي جوهر؟ ماذا تقصـد بذلـك؟ الإجابة الأكثر إقناعًا هـي «لا شيء تقريبًا». الخلاف على المعنى شـطر العالم المسـيحي لمدة قرن، وأمر الإمبراطور قسطنطين بحرقِ كل كتب أريوس. هذه طريقة اللاهوت منذ الأزل... التفرقة.

هـل هنـاك إله بثلاثـة أقسـام، أم ثلاثة إله في قسـم واحد؟ الموسـوعة الكاثوليكية تنير الإجابة في مقطع يشع فكرًا وحكمة:

«في رأس الإلـه الموحـد يوجـد ثـلاث أشـخاص، الأب، الأبـن، والروح القدس، كل مميز عن الآخر. ولهذا، وفي عقيدة اغناطيوس:

الأب الإله، الأبن إله، والروح القدس إله أيضًا، وبالرغم من ذلك فليس هناك ثلاثة إلهه بل هناك إله واحد».

الموسوعة تضيف مقولة القديس غريغوري صانع المعجزات من القرن الثالث، كما لو أن ما سبق لم يكن واضحًا بشكل كاف.

«و لهذا لا يوجد أي شيءٍ مخلوق، ولا علاقة للواحد بالآخر في الثالوث الأقدس: ولا شيء أضيف لاحقًا كما لو أنه لم يكن موجودًا قبلاً: ولهذا فإنَّ الأب لم يكن أبدًا بدون ابن، ولم يكن الابن بدونِ الروحِ القُدُس أبدًا: وهذا الثالوث محالٌ تبديله أو تبديله منذ الأزل وإلى الأبد».

مهما كان نوع المعجزات التي اكتسب بها القدّيس غريغوري «اسمه الحركي»، فمن المؤكد أنها ليست معجزات بالوضوح والصدق. فكلماته محمّلة بطعمِ الرجعية اللاهوتية، والتي هي على عكس العلم والفروع الأخرى للثقافة الإنسانية لم تتغير خلال 18 قرنًا. أصاب توماس جفرسون كعادته عندما قال: «السخرية هي السلاح الوحيد الواجب استخدامه ضد المقترحات غير الواضحة. يجب أن تكون الأفكار واضحةً قبل الإقبال على أي تصرّف بناءً عليها، ولا أحد على الإطلاق عنده فكرة واضحة عن الثالوث الأقدس. إنها الأبرا كادابرا للنصابين ممن يسمون أنفسهم كَهَنَة المسيح.

شيء آخر لا يمكن عدم الإشارة إليه؛ إلا وهو الثقة العمياء والتي يصرّح الدين بها عن تفاصيل دقيقة لأمور شتّى لم ولن يستطيعوا تقديمَ دليل واحد لبرهانها. وربما أن هذا هو السببُ في تبنيهم العداوة المتشدّدة

تجـاه كل من له آراء أخرى مختلفة عـن آرائهم، ونلحظ ذلك بوضوح في مجال الثالوث المنوّه عنه سابقًا. جفرسون يسخر بشدّة من المذهب، الذي وصفـه في معـرض نقده لنظرية كالفـن الدينية بقولِهِ «هنـاك ثلاثة آلهه». ولكن الفرع المسـيحي الممثل بالكنيسـة الكاثوليكية ومغازلتها المستمرّة لتعـدّد الآلهة هو مـا يدفع هذا التعـدد في اتجاه التضخّـم. الثالوث يضم مريـم «ملكة السـماء»، آلهـة في كل شيء ما عدا الاسـم، وثاني شـخصية آلوهيـة بعد الله في مواضيع الدعاء والصلوات. ومجموعة هؤلاء المهمّين تتضخّم وتنتفخ بجيشٍ من القديسـين، وإن لم ترقَ بهم قواهم المتوسـطة ليكونـوا أنصـاف آلهة، فهم علـى الأقل مسـتحقون للتقدير في مجالاتهم التخصصية.

توجـد قائمـة عند مجمـع المنتـدى الكاثوليكي بـ 5120 قديسًـا مع اختصاصاتهـم المختلفـة، والتـي تضم أوجـاع البطن، ضحايـا العنف، فقدان الشـهية، تجار الأسلحة، الحدّادون، العظام المكسورة، المشتغلون بالمـواد المتفجرة وإصابات الأمعاء، ولن نذهـبَ أبعد من ذلك. وعلينا ألا ننسـى جوقـة المضيفـين الملائكيّـين الأربعـة، مصفوفـين في تسـعة ترتيبات مختلفة:

> سـيرافيم، شـيروبيم، ثرونيـس، دومينيونس، قيم، طاقـة، مبادئ وكبير الملائكة (رئيس جميع المضيفين)، وعدد من الملائكة العاديين، متضمنين ملاكنا القديم الذي يرعانا عبر الأجيال، الملاك الحارس. إنَّ قلة الذوق في هذه الأساطير تترك عندي انطباعًا ما بشكل جزئي ولكن ما يثيرني بشـكلٍ خاص هو اللامبالاة الغبية للتفاصيل التي يطوّرونها مع الزمن. والتي ليست إلا ادّعاءات وقحة.

لقد خلق البابا جان بول الثاني من القديسين أكثر من جميع من سبقه لقرونٍ مضت مجتمعين ولديه صلةٌ خاصة مع مريم العذراء. ورغبته في تعدد الآلهة ظهرت بشكل درامي عام 1981 عندما تعرض للاغتيال في روما. ونسب الفضل في نجاته لتدخل سيدتنا الأم فاطمة: «أنَّ يدًا أمومية وجّهت الرصاصة». هلّا توقّفنا عن التساؤل هنا لماذا لم تتوجّه تلك اليد للرصاصة لكيلا تصيبه على الإطلاق. وربما نفكّر بأنَّ فريقَ الجراحين الذين عملوا لست ساعات لإنقاذه يستحقون بعض التقدير، ولكن ربما أيديهم أيضًا كانت موجهة بواسطة يدِ نفس الأم. النقطة هنا إنَّ اليد في رأي الباب ليست يد أية سيدة من سيداتنا ولكن يد السيدة الأم فاطمة بالتحديد هي التي وجهت الرصاصة لكيلا تصيب مقتلاً منه. وعلى ذلك فسيدتنا لُوْرْد، وسيدتنا غوادالوب، وسيدتنا أكيتا، وسيدتنا غاربانداال وسيدتنا نوك كانوا مشغولين وقتها بمهامٍّ أخرى.

كيف تمكّن الإغريق والفايكينغ من التوافق مع الألغاز المتعددة؟ هل فينوس هو اسمٌ آخر لافروديت، أم كان هناك آلهتان متميزتان للحب؟ هل كان الثورُ وجهًا آخر لفوتان، أم كان إلهًا منفصلاً؟ ولكن من الذي يهتمّ لذلك؟ الحياة أقصر من أن ننفقها بين معرفة التلفيق الخيالي. لقد تكلّمت عن التعددية هنا فقط حتى لا أتهم بإغفالها، ولن أستطردَ أكثر من ذلك. وللاختصار سأسمّي كل آلهة سواء كانت متعددة أو موحدة بـ «الله» أو «الإله» أو «الرب». وسأراعي بأن الإله الإبراهيمي (لنضع الأمور بشكل بسيط) هو مذكر وأستعمل الضمائر المناسبة لذلك. بعض علماء الدين المتطورين يدعون بعدم وجود جنس للإله. وبعض المؤمنين بمساواة الجنسين يُلبسون الآلهة بلباسِ الأنثى لاسترجاع حقوقهم التي

هضمت عبر التاريخ. ولكن بالنتيجة، ما هو الفرق بين ذكر غير موجود وأنثى غير موجودة؟ وفي ملتقى الطرق الافتراضية بين التديّن وحقوقِ المرأة يبدو وجود الإله موضوعًا ثانويًا وأقل أهمية من تحديدِ جنسهِ.

أدرك بأنَّ من الممكن لبعضِ نقّاد الدين أن يتعرّضوا للهجومِ لفشلهِم في إعطاء الحق والاعتبار للتنوّع الخصب للتقاليد أو وجهاتِ النظر العالمية المسمّاة بالدين. هناك العديد من الأعمال العلمية المتعلقة بعلم الإجناس البشرية، من جيمس فرازير «الغصن الذهبي وحتى باسكال بوير» شرح الدين وسكوت اتراق «نثق بالله»، توثق بشكل ساحر ظواهر عن الغيبيات والطقوس الغريبة. أقرأ كتبًا كهذه وستدرك كم هي عظيمةٌ سذاجة الإنسان!.

لن أتّبعَ هذه الطريقة في هذا الكتاب. سوف أنتقص كل أشكال الخوارق، وأكثر الطرق عملية لذلك تكون بالتركيز على الأشكال الأكثر ألفة لقُرّائي الشكل الأكثر تهديدًا لمجتمعاتنا. معظم قرائي سيكونون ممن تربوا على واحدة من الديانات التوحيدية الأكثر انتشارًا (أربعة لو شملت المورمونيين). وكلها تعود بالأصل لإسطورة النبي إبراهيم. وسيكون من المفيد أن لا تغيب تقاليد عائلة عن ذهن القارئ خلال قراءة بقية هذا الكتاب.

أرى الوقت مناسبًا الآن لإحباطِ محاولةٍ حتمية للرد على الكتاب، والتي ستأتي بلا شك كملاحظة مرجعية: «أنا لا أؤمن بالإله الذي يدّعي دوكنز عدم الإيمان به. أنا لا أؤمن بعجوزٍ ذي لحيةٍ بيضاءَ يسكن في السماء». هذا العجوز يزيد من تشتيت عقل المستمع ولحيته مضجّرة وليست بيضاء طويلة فقط. سخافةُ تعليقٍ كهذا يهدف لإيهاء المتلقّي بأنَّ

القائـل يؤمـن بإلهٍ أقل سـخافةً من ذلك. أنـا أعلم أنـك لا تؤمن بعجوزٍ يعتـلي الغيوم، فلنتركْ ذلك التخيّلَ ولا نضيّـع الوقت. أنا أهاجم أي نوعٍ من الإلهِ أو الإله، كل ما هو خارق أينما وحيثما وُجِد أو سيوجد.

ديانات التوحيد:

«أكـبر شر يمنـع ذكره في قلـب حضارتنا هو ديانـات التوحيد. وقـد بـدأ بكتـابٍ من العـصر البرونـزي البربري يسـمّى العهد القديم. انبثقت ثلاث ديانات منه اليهودية المسـيحية والإسلام. هـذه ديانات إله السـماء. إنها ديانات أبويـة حرفيًا، الله هو الأب القدير، لذلك ينتشر بيغض النسـاء في تلـك البلدان المصابة بإله السماء ووكلائه الأرضيين من الذكور».

– غور فيدال

اليهوديـة أقـدم الديانـات الثلاثـة وهي بدون شـك سـلف الديانتين اللاحقتـين، اليهوديـة: طائفة عشـائرية تابعـة لإلهٍ غليظ جـدًا، مهووس بالقيود الجنسية بشكل سقيم، كما هو برائحة اللحم المفحم، يتفوق بشكل كبـير علـى أي آلهة منافسـة ويخص فقط تلـك العشـيرة الصحراوية التي اختارها. وفي عهد الاحتلال الروماني لفلسطين، نشأ الدين المسيحي على يـد بـول الطرطوسي كدين توحيدي مشـتق من اليهوديـة ولكن أقل عنفًا وخصوصيـة منها، وانفتحت المسـيحية من الخصوصيـة اليهودية للدعوة العامـة وبعـد ذلك نشـأ في العديد من الـدول كما في حال محمـد وأتباعه، أتباع لديانة توحيدية يهودية المنشأ، بدون أن يأخذوا خصوصيتها العرقية، ونشـأ الإسـلام على كتـابٍ مقدّسٍ جديدٍ اسـمه القـرآن، والذي أضاف أيديولوجية جديدة ألا وهي نشر الدين بالقوة العسكرية.

المسيحية أيضًا انتشرت بالسيف، مارسها الرومان بعد أن حوّلها الإمبراطور قسطنين من طائفة صغيرة لا مركزية وملاحقة إلى الدين الرسمي للدولة، ونشرت بالحملات الصليبية وبعدها بحملات أوروبية أخرى مرافقة بحملات تبشيرية. وفيما يخص هدفي هنا، فإنّ الديانات الإبراهيمية الثلاث يمكن اعتبارها واحدًا، ما لم يكن منصوصًا بعكس ذلك. وسيتمحور تفكيري حول الدين المسيحي ليس لشئيءإلا لكونه مألوفًا لديّ أكثر من غيره والفروق لا تهم بقدر التشابهات بين الديانات الثلاث. ولن أناقشَ الديانات الأخرى كالبوذية أو الكونفوشية. الحق يقال بأن هذه المذاهب يجب أن تُناقَش كفلسفات وأنظمة أخلاقية للحياة وليس كديانات.

في البداية أريد أن أعطي تعريفًا لا غنى عنه لنظرية الإله، وأزيل أيَّ سوءِ فهمٍ عن تعريف الإله الإبراهيمي. إنه ليس الذي خلق الكون فحسب، بل إنه الإله الشخصي من ضمنه أو خارجه (مهما عنى ذلك)، ويمتلك الصفات الغليظة التي أشرت إليها سابقًا.

الإله الذي دعا له فولتير وتوماس باين لا يمتلك صفات شخصية على الإطلاق مقارنة مع الجائح الذهاني في العهد القديم، رب الإلوهيين في القرن الثامن عشر المسمّى بعصر النهضة هو أعظم ما يمكن أن يكون: جدير بخلقهِ للكون، متعالٍ عن الأمور الإنسانية، مترفّع عن أفكارنا وأموالنا، لا يهتم بذنوبنا الملخبطة أو ندمنا المغمغم عليها بأي شكل من الأشكال. إله الربوبيين فيزيائيٌّ لأقصى حدود الفيزياء، هو ألفا وأوميغا الرياضيين، المصمم المؤلّه، وأفضل من يضع القوانين الهندسية وثوابت الكون، يضبطها بدقة لا متناهية ومعرفة مسبقة بدقائق الأمور، وبعد أن

قـدح ما نسـميه الآن الأنفجـار الكبير، ترك كل شيء وذهـب للتقاعد ولم يسمع أحد عنه شيئًا بعد ذلك.

في أزمنـة الإيمان القوي، عُدَّ الألهيون صفًـا لصفٍّ مع الملحدين بدون أي تمييز. سـوزان جاكوبي في كتابها «المفكـرون الأحرار»: تاريخ العلمانية الأمريكية، ذكرت قائمة من المسبّات التي أطلقت على توم باين: «حيوانٌ زاحف، خنزيرٌ، كلبٌ مسعور، قملةٌ، وحشٌ كبير، عنيفٌ، كذّابٌ وبالطبع كافرٌ أيضًا». باين مات فقيرًا ومهملاً من كل أصدقائه السياسيين (باستثناء مشرف لجفرسون) الذين أُحرجوا بشدة من تصريحاته المعادية للمسيحية. أما اليوم فقد تغيّرتِ المقاييس بشـكل كبير وأصبح معنى الربوبية معاكسًا للإلحـاد ويصنف في صـفِّ المؤمنين. إنهـم رغم كل شيء يؤمنـون بخالقٍ خارقٍ للكون.

العلمانية والآباء المؤسسون والدين في أمريكا:

الافتراض المتعارف عليه بأنَّ مؤسّـسي الدولـة الأمريكية من المؤمنين وليس هناك من شـكٍّ في أن الغالبية كانـوا كذلك، ولكن هناك ما يدعونا للجـدال بـأنَّ أعظمهم كانـوا من فئةِ الملحديـن. وكتاباتهم عـن الدين في زمنهـم لا تـترك مجالاً للشـك في أنهم سـيكونون من الملحديـن في زمننا. وبغـض النظر عن وِجهات نظرهم الدينية في وقتهم، فإنَّ ما يجمعهم أنهم كانوا جميعًا علمانيين، وهذا ما أريد أن أتحدّثَ عنه هنا وسـأبدأ – ربما يبدو ذلك مفاجئًا – بمقولة للسـيناتور باري غولدواتر عام 1981 والتي تثبت تشـبّثَ الرؤسـاء المحافظين الأمريكيين بتقاليد العلمانية المرساة في أساس جمهوريتهم.

«ليس هناك من تعنّتٍ يصيب البشر كما في حالة الاعتقاد الديني. وليس هناك حليف أقوى في أي نقاش من المسيح أو الله أو ما شابه من مسمّيات الخوارق. ولكن كأي سلاح قوي، فإنَّ استعمال اسم الله يجب أن يكونَ بشكلٍ مقنّن. والجماعات الدينية التي تنمو في أرجاء وطننا لا تستعمل نفوذها الديني بحكمة. إنهم يحاولون الضغط على قادة الحكومة لاتّباع مذهبهم. 100 % وإن اختلفتَ مع مبادئهم الدينية في أي مسألة أخلاقية فإنهم يشْكُون ويهدّدونك بخساراتٍ مالية أو انتخابية أو كلاهما معًا. وبصراحة فأنا سئمت وتعبت من هؤلاء الوعّاظ المنتشرين أينما كان وأقوالهم لي كمواطن بأني لو أردت أن أكون أخلاقيًا فعلي أن أؤمن بكذا وكذا وكذا. من يظنون أنفسهم؟ وما الذي يعطيهم الحق لإملاء معتقداتهم عليّ؟ وما يثير غضبي أكثر؛ مشرّع هو تحمّلُ تهديدِ أية فئة دينية ممن يظنون بأنَّ لديهم حقًا إلهيًا في السيطرة على صوتي في مجلس الشيوخ. أنا أحذّرهم اليوم: سأحاربهم في كل خطوة يحاولون فيها إملاء معتقداتهم الأخلاقية على المجتمع الأمريكي باسم التحفظ».

إنَّ إظهار المؤسسين الآباء بمظهرٍ ديني يهم الدعاة الأمريكيون اليوم والذين يريدون نشر نسختهم من التاريخ الأمريكي. وعلى عكس وجهات نظرهم، فالواقع بأنَّ أمريكا لم تُؤسَّسْ كدولةٍ دينية مسيحية منصوص في مرحلة مبكّرة في معاهدة طرابلس، مخطوط عام 1796 من قبل جورج واشنطن وموقع عليه من جون ادامز: 1797

«فيما تشكل الحكومة الأمريكية على أي أسسٍ مسيحية، ولا تحمل في طابعها أي عداوة للقوانين أو الدين أو الاستقرار للمسلمين، وكما هو مخطوطٌ فإنَّ الدولة لم تدخل في أية عداوات مع القوميات المحمّدية،

وبنص القانون وبالاتفاق مع الطرف الآخر، فإنه لن يسمح بخلقِ مشاكل لأسباب تتعلّق بذرائع دينية وإفساد التوافق بين الدولتين».

إنَّ كلمات الافتتاح في هذه المقولة كافية لخلق ضجيجٍ مزعجٍ في واشطن في هـذه الأيـام. ولكن إد بروكنـر لديه أدلّةٌ مقنعةٌ بأنَّ ذلك لم يتسـبب بأية معارضةٍ في وقتها من السياسيين أو الشعب.

هنـاك تناقـضٌ ملحـوظٌ قد أشـير إليـه العديد مـن المـرات وهو أنَّ الولايات المتحدة التي نشأت كدولة علمانية، هي الآن الدولة الأكثر تديّنًا في العالم المسيحي، بينما إنكلترا، مع كنيستها المؤسسة والمرؤوسة من الملكة بالقانون، هي من أقلهم تدينًا. السـؤال يطرح علي باسـتمرار، ولا أعرف إجابة له. من الممكن أنَّ التاريخ المروع للعنف بين الطوائف هو السـبب، والسـلطة تتأرجح بين الكاثوليكيين والبروتسـتانت والفئة الحاكمة تنظم حملات إبادة للفئة الأخرى. والرأي الآخر هو أنَّ أمريكا دولة مهاجرين. أحد الزملاء أشـار لأنَّ المهاجرين يسـتعملون الكنيسـة كبديـلٍ في أرضِ الغربة للعائلة والأقارب الذين فارقوهم في أوروبا. تلك الفكرة تسـتحق التمحيـص. ليـس هناك شـكٌّ على أيةِ حال بـأنَّ العديد مـن الأمريكيين يَرونَ في الكنيسـة جـزءًا من هويتهم، وفي ذلك ما يـدل على أنَّ الموضوع متعلّقٌ بالعائلة.

الفكـرة الأخرى لـشرحِ التناقض تأتي مـن أنَّ القانـون الأمريكي أتى مـن أصلٍ علماني. وبسـبب علمانية أمريكا القانونية أصبح الدين مؤسَّسـة عملية. الكنائس تتنافس على الجمهور، ناهيك عن الماديات هنا، والمنافسة حامية في الدعاية وتقنيات التسويق. ما يسري على صابون مضاد للقشرة يـسري علـى الله أيضًا، والنتيجة تقـترب من هَوَس ديني بـين الفئة الأقل

ثقافة في المجتمع. وعكس ذلك في إنكلترا حيث الدرع الكنسي الرسمي أصبح التدين أقرب للتسلية وبالكاد يعد تدينًا على الإطلاق. وقد عبّر غيل فرايزر، كاهن إنجيلي ومعيد مشرف في إكسفورد للفلسفة، عن هذا التقليد الإنكليزي بشكلٍ لطيف في صحيفة الغارديـن. العنوان الثانوي للمقال «المؤسسة الكنيسة في إنكلترا استبعدت الله عن الدين، وهناك مخاطرة أكبر في أنشطةٍ إيمانية أخرى:

في الماضي كان الكاهنُ الإنكليزي شخصيةً درامية. متذوقًا للشاي، لطيفًا، غريبَ الأطوار بحذاءٍ لامعٍ وطِباعٍ سمحة. تمثيلُ الدين بهذه الشخصية لم يكن مزعجًا لغير المتدينين. لم يتدخل في موضوع العرقية أو يضغط على أحدٍ ليدلّه على الخلاص، ولم تكن هناك حملاتٌ صليبية أو قنابل على الرصيف باسم أية قوةٍ عليا.

يستطرد فرايزر قائلاً: كاهن البلدة اللطيف قد أعطى في الحقيقة لقاحًا من شعورِ الإنكليز المعادي للمسيحية. وينهي موضوعه بالرثاء للاتجاه الذي تسير فيه الكنيسة الإنكليزية ويطلب من القائمين عليها أخذ الدين بجدية وعبارته الأخيرة: «القلق يأتي من الاحتمال بأننا ربما نطلق جنّي الدين الإنكليزي المتعصّب من القنينة التي لا يزال نائمًا فيها منذ قرون.

جنّيُّ التعصب الديني منتشرٌ في أمريكا اليوم، وذلك ليرهبَ الآباء المؤسسين. سواء ألقينا اللوم لهذا التناقض على القانون العلماني المبتكر أم لا، فإنَّ الآباء المؤسسين لأمريكا كانوا من العلمانيين الذين يؤمنون بفصل الدين عن السياسة بشكلٍ تام. وذلك كافٍ تمامًا لوضعهم بطرفِ من يعترض بشدة على الذين يتفاخرون بوضع الوصايا العشر في أبنية حكومية. ومن المثيرِ؛ التخمين بأن البعض منهم قد ذهبوا حقًا لا بد من

أن يكونوا مؤمنين، أعني لا أدريين أو حتى ملحدين؟ التصريح التالي من جفرسون يجعله مصطفًا مع من ندعوهم باللاأدريين في أيامنا:

«الكلام في اللاماديات هو كلام عن لا شيء. القول بأنَّ الروح الإنسانية، الملائكة والله غير ماديين هو القول بأنهم لا شيء، بمعنى أنه ليس هناك روح، ملائكية أو إله. لا أستطيع التفكير بغير ذلك. لا أريد الغوصَ في متاهات لا يسبر غورها أو في هاويات التخيلات. أنا سعيدٌ ومكتفٍ بما أشغل نفسي به، بدون الأشياء التي ربما تكون موجودة ولكن ليس لدي الدليل على وجودها».

كريستوفر هيتشنز. في كتابه توماس جفرسون: مؤلف أمريكا، يظن بأنَّ جفرسون كان ملحدًا، رغم أن ذلك كان صعبًا جدًا في وقتِه:

ينبغي أن نكونَ جريصين في حكمنا عمّا إذا كان جفرسون ملحدًا أم لا. وذلك لأنه مرغمًا على التعقل في أمورٍ إجباريه لحياتِه السياسية. ولكنه كتب لابن أخته، بيتر كار، عام 1787 بأنه على الإنسان عدم الخوف من التساؤل عن أي شيء منهما كانت العواقب.

«لو وصلت للإيمان بأنه ليس هناك إله، فستجد في هذه المحاولة على الأقل المتعة واللذة العقلية وسيدفعك ذلك لحب الآخرين والحصول على الراحة النفسية».

برأيي إنَّ الرسالة التالية من جفرسون لأبن أخته مثيرة للإهتمام:

«لتهز كل المخاوف من الأجحاف المتذللة التي تزحف تحتها العقول الضعيفة. تثبت الحقيقة في مكانها، واسْعَ للحصولِ عليها في كل شيء وكل رأي. حتى في الأسئلة المحرجة كما في حالة

وجـود الإلـه، لأنه لو كان موجودًا فإنه سـيقدّر الولاء للعقل أكثر من الخوف الأعمى».

هاكم بعض ملاحظات جفرسـون مثل «المسيحية هـي أكثر الأنظمة التـي عرفها الإنسـان تحـوّلاً وتقلّبًـا» تتوافق مـع الإيمان والإلحـاد أيضًا. والشيء ذاته ينطبق على ملاحظات جيمس ماديسون المضادة للكهنوت: تجربة المؤسَّسة المسيحية الرسمية امتدت حتى الآن لخمسة عشر قرنًا. ماذا حصدنا منها؟ على المستويات كافة بنسـب متفاوتة، فخر وكسـل رجال الديـن، تجاهـل وذل العلمانيـين المضاعـف في المجـال الغيبـي والإضهاد المتعصب.

و ينطبق الشيء نفسـه على بنجامين فرانكلين «المنارات اكثر فائدة من الكنائـس وجون ادامز» لو لم يوجد الدين لكان هذا العالم أفضل ما يمكن أن يكون».

ادامـز لـه بعض المقـولات اللامعـة والاكثـر تهـكًا على المسـيحية: «المسـيحية كما فهمتها كانت ولا تزال روحانية. فما هو السبب بأنَّ الملايين مـن الخرافات والقصص والأسـاطير قـد امتزجت بالروحانيـة اليهودية والمسيحية لتجعلهـا أكثـر الأديـان التـي وُجـدت دموية؟» وفي رسـالة أخرى، وهذه المرة لجفرسـون، «لقد أقشعر بدن توماس للتفكير بها يلمح له المثال القاتل عن اسـتغلال الحزن بالأسـلوب الأكثر بشاعةً حتى الآن، الصليب فكر بالكوارث التي أتى بها محراك الحزن هذا!».

سـواء كان جفرسـون وزمـلاؤه مؤمنـين، إلوهيـين، لاأدريـين أو ملحديـن، فهـم بالتأكيـد كانـوا علمانيين لحدٍّ كبـير ومؤمنين بـأنَّ تدين

رئيس الجمهورية أو عدمه أمر يخصّه وحده. كل الآباء المؤسسين، على اختلاف معتقداتهم مهما كانت؛ سيُصقعون لقراءة الإجابة التي أدلى بها الرئيس بوش الأب لروبرت شرمان على سؤاله عمّا إذا كان يعدّ المواطنين الأمريكان الملحدين على نفس المستوى من الوطنية والمواطنة: «لا، لا أعلم كيف نعد الملحدين وطنيين أو حتى مواطنين. نحن أمة واحدة تحت راية الله».

على فرض أن شيرمان كان دقيقًا (مع الأسف إنه لم يستعمل آلة تسجيل ولم تنشر المقابلة في أي صحيفة أخرى وقتها).

لنجرّب استبدال كلمة «ملحد» بـ «يهودي» أو «مسلم» أو «أسود». هذا يعطينا مقدار التمييز العنصري الذي يتعرّض له الملحدون في أمريكا في أيامنا هذه. ناتالي أنغير في «اعترافات ملحد وحداني» تصف بحزن يحرك العواطف في «نيويورك تايمز» مشاعر العزلة كملحدة في أمريكا هذه الأيام. ولكن العزلة هذه هي وهم زرعه الإجحاف في الأذهان. الملحدون في أمريكا أكثر عددًا مما يظن الناس. كما ذكرت في مقدمة الكتاب، الملحدون يفوقون المتدينين اليهود عددًا. ولكن اللوبي اليهودي مشهور بقوّته في واشنطن. هذا ما يمكن أن يحصلَ عليه الملحدون أيضًا لو نظّموا أنفسهم بشكلٍ صحيح.

يروى دافيد مايلز، في كتابه «عالم الملحلدين»، قصة تبدو ككاريكاتور غير واقعي عن تعصّب البوليس الأشبه بالخيال. أحد دعاة المسيحية المتعصبين للشفاء بالإيمان بدأ حملة «أعاجيب صليبية» وهذه الحملة تزور مدينة مايلز مرة كل عام. ومن الأمور التي تدعو لها هذه الحملة أن يترك مرضى السكّري حقنَ الإنسولين، ويترك مرضى السرطان الجرعات

الكيماوية ويستبدلوا هذه الأمور بالصلاة. وبكل رويّة، أراد مايلز أن ينظّمَ مظاهرةً سلمية لتحذير الناس. ولكنه أخطأ بذهابه للبوليس وإخبارهم بنيته وطلب الحماية مما قد يتعرضون له من أتباعٍ ومؤيدي تلك الدعاية للشفاء بالإيمان. والبوليس الأول الذي تكلّم معه سأله: «هل مظاهرتك ستكون مؤيدة أو مضادة». أجاب مايلز: «مضادة» البوليس قال بأنه شخصيًا سيكون من أحد المؤيّدين وينوي البصقَ في وجهِ مايلز لو مر بجانبِ مظاهرتِه.

مايلز قرر أن يجرّب حظّه مع شرطي ثان. وذاك قال بأنه لو أنّ أحد أتباع الداعية مارس العنف ضد مايلز فإنه سيوقف مايلز لأنه «يتدخّل في عمل الله». ذهب مايلز لبيتِهِ وتلفن لمركز الشرطة بأملٍ أن يجدَ تعاطفًا على صعيد الرتب العليا. وبالنتيجة وصل للكلام مع رقيب والذي قال له: «لتذهب إلى الجحيم يا هذا. لا يوجد بوليس يريد حماية ملحدٍ ملعون. أمل أن يدميك أحد بشكل فظ أثناء محاولاتك». وهكذا بدت الظروف غير مؤاتية بالمرة في مركز البوليس ذاك، وكذلك اللطف الإنساني والإحساس بالواجب. مايلز تكلم مع سبعة أو ثمانية رجال من الشرطة يومها. لم يحصل على أيِّ تعاونٍ، بل هدّدوه بالعنف.

كثيرة هي الأحداث من هذا النوع ضد الملحدين. ولدى مارغريت داوني – من جمعية الفكر الحر في فيلادلفيا – مدونة تحفظ فيها سجلّات مصنّفة لأحداثٍ كهذه. ولديها مصنّفات تحت أسماء مثل «المجتمع، المدارس، أماكن العمل، الإعلام، العائلة والحكومة» وتحوي أمثلة عن مضايقات، فقدان وظائف، تجنب من أفراد العائلة وتصل حتى للقتل. إنَّ مدوّنات داوني عن الكراهية وسوء الفهم التي يواجهها الملحدون في

أمريكا تجعلنا نؤمن بشكلٍ واضحٍ بأنه لا أمل لملحدٍ صريح بالفوز في أي انتخابات لأي منصب رسميٍّ في أمريكا.

هناك 435 عضوًا في مجلس النواب و100 في مجلس الشيوخ. وبفرض أنَّ الغالبية من الفئة المثقفة من الشعب، فإنه من المحتّم إحصائيًا أنَّ نسبةً كبيرةً منهم ملحدون. من المؤكد أنهم كذبّوا، أو على الأقل أخفوا مشاعرهم حتى يتم انتخابهم. من يلومهم على ذلك إذا أُخِذَ بعين الاعتبار الناخبون الذين يجب إقناعهم؟ ومن المعروف بأنَّ أية محاولةٍ للترشيح للرئاسة هي انتحارٌ سياسيٌّ للمرشح الملحد.

إنَّ تلك الوقائع عن الجو السياسي في الولايات المتحدة، وما تدل عليه، لهي مما كان بالتأكيد سيرعب جفرسون، واشنطن، ماديسون، أدامز وكل زملائهم من ملحدين وإلوهيين ولاأدريين، مؤمنين أو مسيحين، وسيكونون ممن يرتدون على الحكم الديني للقرن الـــــ 21 في واشنطن. ولجعلهم ذلك ينسحبون لطرف الآباء المُوجِدين للعلمانية في الهند بعد «ما يسمى بالدين»، وأعنى أي ظاهرة تديّنٍ منظمة، ليس فقط في الهند، بل في كل مكان، تملأني بالرعب وأنا أعترض عليها كثيرًا وأتمنى أن تُزالَ من الوجود. غالبًا ما تكون عبارة عن إيمانٍ أعمى وردودِ أفعالٍ بدون معنى، عقيدة وتعصب، غيبيات وكلها لتحقيق مصالح شخصية».

إنَّ تعريف نهرو للهند العلمانية كما حلم بها غاندي (لو تحقّق ذلك عوضًا عن تقسيم البلد بأنها من دماء اختلاف العقائد).

هو تقريبًا ما ردّده جفرسون بذاته:

لنتكلم عن الهند العلمانية.. البعض يظن بأن ذلك معارضين للدين. وهذا خطأ واضح. ما تعنيه حقيقة أن الدولة تقدر العقيدة الدينية للجميع بالتساوي وتمنحهم فرصًا متساوية في كل شيء. ولدى الهند تاريخ عريق من التعايش الديني.. في بلد كالهند، حيث يوجد العديد من العقايد الدينية، لا يمكن أن تُبنى الوطنية على أي أساس غير العلمانية.

إنَّ ربَّ الإلوهيين بلا شك متطوّر عن المتوحّش المذكور في الإنجيل. ولكنه للأسف أيضًا بالكاد موجود أو وُجِد. وبأي شكلٍ من الأشكال فإنَّ نظريةَ الله بأي شكلٍ من أشكالها ليست ضرورية، وبحسب نظريات الاحتمال قريبة جدًا من أن تكون كاذبة. وسأشرح ذلك في الفصل الرابع، بعد أن نعالجَ المزاعم عن إثبات وجودِهِ في الفصل الثالث. وفي هذه الأثناء سألتفت للاأدرية وللفكرة الخاطئة عن إنَّ وجودَ أو عدم وجود الإله هو سؤال لا يُطرح؛ لأنَّ العلم لا ولن يتمكن من الوصول لمعالجته.

فقر اللاأدرية:

كان القس المسيحي مفتول العضلات ينتقدنا من منبر المصْلى في مدرستنا القديمة عندما لمح بتقديره للملحدين. إنهم على الأقل يتحلّون بالشجاعة رغم قناعتهم الخاطئة. ما لم يستطع هذا الواعظ تحمله كان اللاأدرية والتي وصفها: سخافة، تفاهة بدون طعم كالشاي الخفيف.

يجلسون على السياج. كان محقًا بشكلٍ جزئي ولكن لسببٍ مغايرٍ تمامًا لتبريره الخاطئ. ونفس المعنى أيضًا نشير لكوينتين دو لا بيدوير، والكاهن الكاثوليكي هوج روس ويليامسون «الاحترام للمتدينين

المتلزمين والملحدين الملتزمين أيضًا، الاحتقار فقط للواهنين الضعفاء المعتدلين الذين يقفون في الوسط».

ليس هناك من خطأ في اللاأدرية في حال عدم توفّر أدلة في صفّ أحد الطرفين. بل إنها الموقف الحكيم في وضعٍ مماثل. كارل ساغان كان فخورًا بموقفه اللاأدري عند سؤالِه عن تواجدِ حياته في مكان آخر من الكون. ورفض إعطاء رأيه. وعندما ضغط عليه المتحدّث يسأله عن «شعوره الداخلي» كانت إجابته الخالدة: «و لكنني أحاول ألا أفكّر من شعوري الداخلي».

و الواقع إنه من المناسب أن نؤجّلَ الحُكم حتى تتوفّرَ الأدلّة. السؤال عن الحياةِ في الكون يحاجج به على الطرفين وهناك حججٌ جيّدة في صالحِ الجهتين. ولكن الأدلة غير متوفرة لتنير المنطقة المضللة لصالح أحد الاحتمالين. اللاأدرية في بعضِ الأمور العلمية هي الموقف الصحيح كما في انقراض البيرميان ذلك الانقراض الأكبر في تاريخ الحفريات الجيولوجية. من المحتمل أنه كان بسبب نيزك مثل الذي سبّب انقراض الديناصورات والذي لدينا عنه أدلة أكثر تجعلنا نميل للاعتقاد بأنه كان السبب. ولكن من الممكن أن يكون لأيِّ سببٍ آخر، أو مجموعة من الأسباب. واللاأدرية موقف صحيح في حالة السؤال عن الانقراضين. و لكن ماذا عن سؤال الله؟ هل بالمستطاع أن نكون لاأدريين هنا؟

الكثيرون قالوا: نعم بدون شك، وبلهجةٍ توحي بأنهم على حافة الغضب وعلى غير استعداد للمناقشة في ذلك.

سأبدأ بمناقشة نوعين من اللاأدرية. لاأدرية مؤقتة عمليًا (ل م ع) وهي الجلوس على السياج بانتظار أدلّة وهي موقف صحيح من المسائل

التـي لها جوابٌ محدّد، بشـكل أو بآخر، ولكننـا لم نحصل بعد على الأدلة التي تثبت (أو لم نفهمها بعد، أو لم نقرأها بعد، إلخ). ل م ع موقف معقول من مسـائل كانقـراض البيرميان. هنـاك حقيقة ونأمـل بمعرفتها يومًا من الأيام، ولكننا لا نعرفها الآن.

و لكن هناك النوع الآخر من الجلوس على السياج هو لاأدرية دائمة بالمبـدأ (ل د م). أسـلوب ل م د في اللاأدريـة مناسـب لأسـئلة ليـس لها إجابات على الإطلاق، مهما حاولنا. السؤال موجود على بعد آخر، أو في مسـتوى آخر، وخارج المنطقة التي تتجمع فيها الأدلة. مثال ذلك المسـألة الفلسـفية المسماة بالكسـتنائية، السـؤال فيما لو كنت ترى اللون الأحمر كما أراه. ربـما إنَّ ما تسـمّيه أحمرَ هو ما أسـمّيه أنا أخضر أو شـيئًا آخر مختلفًا تمامًا عن أي شيء أستطيع تخيّله. الفلاسفة يستشهدون بهذا السؤال كأحد الأسـئلة المسـتحيلة الإجابـة، مهـما كانت الأدلـة قوية ومتوفّـرة. وبعض العلماء والمثقفين يعتقدون بشـكل مبالغ فيه في رأيي بأن سـؤال وجود الله هو من فئة ل م د. وبناء على ذلك كما سـوف نرى، يحصلون على النتيجة غـير المنطقية بـأنَّ نظريةَ وجود الله وعـدم وجوده، لديهـما نفس الاحتمال للصحة.

الفكـرة التي سـأدافع عنها هنا مختلفـة تمامًا: اللاأدرية في حالة سـؤال الله هي من نوع ل م ع. أما موجود أو غير موجود. السـؤال علمي بحث، ويومًا ما سـنعرف الإجابة، وحتى ذلك الوقت نسـتطيع الكلام وبشـكلٍ أقوى من الاحتمالات.

في تاريـخ الأفـكار، لدينا الكثير من الأسـئلة التي أعتقد بـأنَّ إجاباتها خـارج مقـدرة العلـم. في 1835 كتـب عـالم الفلـك الفرنـس المشـهور

أوغوست كُوْنْت عن النجوم: «لن نستطيع أبدًا وباستعمال أي طريقة أن ندرس المواد الكيماوية التي تؤلف النجوم أو تركيبها الذرّيّ» ولكن حتى من قبل، ألن ينشر كُوْنت كلامه كان فراونهوفر قد بدأت بتحليل كيماويات الشمس باستعمال المنظار الطيفي. والآن فإنَّ مستعملي المناظير الطيفية فنَّدُوا لاأدرية كونت بدراساتهم الدقيقة للنجوم البعيدة ومركباتها الكيماوية. ما حصل للاأدرية كُونت الكونية هنا يفتح أعيننا على الأقل، على أنه يجب علينا التروّي قبل التصريح المبكر باللاأدرية رغم ذلك لا يتوانى العديد من الفلاسفة والعلماء عن التصريح عنها عندما يتعلّق الموضوع بالله. وعلى رأسهم مخترعُ المصطلح بذاته ت. هاكسلي. شرح هاكسلي لموقفه من هذه الكلمة كان كرد على هجوم شخصي عليه. عندما صبَّ مدير الكلية الملكية في لندن، الدكتور الموقّر وايس ازدراءه عليه بسبب «لاأدريته الجبانة».

ربما إنه يفضّل نفسه باللاأدري، ولكن الكلمة الحقيقية أقدم من ذلك، كلمة كافر، ربما لأنها تحمل معنى غير سار. ويصح أن تكون كذلك. إنه لشيء غير مسر لأي شخص أن يقول على الملأ بأنه لا يؤمن بالمسيح.

هاكسلي ليس ممن يترك هجومًا كهذا يمضي بدون أي رد فعل، وإجابته عام 1889 كانت شديدة القسوة كما هو المتوقع (على الرغم من أنه لم يبتعد عن حسن السلوك: كما هو الحال في البولدوغ الذي وصفه داروين، المشحوذ الأسنان بالسخرية الحضارية للعصر الفيكتوري). وبالنتيجة وبعد أن نال قصاصَه العادل من د. وايس كما أراده. عاد هاكسلي لشرح كلمة «لاأدرية» وكيف خطرت له.

هنـاك آخرون، ممـن اسـتطاعوا إنجاز بعـض اللاأدرية بنجـاح، وحلو بها مشكلة الوجود. بينما أنا متأكدٌ بأنني لم أستطع ذلك، بل مقتنع تمامًا بدنها مشكلة غير قابلة للحل. وبما أنَّ الفلاسـفة هيوم وكانط بصفي، لم أجرؤ على إبداء أي رأي.. ولذلك فكّرت، وابتكرت الكلمة المناسبة لهذا الموقف اللاأدرية.

وفي قسـمٍ آخر من خطابه، اسـتطرد هاكسـلي ليبين بأنَّ اللاأدرية ليسـت مذهبًا بأي معنى حتى ولو كان سلبيًا. اللاأدرية بالواقع، ليست مذهبًا ولكنها طريقـة، خلاصة للطريقـة الصارمة المطبقة على أي مبدأ. المبدأ يمكن التعبير عنـه بالتأكيد بالشـكلِ التالي الإيجابي: عندمـا يتعلّق الأمر بالعلـم فعليك أن تحلق الأدلة مهما بعدت المسـافات التي تأخذك إليها، تكن مجربة أو بالإمكان تجربتهـا للتأكـد. هذا ما أعنيه باللاأدريـة، وبناء عليها فمن الحق للإنسـان أن ينظرَ للكون وجهًا لوجه ويتساءل بغض النظر عما يخبّئه المستقبل.

هـذه كلـمات نبيلة لأي مشـتغل بالعلـم، ولا يسـتطيع أحـد أن ينتقد هاكسلي ببساطة هكذا. ولكن على ما يبدو أنه بتركيزه على فكرة استحالة برهـان وجـود أو عدم وجـود الله، قد أهمل قوانين وظـلال الاحتمالات. إنَّ اسـتحالة البرهـان على وجود أو عدم وجـود شيء ما لا يجعل وجوده ودعمـه على نفس الدرجة من الاحتمال. ولا أعتقد أن هاكسـلي يعترض على ذلك، وأشـك بأن ما يبدو كذلك من تصريحاته كان كاعتراف بنقطةٍ معينة فقط للتأكيد على أخرى. كلنا فعلنا ذلك بوقتٍ أو بآخر.

و بعكس هاكسـلي، سـأقترح بأنَّ وجودَ الله هو نظريـة علمية كغيرها. بالرغـم مـن أنـه من الصعـب تجربتها عمليًـا، لكنها تدخـل ضمن ل م ع أو اللاأدريـة المؤقتة كما هـي الحال في الخلافات حول انقـراض البريميان والكريتاسـيون. وجـود الله وعـدم وجوده هو حقيقة علميـة عن الكون،

وقابلة للاكتشاف من حيث المبدأ على الأقل إن لم يكن عمليًا. لو كان موجودًا وكشف عن نفسه لوضع حكمًا نهائيًا للجدال وبشكل لا يقبل مجالاً للشكِّ في صالحه. ولكن حتى لو كان، فمن غير الممكن البرهان على وجود أو عدم وجودِه بشكل قاطع، فإنَّ الأدلّة المتوفّرة قد تُرينا احتمالات بعيدة عن الـــــ 50 %.

لذلك دعنا نأخذ طيف الاحتمالات بشكل جدّي، ونضعُ الحكمَ الإنساني على وجودِ الله معه، سيكون لدينا نقطتان متناقضتان بالتأكيد. والطيف ممتدٌّ بدون فواصل، ولكننا نستطيع التركيز على سبع نقاط كعلامات فيه.

1 – مؤمن تمامًا 100 % واثق من احتمال وجود الله. كما في كلمات س. ج. يونغ. «لا أؤمن، بل أعرف»

2 – احتمال عالٍ ولكن أقل من 100 % مؤمن واقعي. «لا أستطيع المعرفة بشكل لا يقبل مجالاً للشك، ولكن أؤمن بالله وأعيش حياتي على هذا الافتراض.

3 – 50 % على التمام. لا أدريين على التمام. «وجود وعدم وجود الله له نفس الإحتمال».

4 – أقل من 50 % بقليل. عمليًا لاأدريين يمليون للإلحاد. «لست متأكّدًا من وجود الله وأميل للشك في وجوده».

5 – احتمال ضعيف جدًا. ولكن أكثر من الصفر. ملحد واقعي. «لست متأكـدًا من عدم وجود الله ولكن اعتقادي بأن الاحتمال ضعيف جدًا، وأعيش حياتي بفرض أنه غير موجود».

6 – ملحد تمامًا. «أعلم ليس هناك إله» بنفس نسبة يونغ «المعرفية».

سيكون مفاجئًا إن أصادفَ أناسًا في المرتبة السابعة ووجودها في الترتيب هو فقط لتحقيق التناظر مع النقطة 1 والتي هي منتشرة تمامًا. إنَّ طبيعة الإيمان تتضمن أنْ يكونَ الإنسان، كما في حالة يونغ، قابلاً للإيمان بأمورٍ بدون أسباب كافية (يونغ يؤمن أيضًا بأنَّ بعضَ الكتب في مكتبتِهِ انفجرتْ فجأةً وأصدرتْ دويًا عاليًا). الملحدون ليس لديهم إيمان، وبالتالي فالأسباب ليست بدوافعَ كافيةٍ لهم لاتهام أي شيء بعدم الوجود. ولهذا فالنقطة السابعة أكثر فراغًا من قرينتها؛ النقطة الأولى، والتي لها الكثير من الأتْباع.

أعتبر نفسي في الخانة السادسة، وأميل للسابعة. وبالتالي لاأدريّتي بالنسبة لله على نفس المستوى تمامًا عندما يتعلق الأمر بالجِّنيات التي في قاعِ الحديقة. تتماشي الاحتمالات المذكورة مع ل م ع (لاأدرية مؤقتة عمليًا). وهناك إغراءٌ سطحي لوضع ل د م (لاأدرية دائمة بالمبدأ) في وسط الاحتمالات، مع الاحتمال 50 % لوجود الله، ولكن ذلك لا يصح. ل د م تجزم بعدم استطاعتنا قول أي شيء لدعم أي طرف. وعلى المدعوين بأنَّ سؤالَ وجود الله ليس له إجابة أن يرفضوا أن يوضعوا في أي مكان على سلم الإحتمالات.

كوني لا أعرف أنَّ اللونَ الأحمر عندك هو اللون الأخضر عندي لا يعطيني الحق في أن أعتبر أن احتمال ذلك هو 50 % فالاقتراح بالنسبة للعرض هنا ليس له أي معنى يمنحه حق وضع أي احتمال. على الرغم من ذلك فهذا خطأ منتشر تمامًا، وسنرى أمثاله لاحقًا، إلا وهو القفز من

المسلمة القائلة بأنَّ وجودَ الله سؤال بدون إجابةٍ للنتيجة بأنَّ احتمال وجودِ الله وعدم وجوده متساويان.

و الطريقـة الأخرى لشرحِ هذا الخطأ. هـو طريقة عبء البرهان، وقد شرحها برتراند راسـل بشـكلٍ لطيفٍ في مثاله عن إبريق الشاي السماوي. الكثيرون من اللاورثودوكسـيين ينتقدون الشاكّين في العقيدة بدلاً من أن يبرهنهـا العقائديون. وهذا خطأ بالطبع. لو أنني اقترحت بأن هناك إبريق شاي صيني بين الأرض والمريخ يلف حول الشمس بمدار إهليلجي، فلن يسـتطيع أحد أن يبرهن أنني مخطئ. سـآخذ بعين الاعتبار طبعًا الوضوح والحرص على أنَّ إبريق الشاي هذا صغيرٌ لدرجة أنه لا يُمكن رؤيته حتى باسـتعمال أقوى التلسـكوبات. ولكن لو قلت، لِمَ زعمي لا يمكن نقضه، فإنه لا أطيق أن يشكَّ أحدٌ في صدقه.

سـيكون كلامـي جزافًـا. ولكن لو كان وجـود هذا الإبريـق موثقًا في الكتـب القديمـة، ويدرس بقدسـية كل يـوم أحد. ومغـروس في رؤوس الأطفال في المدارس، فإنَّ مجرد التردّد في قبول وجودِهِ سـيُعدّ من شـخصٍ ما سـيضعه مع فئة غريبي الأطوار ويستحق اهتمام طبيبٍ نفسيّ في العصر الحديث أو المحقق في أزمنة خلت.

لـن نضيع الوقـت بترّهات كهذه؛ لأنـه على حد علمـي لا أحد يعبد أباريـق الشـاي. ولكن لـو ضغط على أحدنـا فلن نتردد في إعـلان إيماننا الشـديد بعـدم وجـود إبريق على مـدار ما. ورغـم ذلك علينـا أن نكون لاأدريين إبريقيين. لأننا لا نستطيع برهان عدمِ وجودِ إبريق شاي سماوي. وعمليًا فإننا تحولنا من (لاأدريين إبريقيين) إلى لاأبريقيين.

أحد الأصدقاء الذين تربَّوا على اليهودية ولا يزال يمارس طقوسها بسبب الولاء للتراث، يصف نفسه «لاأدري بجنية السن (جنية يقال بأنها تأتي لتأخذَ السنَّ الساقط من الطفل وتترك له نقودًا تحت المخدة – المترجم). احتمال الله في رأيهِ كاحتمال «جنية السن». لا يمكن أن تنفي قطعيًّا وجود أيٍّ منهما وعدم احتمال وجودهما متساوٍ. ولذلك فهو مؤمن بالله بنفسٍ كمية إيمانه بخرافة الجنية. وهو لاأدري بالنسبة للاثنين بنفس النسبة أيضًا.

إبريق الشاي الخاص بـ «راسل» ينطبق على عدد لامتناهٍ من الأشياء المعقولة وغير ممكنة البرهان. يقول المحامي الأمريكي الشهير كليرانس دارو، «لاأؤمن بالله كما لا أؤمن بالأوزة الأم» الصحفي أندرو موللر يرى بأنَّ الالتحاق بأي دين ليس أقل غرابة من أن تعتقد بأنَّ الأرض معينة الشكل ومحمولة عبر الكون على كمّاشات سرطاني بحر يسمون بازميرالدا وكيث. والآخر المفضل عند الفلاسفة هو وحيد القرن الخفيُّ الصامت المعنوي، ومحاولة نفي وجوده من قبل أطفال معسكر كويست. وإله آخر بدأ ينتشر على الإنترنت وأيضًا غير قابل لنفي وجوده تمامًا كيهوه والآخرين، إلا وهو وحش السباغيتي الطائر، والعديد بدأوا يدعون بإنه لمسهم بأطرافه المعكرونية. ومما يسرّني أن إنجيل وحش السباغيتي الطائر قد نشر مؤخرًا على شكل كتاب، وأقدّر لهم ذلك. لم أقرأه بنفسي بعد، ولكن من الذي يحتاج لقراءة كتاب مقدس عندما تكون متأكدًا من صدقه؟ وعلى فكرة، مما لا بد أن يحصلَ هو الانشقاق الكبير والذي نتج عنه الكنسية الإصلاحية المعدلة لوحش السباغيتي الطائر. (كما كان الحال في عهد انشقاق اللوثريين – المترجم)

الغـرض من المبالغة بهذه الأمثلة هو التاكيد على أنه لا يمكن نقضها، ورغـم ذلـك فلا أحـد يفكر بـأنَّ احتـمال وجودها مسـاوٍ لاحتـمال عدم وجودها. الفكرة التي أراد راسـل توضيحها هي أنَّ البرهان هو مسؤولية المؤمـن، وليـس سـواه، وفكرتي أنـا متعقلّة بهـا ألا وهـي أن الاحتمالات لوجود إبريق الشـاي (وحش السباغيتي، أزمير إلدا وكيث، وحيد القرن الخفي.. إلخ) أقل بكثير من احتمالات عدم وجودها.

إنَّ عدم إمكانية نفي وجود إبريق الشاي المداري وجنية السن الساقط لـن يسـبّبَ للشـخص العاقـل أي شـعورٍ بـأن الموضـوع فيه ما يسـتحق الإهتمام. ولا أحد منا يحس بالحاجة لنفي الملايين من الأشياء التي يأتي بها خيال خصب أو يحلم بها أي عقل.

لقد وجدت اسـتراتيجية مدهشـة للإجابة على التساؤل عن إلحادي، ومـن بـاب التنويه بأنَّ السـائل ملحـد أيضًا فيـما يتعلق بزيـوس، أبوللو، آمون، رع، ميثراس، بعل، ثور، فوتان، العجل الذهبي ووحش السباغيتي الطائر. وكل ما فعلته أنا هو إضافة إلهٍ آخرَ للمجموعة.

الجميـع يشـعر بأنَّ لديـه الحق للتعبير عن الشـك الشـديد والتكذيب بشـكلٍ تـام، بغـض النظر عـن إننا (في هـذه الأيام) لسـنا بحاجـةٍ للقلق بخصوص وحيد القرن، وجنية السـن، وإلـه الإغريق والمصريين القدماء والـروم والفايكينغ. أما في حالة الإله الإبراهيمي فعلينا أن نزعجَ أنفسـنا بشـأنه؛ لأنَّ هنـاك العديـد ممن نقاسـمهم الحيـاة على هـذا الكوكب ممن يؤمنـون بوجودهِ بقوة. ومثال راسـل عن إبريق الشـاي الـذي يعرض لنا بـأنَّ الإيـمان بوجودٍ مطلق يشـبه الإيمان بالإبريق السـماوي، لايغيّر عبء البرهان منطقيًا، برغم أنَّ الأمرَ يبدو كذلك كسياسة. إنَّ عدمَ القدرة على

برهـان عـدم وجـود الله مقبول وبديهـي، ولكنه فقـط كأي شيء آخر غير قابـل للبرهـان على عدم وجوده. والمهم هنا هـو ليس إذا كان من الممكن نفي وجود الله ذلك غير ممكن ولكن احتمال وجوده. وهذا موضوع آخر.

هنالـك أشـياء لا يمكن البرهان علـى عدمِ وجودهـا ولكن نحكم على احتمالات وجودها بأقل من أشياء أخرى لا يمكن إثباتها أو نفيها. وليـس هناك أي سـبب لاعتبـار الله منيع عن الاعتبـار والوضع ضمن طيـف الإحتـمالات. وبالتأكيـد ليـس هناك أي سـبب لاعتبـار احتمال وجوده 50 % فقط لأننا لا نسـتطيع البرهان على وجودهِ من عدمهِ كما سنرى لاحقًا.

هل يستطيع العلم أن ينفي وجود الله؟:

كما تكلف هاكسـلي العناء ليؤيـد اللادريين النزيهـين كلاميًا، فالشيء نفسـه يفعلـه الالوهيون في منتصف سـلم الإحتمالات السـبعة ولكن من الجهة المعاكسـة، ولسـبب مكافئ. عالم الدين اليستير ماكغراس ركز على ذلك في كتابه إلـه دوكنز: جينات، صبغات واصل الحياة. وبالتاكيد وبعد ملخـص عادل مثير للإعجـاب عن إعمالي العلمية، يبـدو وكأنه بقي لديه نقطـة واحدة لينقضها: اسـتحالة النكران الضعيف المخـزي لحجة أننا لا نسـتطيع تفنيد وجـود الله. وصفحة بعد أخرى أجد نفـسي أخربش على الهوامش «أبريق الشاي». ومرة أخرى يستعين بهاكسلي في الموضوع، حيث يقـول ماكغراس: «ضقـت ذرعًا بالمؤمنـين والملحدين معًا وهـم يقيمون الحجج العقائدية القائمة على أدلة تجريبية ناقصة، هاكسـلي اعترف بأنه لا يمكن الإجابة عن السؤال المتعلّق بالله باستعمال الطرق العلمية».

و يستطرد ماكغراس بالاقتباس من ستفيان جاي غولد في محاولة مشابهة: «أقولها لكل الزملاء وللمرة المليون (من جليسي الكليات وحتى مقدمي الأطروحات العلمية): العلم ببساطة لا يستطيع (بإستعمال الطرق الشرعية) الحكم في مسألة فيما إذا كان الله قائمًا مشرفًا على الطبيعة. ولا نؤكده ولا ننفيه، بل ببساطة نقول بأنه ليس لدينا القدرة للتعليق على هذا الموضوع كعلماء».

و بالرغم من كل هذه الثقة الرهيبة والنبرة الحادة فيما يرغم، فهل هناك أي سبب لتصديق ذلك؟ لماذا لا يحق لنا التعليق على الله، كعلماء؟ ولماذا لا يكون أبريق الشاي ووحش السباغيتي الطائر منيعين من الشكل بنفس الدرجة؟ وكما سأناقش خلال لحظات، فإن كونا مع خالق مشرف عليه سيكون حتمًا نوعًا مغايرًا للكون بدون خالق. لماذا الحكم بأن هذا ليس سؤالاً علميًا؟

غولد يستمر في فن العناء من أجل فكرة في كتابه الأقل شعبية، صخور الأزمنة. وفيه قدم فكرة الاختصاصات غير المتداخلة واختصارها أغ م.

الشبكة العلمية، أو القضايا الخاصة بالعلم تغطي العالم التجريبي، مما يتكون الكون (واقع) وكيف يعمل بهذا الشكل (نظرية). القضايا الدينية تمتد لتعني بما يتعلق بالمعنى المطلق والقيم الأخلاقية. وليس هناك من تداخل في تلك القضايا، ولا يمكن أن يتأثروا ببعض (كمثال، قضية الفن وقضية معنى الجمال). ولنستشهد بالمقولة القديمة. العلم يدرس عمر الصخور والدين يدرس صخور الزمن، العلم يدرس السماء والدين يرينا كيفية الذهاب إليها (الجنة والسماء لهما نفس الكلمة [المعنى] بالإنجليزية - المترجم)

يبـدو ذلك رائعًـا حتى الوقت الذي تبـدأ فيه بالتفكـير في هذه المقولة لبرهة.

ما هي تلك الأسئلة الأبدية التي يُعدّ الدين فيها ضيف الشرف القابل للإجابة بينما على العلم أن ينسل بعيدًا ويحتفظ باحترامه لنفسه؟

مـارتي ريس، الفلكـي المميز من كامبريدج والذي ذكرته مسـبقًا، يبدأ كتابـه بيئتنـا الكونية بطرح سـؤالين وإعطاء «أغ م» إجابة ودّيّة. «السـؤال البـارز والغامـض عن وجود أي شيء بشـكل عـام. وعما ينفـخ الحياة في المعادلة الكونية ويجعلهما حقيقة؟ سـؤال كهـذا لا يقع في نطاق العلم، بل هو في مجال الفلاسفةِ وعلماء الدين».

و لكـن أنـا أفضّل القول بأنه لـو كان خارج نطاق العلـم فهو بالتأكيد خـارج نطـاق الدين (و أشـك بأن الفلاسـفة سيشـكرون «رِيْـس» على وضعهـم صفًا لصف مـع رجال الديـن). وشيء ما يدفعنـي لئن أعجبَ مـن السـبب الحقيقـي الذي يعطـي الحق لرجـال الدين بأن يكـون لديهم نطـاق. وما زلت أذكر ملاحظات عميد كلية أوكسـفورد السـابق. عندما طلـب أحد طـلاب العلوم الدينية الشباب بمنحةٍ لعمـل أبحاث خاصة بالدكتـوراه عن علم الدين المسـيحي مما دفع العميد للقول «عندي شـك عظيم في إمكانية اعتبار موضوعك بحثًا من الأساس».

مـا هي مجالات الخبرة التي يقدّمها علماء الدين في الدراسـات الكونيةِ العميقة والتي لا يستطيع العلماء الإجابة عنها؟ في كتاب آخر ذكرت كلمات لفلكي من أوكسفورد عندما سألته سؤالاً عميقًا في موضوع الفلك: « آه، لقـد خرجنـا الآن من نطاق العلم. وهنا عليّ أن أسـلّمَ السـؤال لصديقي

القسّـيس». لم تكن لديَّ سرعةُ البديهة اللازمة لأطلقَ الإجابة التي كتبت عنهـا لاحقًـا: «ولكن لماذا القسّـيس؟ وليـس الجنائني أو الطبّـاخ؟» لماذا يحترم العلمُ بشـكلٍ عظيم طموحَ رجالاتِ الديـن عندما يتعلّق الموضوع بأسئلةٍ ليسوا مهيّئين للإجابة عنها أكثر من العلماء أنفسهم؟

الكليشـية المضجّـرة (وعلى عكس كليشـيهات أخرى، ليسـت حتى صحيحة) التي تقول بأن العلم يشغل نفسه بالسؤال كيف، بينما الدين هو المجـال الوحيد المهيّأ للإجابة عن السـؤال لماذا. وما هو تعريف (السـؤال لماذا) بحق السـماء؟ لا يمكن حسبان كل عبارةٍ تبدأ بالكلمة «لماذا» سؤالاً شرعيًا. لماذا وحيد القرن غير مرئي؟ بعض الأسـئلة ببسـاطة لا تسـتحق أجوبـة. مـا هو لـون التجريدية؟ ما هـي رائحة الأمل؟ إن تكـون الجملة صحيحـة قواعديًـا لا يجعلها ذات معنـى، أو يجبرنا لأخذهـا بجدية. ولا يعني ذلك أبدًا، وحتى في حالة السـؤال الصحيح، الذي لا يستطيع العلم الإجابة عليه، إنَّ الدين قادر على ذلك.

ربـما هناك أسـئلةٌ عميقـةٌ وصادقـة وذات معنى وخارج نطـاق العلم للأبـد. ربما نظرية الكم تقدّ على أبواب الـلاإدراك. ولكن ما الذي يجعل أي منا يفكر بأنه لو عجز العلم عن إعطاء إجابة لسـؤال أبديٍّ نهائي، فإنَّ الدين سـيجيب عليه؟ أشـك بـأنَّ فلكيًا كامبريدج وأوكسـفورد يعتقدان بـأنَّ رجـال الدين عندهم أيـة خبرة تؤهّلهـم للإجابة على أسـئلة علمية عميقـة. وأعتقد أنه كلاهما، مـرة أخرى، يتكلفان العنـاء ليكونا مهذّبَيْن: رجـالُ الدينِ ليـس لديهم أي شيء ذو قيمة في أيـة مواضع أخرى، لذلك دعنا نلهيهم ببعض الأسـئلة التي لم وربما لن يسـتطيع أحدٌ الإجابة عليها. وعلـى عكـس أصدقائـي الفلكيين، أعتقـد بأنه ليـس علينـا إلهائهم بأيِّ

شكلٍ من الأشكال. في الحقيقة لم أرَ حتى الآن سببًا جيدًا لاعتداد علم الدين موضوعًا على الإطلاق (لا يتضمن ذلك تاريخ الإنجيل، وآدابه اللغوية.. إلخ).

ولكن بالمقابل نتفق جميعًا على الأقل بأهلية العلم لنصحنا فيما يتعلق بالقيم الأخلاقية فيه مشكلة أيضًا. ولكن هل يريد غولد حقًا أن يعطي الحق للدين للفصل بين الجيد والسيّئ؟ إنَّ عدم استطاعة الدين تقديم أي شيء آخر للإنسانية لا يعطيه رخصةً مجانية ليملي علينا ما نفعل، وعلى كل حال، أي دين يجب أن يؤخذ بعين الاعتبار؟ الدين الذي تربّيت عليه؟ وأي قسم من الإنجيل علينا اتّباعه؛ لأنهم لا يجتمعون على كل شيء وبعض الآراء مقرفٌ بالمقاييس المعاصرة، كم عدد اللغويين الذين قرأوا ما يكفي من الإنجيل ليعرفوا بأنَّ الموت هو عقوبة ممارسة الجنس، عقوبة جمع الحطب يوم السبت، وعقوبة عقوق الأهل؟ لو استثنينا سِفْر التثنية وسِفْر اللاويين (كما يفعل المتطلعين الحديثين)، فعلى أي أساس نقرر القيم الدينية التي نتقبلها، أم علينا اختيار القيم التي تناسبنا من بين ديانات العالم؟ وعندها علينا أن نسأل ثانيةً، ما هي المعايير التي نستعملها؟ ولو كان لدينا معيار مستقل للاختيار بين أخلاقيات الديانات، لماذا لا نستبعد ذلك الوسيط ونختار قيمنا بمعزلٍ عن الدين؟ وسأعود لهذا السؤال في الفصل السابع.

ببساطة لا أستطيع تصديق أن غُوْلْد قد عُنيَ بالكثير مما كتبه في صخور الأزمنة. وكما قلت سابقًا. كلنا مذنبون إذ تكلّفنا العناء لنكون لطيفين لخصمٍ عديم القيمة ولكن ذو نفوذ، وأنا أعتقد أن هذا ما فعله غولد. من المعقول أنه عنى صراحة وبقوة بأنَّ العلم وليس لديه أي شيء يقوله

بما يتعلق بوجود الله. «لا نستطيع تأكيده أو نفيه، بل ببساطة ليس لنا أي تعليق على ذلك كعلماء» ذلك يبدو نوعًا من اللاأدرية الدائمة وغير القابلة للنقض تمامًا. هذا يعني أنَّ العلم ليس قادرًا حتى أن يضع حكمًا احتماليًا عن هذا السؤال. وهذه مغالطةٌ منشرة بشكلٍ كبير. الكثيرون يردّدونها ككلمة سحرية والقليلون - في اعتقادي - فكّروا بإبعادها وهؤلاء يجسّدون ما رمزت له «بفقر اللاأدرية».

وعلى فكرة؛ لم يكن غُوْلد لاأدريًا، بل كان يميل بقوة لفئةِ الإلحاد الواقعي. على أي أساس أتخذُ هذا القرار إذا لم يكن هناك أي شيء ممكن القول عن وجود الله؟ نظرية الإله تتضمن أنَّ الحقيقة التي نعيش فيها لها عميلٌ خارق هو الذي صمّمَ الكون، والعديد من فروعِ هذه النظرية تدعي أن المصمم يقوم بالصيانة على الدوام وأحيانًا يتدخل بمعجزات والمعجزات هي خرق للقوانين التي لا تقبل التغيير.

ريتشارد سوينبورن، أحد قادة علماء الدين الإنكليز، يفاجئنا بصراحتِه في هذا الشأن في كتابه هل هناك إله؟ ما يزعمه المؤمن عن الله بأنَّ لديه القدرة على الخلق، الحفظ للأبد لأي شيء كبير أو صغير. وإنه يستطيع جعل الأشياء تتحرك أو تفعل أي شيء آخر.. يستطيع تحريك الكواكب كما اكتشفها كبلر، أو جعل البارود ينفجر عندما يقترب عود ثقاب منه، ويستطيع جعل الكواكب تتحرّك بأيةِ طريقة أخرى، وجعل المواد المتفجّرة عادة، لا تنفجر تحت نفس الظروف. الله ليس محدودًا بقوانين الطبيعة، هو وضعهم ويستطيع أن يغيّرهم متى شاء.

سهل جدًا، أليس كذلك! بإمكان ذلك أن يكونَ أي شيء ما عدا (أ غ م) وبعيد كل البعد عنها. وماذا يريدون القول أيضًا، على هؤلاء

العلماء المنشغلين بمدارس فكرية تتعلق باختصاصات أخرى أن يعترفوا بأنَّ كونًا مع خالق خارق سيكون مختلفًا عن كونٍ بدون خالق، والفرق بين النظريتين لا يمكن أن يكون أكثر مبدئية وعمقًا، بالرغم من أنه ليس من السهل إجراء تجارب عمليًا. ذلك يقوّض تمامًا القول المأثور والمغري بأنَّ على العلم السكوت تمامًا عندما يتعلق الأمر بادّعاءات الدين.

وجود وغياب الخالق الخارق هو سؤال علميٌّ بشكلٍ صريح، على الرغم من استحالتهِ عمليًا أو الإجابة عنه الآن. وكذلك الأمر بالنسبة لصحة أو كذب كل واحدة من الأعاجيب التي يعتمد عليها الدين ليخلق انطباعًا في نفوس العديد من المؤمنين.

هل كان للمسيح أبٌ إنساني، وهل كانت أمه عذراء يوم ولدته؟ سواء كان أو لم يكن لدينا دليل نقرر به، فلا يزال هناك سؤالٌ علميٌّ صارم وإجابة مؤكدة عليه بالمبدأ: نعم أو لا. هل أقام المسيح اليعازر من الموت؟ وهل قام هو نفسه ثانية، ثلاثة أيام بعد صلبه؟ هناك إجابة لكل سؤال من هذا النوع، سواء كان أو لم يكن لدينا دليل عملي، وهو جواب علميٌّ محض. كما أن الطرق الواجب استعمالها لحل المسألة في حال العثور على أدلة مساعدة عملية (الشبه مستحيلة)، يجب أن تكون طرقًا علمية صرفة. ولجعل المسألة أكثر درامية، لنتخيّل بأننا ولسبب ما، عثرنا على دليل يقول بأنَّ الحمض النووي للمسيح لا يوجد فيه أثر لأبٍ بشري. فهل تتصور معي أنَّ رجال الدين سيهزون اكتفاهم والتصريح بمقولات كالآتي؟ وماذا يهم ذلك؟ الأدلة العلمية ليس فيها ما يخص علوم الدين. هذا اختصاص آخر! ما يهمنا هو السؤال الأبدي عن المسائل الأخلاقية.

لا حمض نووي أو أي اكتشاف علمي آخر سيكون له أي تأثير على اختصاصنا بأي شكلٍ من الأشكال».

الفكرة بحد ذاتها مضحكة وتستطيع الرهان على أي شيء بأنه لو ظهرت أي أدلة علمية، لتمَّ التشبّثُ بها ووصلت الضجّة للسماوات. إن شيوع (أ غ م) يعود لعودة وجود أدلة في صالح نظرية وجود الله. وي اللحظة التي يظهر فيها أي اقتراحٍ لدليل في صالح الإيمان الديني فلن يتوانى رجال الدين عن رمي مقولة (أ غ م) من النافذة. لو تركنا رجال الدين المتطورين (برغم محبتهم لسرد الأعاجيب على البسطاء بغرض جمع الأتباع) على حدة؛ فإنَّ تلك الأعاجيب المزعومة هي السبب الرئيسي الذي يجعل من يصدّقها مؤمنًا، والأعاجيب بالتعريف هي شيء يناقض المبادئ العلمية.

كنيسة الروم الكاثوليك تبدو في بعض الأحيان وكأنها تتطلّع إلى (أ غ م)، ومن جهة أخرى تناشد بتصديقِ المعجزات كمعتقدٍ أساسيٍّ في مجال القدسية. ملك بلجيكا الراحل كان مرشحًا ليكون قدّيسًا؛ لأنه عارض مسألة الإجهاض. وتحقيقات جدية تجري الآن للكشف عن أي معجزة شفائية يمكن نَسْبُها للدعاء والصلوات التي ترفع إليه منذ موته. لا أمزح هنا، فهذا واقع، وذلك مثال على قصص القديسين. وأنا أتخيّل بأنَّ ذلك مما يسبب الإحراج للحلقة الأكثر تطورًا من أعضاء الكنيسة. لماذا تبقى أية حلقة كنيسة (متطورة) تابعة للكنيسة هو بذاته من الأسرار العميقة التي يسر بها علماء الدين.

عندما يُواجَه غُوْلْد بقصص المعجزات يُفترض بأنَّ رده سيكون كما يأتي: كل ما يُفترض أن يكون في (أ غ م) هو إنه صفقة مزدوجة. وفي

اللحظة التي يطأ فيها الدين على مرج العلم ويبدأ بالتدخل في العالم الحقيقي بمعجزاته، فإنه سيتوقف عن أن يكون دينًا بالمعنى الذي يدافع عنه غولد، وتسقط اتفاقية الصداقة الموقعة بين الدين والعلم.

لنلاحظ، على أي حال، بأنَّ الدين الخالي من المعجزات الذي يدافع عنه غولد ليس مقبولاً من معظم المؤمنين على المقاعد الكنيسة الطويلة أو على سجادات الصلاة؛ لأنَّ ذلك سيسبب لهم خيبة أمل عظيمة. وأتبنّى هنا التعليق الذي أتت به «إليس» على خطاب أختها قبل أن تسقط في أرض العجائب، ما فائدة إلهٍ لا يصنع العجائب ولا يستجيب للصلوات؟ لنتذكر التعريف الذكي للفعل «صَلِّ» والذي قدّمه إمبروس بيرس: «هو المطالبة بإبطال القوانين الكونية لأجل ملتمسٍ واحد غير مستحق لذلك باعترافه هو شخصيًا». هناك رياضيون يؤمنون بأنَّ الله ساعدهم على الفوز على الخصم، الخصم الذي لا يبدو بالمقابل أقل استحقاقًا للتفضيل من قبل الله. هناك سائقون يؤمنون بأنَّ الله قد حجر لهم أماكنَ ركنٍ لسياراتهم، وبالمقابل حرّم أحدًا آخرَ منها. إنَّ أسلوب الإيمان منتشر بشكل يدعو للإحراج، ولا يبدو من الممكن أن يتأثّر بشيءٍ عقلاني ظاهريٍّ كمبدأ (أ غ م)

برغم ذلك لنتبّع غولد ونلغي الكثير من الأشياء ونضع الحد الأدنى للدين: لا معجزات ولا اتصالات بيننا وبين الله بالاتجاهين. ولألعب بالقوانين الفيزيائية، ولا ندعس على مرج العلم. أكثر ما هنالك؛ الإيمان بظروف مبدئية بأنه في وقتٍ ما تطوّرت النجوم والكواكب والعناصر الكيميائية، وظهرت الحياة. هل هذا الفصل كافٍ؟ هل بإمكان مبدأ (أ غ م) البقاء بجانب دين متواضع معتدل كهذا؟

ربما تظن بأنَّ الأمر كذلك. ولكن سأقول بأنَّ حتى الإله غير المتدخل كهذا، إلهٌ مع (أ غ م).. بالرغم من أنه أقل دمويةً وخراقةً من الإله الإبراهيمي، فإنه أيضًا لا يعدو عن كونه افتراض علمي.

سأعود للنقطة الأساسية: الكون الذي يفترض أننا نعيش فيه بمفردنا أو مع مخلوقات ذكية أخرى تتطوّر ببطء، هو كونٌ مختلفٌ تمامًا عن كونٍ صمّمه ويوجهه وكيلٌ من نوع ما. وسأقبل بأنَّ التفريق بين هذين الكونين لن يكون مسألة بسيطة. على الرغم من ذلك، فهناك شيء أساسي خاص تمامًا لنظرية الكون المصمم، ويوجد ما يقابله في الخصوصية في النظرية المغايرة والمعروفة: التطور التدريجي بمعنى عام، نظريتان متناقضتان بأقصى ما يمكن تخيله. نظرية التطور تعطي تفسيرًا لوجودِ كيانات احتمال وجودها صغيرٌ جدًا لدرجةٍ يمكن إهمالها تمامًا في أية نظرية أخرى.

و نتيجة المحاجحة تلك ستكون كما سأبيّن في الفصل الرابع، ضربةً قاضية لنظرية الإله.

تجربة الصلاة (الدعاء) الكبرى:

إحدى التجارب المسليّة إن لم نقل المثيرة للشفقة، عن المعجزات، كانت تجربة الصلاة الكبرى: هل تساعد الصلاة للمرضى على شفائهم؟ الصلوات والأدعية شائعة للمرضى، بنوعيها الشخصية والعامة في أماكن العبادة. ابن عم داروين فرانسيس غالتون كان أول من حلّل الموضوع بشكل علمي. لاحظ بأنَّ كل الناس المجتمعين في كنائس إنكلترا يدعون بالصحة للعائلة المالكة كل يوم أحد. أليس من المنطقي أن تكون العائلة بصحة جيدة بشكل ملحوظ بالمقارنة معنا، نحن الذين لا يصلي لنا إلا

أقـرب أقاربنـا؟ غالتون نظر للموضوع ولم يجد أيـة فروق إحصائية تدعم النظرية. ربما كان هجائيًا بما فعل، كما صلّى أحد المرّات على قطع صغيرة متفرقـة مـن الأرض ليرى إن كانت مغروسـاتها سـتكبر أكثر مـن القطع الأخرى (لم ينجح في ذلك بالطبع).

و في وقت قريب، قام الفيزيائي راسل ستانارد (أحد أهم ثلاث علماء متدينـين في إنكلـترا كما سـنرى) باسـتخدام مركزه العلمي لدعـم مبادرة ممولة من بالطبع من مؤسسة تمبلتون، للتأكد بالتجربة من الدعوى القائلة بأنَّ الدعاء للمرضى يؤدّي لتحسّن صحتهم.

لتكـون تجربـة كهذه دقيقة يجـب أن تتم بمبدأ (العمـى المزدوج). قد تحقـق ذلك بصرامة. اختـير المرضى بطريقة عشـوائية تمامًا لثلاثة فئات، الفئة الأولى فئة التجربة (يتقلون دعوات)، الثانية فئة المقارنة (لا يتلقون دعـوات)، لا المرضـى ولا الأطبـاء أو ممرضيهـم وحتـى القائمين على التجربـة مسـموح لهم بمعرفة مـن المرضى المدعو لهم ومـن هم المرضى للمقارنـة. وعلى الداعين معرفة أسـماء الذين يدعون لهـم، وإلا فكيف يمكنهـم التأكـد مـن أنهـم لا يدعـون لأناس آخريـن بالخطـأ؟ ولذلك إعطاهـم القائمـون على التجربة الأسـم الأول للمريـض وأول حرف من اسـم العائلة. ويجب أن يكون ذلـك كافيًا ليضع الله يده على السرير الصحيح في المستشفى.

إنَّ فكـرة تجربـة كهـذه بحد ذاتها من السـخافة بمكان، وقد اسـتخف القائمـون عليهـا مـن قبل البعض. ولم أسـمع بـأنَّ بوب بيوهـارت عمل استكشافًا مضحكًا بعد ولكنني أستطيع تخيل صوته المميز:

"ماذا تقصد يا رب؟ لا تستطيع شفائي لأنني عضو في فئة المقارنة؟ حسنًا.. يبدو أن دعوات عمتي ليست كافية. ولكن يا رب، السيد إيفانز في الغرفة المجاورة.. ماذا تقول.. تلقى دعوات من ألف شخص في اليوم؟ ولكن السيد إيفانيز لا يعرف ألف شخص... آه.. نادوه بـ جون أ. ولكن يا رب، كيف علمت أنهم لا يقصدون جون إيلسورثي؟ أها، استعملت معرفتك اللامحدودة لتعرف أي جون يقصدون... ولكن يا رب».

و لكن وبكل جرأة وبدون أي التفات لأي سخرية صرف فريق البحث 2,4 مليون جنية إسترليني من أموال مؤسسة تمبلتون تحت رئاسة الدكتور هربرت بينسون، طبيب قلبية من مركز مايندا بودي الطبي بالقرب من مدينة بوسطون. وقد كتب عنه في أحد النشرات الصحفية أنه «ممن يؤمنون بأنَّ البراهين على فعالية الدعاء التوسطي في الأماكن الطبية تزداد».

أؤكد ثانية أنَّ التجربة كانت في أيادٍ أمينة ولم تمسها أي شكوك. والدكتور بنسون وفريقه راقبوا 1802 مريضًا في ست مستشفيات مختلفة، وجميعهم خضعوا لنفسِ العملية الجراحية للشريان التاجي. والمرضى قسموا لثلاثة مجموعات. المجموعة الأولى تلقت الدعاء ولم يعرف أعضاؤها بذلك. المجموعة الثانية (المقارنة) لم تتلقَّ دعوات ولم يعرف أعضاؤها بذلك. والمجموعة الثالثة تلقّت دعوات وعرفوا بذلك. المقارنة كانت بين المجموعة الأولى والثانية لمعرفة فعالية الدعاء. أما المجموعة الثالثة، فكانت لمعرفة التأثير النفسي الناتج عن معرفة المريض بأنَّ أحدًا ما يدعو له.

الدعاء تم في تجمعات في ثلاث كنائس، واحدة في مينيسوتا، وواحدة في ماساشوستش، والثالثة في ميسوري، كلها بعيدة عن المستشفيات الثلاثة. وأعطى الداعون كما ذكرنا الاسم الأول وأول حرف من اسم العائلة. من الجيد أن تكون للتجربة قياسيات محكمة أكثر ما يمكن. وكل الداعين عليهم أن يقولوا الجملة التالية: «لأجل جراحة ناجحة وشفاء سريع وصحي وبدون مضاعفات»

النتيجة كما نشرت في المجلة الأمريكية للقلب في نيسان 2006 كانت قاطعة. لم يكن هناك فرق بين من تلقوا الدعوات وبين من لم يتلقوها. يا للمفاجأة. والفرق كان بين الذين عرفوا بأنهم يتلقون الدعاء ومن لم يعرفوا على الطرفين. ولكن بالاتجاه المعاكس. الذين عرفوا بأنَّ الناس يدعون لهم حصلت لهم مضاعفات أكثر بكثير من الذين لم يعرفوا. هل ضرب الله النتائج ليرينا عدم موافقته على مؤسسة المعتوهين تلك؟ الأكثر احتمالاً هو أنَّ هؤلاء الذين عرفوا بأنهم يتلقَّون الدعوات قد عانوا من إجهاد نتيجة القلق على القابلية الجسدية كما وصفها المجرِّبون.

الدكتور تشارلز بيثيا، أحد البحّاثة قال «قد تكون معرفتهم هي جعلتهم يتساءلون، هل أنا مريض لهذه الدرجة حتى استدعى الأمر الدعاء لي؟ وفي هذا المجتمع المُغرم بدعاوي بالقضاء في أيامنا. هل نبالغ لو أمّلنا بأن يجتمعَ عددٌ من المرضى ويرفعوا دعوى ضد مؤسسة تمبلتون، لأنَّ بسبب إبلاغهم تلقّوا صلوات قد سببت حدوث مضاعفات صحية لهم».

ليس من المفاجئ أن هذه الدراسات تلقّت معارضة علماء الدين، ربما لأن تلك النتائج تستطيع أن تسبب بعض التسخيف للدين. عالم الدين ريتشارد سوينبورن من أوكسفورد كتب: بعد فشل الدراسات

على أســاس أن الله يســتجيب للدعوات فقط في حالة كونها لسبب جيد. الدعاء لشخص بدلاً عن آخر، لسبب أن النرد وقع عليه في دراسة (عمياء مزدوجة)، لا يشـكل سـببًا جيدًا. والله سـيرى من خلاله. وهذه بالتأكيد النقطة التي تخيّلتُ منها المشهد الهزلي لـ «بوب بيوهارت»، و«سوينبورن» لديـه الحـق في مـا يقـول أيضًـا. ولكـن في مقطـع آخر مـن المقالـة يصبح سـوينبورن أكثر من هزلي.. وليس للمرة الأولى، يحـاول أن يظهر المعاناة كعدل في كون يديره الله:

> «معاناتي تعطيني الفرصة لأظهر شجاعة وصبرًا. وتعطيك الفرصة لتظهر تعاطفًا وتقدم مسـاعدة لتخفيـف معاناتي. وتعطي المجتمع فرصة للاختيار ولأخذ القرار فيما إذا كانوا يريدون اسـتثمار الكثير مـن المال لإيجاد ما يشـفي هذا النـوع أو ذاك من المعانـاة... وعلى الرغـم مـن أن الله القدير يحزن على معاناتنـا ولكن همه الأول هو أي يظهر كل منا صبرًا..
>
> تعاطفًا وكرمًا وبذلك، تتجسـد شـخصيته المقدسـة. بعض الناس بحاجـة ماسـة ليمرضـوا بشـدة وذلك لتأمـين الفرصـة للآخرين ليتّخذوا قرارًا مهمًا. وهذه هي الطريقة الوحيدة التي تشجع الناس ليتخـذوا قـرارات جديـة عن الشـخص الذي يريـدون أن يؤولوا إليه. وللبعض الآخر، فالمرض شيء لا قيمةَ له».

تلـك القطعة المشـوهة مـن الفكـر، بإدانتهـا الكاملة للعقليـة المتدينة، تذكـرني بإحدى حلقـات التلفزيون التي كنت فيها مع سـوينبورن، وكان هنـاك أيضًا بروفيسـورنا الأكسـفوردي بيتر اتكينز. سـوينبورن حاول في لحظـةٍ مـا أن يبرِّر «الهولوكوسـت» على أسـاس أنها أعطـت فرصة رائعة

ليظهروا شجاعة ونبل. بيتر اتكينز هدر فيه وقتها، لتتعفن في الجحيم». (حذفت في المونتاج).

وفي مقطع آخر نرى مرة أخرى قطعة من الفكر الديني من مقال سوينبورن. حيث يقترح بأنه لو أراد الله أن يرينا وجوده لوجد طريقًا أفضل من التحيّز في إحصائيات تجربة شفائية لمرضى القلب. لو أنه أراد حقًا أن يقنعنا بوجوده «لملأ الدنيا بالمعجزات الخارقة». ولكن عندها يسقط في يده ويقول: هناك العديد من الأدلة على وجود الله على كل حال، وربما وجود أدلة أكثر من اللازم ليس جيدًا من أجلنا»! اقرأ هذا ثانية وجود أدلة أكثر من اللازم ليس جيدًا من أجلنا. ريتشارد سوينبورن متقاعد حديثًا وحاصل على أرفع مستوى للأستاذية لعلم الدين في إنكلترا، وعضوٌ في الاكاديمية البريطانية.

لو كان عالم دين هو ما تطلب، فلن تحصل على أرقى من ذلك. ولكن قد يكون هذا ليس طلبك. سوينبورن لم يكن رجل الدين الوحيد الذي شكك في الدراسة بعد فشلها. وقد أعطي للموقر ريموند ج. لورنس مساحة جيدة من نيويورك تايمز لشرح لماذا على رجال الدين الملتزمين أن يتنفسوا الصعداء بإرتياح لأنه لم يتم إيجاد قرائن على أن التوسّط بالدعاء له أي تأثير. هل كان سيعزف نغمًا آخر لو أن دراسة بنسون نجحت في استعراض قوى الدعاء؟ ربما لا، ولكن تأكد بأنَّ آخرين كثر من رجالات الدين سيفعلون. إنَّ مقالة لورنس تبرز بصورة رئيسة بالإيحاء التالي: منذ فترة قريبة، أخبرني أحد الزملاء بأن امرأة مؤمنة ومثقفة أتهمت الطبيب الذي يعالج زوجها بأخطاء مهنية في المعالجة. وذلك في أيام احتضار زوجها الأخيرة، وملخصها أنه فشل في الدعاء له».

الأخرين من أتباع (إ غ م) اكدو بأن دراسـة تأثير الدعاء بهذا الشـكل هـو تبذير للـمال لأن التأثـير الخارق بالتعريـف في نطاق لا يصلـه العلم. ولكـن تمويـل منظمـة تمبلتـون للتجربة يجعلهـا معترفة صراحة بـأن تأثير وسـاطة الدعـاء المزعـوم علـى الأقل بالمبـدأ، هـو في نطاق العلـم. تجربة (عميـاء مزدوجة) بالإمكان تحقيقهـا وقد أجريت فعلاً. وكان من الممكن أن تكـون نتائجها إيجابية. ولو حصل ذلك، هل بإمكانك تخيل رجل دين واحد يتجاهل نتائجها على أساس أن العلم ليس له أي تأثير على الأمور الدينية؟ بالتأكيد لا.

لا نحتـاج للقـول هنا، بأن النتائج السـلبية لن تؤثـر على المؤمنين. يقـول بوب بـارث، المديـر الروحي الجمعيـة الصلوات في ميسـوري والتي قدمت قسـمًا مـن الدعاءِ للتجربـة: «ربما يقول الإنسـان المؤمن بأنَّ دراسـة كهذه مهمة، ولكننا صلينا لمـدة طويلة ورأينا تأثير الدعاء، ونعرف إنه فعّال، والدراسات عن الدعاء والصلوات لا تزال في بداية الطريق».

بالتأكيد: نعرف من إيماننا بأنَّ الصلوات لها تأثير، وإذا فشلت الإثباتات فسوف نثبت على مواقفنا حتى نحصل على النتائج التي نريدها.

مدرسة نافيل تشامبرلاين للتطوريين:

مـن الممكن إنَّ أقصى ما يدفع هؤلاء العلـماء الذين يصرّون على (أ غ م) عدم ضعف العلم فيما يتعلق بفرضيه الله، هو جدول الأعمال السياسي الأمريكي، المهدّد باتّباع نظرية الخالق الشـائعة. في بعض مناطق الولايات المتحدة، يقع العلم تحت هجوم من قبل فئة ومنظمة جيدًا ولديها علاقات

واتصـالات بجهات سياسـية، وأهم مـن ذلك مدعومة ماديًـا ومعارضة لنظرية التطور في الخندق الأول.

العلـماء لديهـم كل الحـق بـأن يشـعروا بالتهديـد، لأنَّ الأبحاث تمول بشكل رئيسي من الحكومة، وعلى المنتخبين أن يتجاوبوا مع الفئة الجاهلة والضارة كما مع الفئة المتنورة من الذين ينتخبونهم.

وكـردٍّ على هذا التهديد، نشـأ لوبي مدافع عن نظريـة التطور، ويمثله بشـكلٍ خاص المركز الوطني للتربية العلمية، برئاسـة أوجيني سـكوت، شـخصية لا تهدأ عندما يتعلق الأمر بالدفاع عن العلم وقد أصدرت كتابًا بعنوان «نظرية التطوّر مقابل نظرية الخلق».

أحد أهم أهداف المركز السياسـية هو حشد آراء «الحسّاسين» دينيًا: عامـة لشـخصيات الكَنِيْسـة، الذين لا يعارضـون نظريـة التطور وقد يعتبرونهـا غير عائقة (أو حتى داعمة) لإيمانهم. هؤلاء الكهنوتيون غير المتعصبـين المحرجـين من قبل داعمـي نظرية الخلق التـي تعطي دينهم سـوء السـمعة، هم من يسـعى اللوبي التطـوري لأنَّ يسـمعوه، واحد الطـرق هـي أن يتكلّفـوا العناء بـأن يقرنـوا (أ غ م) ويقبلوا بـأنَّ العلم ليس تهديدًا بأي شكل من الأشكال؛ لأنه منفصل تمامًا عن الادّعاءات الدينية.

نجم آخـر لامع من نافيل تشـامبرلاين التطوريين الفيلسـوف مايكل روس. والـذي حـارب بفعالية مذهـب الخلق على الـورق وفي المحاكم. يزعـم بأنه ملحـد ولكن مقالته في البـلاي بوي تتخذ وجهـة النظر التالية «نحن، المحبين للعلم، علينا أن ندرك بأن عدو عدونا صديق. التطوريون

يصرفـون الكثير مـن الوقت بإهانة مـن يمكن أن يكونـوا حلفائنا. وهذا أوضح في حالـة التطوريين العلمانيين. الملحدين يصرفون وقتًا اكبر بإهانة المسـيحيين المتعاطفين بدلاً من مواجهة حلفاء نظريـة الخلق. عندما كتب جـان بـول الثاني رسـالة يصـادق فيهـا النظريـة الداروينيـة، كان جواب ريتشـارد دوكينز ببسـاطة هو أنَّ البابا منافق، ولا يمكن أن يكون متماشيًا أصلاً مع العلم وأنَّ داوكنز يفضل متطرّفًا أمينًا عليه».

ومـن وجهـة نظر تكتيكية، أسـتطيع رؤية العلاقة السـطحية للمقارنة التـي أتى بها روس عن هتلر: «وينسـتون تشرشـل وفرانكلين روزفلت لم يكونا يحبان سـتالين أو الشـيوعية. ولكنهما أدركا أنه مـن الأفضل العمل مع السـوفييت ضد هتلر والتطوّريين، ولنفس السـبب، عليهم أن يعملوا جميعًـا ضد الخَلْقيين». ولكننـي في النهايةِ أخذتُ برأي زميلي عالم الجِينات جيرى كوين من شـيكاغو عندما كتب بأنَّ روس فشل في استيعاب طبيعة الخـلاف الحقيقيـة. إنها ليسـت تطوريين ضـد خلوقيين. وبالنسـبة لعلماء مثل دوكينز وويلسـون (عالم البيولوجيا الشـهير من هارفارد) فإنَّ الحربَ الحقيقية هي بين العقلانية والغيبية. العلم يأتي من العقلانية بينما الدين هو أكثر أشـكال الغيبيات شيوعًا. والخلوقية ليست إلا أحد أعراض ما يرون فيـه العدو الأكـبر: الدين وبرغـم أن الدين يمكن أن يوجـد بدون نظرية الخَلْق، فالنظرية لا يمكن أن توجد بدون الدين.

اشـترك بشيء واحـد مع الخلوقيين، إنهـم مثلي، على عكس «تشـامبر لايـن» لا يعترفـون بـ (أغ م) وفصـل الاختصاصات. ولكـن بدون أي احـترام للحدود، يحلو للخلوقيين دق المسـامير القمعية الوسـخة في مرج العلم. ويقاتلون بوساخة، أيضًا.

محامو الخلوقيين في القضايا المقامة في الأماكن النائية في أمريكا، يبحثون عن تطوريين ملحدين علنًا. وأعلم - للأسف - بأنَّ أمي استخدم بهذه الطريقة. ذلك تكتيك محكم لأنَّ هيْآت المحلفين المنتقاة بشكل عشوائي ستتضمن على الأرجح بعض الأعضاء الذين تربّوا على فكرة أنَّ الملحدين شياطين متخفين، على نفس مرتبة الشاذ جنسيًا أو الإرهابي (ما يوازي ساحرات سالم وشيوعيين ماكارثي في التاريخ الأمريكي). ولو وضعني محامٍ لخلوقيين على منصة الشهادة سيكسب هيأة المحلفين فورًا بمجرد سؤالي: هل كانت معلوماتك عن التطوّر أحد الأسباب التي دفعتك للإلحاد؟ إجابتي ستكون: نعم، بالتأكيد. وهكذا ومرة واحدة أكون قد خسرت هيأة المحلفين.

و بالعكس فالإجابة الصحيحة قضائيًا ستأتي من الطرف العلماني: إنَّ اعتقاداتي الدينية، أو عدمها، هي عبارة عن شيء شخصي، وليس بأية حال مما يهم المحكمة وليس له أية علاقة بالعلم الذي أمارسه. أنا شخصيًا لا أستطيع قول ذلك بصدق، والأسباب ستأتي في الفصل الرابع.

كتبت صحيفة الغارديان مادلين بونتينغ كتبي مقالاً بعنوان «لماذا يشكر لوبي الخلقيين الله على ريتشارد دوكينز». لا إشارة في المقال على أنها استشارات أحدٍ باستثناء ميشيل روس، ومن الممكن أن يكون هو كاتب المقالب بالوكالة. دان دينيت أجاب باقتباس ملائم من العم ريموس: «أجد من المذهل أن إنكليزيان مادلين بونتينغ ومايكل روس قد وقعا ضحية للنسخة ذاتها لأشهر فكرة نصب أمريكية (لماذا يشكر لوبي الخلقيين الله على ريتشارد دوكينز 27 آذار).

عندما يقع الأرنب فريسة للثعلب فإنه يتذرّع بها يأتي: «أرجوك.. أرجوك، افعل ما تشاء بي أيها الثعلب ولكن لا ترميني في منطقة الورد الجبلي تلك!» وعندما يفعل الثعلب ذلك يصبح الأرنب في أمان.

عندما يكتب الداعية وليام ديمسكي لريتشارد دوكينز سائلاً أن يكملَ العمل الجيد بما يتعلّق بالتصميم الذكي، فإنَّ روس ويونتينغ يقعان فريسة لذلك» آه.. أيها الثعلب، إنَّ زعمك بأنَّ دراسة التطوّر سوف تنفي وجود الخالق؛ سيؤدي ويعرّض تدريس البيولوجيا في المدارس للخطر، لأنَّ تدريسها هكذا هو انتهاك لفصلِ الدين عن الدولة». صح وعليك أيضًا أن تغيّرَ النظرة العالمة للفيزيولوجيا لأنها أعلنت بأنَّ ولادة العذراء شيء مستحيل».

كل ذلك، متضمنًا رجاء الأرنب في منطقة الورد الجبلي، ناقشة التفصيل البيولوجي ب. ز. مايرز وبالمستطاع الاعتماد بشكلٍ موثّق على حدة بصيرته في مفكرته على الإنترنت. لا أقول هنا بأنَّ جميع زملائي في لوبي الاسترضاء هم من المنافقين. ربما إنهم يؤمنون بـ (اغ م)، ولا أستطيع التوقّف عن التساؤل هنا كم من الوقت صرفوا بالتفكير وكيف يتصرّفون حيال النزاع الداخلي في عقولهم. لا داعي للتعمق في هذا الشأن الآن، ولكن علينا تذكّر السياسي دائمًا عند محاولة فهم البيانات العلمية في أمور الدين: حرب الثقافة السريالية الآن تمزّق أمريكا. استرضاءات أخرى من نوع (أغ م) ستظهر مرة أخرى لاحقًا في هذا الفصل. والآن سأعود للأدرية وإمكانية تقليل جهلنا وكذلك تقليل عدم تأكدنا من وجود أو عدم وجود الله.

رجال صغار بلون أخضر:

لنفرض أنَّ مثال «راسل» كان عن الحياة في الفضاء وليس عن إبريق الشاي المثال الشهير لساغان عن رفضه التفكير بإحساسه الداخلي. ومرة أخرى هنا، لا نستطيع أن ننفي ذلك، والموقف العقلاني الوحيد هنا هو اللاأدرية. ولكن الفرضية ليست طيشًا بعد الآن. فلم نعد نشعر ببعد الاحتمال الكبير. بل إنه بالإمكان أن نناقشَ الأدلّة الناقصة بشكل مثير، وبالإمكان كتابة لائحة من الأدلة المطلوبة لإنقاص عدم التاكيد.

لا شك بأننا سنثور لو علمنا أنَّ الحكومة استثمرت الكثير من المال في تلسكوب للبحث عن إبريق شاي فقط. ولكننا سنقدّر حالة صرف المال في محاولة إخبارنا عن حياة خارج الأرض، باستعمال تلسكوبات راديوية لمسح السماء بأملِ التقاط إشارةٍ من كائنات ذكية فضائية.

أقدر عاليًا رفْضَ ساغان التفكير بشعوره الداخلي عن حياة أخرى في الفضاء. ولكننا نستطيع (و ساغان قد فعل ذلك أيضًا) أن نعطي تقييمًا عقلانيًا عن ما يلزم معرفته لنصبح قادرين على تقدير الإحتمال. ربما تكون البداية ليست اكثر من قائمة النقاط المجهولة لدينا، كما في معادلة درايك الشهيرة، والتي قال عنها بول دافيس، عبارة عن تجميع للاحتمالات. والتي تقول بأنَّ الرقم التقديري لعدد الحضارات في الكون هو عبارة عن حاصل ضرب سبعة عوامل ببعضها. العوامل السبعة تتضمن عدد النجوم، عدد الكواكب المشابهة للأرض لكل نجم، واحتمالات ذلك، إضافة لعوامل أخرى ليست بصدد الحديث عنها الآن؛ لأنَّ ما أريد توضيحه الآن هو أن كل هذه العوامل مجهولة، أو معروفة تقديريًا مع هامش خطأ هائل.

وعند ضرب العوامل المجهولة ببعضها نحصل على رقم عدد الحضارات المحتمل مع هامش خطأ أعظم بكثير يتجاهله الإنسان، وبالتالي اللاأدرية قد تكون الموقف الوحيد العقلاني هنا.

بعض عوامل درايك أصبحوا أقل مجهولية الآن عن عام 1961، عندما كتب المعادلة. وقتها كان نظامنا الشمسي هو الوحيد المعروف لكواكب تدور حول نجم، ومشابهته مع نظام الأقمار للمشتري والمريخ. وتخمين عدد أنظمة الكواكب في الكون كان مبنيًا على نماذج نظرية، مدعومة بمبدأ المتوسطات وهو بالتعريف: الإحساس (أتت الكلمة من دروس تاريخ غير مريحة عن كوبرنيكوس وهابل وآخرين) بأنه ليس هناك أي شيء خاص أو غير عادي يميز الكوكب الرابع) والقائل بأنه: لو كان نظامنا الشمسي هو الوحيد في الكون، فإنَّ ذلك بالضبط هو السبب لوجودنا، ككائنات حية وتفكر بهذا الموضوع بالذات والواقع عن وجودنا يعود وينفي إمكانية أننا نعيش في مكان «متوسطي».

التقديرات الحديثة لوجود أنظمة شمسية لم يعد مبنيًا على مبدأ المتوسطات، بل على أدلة مباشرة. التلسكوب الطيفي، هنا يضرب ثانية عدو الإيجابية لكونت. ليست تلسكوباتنا بالقوة اللازمة لترى الكواكب التي تدور حول النجوم بشكل مباشر. ولكن موقع النجم يتقلقل بجاذبية الكواكب المحطة به وهي تلف حوله، والتلسكوب الطيفي يلتقط إزاحة دوبلر في طيف النجم، هذا إذا كان الكوكب المحيطي كبير. باستعمال هذه الطريقة وصل عدد الكواكب لـــــ 170 في وقت كتابة هذا الكتاب ويدورون حول 147 نجم، ولكن الرقم سيزيد حتمًا وقت قرائتك للكتاب. وحتى الآن، فهن كواكب عملاقة بحجم المشتري؛ لأنَّ

المشـترى هو أقل حجم يمكننا معه اكتشـاف الانحراف في مدار النجم في التلسكوبات الطيفية الحالية.

هـذا أدّى لتطـوّر نوعـي على الأقل في حسـاباتنا عما قدمـه درايك في معادلتـه، وهذه خطـوة للأمام بشـأن لاأدريتنا حول القيمـة النهائية التي تقدمهـا المعادلـة. نظـل لاأدريـين عـن موضوع وجـود حياة غـير أرضية ولكـن أقل لاأدرية مما كُنّا عليه سـابقًا فقط لأننا أقـل جهلاً. العلم يقتطع أجزاء من اللاأدرية، بشـكلٍ اضطر معه هاكسلي أن يعاني عندما تكلّم عن حالة اللاأدرية في وجود الله. أنا أريد أن أجادل، رغم لباقة امتناع هاكسـلي وغولد وآخرين، بأنَّ السؤال عن وجود الله ليس بالمبدأ وإلى الأبد خارج نطاق العلم.

كـما هو الحال في الطبيعة والنجوم، بعكس رأي كونت، وكما هو الحال في احتـمال الحيـاة في كواكـب تدور حولها، يسـتطيع الغلم علـى الأقل أن يقذفَ بعضَ الاحتمالات في أرض اللاأدرية تلك.

تعريفـي لفرضية الإله تتضمن كلمة «الإنسـان الخـارق» و«الخارق». ولتوضيـح الفـرق، تخيل بأن تيلسـكوبًا يبحث عن الحيـاة خارج الأرض التقط إشـارة من الفضاء، والتي ترينا - بدون شـك - بأننا لسـنا وحدنا. وبالمناسـبة ليس من البديهي أبدًا ما هي الإشـارة التي تقنعنا بأنها أتت من مصدر ذكي. والأفضل هو أن نقلب السؤال كما يأتي:

ماذا يجب علينا فعله لنتمكمن من الدعاية لوجودنا لسـامعي إشـارتنا اللاأرضيـين؟ النبضـات الإيقاعيـة ليس مفيـدة. الفلكـي الراديويي بيل بورنيـل التـي اكتشـف الإشـارة النبضيـة، 1967 تعجب من دقـة التردد

33 , 1 ثانيـة، وظـن بأننا وجدنـا الرجال الخضر الصغار. ولكنه اكتشـف إشـارة نبضية أخرى في منطقة أخرى من السـماء وبتردد مختلف، مما أدرى لترك فرضية الرجال الخضر.

الإشـارات الترددية يمكـن توليدهـا مـن عـدة ظواهـر لا علاقـة لها بالـذكاء، مـن تنقيـط الماء لنـشر الأغصان، مـن الفواصل الزمنيـة لدوائر التغذية العكسـية في التحكم الذاتي، حتى الأجسـام الكونيـة الدائرة أكثر من ألف إشارة نبضية تم رصدها في مجرّتنا والتفسير المقبول هو أنها لنجوم نيترونية تشع طاقة تدور تمسح الفضاء مشابًا ضوء المنارة. من المدهش أن نفكر بنجم تقاس دورته حول نفسـه بالثواني (تخيل أن يومنا طوله 33 , 1 ثانية بدلاً من 24 ساعة) وكل ما نعرفه حتى الآن عن النجوم النيتروجينية يدعـو للدهشـة. والنقطـة هنا هي أنَّ النبضـاتِ الإيقاعية تفهـم على أنها إنتاج حادث فيزيائي ولا تدل على ذكاء.

إذن، لا شيء إيقاعـي بإمكانـه أن يعلـنَ عـن وجودنـا للكون الذي ينتظـر. الأعـداد الأوليـة يُنوّه إليها غالبًـا لصعوبة وجود نظـام فيزيائي يولدهـا. وسـواء بالأرقـام الأوليـة أم بـأي طريقـة أخـرى، تخيّـلْ بأننا وجدنـا دليلاً على ذكاءٍ خـارج الأرض، وربما يتبع ذلـك تبادل ضخم للخـبرات والمعرفـة، ولنمضي بهـذا الخيال مع قصة فريـد هويك أتعني أندروميدا أو قصة كارس سـاغان اتصال كيف يجب علينا أن نتصرف؟ رد الفعـل القريب من العبادة له العـذر هنا، لأنَّ أية حضارة قادرة على إرسـال إشـارات على هذه المسـافات الشاسـعة سـتكون أفضل بكثير مـن حضارتنـا. وحتى لو كانت الحضارة ليسـت متطورة كحضارتنا في وقت الإرسـال، فكبر المسـافة بيننـا يدعونا للتفكير بأنهـم أمامنا بآلاف

السنين عند وصول إشاراتهم إلينا (إلا في حالة أنهم تسببوا لأنفسهم بالانقراض، وهذا ليس ببعيد عن الحتمال)

سواء عثرنا عليهم أم لا، فإنَّ هنالك احتمالاً كبيرًا لوجودِ حضارة متطورة وخارقة بالنسبة للإنسان، حتى إن بدتْ كإله بطريقة تفوق كل ما يستطيع علماء الدين تصوره. وإنجازاتهم التقنية ستبدو خارقة للطبيعة بالنسبة لنا كما تبدو إنجازاتنا الحالية خارقة بالنسبة لمزارع من عهود الظلام أتينا به بطريقةٍ ما للقرن الواحد والعشرين. تخيّلْ ردة فعله لحاسبات اللاب توب،الموبايل، القنبلة الهيدروجينية أو طائرات الجامبو.

و كما عبر عنها آرثر كلارك، في قانونه الثالث: «ليس بالإمكان التفريق بين التقنية المتطورة بشكل كافٍ والسحر»، والمعجزات المعمولة بتكنولوجيتنا لن تكون بالنسبة للإنسان القديم أقل درجة من شقِّ موسى للمياه، أو مشي المسيح على الماء. والغرباء اللاأرضيين سيعطونا إشارات تجعلنا نراهم كآلهة، تمامًا كما ظهر المبشرون بمظهر الآلهة وعوملوا على أساسه (واستغلّوا الشرف غير المستحق بأكثر من إمكانياتهم) عندما ظهروا في مناطق لا تزال في ثقافة العصر الحجري، حاملين مسدسات، تلسكوبات، ثقاب وأجهزة تتنبّأ بالخسوف بدقّة تصل للثانية.

بأي معنى إذن، نقرّر مدى التقدّم الحضاري لنقرر بأنَّ الكائنات الفضائية ليست آلهة؟ لأي مدى يمكن أن يكونوا من فئة «الإنسان الخارق» وليس من فئة «الخارق للطبيعة»؟

مـن المهم جـدًا أن نعرفَ مـاذا يعني ذلـك، وهذا يتعلـق بصميم هذا الكتاب. الفرق الحاسم بين الإله والمُشابهِ للإله غير الأرضي، لا يكمن في مواصفتهما وإنما في مصدرهما.

الكيانات معقّدة بشـكل كافٍ لتكون ذكيّةً وهي نتيجة عملية التطور. ولا يهـم كميـة المشـابهة للإله التـي يملكونهـا عندما نجدهـم، ولكنهم لم يكونـوا كذلك في بداياتهـم. لقد اقترح كتاب الخيـال العلمي لـــ دانييل غالـوي في العـالم المزيـف، (ولا أعـرف طريقة لنفي ذلـك) بأننا نعيش في محـاكاة كومبيرتريـة، موضوعة من قبل حضـارة خارقة وواسـعة، ولكن خالقي المحاكاة تلك عليهم أيضًا أن يأتوا من مكان ما. وقوانين الاحتمال تمنـع فكـرة كونهم أتوا فجأة بدون أسـبقيات أبسـط منهم. وربـما يدينون بوجودهـم لنـوع ربما غـير مألوفٍ من التطـور الداريوني: نـوع من تراكم من الأسـفل للأعلى بواسـطة رافعة وليس خطاف سـماوي، وهذه تعابير استعرتها من دانييل دينيت.

الخطافات السماوية وكل الآلهة ضمنيًا هي قوى سحرية. ليس لهم شرح صـادق ويتطلّبـون شرحًا أكثر بكثير مما يزودوننا بـه. الرافعات هي آلات قابلة للفهم وتوفر لنـا الشرح. والانتخاب الطبيعي هو بطل الرافعات في كل الأزمـان. وقد رفع الحياة من بدائية بسـيطة إلـى درجة عالية للتعقيد. جمال يظهر وكأنه مصمٌّم ليبهر الأبصار. سـيكون ذلك الموضوع مسـيطرًا علـى الفصـل الرابع، لمـاذا نحن متأكديـن تقريبًا أنه لا يوجـد إله» ولكن بالأول وقبل الانتقال للسـبب الرئيسي لنفـي وجود الله بفعالية. عليَّ أولاً أن أرمي جانبًا الحجج الداعية للإيمان والتي عُرِضَتْ علينا عبر التاريخ.

الفصل الثالث

الدليل على وجود الله

«لا مكان لأستاذٍ في علم اللاهوت ضمن مؤسَّستِنا».

- توماس جفرسون

حجج وجود الله صَنّفتْ تاريخنا من قبل علماء الدين، وشارك فيها آخرون، من ضمنهم الكثير من العلماء الذي أساءوا مفهوم الفهم الإنساني العامي.

حجة الرهان لتوماس اكويناس:

البراهين الخمسة التي عرضها توماس أكويناس في القرن الثالث عشر لا تبرهن على أي شيء ومن السهل - مع تردّدي بقول ذلك، لمعرفتي بسمّوه - كشف انعدام المعنى فيها. أول ثلاثة براهين هي ثلاث طرق مختلفة لقول الشيء نفسه، وبالإمكان مناقشتهم معًا. ويتضمنون ارتدادات لا نهائية بمعنى أنَّ جوابَ سؤالٍ ما يُطرح سؤالاً يسبقه في الترتيب وهكذا بشكل لا نهائي.

1 - محرك الحركة: لا شيء يتحرّك إلا بوجود حركة سابقة. وهذا يؤدي بنا لارتدادات، والمهرب الوحيد منها هو الله؛ لأنّه يتوجب على أحدٍ ما أن يبدأ بالتحريك، وهذا ما ندعوه بالإله.

2 - السبب المُسبِّب: لا شيء يسبب نفسه. ولكل تأثير مُسبّبٌ مسبق، ومرة أخرى، نصل للارتدادات. وهذه الارتدادات تنتهي بالمُسبّبِ الأول، وهو ما ندعوه بالإله.

3 - الحجة الكونية: من المحتّمِ وجود زمن لم توجد فيه الأشياء الفيزيائية. ولكن بما أن الأشياء الفيزيائية موجودة؛ لابد من وجود شيء غير فيزيائي ليأتي بهم للوجود، وهذا ما ندعوه بالإله.

كل الحجج الثلاث تعتمد على الارتدادات وتدخّلِ الله لإنهاء الموضوع. والفرض الذي لا مبرّرَ له هنا؛ هو أنَّ الله منيعٌ عن فكرة

الارتداد،حتى لو أننا سمحنا لأنفسنا بالتبجّحِ بأيةِ شعوذةٍ اعتباطية لإيجاد مُنهٍ للارتدادات اللانهائية وأعطيناه اسمًا ما؛ لأننا ببساطة نحتاج واحدًا، فليس هناك أي سبب إطلاقًا لمنحِ هذا الذي أنهينا بـه الارتدادات أيًا من المواصفات التي يتّصف بها الإله: القـدرة الكلية، العلم الـكلي، الطيبة، التصميم الخلاق، ناهيك عن الصفات الإنسانية كسماعِ الدعاء، وغفران الذنوب وقراءة الأفكار. وبالمناسبة؛ فإنَّ بعض علماء المنطق لاحظوا عدم إمكانية اجتماع موضوع العلم الكلّي والقدرة الكلية.

لـو كان الله كُلّيَّ المعرفـة، فهو يعرف بالتأكيد مسبقًا؛ كيف سيتدخل بقدرتـه الكلية ليغيّر مجرى التاريخ. وهذا يعني بأنه لا يستطيع تغيير رأيه بهـذا الموضوع، فهـو بالتالي ليس كُلّيّ القدرة، لأنَّ هناك شيئًا لا يستطيع عمله. كارين أونز صورت ذلك التناقض الذكي في مقطعٍ شعريٍّ لا يقلّ دعاءً عنه.

أيستطيع كُلّيُّ المعرفة،

الذي يعرف المستقبل، أن يجد

كلي القدرة، والذي يستطيع

أن يغيّر تفكيره المستقبلي؟

لنعـد للارتـدادات اللانهائيـة والعبث الناتج مـن إدخال إلـهٍ لتصفيةِ الموضـوع؛ لأنـه مـن الأرخـص استحضار شيءٍ مـا كنظريـة «الانفجار العظيم». أو أي مبدأ فيزيائي غير مكتشف بعد. كما أنَّ تسمية ذلك بالإله هـو في أفضـل الحالات غـير مفيـد، وفي أسـوأها مضلّلٌ بشـكل خبيث. ودعـوى إدوارد ليـار في وصفتـهِ العبثية لكباب الكرمبول بالشـكل الآتي

«خـذ قطعةً من لحـمِ البقر، وبعد قطعها لأقصى حـد ممكنٍ وجعل القطع أصغـر مـا يُمكـن، استـمر بالتقطيـع لتصغير القطـع ثمان أو تسـع مرات أخـرى». نرى أنَّ بعـض الارتدادات تصـل لمرحلة من النهايـة الطبيعية. وكان العلـماء يتسـاءلون في الماضي عمّا إذا كان مـن الممكن تقطيع الذهب مثلاً لأصغر قطع ممكنة.

و لمـاذا من غير الممكن قطع إحدى تلك القطع بالنصف والاسـتمرار بالتقطيع لقطعٍ ذهبية أصغر؟ والارتدادات في هذه الحالة محسـومة النهاية عندمـا نصل للذرة. وتلك هي أصغر القطع الذهبية وتتكون بالضبط من 79بروتونًـا وأكثر مـن ذلك بقليل من النيوترونات، وبحضور حشـد من الإلكترونات بعدد 79 وعندما نقطّع الذهبَ لأي حد أبعد من الذرّة، فإنه يتوقّف عن أن يكون ذهبًا. والذرة تعطينا النهاية لنوع الارتدادات المشابه لكبـاب الركمبول. والإله لا يزودنا بأي شـكلٍ بنهاية طبيعية لارتدادات اكوينـاس. وهـذا ممّـا يخفّف من حدتهـا كما سـنرى لاحقًـا. والآن دعونا نناقش النقاط الآتية في لائحة أكويناس.

4 - الحجـة الآتيـة مـن التدريخ: نلاحـظ اختلاف الأشياء في العالم. وهنـاك درجات للأشـياء مثل الطيبـة أو الكمال. ولكننـا نحكم على درجتهـا فقـط بمقارنتها بالحـد الأعلى الممكـن. بإمكان الإنسـان أن يكـون جيدًا وسـيئًا، وبذلـك فإنَّ الحـد الأعظم من الجـودة لا يمكن أن يكمـن فينـا. ولذلك يجب أنْ يكـون هناك حدٌّ أعظـمُ لنقيسَ عليه درجات الكمال، وهذا ما ندعوه بالإله.

أهـذه حجـة؟ مـن الممكـن أن تقـولَ أنَّ النـاس مختلفـين في رائحتهم وإمكانيتنـا بالمقارنـة تكـون ممكنة فقـط بمرجعيـة للحد الأعلـى الممكن

للروائحيـة، ولذلك يجب أن يوجـدَ شيء ما ورائحته لا تُضاهى، وندعوه بالإله. وباستطاعتك استبدال مواصفات المقارنة كما تشاء واستنتاج نتائج مشابه في الحماقة.

5 - الحجـة الغائيـة، أو حجـة التصميـم: الأشـياء في العـالم وبخاصة الأشـياء الحيـة تبدو وكأنها مصممة. ولا نعـرف بوجود أشـياء تبدو مصممـة إلا إذا كانـت كذلك، ولذلك يجب أن يكـون هناك مصمم، وهو ما ندعوه بالإله.

اكويناس استعمل سـهمًا يتحـرّك باتجـاهِ الهـدف كمثـال تشـبيهي، والصـاروخ الحديـث المضاد للطائـرات والموجّه بالحرارة سـيخدم فكرته أكثر.

حجّـة التصميـم هـي الوحيـدة التي لا تـزال تسـتخدم في أيامنا هذه، وللعديديـن لا تزال تبدو كالضربة القاضية للمناقشـة. وداروين الشـاب تأثّـر بهـا عندمـا كان طالبًا في جامعة كامبريـدج، عندما قرأ كتـاب ويليام بايـلي، عـالم الطبيعـة الدينـي. ولسـوء حظ بايـلي، فـإنَّ داروين الناضج اسـتبعدها بشـكل كامل. وربما إنه ليس هناك في التاريخ أي تدمير لطريقةِ تفكير شائعة ببراهين ذكية كالذي فعله داروين بحجة التصميم. ذلك كان أبعد من كل التوقعات.

و بفضـل داروين، لم يعـد صحيحًـا بـأنَّ كل الأشـياء التـي تبـدو لنا مصممـة لا يمكن أن تكـون غير ذلك. التطور بالانتخابـات الطبيعي ينتج مـا يمكن أن يبدو كأروع تصميـم، بأعلى درجات التعقيد والأناقة. ومن تلـك التصاميـم المزيّفـة الأجهـزة العصبية والتي هي في أبسـط أشـكالها

تظهر وكأنها تسـلك سـلوكًا ما، وحتى في حشرة صغـيرة فإنه يوجد نظام متطور جدًا للتتبّع الحراري يشبه الصاروخ أكثر مما يشبه السهم والهدف. وسأعود لذلك في الفصل الرابع.

الحجة الوجودية وحجج أخرى سالفة لها:

حجـجُ وجـود الله تنقسـم لمجموعتين. بديهيـة واسـتدلالية، وحجج توماس اكوينتـاس الخمـس من النـوع الاسـتدلالي وتعتمد علـى معاينة وفحص للعالم. وأشهر الحجج البديهية والتي تعتمد فقط على استنتاجات من شـخصٍ على كرسـي وثير. هي الحجة الوجودية وقد طرحها سانت دِنْسـلم أسـقف كانْتربرى عام 1078 ومن ثم عاد طرحها بأشكال مختلفة مـن قبل العديد الفلاسـفة، السـمةُ الشـاذة فيهـا هي أنها ليسـت موجهة للإنسـان ولكن للإله شـخصيًا وعلى شـكلِ دعاء (لعلـك تعتقد بأن أي كائنـات قابلة لسـماعِ الدعـاء لا يتحتـاج لبرهان مقنع عـن وجودها) من الممكن وجود كائن، علىٰ قولِ آنشليم، من العظمةش بحيث أنه لا يمكن أن يكونـض هناك أعظم منه. وحتى الملحد يمكنـه تخيّل كائن على أعلى الدرجـات، برغـم ادّعائه بعدم وجودهِ في الواقـع. ولكن الكائن الذي لا يوجـد في الواقع هو كائنٌ أقل من كامل حكمًا، وهكذا فإننا في تناقضٍ هنا ولذلك «شبيك لبيك، الإله موجود!»

دعوني أحاول ترجمة الحجّة الطفولية السابقة للغةٍ مقبولةٍ ومعتبرة:

«أراهنك بأني أستطيع إثبات وجود الله»

«لا أظنك تستطيع»

«حسنًا تخيل اكمل.. اكمل...اكمل شيء ممكن»

«لقد فعلت... ثم ماذا؟»

«هل هذا الشيء الكامل، الكمال، المكمّل، حقيقي؟ موجود؟»

«لا... هو في خيالي فقط».

«و لكن لو كان هذا موجودًا لكان أكثر كمالاً؛ لأنَّ الشيء الكامل الحقيقي جدًا هو أفضل من مجرد خيال سخيف لشيء ما. وبهذا أكون قد برهنت أن الله موجود.. هيه.. هيه.. هيه.. كل الملحدين حمقى»

لقد تركت غروري الطفولي يختار الكلمة «حمقى» بتبصّر. أنسلم بذاتهِ كتب عن الآية الأولى من أناشيد داوود «الآية 14» الأحمق قال في قلبه، ليس هناك إله وكان له السبق في استعمال كلمة «أحمق» للملحدِ الفرضي. ومعه نتابع:

> و بذلك، يقتنع حتى الأحمق بوجود شيءٍ ما، في التفكيرِ على أقل تقدير، ومن غيرِ الممكنِ وجود شيء أعظم منه؛ لأنه عندما يسمع الشخص به، فإنه يفهم ماذا يعني. وما هو مفهوم فهو موجود في الفهم. وبالتأكيد فإنَّ الشيء الذي لا يمكن أن يوجد شيء أعظم منه، لا يستطيع أن يوجد في الفهم وحده. لأنه وبفرض أنه موجود في الفهم فقط فإنه من الممكن أن يوجد في الحقيقة وهذا شيء أعظم.

مجرد الفكرة بأنَّ استنتاجًا كبيرًا كهذا يأتي من خدعة رخيصة كهذه يسبب إهانة لجمالية التفكير ولهذا عليّ أن أكون حريصًا وأمتنع عن تبادلِ كلمات مثل «أحمق». أذكر هنا المقولة المهمّة لبرتراند راسل (ليس أحمقَ أبدًا)، من الأسهل أن نشعر بالاقتناع بأنَّ الحجّةَ المقدمة خاطئة، عن أن

نعـرفَ بدقّةٍ مَكْمَنَ الخطأ فيها، راسـل بذاته في شـبابهِ كان مقتنعًا بالفكرة لفترة قصيرة كما رَوَى:

> أذكر اللحظة بالضبط، عام 1894 كنت أسير في شارع الترينيتي عندمـا رأيت أو تخيّلت أني رأيت صحّـة الحجّة الوجودية للحظة. كنـت في طريقي لشراء علبة تبـغ، وفي طريقِ عودتي وجدت نفسي أقذفهـا فجأة في الهـواء وصحّت عندما التقطتهـا: «هذا عظيم، إنَّ حجّةَ الوجودية صحيحة».

أعجـب، لماذا لم يقل مثلاً: «عظيم، الحجّـة الوجودية تبدو معقولة. ولكن ليسـت جيدة بشـكل كافٍ. ألا يحتاج الكـون أن يكونَ أكثر من مجـردِ نتيجـة للعبة مفردات؟ مـن الأفضل أن أبدأ العمـل لمحاولة فكِّ هـذا التناقـضِ الشـبيه بتناقض زينـو الإغريقـي». لقد عجـز الإغريق القدماء في محاولة رؤية برهان زينو بأنَّ آخيل لن يكون قابلاً أبدًا للّحاق بالسلحفاة.

ولكن كان لديهم شـعورٌ كافٍ عن الموضوع لينفوا عدم إمكانية آخيل باللحاق بالسلحفاة. ولذلك دعوها بالتناقض وانتظروا الأجيال اللاحقة مـن الرياضيين لشرحهـا (وحصل ذلـك لاحقًا بالطبع، باسـتعمال نظرية السلاسل اللانهائية).

و«راسـل» في حالتنا مؤهل كأي شخص آخر لفهم عدم وجوب قذفه علبة الدخان في الهواء والاحتفال بفشل آخيل في اللحاق بالسلحفاة. لماذا لم يتّبع راسـل منهج الحرص في مناقشـة آنشليم؟ أشـك بأنه كان مبالغًا في اعتدالـه بالاعتقاد الإلحادي ومتحمّسًـا أكثر من اللـزوم لتخيّل أي منطق

يبدو مطلوبًا للبرهان. أو ربما تكون الإجابة كامنة فيما كتبه راسل نفسه عام 1946 بعد فترة طويلة من قوقعتهِ للحجة الوجودية.

السؤال الحقيقي هو: هل هناك أي شيء نستطيع التفكير فيه، والذي مجرد التفكير فيه يرينا أنه موجود بالحقيقة خارج أفكارنا؟ كل الفلاسفة يرغبون بالإجابة بنعم؛ لأنَّ عمل الفيلسوف كله يعتمد على معرفةِ أشياء عن العالم بمجرد التفكير عوضًا عن الملاحظة. ولو كانت الإجابة نعم فهذا يعني بأنه يمكن أن توجد صلةُ وصلٍ بين الأفكار الصافية والأشياء والإجابة لا يجب أن تعني ببساطة.. لا.

شعوري أنا، على العكس، سيكون بشكل إلى عبارة عن شكٍّ عميقٍ في أيِّ خط تفكير يصل لنتيجة عظيمة الأهمية كتلك بدون وجود أي معلومة من العالم الحقيقي. وربما لا يعني ذلك أكثر من أني عالم ولست فيلسوفًا. الفلاسفة عبر القرون أخذوا الحجة الوجودية بشكلٍ جدّيٍّ بدون شك، وعلى الطرفين، معها وضدها.

الفيلسوف الملحد ج. ل. ماكي بشكل خاص له مناقش واضحة بهذا الخصوص في أعاجيب الإيمان بالله. وأنا أعتقد أنه من الجيد التعريف للفيلسوف كشخصٍ لا يأخذ الإحساس العام كإجابة على أي شيء تقريبًا.

يعزى التفنيد الجازم للحجة الوجودية للفيلسوف دافي هيوم 1711 – 76 وإيمانويل كانط عبر كارت الغش المخبّأ في كم آنسليم في فرضيته الزلقة عن أنَّ الوجودَ هو أكثر «كمالاً» من اللاوجود. ووصف الفيلسوف الأمريكي نورمان مالكوم الموضوع بالشكل الآتي: المذهب

القائل بأنَّ الوجود يعني الكمال هو مبدأ شاذ. من الحق القول بأنَّ منزلي المستقبلي سيكون أفضل إذا كان معزولاً حراريًا عن أن يكون غير معزول، ولكن ما معنى أن نقولَ بأنَّ وجود البيت سيكون أفضل من عدم وجوده؟ دوغلاس غاسكنيغ الفيلسوف من أوستراليا، أصاب هدفه بسخريتِهِ لبرهان الله غير موجود (أحد معاصري آنسليم واسمه غونيلو اقترح حلًّا مخفّضًا مماثلاً)

1 - إنَّ خلْقَ الكون هو أكبر إنجاز يمكن تخيّله.

2 - قيمةُ أيّ إنجاز هي حاصل ضرب قيمتي: قيمة الجوهرية، إمكانيات الخالق له.

3 - كلما كانت إعاقة الصانع أكبر، كلما كان إنجازه مثيرًا للعجب أكثر.

4 - أعظم الإعاقات وأكبرها بالنسبة لخالق ما؛ هي عدم وجوده.

5 - لذلك لو افترضنا أنَّ الكونَ هو إنجازٌ لخالق موجود فبإمكاننا أن نتخيّل وجودًا أعظم بشكل ما والذي يستطيع خلق كل شيء بدون أن يكون موجودًا.

6 - فالإله الموجود إذن لن يكون أعظم ما يمكن تخيّله؛ لأنَّ الإله غير الموجود أعظم وأكثر إثارة للدهشة.

النتيجة:

7 - الله غير موجود.

لسنا بحاجة للقول هنا بأنَّ غاسكينغ لم يبرهن فعليًا على عدم وجود الله. وعلى نفسِ المنوال، لم يبرهن آنسليم على وجوده. والفرق الوحيد

هـو أن غاسـكينغ كان هزليًا في طرحِه لغاية؛ لأنـه كما لاحظ، وجود الإله غـير الموجود هو سـؤال كبير جـدًا على أن يجاوب عليـه بـــخداع جدلي ماهـر. ولا أظن شـخصيًا بأنَّ الاسـتعمال الزلق لمؤشّر الكمال هو الأسـوأ في هـذه المحاججة. وقد نسـيت تفاصيـل الحدث عندمـا أزعجت تجمعًا مـن رجال الدين والفلاسـفة بتبنّـي الحجة الوجودية لبرهـان أن الخنازير تسـتطيع الطيران. وقد اضطررتهم للجوء للمنطق الشـكلي للبرهان بأنني مخطئ. الحجـة الوجودية، ككل حججِ البديهية المقدمة لبرهان وجود الله، تذكّـرني بالعجـوز في قصـة الدوس هاكسـلي نقطـة بعكس نقطـة والذي اكتشف برهانًا رياضيًا عن وجود الله.

أتعـرف الصيغة، س مقسـمة على الصفر مسـاوية للانهاية، حيث س هـي أي عدد موجب؟ حسـنًا، لنبسـط المعادلة بـضرب الطرفين بالصفر، ممكـن يجعل س مسـاوية لعددٍ لا نهائي من الأصفـار وهذا يعني أنَّ العدد الموجـب هـو عبارة عن حاصـلِ ضرب الصفر باللانهايـة. ألا يفسّر ذلك خلق الكون من لا شيء بواسطة قدرةٍ لا نهائية، ألا يفسّره؟

و هنـاك أيضًا النقاش العقيم من القـرن الثامن عشر حول وجود الله، والمرتّب من قبل كاترين العظمى، بين الرياضي السويسري الشهير أويلر، وديـدرو، الموسـوعي العظيم لعصر التنويـر. أويلر المتديّن غلب منافسـه الملحـد ديـدرو وبكل ثقة برمـي التحدي الـلآتي: سـيدي، إن (أ + ب < ن) ي = س، ولذلـك فـالله موجـود. فما هـو جوابك! ديـدرو أُجبر على الانسحاب مذعنًا، وإحدى الروايات تقول بأنه رجع لفرنسا على أثرها.

أويلر اسـتعمل ما يمكن تسـميته بحجّـة التعْمية في العلـم (في حالتنا الرياضيـات). دافيـد مايلز في عالم الملحديـن، كتب عن مقابلـة إذاعية له

من قبل أحد المتكلمين باسم الدين، والذي استعمل قانون حفظ الطاقة، المادة كمحاولةٍ تعمية علمية: بما أننا جميعًا من طاقة ومادة، ألا يؤدّي بنا ذلك المبدأ العلمي للإيمان بأنَّ هناك حياة أبدية؟

إجابة مايلز كانت لَبِقَة وصبورة أكثر ممّا لو كنت أنا المجيب على تعليق المحرّر الإذاعي الذي كان سؤاله بصيغة أخرى كالتالي: «عندما نموت، لن تضيع أي ذرة من أجسامنا ولا حتى الطاقة وبالتالي فنحن خالدون».

حتى أنا وبخبرتي الطويلة، لم أصادف أمنيّاتٍ فكرية سخيفة كتلك. ولكن وجدت العديد من البراهين وجمعتها، وهي لائحة ساخرة أكثر من ثلاثمئة برهان عن وجود الله. وهاكم نصف دزينة مميزة:

تبدأ بالبرهان 36

36 – حجة من الخراب غير المكتمل: تحطّمت طائرة وقتل 143 من ركابها وطاقمها. وطفل صغير نجا مع حروقٍ من الدرجة الثالثة ولذلك الله موجود.

37 – حجة من العوالم المحتملة: لو أنَّ الأمور كانت مختلفة عمّا هي عليه؛ فستكون مختلفةً عمّا هي عليه. وسيكون ذلك سيّئًا ولذلك الله موجود.

38 – حجة الإرادة المطلقة: أنا أؤمن بالله! أنا أؤمن بالله! أؤمن، أؤمن، أؤمن بالله! ولذلك الله موجود.

39 – حجة من اللاإيمان: معظم سكّان الكرة الأرضية هم غير مؤمنين بالمسيحية. وهذا من عمل الشيطان ولذلك الله موجود.

40 – حجّـة من تجربةِ ما بعد الموت: هو شـخص مات ملحدًا، والآن أدرك خطأه، ولذلك الله موجود.

41 – حجـة مـن الابتـزاز العاطفي: الله يحبك. كيـف يمكن أن تكونَ بدون قلب بهذا الشكل ولا تؤمن به؟ ولذلك الله موجود.

حجة الجمال:

شـخصية أخرى في قصة الدوس هاكسـلي برهنتْ عن وجود الله فقط بعـزف رباعيـة بيتهوفن رقم 15 من مقام لامينور (أغنية شـكر المقدسـة) من إسـطوانةٍ على غرامافون. مهما تبدو الحجة غير مقنعة، فإنها تمثل نوعًا شائعًا من الحجج. لقد توقّفت عن عدِّ المرات التي تلقيت فيها أو بالأحرى التي واجهت فيها التحديات: «كيف يمكنك تفسير وجود شكسبير إذن؟ (أو شـوبرت، مايـكل أنجلو...). الحجة مألوفة ولا أريـد أن أوثقها أكثر مـن ذلك. ولكن المنطق المختبئ وراؤهـا لم يتوضّح بالحجة، وكلما فكرت فيهـا أكثر، كلما شـعرت بفراغها. لاشـك بأنَّ رباعيـات بيتهوفن الأخيرة رفيعة المسـتوى. وكذلك أعمال شكسـبير. رفيعة المستوى سواء كان الإله موجـودًا أم لم يكـن. هـذا لا يبرهن وجود إله، بل يبرهـن وجود بيتهوفن وشكسبير. يُعْزى لأحدِ قادة الأوركسترا الكبار القول: «إذا كنت تستطيع سماع موزرات، لماذا تحتاج لإله؟»

مرّة من المرّات كنت ضيفَ الأسـبوع في بثٍّ إذاعي باسـم اسطوانات الجزيرة المهجورة. وعليك اختيار ثمانية أسطوانات لتأخذها معك في حال انقطاعـك في جزيـرة مهجورة. من ضمن ما اخـترت كانت أغنية «أدخل إلـى قلبي» مـن الأم متى لباخ. لم يفهم المذيع كيف اخترت موسـيقًا دينية

بـدون أن اكـون متدينـًا. ربما أنـه بالإمكان التسـاؤل أيضًـا كيف يمكنك أن تسـتمع بقـراءة مرتفعـات وذرينـج وأنت على تمـام المعرفة بـأنّ كاثي وهيتشكليف شخصيات لم توجد أبدًا؟

ولكنـي أردت توضيح نقطة أخرى، ويجب أن تؤخذ بعين الاعتبار في كل ما يعطي الدين فيه كمرجعية، مثل كاتدرائية سيستين أو لوحة إعلان حمـل المسـيح لرافائيل. حتـى الفنانين العظـام يحتاجون لكسـب رزقهم. وسيأخذون عمولتهم مقابل خدماتهم. ليس عندي أي سبب لا شك بأن رافائيل ومايكل أنجلو كانا مسيحيين، ذلك كان الخيار الوحيد في زمانهم، ولكن ذلك واقع عرضي. وغِنى الكنيسـة الفاحـش وقتها جعلها الراعي المهيمن على الفن. ولو كان التاريخ مغايرًا وكُلّف مايكل أنجلو بالرسـم علـى سـقفِ مَتْحفٍ علمـيٍّ ضَخْم، فسـيكون إنتاجه ملهـمًا بنفس درجة سيسـتين؟ كم هو محزنٌ بأننا لن نسـمع أبدًا سـيمفونية عـصر الديناصور لبتهوفـن أو أبـرا الكـون المتوسّـع لمـوزارت وكم هـو محـزنٌ حرماننا من أوراتوريو التطور لهادين، ولكن ذلك لا يمنعنا من الاسـتمتاع بمقطوعتِه الخليقة.

ولتوضيـح الحجـة من طرف آخر ماذا كان سـيحصل لو أن شكسـبير كان مجـبرًا للعمـل لصالح الكنيسـة، كما اقترحت زوجتـي؟ لكنا بالتأكيد فقدنـا هاملـت، الملك لـير، وماكبث. ومـاذا كان العالم سـيربح بالمقابل؟ أعمال من مكونات الأحلام؟ استمر بالحلم إذن.

لـو وجدت حجـة منطقية تربط الفـن العظيم بوجود إلـه، فإنَّ أنصار الفكـرة لا يوضّحون تلك الصلة. وببسـاطة يعـدّون أن ذلك دليلاً يفسر نفسـه بنفسـه، والأمر ليس كذلـك بالتأكيد. وبالإمكان أيضًـا رؤيتها من

وجهةِ نظرِ حجّةِ التصميم بالشكل الآتي: مخ «شوبرت» الموسيقي هو أعجوبة ووجودها احتماله ضعيفٌ بشكل كبير، ربما أضعف من احتمالِ وجود العين عند الفقاريات. أو بشكل آخر ممزوج بالغيرة من العبقرية. كيف يمكن لشخص آخر أن يخلق تلك (الموسيقا/ الرسم/ الفنون) الرائعة بينما أنا لا أستطيع؟ لابد أنَّ اللهَ هو الذي فعل ذلك.

الحجة من التجربة الشخصية:

أحد أذكى وأنضج أقراني في الجامعة والذي كان متديّنًا بعمق، ذهب للتخييم في المنطقة المسمّاة بالممر الأسكتلندي. وفي منتصف الليل استيقظ مع صديقتهِ على صوتٍ شرير، الشيطان بذاته بدون أدنى شك كان هناك: والصوت كان شيطانيًا في كل تفاصيله. لن ينسى صديقي تلك التجربة المرعبة، وقد كانت أحدَ الأسباب التي دفعته لاحقًا ليصبح قسّيسًا. وقد تركت قصّته انطباعًا قويًا عندي في فترة شبابي، وقصصتها على مجموعة من علماء الحيوان في منتجعِ «روز اند كراون آن». وكان من بينهم اختصاصيان بعلم الطيور، وانفجروا بالضحك قائلين «مانكس شيرواتر» بآنٍ واحدٍ معًا. أحدهما أضاف بأنَّ الصوت الشيطاني في صرخاتٍ وثرثرةٍ ذلك الطائر اكسبته الاسم «طائر الشيطان» في أماكن مختلفة من العالم وباللغات المحلية لأهل تلك المناطق.

الكثيرين يؤمنون بالله، لأنهم يؤمنون بأنهم رأوا بأم أعينهم رؤيا عنه أو عن أحد الملائكة أو العذراء بلباسها الأزرق. أو أن أحدهم تكلم معهم من داخل رؤوسهم. وتلك الحجة هي الأكثر إقناعًا للذين يزعمون بأنَّ ذلك قد حصل لهم. ولكنها الأقل إقناعًا لكل الآخرين، وخصوصًا من لديه بعض المعرفة عن علم النفس.

تقول بأنَّ الله تراءى لك بشكل مباشر؟ حسنًا، البعض اعتقد إنه رأى فيلاً ورديًا، ولكن ذلك ربما لا يترك لديك انطباعًا عميقًا، بيتر سوتكليف، القاتل من يوركشاير، تخيل المسيح يقول له بأن يقتل النساء وأدى ذلك به للسجن مدى الحياة.

جورج بوش يقول بأن الله قال له بأن يحتل العراق (ذلك الإله الشفوق لم يوحِ له بأنه ليس هناك أسلحة دمار شامل).

و العديـدون في المصحّـات يعتقدون بأنهم نابليون أو شـارلي شـابلن، أو أنَّ العالم كله يتآمر ضدّهم، أو بأنه يسـتطيعون بث أفكارهم في رؤوس الآخريـن. نتكلم عنهم كطرائف ولا نأخذ إيحاءاتهم الداخلية بأي جدية. والسـبب الأكـبر هو أنَّ ذلـك ينطبق على فئـة قليلة فقط مـن الناس. أما الإيحاءات الدينية فإنَّ زبائنها كُثُر. ولم يكن سام هاريس مبالغًا في سخريّته عندما كتبَ في نهاية الإيمان:

لدينـا أسـماء للعديدين الذين يؤمنـون بأمورٍ ليس لهـا أي مبرّر عقلي، وعندما يقول إيمان كهذا شـائعًا فإننا ندعوه «دين» وإلا فندعوه «جنون»، «هذيـان» أو «وهـم».... واضـح بـأنَّ الأرقام لهـا تأثير. ولكـن من جهةٍ أخرى، فإنه يظـل مجرّد حادثٍ عرضي في التاريخ، حيث يُعدّ من الطبيعي في مجتمعٍ ما بأن الخالق للكون يسـتطيع سـماع أفكارك، بينما يكون الإيمان مرضًا عقليًا إذا تم ربطه بالمطر الذي ينقر إشارات مورس على نافذة غرفة نومـك. وعلـى هذا وبرغـم أنَّ رجال الدين ليسـوا مجانين، فـإنَّ خلاصةَ إيمانِهم جنونٌ مَحِض.

سأعود لموضوع الهلوسة في الفصل العاشر.

إنَّ عقـلَ الإنسـان يديـر برنامج محاكاة مـن المرتبة الأولـى. وأعيننا لا تعطـي المخ صـورة أمينة عما يوجد هناك، أو فيلـم دقيق عما يحصل بمرور الوقت. المخ ينبي نموذجًا متجددًا باستمرار: متجدد بنبضات تنتشر على العصـب البصري، وبذلك تبني صورة متغيرة. الخداع البصري هو تذكير واضح على ذلك. وقد نشأ صنف من الوهم البصري، ومن أمثلته مكعب نيكر، والذي يسـبب الإحساس بأنَّ المعلومات الحسية التي يستقبلها المخ تتطابـق مع نموذجين متباينين مـن الحقيقة. والمخ والذي ليس لديه قاعدة ليختـار بينهما، فإنه يبدل النموذج بين فترة وأخرى، وهكذا يتشـكل لدينا إحسـاس بالتأرجح بـين نموذجين. والصور التي ننظـر إليها تبدو وكأنها تنقلب لتصبح صورة أخرى.

برنامـج المحـاكاة في دماغنـا يبدو مؤقلمًا بشـكلٍ خاص لبنـاء الوجوه والأصـوات. عنـدي علـى طـرف النافـذة قناعًا بلاسـتيكيًا لأينشـتاين. وعندمـا ينظر إليه من الأمـام فإنه يبدو كوجهٍ ممتلئ، وليـس هذا مفاجئًا، المفاجـئ هو أنـه عند النظر إليه من الخلف «الطـرف المجوف»، فإنه يبدوا أيضًـا كوجه ممتلـئ، وفهمنـا للموضوع مبهـم بالتأكيـد. وعندما يتحرك الناظـر حوله يبدو الوجـه وكأنه يتبعه وليس بالمعنـى الضعيف غير المقنع والذي يقال عن أن عيون الموناليزا تبدو وكأنها تتبعك، فإنَّ القناع المجوّف يبدو حقيقيًا جدًا بأنه يتبعك.

والذين يرونها لأول مرة يشـهقون من الدهشة. والأكثر غرابة، عندما يوضـع القنـاع علـى طاولـة تدور ببـطء فإنـه يبدو بأنـه يـدور في الاتجاه الصحيح عندما تنظر للطرف الممتلئ، ولكن بالاتجاه المعاكس عندما تنظر للطـرف المجـوّف. والنتيجة تتضح عندما تتجه بالنظـر إلى أحدِ الأطراف

إلـى الأخرى، فـإنَّ الطرف القادم يبـدو وكأنه «يأكل» الطـرف الذاهب. إنـه وهـم مبهر، ورؤيته تسـتاهل بعـض العناء. وبعض الأحيان تسـتطيع الإقـتراب بشـكل مفاجئ للطـرف المجوف بـدون أن ترى أنـه «حقيقة» مجـوف. وعندمـا ترى ذلك، مـرة أخرى، يحصـل التأرجـح، وربما يكون قابلاً للعكس.

لمـاذا يحصـل ذلك؟ ليـس هنالك أيـة خدع في بنـاء القنـاع. وأي قناع مجوف سـيؤدي نفس الغرض. والخدعة تكمن في دماغ المشـاهد. برنامج المحاكاة الداخلي يسـتقبل معلومات تنبـئ عن وجود الوجه، لا شيء اكثر مـن عينـان، أنف وفم في إمكانها المحـددة تقريبًا، وبتمام الاسـتقبال لتلك الرموز السطحية، يقوم الدماغ بالباقي. يبدأ برنامج المحاكاة بالعمل ويبني النمـوذج الممتلئ للوجـه، بالرغم من أنَّ حقيقة ما يقـدم للعينين هو قناع مجـوّف. وتخيُّل الـدوران في الجهة الخطأ يحصل بسـبب (الصعوبة،ولكن لو فكّرت بعمق ستستطيع التأكد من الفكرة) إنَّ الدوران بالجهة المعاكسة هـو الوحيد الذي يجعـل هناك معنى للمعلومات البصريـة بدوران القناع بشـكل محسـوس ليكون ممتلئًا. ذلك شـبيه بالوهم الذي ينتج عن دورانِ صحـن الرادار الـذي نـراه في المطارات. خـلال الوقت اللازم ليسـتطيع الدمـاغ قلب الصـورة للوضع الصحيـح لصحن الرادار، سـيكون هناك نموذج خاطئ يدور بالاتجاه المعاكس بشكلٍ أحول.

أقـول ذلك فقط لأبـيّنَ القـوة الهائلة للمحـاكاة الدماغيـة. إنها مجهّزة بشـكل جيد لبناء «رؤيا» و«مظاهر» من أعلى المسـتويات. ومحاكاة شـبح أو ملاك أو مريم العذراء سـيكون بمثابة لعبة أطفال بالنسبة لبرنامج بهذا الرقي. ونفس الشيء يحصل يحدث سمعيًا. وعند سماع صوتٍ ما، فإنه لا

ينتقـل بشـكل أمين عن طريق الأعصاب السـمعية للدمـاغ. كما في الرؤيا يبنـي الدماغ نموذجًـا للصوت عن طريق المعلومات السـمعية المستمرة بالتجـدد علـى الأعصـاب السـمعية. ولذلـك نسـمع نغمـة الترومبيت كنوتـةٍ واحدة وليس كترتيب من تـردّدات هارمونية تعطيها طابع الزمجرة النحاسـة. بينما رنين نوطات الكلارينيت يبدو «خشـبيًا»، ونسمع الأوبوا وكأنها «قصبية»، وذلك بسبب اختلاف التوازن الهارموني.

ولـو جرّبت التحكّـم في سانتسـايزر وأدخلت الهارمونيـات المختلفة واحـدًا بعـد واحـد، فسيسـمع الدمـاغ الـتردّدات المختلفة لفـترة قصيرة بشـكل منفصل، حتى يبدأ برنامج المحاكاة بالعمل، وعندها ستسمع نوتةً واحـدة لترومبيـت أو أبـوا أو ما شـابه. والأحرف الصوتيـة واللاصوتية تبني في الدماغ بنفس الطريقة، وهكذا وعلى مستوىً آخرَ تبني الفونيمات والكلمات.

سمعت في طفولتي شـبحًا: صوتًا ذكريًا يغمغم، وكأنه يتلو صلوات. وكدت أسـتطيع تقريبًا أن أفسّر الكلمات، والتي كان لها طابع جديّ جدًا، وكنـت قد سـمعت الكثير مـن الحكايا عن أماكـن للقدّيسـين في البيوت القديمة، وأصابني الخوف.

ولكننـي نهضت مـن السريـرِ وزحفت نحـو مصدر الصـوت. وكلما اقتربـت كلما عـلا الصوت، وفجأة علـقَ الصـوت في رأسي. وكنت قريبًا بشـكل كافٍ لأعـرف حقيقتـه. كانـت الريـح تعصـف من خـلال ثقب المفتـاح، وتخلق صوتًا اسـتعمله برنامج المحـاكاة في دماغي ليبني نموذجًا عن خطابِ رجلٍ بصوتٍ مرتّلٍ بجدية.

ولو كنت طفلاً قابلاً للانطباع بشكل أكثر مما كنت عليه آنذاك، لكان من الممكن لي أن أسمع ليس فقط خطابًا غير مفهوم بل كلمات معينة وربما جمل أيضًا. وأتساءل الآن ما هي الكلمات التي كنت أسمعها حينها، لو كنت قابلاً للانطباع وبتربية دينية.

في مناسبة أخرى، كنت في نفسِ العمر تقريبًا، رأيت وجهًا عملاقًا شريرًا بشكل لا يوصف، يحدق من النافذة في بيتٍ عادي في قرية على البحر. اقتربت بهلعٍ لأتبيّن ما كان: شيءٌ مُبهمٌ يعطي انطباعًا بعيدًا لوجهٍ ناتجٍ عن نقشةٍ على قماشِ الستارة. الوجهُ بحدِّ ذاته ومعناه الشرير بُنِيَ في دماغي الطفولي الخائف. وفي الحادي عشر من أيلول رأى بعض المتّقين وجهَ الشيطان في الدخان المنبعث من البرجين: خرافة مدعومة بصورةٍ نُشِرتْ على الإنترنت وتداولها الناس بشكلٍ كبير.

دماغ الإنسان جيد جدًا في بناء النماذج. وعندما ندعو ذلك أحلامًا، وفي اليقظة ندعوها بالتخيّلات أو في حالة كونها شديدة الحيوية، بالهلوسات. وكما سنرى في الفصل العاشر، الأطفال الذين لديهم «أصدقاء خياليّون» يرون أصدقاءهم بوضوحٍ في بعضِ الأحيان كما لو أنهم حقيقيون تمامًا. ولو كنا سُذَّجًا، فلن نميّزَ أحلام اليقظة أو الهلوسة وسندّعي بأننا رأينا أو سمعنا شبحًا، أو ملاكًا أو إلهًا أو أيَّ شكلٍ خاص في حالة الشابات الكاثوليكيات، مريم العذراء. رؤيا كهذه ليست سببًا كافيًا للتصديق بأنَّ الأشباح، الإله أو العذراء موجودين حقيقة.

من ناحيةٍ أخرى ففي حالة الرؤيا الجماعية، كما حصل في البرتغال في أيام حج لمنطقة السيدة فاطمة البرتغالية عام 1917 حيث شَهِدَ سبعون ألفًا من الحجاج الشمس تترك السماء، تهوي وتصعد في الأفق. فإنه من

الصعب تجاهل ظاهرة كتلك. وليس من السهلِ تفسير تقاسم 70000 شخص لنفس الهلوسة. ولكن من الأصعب القبول بحقيقة حدوثها بدون أن يراها أحد خارج منطقة السيدة فاطمة، وليس فقط الرؤية، بل أيضًا الشعور بالدمار الهائل للمجموعة الشمسية، ومن ضمنها قوى تسارع كافية لقذف الجميع للفضاء.

ولا نستطيع هنا مقاومة التفكير بتجربة دافيد هيوم البليغة عن الأعاجيب: ليس هناك من شهادة تكفي لتصديقِ أعجوبة، إلا إذا كان تكذيبها أعجب من الواقع الذي بُنِيَت عليه». ربما يبدو من غير المحتمل أن يكون سبعون ألف شخصٍ ضحيةً لنفسِ الوهم في نفس الوقت، أو أنهم تآمروا على نفس الكذبة الجماعية. أو أن التاريخ أخطأ في تسجيل واقعة إنَّ سبعين ألفا زعموا رؤية الشمس ترقص. أو أنهم رأوا سرابًا (كان قد أغرو بالتحديق في الشمس، وتأثير ذلك على النظر ليس بكبير). ولكن في كل ما يبدو قليل الاحتمال بشكل هائل فإنَّ احتمال العكس هو أقل بكثير: أن تكون الأرض قد سحبت من مسارها جانبًا، والنظام الشمسي قد تدمر، بدون أن يشعر أحد خارج منطقة فاطمة بالموضوع. وقصدي هنا أن البرتغال ليست معزولة بهذا القدر عن بقية العالم.

هذا كل ما هنالك مما يمكن أن يُقال حول موضوع التجارب الشخصية للإله أو لظواهر دينية أخرى. ولو تعرّضت لتجربة من هذا النوع فلربما تجد نفسك مؤمنًا بواقعيتها بشكل قوي. ولكن لا تتوقع أنه على الآخرين منا أن يصدّقوا ذلك. وخصوصًا إذا كان لدينا بعض المعرفة عن الدماغ وقدرته الجبارة على العمل.

الحجج من الكتاب المقدس:

لا يـزال البعض مؤمنًا بـالله نتيجة لاقتناعه بالأدلة الـواردة في الكتب الدينيـة. إحدى الحجج الشـائعة، والمنسـوبة للعديديـن ومنهم س. اس. لويـس (والذي يجـب أن يكون أعرف مـن ذلك)، تقول بأنـه، طالما زعم المسيح بأنه أبن الله، فإنه أما على حق أو مجنون أو كذّاب: «مجنون، سيء أو جيد» أو بشكل آخر «مهووس، كذاب أو إله».

الأدلـة التاريخيـة قليلة جدًا والتي تنبّئ بأنّ المسـيح زعـم بأنه مقدّس. ولكـن حتـى لو كانـت الأدلة جيـدة فإنّ ذلـك العرض منقوص بشـكل سـخيف. الإمكانيـة الرابعـة، والتـي هو أوضح مـن أن نحتاج الإشـارة إليها، وهي أنّ المسـيح كان مخطئًا بأمانـه. العديدون يفعلون ذلك. وعلى كل حال، وكما قلت ليسـت هناك أدلة تاريخية جيدة بأن المسـيح زعم بأنه مقدس بالمرة.

مـن الواقعـي أن الـشيء المكتوب لا يدفـعُ الناس لأسـئلة كالآتية: «من الـذي كتبـه، ومتـى؟ كيـف عرف عـن الموضوع الـذي كتبه؟ هـل اعتقدوا في وقتهـم، بأننـا في وقتنـا سـنفهم ما قالـوه ولماذا؟ هـل كانـوا مراقبين غير متحييزيـن، أم كان لهـم هدف جعلهم يتلاعبون بكتاباتهـم؟ وبدأ من القرن التاسـع عشر، يشكك دارسو الديانات في أن الأناجيل يمكن الاعتماد عليها لمعرفة ما حصل تاريخيًا في العالم بشكل حقيقي. كلها كتبت بعد وقت طويل مـن وفاة المسـيح، وحتى بعد رسـائل القديس بولص، والتـي لم تنشر تقريبًا لأيّـةٍ مـن الوقائع عن حياة المسـيح. ومنذ ذلك الحين وهي تنسـخ وتنسـخ، من خلال «أجيال من الهامسين الصينيين (الفصل الخامس) ومن قبل كتاب «غير معصومين عن الخطأ»، ولديهم جدول أعمالهم الديني الخاص.

أحد أمثلة تلوين القصص لأغراض دينية هو القصة الدافئة الأسطورية عن ولادةِ المسيح في بيت لحم. ملحقة بمذبحةِ هيرودوس للأبرياء. عندما كتب الإنجيل بعد وفاة المسيح لم يكن أحد يعرف أين ولد. ولكن نبوءةٌ من العهد القديم (ميكاه 5:2 جعلت اليهود يتوقعون أنَّ المخلّص المنتظر سيولد في بيت لحم. وفي ضوء تلك النبوءة، فإنَّ إنجيل يوحنا يدون بشكل لا ريب فيه بأنَّ أتباعه فوجؤوا بأنه لم يولد في بيت لحم: الآخرون قالوا، إنه المسيح. والبعض قال، هل يأتي المسيح من الجليل؟ ليس هذا ما ذكر في الكتاب المقدس، بأن المسيح من نسل داوود، سيكون من بيت لحم، مكان داوود؟ متّى ولُوقا حلّا المشكلة بشكلٍ مخالف، وذلك بالقرار بأنَّ المسيح يجب أن يكون قد وُلِد في «بيت لحم» رغم كل شيء. ولكنهم أتوا به إليها بطرق مختلفة. متى جعل مريم ويوسف يذهبان لبيت لحم من الناصرة بعد وقت طويل من ميلاد المسيح، وعلى طريق عودتهم من مصر حيث هربا من الملك هيرودوس والمذبحة، لوقا على العكس يعترف بأنَّ مريم ويوسف عاشا في الناصرة قبل ميلاد المسيح.

كيف سينقلون لبيت لحم في اللحظة الحرجة، لتحقيق النبؤة؟ لوقا قال بأنه، عندما كان سيرينيوس حاكم سوريا، أمر القيصر أُغسطوس بإحصاء عدد السكان لأمور تتعلق بالضرائب، وكان على الجميع أن يذهبوا لمدنهم الأصلية. ويوسف كان من بيت ونسل داوود، ولهذا كان عليه أن يذهب لمدينة داوود، والتي تدعى بيت لحم. وبدا ذلك حلًّا لا بأس به للمشكلة. ما عدا أنه ذلك تاريخيًا ليس له معنى على الإطلاق، كما نوّه أ. ن. ويلسون في المسيح وربون، لأنَّ فوكس في النسخة غير المرخصة (وكذلك في غيرها من النسخ).

داوود لـو كان موجـودًا لتوجّـب أن يكـون سـابقًا بألـف علـم لمريم ويوسـف. ومـا سـبب طلـب القيصر بـأن يذهبَ يوسـف لبد عـاش فيه أسـلافه البعيـدون جـدًا من ألف عـام؟ هذا أشـبه بأن أضع أشـبى دولا زوخ في خانـة المدينـة على طلب الضرائب الخاص بي، هذا إنِ اسـتطعت أن اقتفي أثر أسلافي في عهد السينور داكين، والذي أتى مع ويليام الفاتح واستقر هناك.

والأكثـر من ذلك، فقد خصَّ لوقـا التواريخ بالتنوية لأحداث تاريخية مما يسـتطيع علـماء التاريخ التدقيق فيـه. بالتأكيد كان هنـاك إحصاء تحت إمرة الحاكم سـيرينيوس، إحصاء محلي وليس بأمر القيصر أغسـطس لكل الأمبراطوريـة ولكن ذلك حصـل متأخرًا: في العام 6 ميلادي وبعد موت هـيرودوس بكثـير. لأنَّ فوكس استـنتج بأنَّ قصة «لوقا مسـتحيلة تاريخيًا ومفكّكـة داخليًا» ولكنه تعاطف مع لوقا في محنتـهِ ورغبتهِ في تحقيقِ نبوءة ميـكاه. في عدد كانـون الأول 2004 من فرى انكوايـاري، جمع توم فلين، محـرّر تلك الصحيفـة الرائعة، مجموعة من المقالات التـي دوّنت التناقض والفراغـات في قصة الميلاد المحبوبة. فلين نفسـه وضـع لائحة بتناقضات عديـدة بين متـى ولوقا، وهـم الإنجيليان الوحيـدان الـذان تطرقا لقصة الميـلاد. روبـرت غيلـوي بـين لنـا كيـف أن كل المواصفـات المذكورة في أسـطورة المسـيح، متضمنـة نجمة الـشرق، ولادة العـذراء تبجيل الطفل من الملوك، والأعاجيب، الإعدام والقيامة والصعود كلها مسـتعارة على الأطـلاق، مـن أديان كانـت موجـودة في منطقة البحر المتوسـط والشرق الأوسـط سـابقًا. فلين اقترح بأنَّ رغبـة متى بتحقيق نبـوءة المخلص (من نسل داوود، مولود في بيت لحم) كانت للقراء اليهود وبذلك تتضارب مع

نسخة لوقا ورغبته بنشر المسيحية عند الوثنيين، ولذلك كان التركيز على النقطة الحساسة في اللغة للدين الهيليني الوثني (ولادة العذراء، تبجيل من الملوك، إلخ) التضارب صارخ وواضح، ولكنه متجاهل بشكل مستمر من المؤمنين.

المسيحيون المتطورون لا يحتاجون لجورج غير شوين ليقنعهم بأغانيه الأشياء التي عليك فعلها القراءة بالإنجيل ليس الأمر كذلك بالضرورة. ولكن هناك العديد من المسيحين البسطاء والذين يعتقدون بأنه ذلك حصل بالضرورة كما كتب بالضبط، من الذين يأخذون الإنجيل بجدية وحرفية كسجل تاريخي دقيق ودليل يدعم صحة معتقداتهم الدينية. هل فتح هؤلاء الكتب التي يعتقدون بأنها الحقيقة الحرفية؟ لماذا لا يلاحظون هذه التناقضات الساطعة؟ ألا يحق للمدقق الحرفي بأن يقلق لواقع أن متّى اقتفى أسلاف المسيح حتى داوود من خلال 28 جيلاً بينما لوقا احتاج لـ 41 جيلاً؟ والأسوأ هو عدم وجود أسماء مشتركة في اللائحتين تقريبًا! وعلى أي حال، لو كان المسيح مولود لعذراء، فإنَّ أسلاف يوسف لا يهمّونا هنا ولا يمكن استعمالهم لتحقيق النبوءة من العهد القديم بأنَّ المخلّص يجب أن يكونَ من نسلِ داوود.

دارس الإنجيل الأمريكي بارت ايهرمان، في كتاب بعنوان ثانوي الحكاية التي وراء تحريف العهد الجديد وأسبابه (عنوان الكتاب تحريف كلام المسيح أو من قال ذلك. حسب دار النشر)، يكشف فيه اللخبطات الضبابية الكبيرة في نصوص العهد الجديد. وفي مقدمة الكتاب، يشرح البروفيسور ايرهمان بإسهاب عاطفي مخطط رحلته التعليمية من مؤمنٍ متعصّب بالإنجيل، لمفكر متشكك، رحلة فرضت بدايته إداركه

لاحتمالات الخطأ الكبيرة في الكتب المقدسة. وبشكل ملحوظ عبر تنقله التدريجي في الجامعات الأمريكية، من الحضيض في «كلية مودي الإنجيلية»، حتى كلية ويتون (الأعلى مرتبة، والمدرسة الأم لبيلي غراهام) وحتى برينستون العالمية في القمة. وفي كل خطوة كان يتلقى التحذيرات عن إمكانية التسبب بالمشاكل لنفسه بتعصبه المسيحي في وجه التطور الخطر. وبرهنت صحة ذلك، وقراءة نحن هم الذين استفادوا. وإليكم كتب أخرى إيقونية منعشة في نقد الإنجيل. كتاب روبن؛ لأنَّ «فوكس» النسخة غير المرخصة، وقد ذكرته مسبقًا، وجاكلين بيرلينربلاو الإنجيل العلماني، لماذا على غير المؤمنين أن يأخذوا الدين بجدية.

الأناجيل الأربعة التي صارت شريعة رسمية، أُختيرت عشوائيًا بشكلٍ أو بآخر، من حوالي دزينة على الأقل منها توما، بطرس، نيكوديموس، فيليب، بارتولوم، ومريم المجدلية. وهي الأناجيل التي عناها توماس جفرسون في رسالته لابن أخته:

«هاك ملاحظة نسيت أن أنوّهَ عنها، عند الكلام عن العهد الجديد، فإنه عليك أن تقرأ كل تاريخ المسيح، كما أقرّه مجلس القسيسين عنا وعلينا، لنكون أنصافَ دعاة، كما هم يسمّون أنفسهم دعاة. لأن هذا النصف داعي يتظاهر بالإلهام، تمامًا كما يفعل الآخرون، وبذلك يمكنك الحكم على تظاهرهم بأحكامك الشخصية وليس بأحكامِ القساوسة».

الأناجيل التي لم تنتشر حُذفتْ من قبل هؤلاء القسّيسين، ربما لأنها تحتوي قصصًا أكثر إحراجًا من مثيلاتها في الأربعة الذين أصبحوا شرعيين. إنجيل توما على سبيل المثال، توجد فيه بعض الطرائف عن المسيح الطفل يسيئ استعمال قُواه السحرية بنفس طريقة جِنيّات الخرافات الشريرات،

وبشكل عفريتي يحول أصدقاءه لعنزات، أو يتحوّل الطين لعصافير، أو يساعد أباه في نجارته بإطالة قطعة خشب بشكل سحري. وسيقال بأنَّ لا أحدًا يصدق قصصًا عن أعاجيب خام كالتي في إنجيل توما على أية حال. ولكن ليس هناك أي سبب لنصدق الأناجيل الشرعية الأربعة أيضًا. كلها لها صفة لأساطير، ومريبة في الواقع كما هي قصة الملك آرثر وفرسان المائدة المستديرة.

معظم ما هو مشترك في الأناجيل الأربعة أتى من مصدر مشترك، وهو إنجيل مرقص أو من عمل أقدم ضائع، ومرقص هو أقدم ما نعرفه عن ناسخيه. لا أحد يعرف من هم الدعاة الأربعة. ولكنه من المؤكد تقريبًا إنهم لم يقابلوا المسيح شخصيًا. ومعظم ما كتبوه لا يمكن أن يُوصفَ بأي شكل بأنه تاريخ أمين ولكن ببساطة أعادة قولبة للعهد القديم؛ لأنَّ صناع الأنجيل كانوا مؤمنين بإقتناع عظيم بأن المسيح يجب أن يحقق نبوءة العهد القديم. ومن الممكن نفكر ولو أن ذلك ليس منتشرًا بعد، بجدية الطرح التاريخي بأنه لم يكن هناك مسيح على الأطلاق، كما فعل العديدون ومن بينهم البروفيسور ج. أ. والاس من جامعة لندن في كتبه والتي من بينها هل وجد المسيح؟ ورغم احتمال وجود المسيح، فإنَّ دارسي الإنجيل المحترمين لا يعّدون العهد الجديد (وبالطبع القديم أيضًا) كمصدر موثوق به للأحداث التاريخية، وسأتوقف الآن عنِ اعتبار الإنجيل كدليل على أي شيء الوهمي. كما كان الحال في نصل جفرسون البعيد النظر لخلفه جون أدامز، «سيأتي يوم يُعدّ فيه الجيل المُبهم المؤمن بالمسيح، وأبوه السماوي الخارق، ورحم العذراء، كالجيل الذي أمن بمينرفا كإله موجود في دماغ جوبيتر (الإله الرومانية القديمة).

و قد أحدث دان براون وكتابه شيفرة دافنشي والفيلم الذي عرض الكثير من اللغط في أواسط الكنيسة. وبأنَّ المسيحين عليهم أي يقاطعوا الفيلم ودور السينما التي تعرضه. إنه بالتأكيد مُفبرك من البداية للنهاية: بدعة، خيال مختلق. وفي ذلك الصدد فإنه ليس مختلفًا عن الإنجيل. والفرق الوحيد هو أنَّ الأناجيل هي خيال قديم وشيفرة دافنشي خيال من العصر الحديث.

الحجة من العلماء الكبار المتدينين:

الغالبية الساحقة من الأذكياء المثقفين لا يؤمنون بالدين، ولكنهم يُخفون ذلك عن الجمهور، ذلك لأنهم يخافون فقدان أعمالهم

- برتراند راسل

«نيوتن كان متدينًا، فكيف تضع نفسك في مستواه، غاليلو، كيبلر... إلخ؟ إذا كان هؤلاء قدِ اقتنعوا بالله فمن تظن نفسك؟ وفي محاجّة سيّئة كهذه من الممكن أن يذكر داروين من قبل المتدينين، وما أشيع عنه وأنتشر كالرائحة الكريهة وثبت خطأة، من أقاويل عن تحوّلِه للإيمان عندما كان على فراش الموت، وقد بدأ ذلك من قبل لايدي هوب، والغزل المثير للحساسية عن داروين مستلقٍ على وسادة ويقلّب صفحاتِ العهد الجديد في ضوء المساء ويعترف بأنَّ نظريةَ التطوّر كلها خطأ. في هذا المقطع سأركّز على العلماء بشكلٍ خاص؛ لأنَّ السببَ واضح الذين يستعملون أسماء أناس يثيرون الإعجاب كأمثلةٍ دينية يختارون العلماء في معظم الحالات».

نيوتن بالتأكيد ادّعى التدين. وهذا ما فعله الجميع تقريبًا بشكل ملحوظ، حتى حلول القرن التاسع عشر، حيث قل الضبط الاجتماعي

والقضائي عن القرونِ السابقة بما يتعلق بالصراحة الدينية، وزادتِ الأدلّةُ العلمية التي تدعو لإهمالها.

و لا شك أن العديد من الإستثناءات في كلا الإتجاهين وجد أيضًا. وحتى قبل داروين، لم يكن الجميع من المؤمنين. كما في كتاب جيمس هاوت 2000 عام من عدم الإيمان: مشاهير كانت لهم الشجاعة للشك. والعديد من العلماء استمروا بالإيمان حتى بعد داروين. ليس لدينا أي سبب لنشكّك في ولاء مايكل فاراداي للمسيحية حتى بعد معرفتهِ الحتمية بداروين وأعماله. وكان من جماعة ساندي‌مانيان الدينية. والتي آمنت (استعمل الفعل الماضي لأنَّ تلك الجماعة انقرضت عمليًا) بحرفية الإنجيل. ومن الطقوس كان غسل أقدام الداخلين الجدد وسحب القطع لمعرفة إرادة الله. وأصبح فاراداي شيخًا في 1860 بعد عام واحد من نشر أصل الأنواع، ومات كساندوماني عام. 1876 نظير العالم التجريبي فاراداي، عالم النظريات كْلارك ماكسويل، كان مسيحيًا مخلصًا أيضًا. وكذلك كان عمود الفيزياء البريطانية في القرن التاسع عشر وليام تومسون، ولورد كيلفين، الذي جرّبَ إثبات نظرية التطور باطلة بسبب عدمِ كفاية الوقت. خطأ العالم الترموديناميكي كان في افتراض أنَّ الشمس كانت نوعًا من النار، تحترق عبر وقودٍ ما، الذي ينفد خلال عشرات ملايين السنين، وليس آلاف الملايين. ولا أحد في زمان كالفين توقع وجود الطاقة النووية. لحسن الحظ، عام 1903 وفي اجتماع الجمعية البريطانية، برّأ جورج داروين، الأبن الثاني لتشارلز، أباه بعد اكتشاف كوري للراديوم، وفنّد بذلك تقديرات لورد كالفين الذي كان لا يزال على قيد الحياة لفترة حياة الشمس.

خلال القرن العشرين أصبح البحث عن علماء يصرّحون بالتديّن عملية أصعب، ولكنهم ليسوا نادري الوجود بأي حال. وتقديري إنَّ معظم العلماء المتدينين الحاليين هم بالمعنى الأينشتايني والذي ناقشته في الفصل الأول. استعمال الكلمة بشكل خاطئ. ولكن يوجود أيضًا العديد من العلماء المتدينين بالمعنى التقليدي. من ضمن العلماء البريطانيين المحدثين، ثلاثة أسماء مألوفة تشترك بها يشبه مؤسسة محاماة لديكنز: بيكوك، ستانارد وبولكنغتون. ثلاثتهم حصلوا على جائزة تمبلتون أو كانوا في مجلس الإدارة لجمعيتها. وبعد مناقشات حبية شخصية وعمومية بيننا، فإن ما يظل محيرًا بالنسبة لي، ليس إيمانهم بوجود نوع من رجل القانون الكوني، بل إيمانهم أيضًا بتفاصيل المسيحية: القيامة، غفران الذنوب، وإلخ...

هناك قرائن أمريكية لهؤلاء ومثالٌ على ذلك فرانسيس كولينز، المدير الإداري لمشروع الموروثات الإنسانية الرسمي. ولكن ما يشد الانتباه هو قلّة عددهم في بريطانيا وكونهم موضوع محير لأقرانهم في الوسط الأكاديمي. في عام 1996 وفي حديقة كلية كلار القديمة في كامبريدج، أجريت مقابلة مع صديقي جيم واتسون، العبقري المؤسس لمشروع الموروثات الإنسانية، وذلك لبرنامج وثائقي أعددته لمحطة BBCعن غريغور ماندل العبقري الذي أوجدَ علمَ الوراثة بذاته. ماندل بالتأكيد كان متدينًا كان راهبًا اغوسطيًا، ولكن ذلك كان في القرن التاسع عشر، عندما كانت الرهبنة هي أسهل الطرق لمتابعة الشغف بالعلم بالنسبة لماندل. وبالنسبة له كان ذلك موازيًا في أيامنا للحصول على منحة للبحث العلمي. سألت واستون عمّا إذا كان يعرف بأي عالم متدين في أيامنا

فأجـاب: عمليًـا لا أحد. أصـادف بعضهم بالمناسـبات، وأشـعر بالحرج (يضحك) لأنني كما تعلم لا أسـتطيع التصديق بأنَّ أيًا كان يتقبل الحقيقة من خلال الوحي.

فرانسـيس كريك، المؤسس الشريك لواتسـون للمشروع الثوري عن الجزيئـات المورثة، اسـتقال مـن كلية تشرشـل في كامبريـدج؛ لأنَّ الكليةَ قـرّرتْ بناء مصلى (أوصى بـه أحد المتبرعين). في مقابلتي مع واتسـون، قصدت أن أقولَ له بأنَّ البعض، على عكس واتسـون وكلارك، لا يرون تناقضًا بين العلم والدين، لأنهم يزعمون بأنَّ العلم يبحث في كيفية العمل للأشياء والدين يبحث في الغاية من ذلك.

وعندها قال واتسون: لا أعتقد أننا موجودون لغايةٍ ما. نحن منتوجات للتطور، باسـتطاعتك القول: اه، لابد أن حياتك كئيبة جدًا لعدم اعتقادك بوجـود هـدف. ولكنني أتوقع وجبة غداء جيدة علـى أي حال. وغداؤنا كان جيدًا فعلاً.

الجهـود التـي يبذلهـا الدعـاةُ في البحـث عن علـماء معاصريـن مميزين وصادقـين في إيمانهم يُنْبِئ باليأس، يعطي الإحسـاس بالصدى الناتج عن قشـط قاع البرميل. موقع الإنترنت الوحيد الذي نشر لائحة عن «العلماء المسـيحيين الحاصلين على جائزة نوبل» فيها ست أسماء، وذلك من أصل المئـات مـن العلـماء الحاصلين على الجائـزة. من هؤلاء السـتة، كان هناك أربعـة ليسـوا مـن الحاصلين علـى الجائزة علـى الإطلاق. وعلـى الأقل أعرف واحدًا منهم تمام المعرفة بأنه ليس مؤمنًا وأنه يذهب للكنيسة لسبب اجتماعي صرف. وفي دراسـة منظمة من قبل بنجامين بيثالاهمي وَجَدَ بأنَّ نسـبة عـدم التديّن بـين الحاصلين على جائـزة نوبل للعلـوم والآداب أو

المرشحين لها كبيرة بشكلٍ ملحوظ جدًا بالنسبة للمناطق التي ينمتون إليها.

في دراسة أخرى من صحيفة الطبيعة قام بها لارسون وويتهان في 1998 نرى بأنَّ من بين العلماء الأمريكيين المتفوقين بنظر أقرانهم لدرجة أنهم أنتخبوا ليكون أعضاء في الأكاديمية الوطنية للعلوم (ما يوازي العضوية في الهيأة الملكية في بريطانيا) يوجد حوالي 7 بالمئة فقط ممن يؤمنون بالله الشخصي. تلك الغالبية الساحقة من الملحدين هي تقريبًا عكس نسبتها في الشعب الأمريكي بشكل عام، حيث نسبة المؤمنين بشكلٍ أو بآخر وبقوة كونية خارقة تقارب الـــ 90 بالمئة. والنسبة بين العلماء الأقل سموا والذين لم ينتخبوا الأكاديمية في الوسط بين النسبتين السابقتين. والمؤمنون يشكلون أقلية ولكنها ليست بذات الدرامية وبنسبة حوالي 40 % وهذا تمامًا ما أتوقعه من أن نسبة التدين بين العلماء أقل منها بالنسبة للعامة، والعلماء الأكثر تميزًا هم الأقل تدينًا على الإطلاق.

من الملاحظ التعارض الصارخ بين تديّن عامة الشعب الأمريكي وإلحاد النخبة المثقفة. من المدهش لدرجةٍ ما بأنَّ موقع الإنترنت الرائد لمؤيّدي نظرية الخلق نشر دراسة لارسون وويتنام، ليست كدليلٍ على احتمال وجود خطأ في موضوع التديّن، ولكن كسلاحٍ لمعركتهم الداخلية ضد المتديّنين المنافسين الذين يزعمون بأنّ نظرية التطوّر تتماشى مع الدين. وتحت عنوان «الأكاديمية الوطنية للعلوم مضادة لله في الصميم» وقد علقوا على النتيجة النهائية من لارسن وويتهان في رسالة لمحرر الطبيعة:

«ورأينا - بعد التمحيص - بأنَّ الأكاديمية نشرت كُتيّبًا تشجّع فيه على تدريس التطوّر في المدارس العامة، هو استمرار للاستفزاز بين الجالية

العلمية وبعض المحافظين المسيحيين في أمريكا، سواء كان الله موجودًا أم لا، فهذا ليس من شأنِ العلم» وعميد الأكاديمية بروس ألبرت قال: هناك العديدين من الأعضاء المميزين في الأكاديمية من المتدينين جدًا، ويؤمنون بنظرية التطور، والعديد منهم علماء بيولوجيا، ولكن إحصائياتنا لها نتائج مخالفة لذلك.

يشعر المرءُ بأنَّ ألبرت قد اعتنق (أ غ م) لسبب كنتُ قد ناقشته في مدرسة نيفيل تشامبرلاين للتطوريين (الفصل الثاني). ولكن أجوبة من جينيسيس لها أهداف أخرى.

ما يوازي الأكاديمية الأمريكية الوطنية للعلوم في بريطانيا (وكل دول الكومنولث كأُستراليا، كندا، نيوزيلاندا إلخ) هو الجمعية الملكية. وفي نفس الوقت الذي يذهب فيه هذا الكتاب للطبع يقوم زملائي ر. أليزابيث كورنويل ومايكل ستيرات بكتابة نتائج مقارنة مشابهة، ولكن أكثر عمقًا عن آراء أعضاء الجمعية الملكية في الدين. وستنشر النتائج بالتفصيل لاحقًا، وهم تكرّموا بالسماح لي بأن أعلّق على النتائج المبدئية هنا. لقد استعملوا تقنية تسمى سلم الآراء، سلم من سبع نقاط مشابهة لسُلّم ليكيرت. جميع الأعضاء الـ 1074 للجمعية والذين لديهم إيميل طلبوا للمشاركة فيه، وحوالي 23 بالمئة استجابوا للطلب (نسبة لا بأس بها لهذا النوع من الدراسات).

عُرضتْ عليهم أسئلة مختلفة مثل: أنا أؤمن بالإله لشخصي، الذي يجيب ويهتم بما يفعله الفرد، يسمع ويستجيب للدعاء، يقلق على موضوع الخطيئة والتجاوزات، ويحكم على أساس ذلك. وهناك سبعة خيارات من معارض بشدة لموافق بشدة. من الصعب مقارنة هذه الدراسة مع

دراسة ويتهان ولارسـن لأنهم عرضوا ثلاثة خيارات على سلّم دراستهم وليسـت سبعة. لكن الاتجاه في الحالتين واحد. وبأكثرية هائلة في الجمعية الملكيـة كما في حـال الأكاديميـة في أمريكا كانت من الملحديـن 3 , 3 بالمئة فقط وافقوا بشـدة على وجود الإله الشخصي (الدرجة 7 من السلم) بينما 8 , 78 عارضوا بشدة (الدرجة 1 من السلم).

لو اعتبرنا أنَّ المؤمنين هم من اختار 6 أو 7 والملحدين هم من اختار 1 أو 2 فإنَّ لدينا 213 ملحدًا مقابل 12 من المؤمنين.

كما في حال لارسون وويتهان. وكما هو الحال في الأكاديمية وكما لاحظ بيات هالامن وأرجيل من جهة وستيرات وكورنويل من جهة أخرى فإنَّ الملحلديـن البيولوجيين أعلى قليـلاً من الفيزيائيـين. وللتفاصيل الرجاء مراجعة النتائج عندما تنشر.

وبعيـدًا عن الأقلية من العلماء في الأكاديمية الوطنية والجمعية الملكية، هل هناك أي دلائل بأنَّ الملحدين ينتمون إلى الفئة الأفضل ثقافةً والأرقى تعليمًا في المجتمعات بشكل عام؟

لقد نشرت عدة دراسات إحصائية عن العلاقات بين التديّن ومستوى الثقافة أو التدين ومستوى الذكاء.

مايكل شـيرمر في كيف نؤمن: البحث عـن الله في عصر العلم، يصف إحصائية على عينة عشوائية في أمريكا أجراها مع زميله فرانك سولواي. ومـن ضمن النتائج الكثيرة والمثيرة في مسـحم الإحصائي كان التناسـب العكسي الواضح بين التدين ومستوى التعليم (الأفراد الأعلى في مستوى التعليم هم الأقل تدينًا). كما أنَّ التدين يتناسب عكسًا مع الإهتمام بالعلم

وبشكل قوي الحرية السياسية. لا شي غير متوقع هنا تمامًا كما العلاقة الطردية بين التديّن وتديّنِ الآباء. اختصاصيّو علم الاجتماع في إنكلترا وجدوا بأنَّ واحدًا من أصل 12 فقط ينفصل دينيًا عن معتقدات أبويه.

وكما قد تتوقع، فإنَّ الباحثين يستعملون طرقًا مختلفة لقياس الظواهر. وبالتالي فإنه من الصعب المقارنة بين الدراسات. وتحليل معلومات النتائج هو التقنية التي يستعملها المحقق في هذه الحالة وذلك بفحص كل نتائج الأبحاث في موضوع ما ووَضَعَ عدد الأبحاث التي استنتجت شيئًا ما مقابل الأبحاث التي استنتجت شيئًا آخر. وفي حالة التديّن ومستوى الذكاء فإنَّ النتيجة الوحيدة عن تحليل نتائج عدة أبحاث والتي لي علم بها نشرت في مينزا ماغازين في 2002 وأجراها بأول بيل (مينزا هي جمعية الأفراد ذوي مستوى الذكاء العالي، وليس من المفاجئ أن تحوي مجلتهم مواضعيًا عن الشئ الوحيد الذي يجمعهم معًا).

والنتائج عند بيل كانت كالآتي: من 43 دراسة أجريت منذ عام 1927 عن العلاقة بين الاعتقاد الديني ومستوى التعليم، جميعها ما عدا أربعة منها وجدت التناسب عكسيًا؛ يعني بأنه كلما علا مستوى الذكاء أو الثقافة عند فرد ما، كلما قل احتمال أن يكون هذا الشخص متديّنًا أو أن يكون لديه إيمان من أي شكل.

تحليل معلومات النتائج لعدة تجارب شكل عام يعطي نتائج أكثر عمومية وأقل دقّة من أي دراسة قد ساهمت به. من الجيد عمل دراسات في تلك المجالات، وأيضًا عن الأقلية في جمعيات مشابهة للأكاديمية الوطنية. والحائزين على جوائز علامية وميداليات مثل نوبل، كرافورد، كيوتو.. إلخ. أمل أن أكون قادرًا على ضم بعض النتائج في إصدار لهذا

الكتاب في المستقبل. ربما تساهم النتائج العقلانية لإبحاث كهذه في جعل رجال الدين يترددون قبل الإشـارة لشخصيات محترمة كأمثلة في التدين، على الأقل فيما يختص بالعلماء.

رهان باسكال:

بسـحبِ عـالم الرياضيـات الفرنـسي العظيم بليز باسـكال فإنـه، مهما صَغُـرَتِ الدلائلُ على وجـود الله، فإنَّ العقوبة التـي تنتظر المخطئ كبيرة بشـكل مناظر لذلك. الأفضل الإيمان بالله؛ لأنك لو كنت مصيبًا سـتربح النعمـة الكبرى ولو كنت علـى خطأ، فلن يكون هناك فـرق. ومن ناحية أخـرى، لو لم تؤمن بالله وكنت مخطئًا فسـتتعرّض للّعنة الأبدية، ولو كنت مصيبًـا فلـن يكون هناك أي فـرق. وعلى ذلك؛ فالقـرار لا يحتاج لذكاء. عليك الإيمان بالله.

هنـاك شيء مـا محيّر بشـكلٍ خاص في هـذه الحجة. الإيمان ليس شـيئًا تقرّره كالسياسـة. وعلى الأقل فأنا لا أسـتطيع فعله بإرادتي. أسـتطيع أن أقـرّرَ الذهاب للكنيسـة وأسـتطيع أن أرتّل الآيات، وأسـتطيع أن أقسـمَ علـى مجموعـة الأناجيل بـأني أصدق كل كلمـة فيها. ولكـن لا شيء من ذلك يجعلني مؤمنًا إذا لم أكن كذلك. ورهنا باسـكال ليس أكثر من حجة لاختـلاق الإيمان بالله. والأفضل للإله المزعوم والكلي العلم أن يسـتطيع رؤيـة المكر. سـخافة الفكرة ذاتها بـأنَّ الإيمان هو شيء تسـتطيع أن تقرّره كانـت موضعَ سـخريةٍ رفيعةَ المسـتوى مـن قبل دوغـلاس أدام في وكالة ديريـك جينتـلي للتحريـات الشـاملة، حيـث يصـف فيها الراهـب الآلي الاكتروني، إله تشتريها لتوفير الوقت المصروف في العبادة، حيث أنها تقوم بالإيمان بدلاً عنك. والنموذج الفاخر يوصف بأنه يستطيع الإيمان بأشياء

لا يستطيع أهل سولت لايك سيتي الإيمان بها (سولت لايك سيتي مدينة في أمريكا ينتشر فيها المذهب المورموني والمعتقد بقدوم المسيح القادم في أمريكا وأشياء مضحكة أخرى - المترجم).

ولماذا على أية حال نقبل الفكرة بأنَّ الشيء الوحيد الذي يجب أن نفعله لإرضاء الله هو الإيمان به؟ لماذا هذه الخصوصية للإيمان؟ ألا يجب أن يكافئ الله الشفقة، أو الكرم، أو التواضع؟ أو الصدق؟ ماذا لو كان الله عالمًا يرى الصدق في التحرّي عن الحقيقةِ كمزية عُليا؟ في الحقيقة، ألا يجدر بأن يكونَ من صمّمَ الكون عالمًا؟ عندما سُئِلَ «برتراند راسل» عن موقفهِ بعد الموت والوقوف بين يدي الله الذي يسأل راسل عن سبب عدم إيمانه به. كانت إجابة راسل (كنت على وشكِ أن أصفها بالخالدة) عدم كفاية الأدلة أيها الإله، عدم كفاية الأدلة. ألن يحترم الله راسل على شكّه الشجاع (ناهيك عن شجاعة موقفه السلبي خلال الحرب العالمية الأولى الذي أدّى به للسجن) أكثر من باسكال ورهانه الجبان؟ وربما إننا لا نعرف موقف الله، فإننا برأي باسكال لسنا بحاجة للمعرفة من أجل رهان رابح.

لنتذكر أنه رهان وباسكال نفسه لم يدّعِ أنَّ رهانه لا يحوي أكثر من احتمالات طويلة. فهل تراهن على أنَّ الله يفضّل إيمانًا مزورًا وغير أمين (أو حتى إيماننا صادقًا على شك صادق؟). ومرة أخرى لنفترض أنَّ الإله الذي تقابله بعد الموت كان بعلاً، ولنفترض أن بعل غيور تمامًا كما قيل عن يهوه. ألا يكون من الأفضل لباسكال أن يراهن على عدم وجود إله عن المراهنة على الإله الخاطئ؟ وبالتأكيد فإنَّ العدد المطلق للآلهة لا يُمكن الرهان عليه، لأنه يُفسد منطق باسكال كله؟ ربما كان باسكال مازحًا

عندما طرح موضوع الرهان، تمامًا كما أمزح الآن في نقضه. ولكنني قابلت العديد، ومنهم من اقترح بجدّيّة موضوع رهان باسكال كحجّة على وجوب الإيمان بالله، وهذا ما جعلني أعرضها باختصار هنا.

وبالنهاية فهل من الممكن أن نحاجِجَ بمضادّاتِ رهان باسكال؟ لنفرض بأننا آمنا بأنَّ هناك احتمالاتٍ صغيرةً لوجودِ الإله. وعلى الرغم من ذلك، يمكننا أن نقولَ بأنك يمكن أن تحيا حياة أفضل لو راهنت على عدم وجوده، عما لو راهنت على وجودهِ وبناء على ذلك وهدرت الوقت الثمين في العبادة، والتضحية والقِتال والموت من أجله إلخ.... لن أتابع السؤال هنا، وربما سيحمل القارئ ذلك السؤال في ذهنه عندما نناقش العواقب الأليمة التي تتدفق كنتيجة للإيمان ومراعاة الدين.

حجة بايس:

أعتقد بأن أكثر الحالات شذوذًا في محاولات البرهان على وجود الله وهي حالة بايس، والتي وضعها ستيفان أنوين في احتمالات الله. تردّدتُ قبل أن أضيفها لبقية الحجج كونها أضعف وأقل تقديسًا من الأخريات. كتاب أنوين، على أية حال، تلقى الكثير من الصدى الصحفي عندما نشر في 2003، ولدينا الفرصة كي نقدّم بعض الشرح فيما يخص ذلك هنا. عندي بعض التعاطف معه لأنني كما نوهت في الفصل الثاني، أومن بالإله كفرضية عملية، وعلى أقل تقدير كمبدأ، يمكن التحرّي عنها. كما محاولة أنوين الخيالية لوضع أرقام للاحتمالات وهو لطيف بل فكاهي أيضًا.

العنوان الثانوي للكتاب، حسبة بسيطة تبرهن الحقيقة الخالدة، وهو العلامة المميزة في الطبعات المتأخرة بأنه موضوع من قبل الناشر؛ لأنَّ نص

أنويـن لا يحتـوي على تلك الثقة المغـرورة. ومن الأفضـل النظر للكتاب على أنه دليل الاستخدام.

شيء من قبيل شرح نظرية بايس للأغبياء، وذلك باسـتعمال وجود الله بطريقة نوعًا ما للدراسة. كان باستطاعة أنوين أن يستعمل فرضية جريمة قتل لشرح نظرية بايس بنفس الفعالية.

المحقق يشير للأدلة. البصمات على المسدس تشير إلى السيدة بيكوك. يحـدد الشـبهة برقـم ما. ولكـن البروفيسـور بلام لديـه الدافـع لتوريطها وجعلهـا تبـدو مجرمـة، هذا يخفـف الشـبهة عنها بالرقـم الموافـق. الأدلة المخبريـة تعطـي احتـمالاً 70 % بأنَّ المسـدس قد أطلق من مسـافة بعيدة. ممـا يـدل أن المذنب متدرب عسـكريًا. وعلى هـذا نعطي رقـمًا للكونويل ماسـتارد. والموقر غرين عنده الدافع الأكثر معقولية للجريمة. وهذا يزيد رقم احتمال شـبهته. ولكن الشعر الأشقر على سترة الضحية لا يمكن أن تكونَ لأحدٍ غيرِ السيدة سكارلت... وهكذا.

بشـكل ما تتضـارب الأحـكام الذاتيـة للإمكانيات في عقـلِ المحقّق، وتسـحبه في كل اتجـاه. نظريـة بايـس كانت مـن المفترض أن تسـاعده في الحصول على اسـتنتاج. وهي عبارة عن عمليـة رياضية تجمع العديد من تخمـين الإمكانيات وتسـتخلص منها حكمًا نهائيًا، والـذي بدوره يتضمن تخمين إمكانيته. وبالتأكيد فإنَّ جودة التخمين النهائي تعتمد على الأرقام المُقدَّمـة بالأصل. وهـذه في العادة أحـكام ذاتية، وتحـوي كل الارتيابات الناتجـة عنهـا. المبدأ ق د ق خ (قمامة داخلة، قمامـة خارجة، مقولة في علم الكمبيوتـر، المترجـم) قابـل للتطبيـق وفي حالـة أونوين، فـإنَّ كلمة قابل للتطبيق تبدو معتدلةً بشكل كبير.

أونويـن مستشـار في مخاطـرات الإدارة ويحمـل مصبـاح الاسـتدلال لبايـس، وبشـكل منافس لطـرق الإحصاء، يـشرح لنا نظريـة بايس ليس بمثـال عن جريمة قتل ولكن بـشرح الفكرة العظمى بين الأفكار ووجود الله. والخطّـة هـو أن نبدأ بالحـيرة الكاملة، والتي اختار لهـا الرقم 50 بالمئة لكلتا الحالتين. وبعد ذلك يضع لائحة من سـت وقائع متعلّقة بالموضوع، ويضـع ثقـلاً رقميًا لكل واقعـة، ويدخل كل ما سـبق كعوامـل في نظرية بايس ويرى ما هو الرقم الناتج. والمشكلة أن مرة أخرى أن الثقل الرقمي لا يقـاس بل هو من حكم سـتيفن أونوين الشـخصي، وقـد حولها لأرقام للتمرين فقط. الوقائع الست هي:

1 - لدينا شعور بالطيبة.

2 - البعض يفعلون الشر (هتلر، ستالين، صدام حسين).

3 - الطبيعة تحدث فيها أمور شريرة (زلازل، تسونامي، عواصف).

4 - ربما توجد معجزات صغيرة (أضعت مفاتيحي ثم وجدتهم).

5 - ربما توجد معجزات كبيرة (المسيح ربما قام من بين الأموات).

6 - البعض حصلت معه تجارب دينية.

ولمجرد إعطاء القيمة (التي لا تسـاوي شـيئًا بنظـري) فإننا في النتيجة وبعد سباق بايس الذي يجري فيه الله ويسبق توقعات المتراهنين جميعًا. ثم يصبح آخر المتسابقين، ثم يصعد بقيمته للـــــ 50 % وننتهي بالسرور من الاحتمال الذي حصل عليه أونوين وهو 67 % في صالح وجود الله. وبعد ذلـك يقـرر أونوين بأنَّ 67 % ليس كافيًا، وبخطـوة غريبة يرفع الاحتمال

لـــــ 95 % وذلـك بحقنةٍ إسـعافيةٍ من الإيمان. ربما يبـدو ذلك كمزحة، ولكن هكذا أكمل الحسابات.

وأتمنـى أن أشرح كيف بـرر ذلك، ولكن لا شيء يمكـن أن يقال هنا. وقـد واجهـت هـذا النوع من السـخافة في مناسـبة أخـرى عندما تحديت متدينـين وبنفس الوقت علـماء لامعين أن يبرّروا إيمانهـم، بعد أن اعترفوا بعـدمِ وجـود أدلّة: أعـترفُ أنه لا توجد أدلة. هناك سـبب لتسـمية ذلك الإيمان (العبارة تدوي بالاتهام المشاكس، ولم يكن فيها أي تلميح لاعتذارٍ أو دفاع عن الرأي).

ومـن المفاجئ أنَّ لائحة أونوين لا تحتوي على حجة التصميم، أو أيٍّ منهـا بـأيٍّ حافز في تخميناتـه الرقمية لإمكانية وجود الله. بل أنه يناقشـهم ويهملهـم ككل إحصائـيٍّ جيد كونهـم فارغين. وأنا أعتقـد أنَّ ذلك نقطةٌ في صالحـه، بالرغـم مـن أنه أهمل حجـة التصميم لسـببٍ مغايرٍ لسـببي، ولكـن الحجـج التي يتقـدم بها من خـلال البـاب الخاص بالمدخـل لـــــ «بايـس» تبـدو لي ضعيفة بنفس المسـتوى. وأعنـي بذلك بأنني سـأعطي وزنًـا للإمكانيات مختلفًا تمامًا عن الـوزن الذي أعطاه هو، ولكن من يهتم للأحكام الشـخصية؟ وهو يفكر بأنه يمكننا الاعتماد على حدسنا بالصح والخطأ بشكل قوي في صالح وجود الله، بينما أعتقدُ بأنه ليس من الواجب أن ينحرف لهذا السبب، في كلا الاتجاهين، عن اتجاه التوقّع الأصلي.

الفصل السادس والسابع سيشرحان لنا بأنه لا يمكن بناء قضية بشكل جيد لتدل على إنَّ امتلاكنا للحس بالخطأ والصواب له أي علاقة بوجود إله خارق للطبيعة. وكما نسـتطيع تقدير رباعيات بيتهوفن؛ فإنَّ إحساسـنا بالخطـأ والصـواب (لا يعني ذلك بالضرورة حافـزًا لاتباعها) كما هو بإله

أو بدونـه. ومن ناحية أخرى فإنَّ أنويـن يفكر بأنَّ وجود الشر، خصوصًا الكـوارث كالزلازل والتسـونامي هي أمور ضد احتـمال وجود الله. وهنا يعاكس أونوين رأيي ولكنه يتماشى مع الكثيرين من علماء الدين القلقين.

الثيوديسي (إثباتات التدبير القدسي في وجه الشر الموجود) هو مما يقلق علماء الدين. والموثقة رفيق أوكسـفور إلى الفلسـفة تعطي تعريفًا لمشـكلة الـشر المعارضـة الأقوى للإيـمان التقليدي بـالله. ولكنها فقـط حجة ضد وجود إله طيب. الطيبة ليسـت جزءًا مـن التعريف لفرضية الإله، بل هي مجرد إضافة مرغوبة.

في الحقيقـة الناس الذين لديهم نزعة دينية لديهم أيضًا عدم تمييز مزمن بـين الحقيقة ومـا يرغبونه بأن يكـون الحقيقة. ولكن بالنسـبة للمتطورين والمؤمنـين بنـوعٍ ما من القوى الخارقة، فمن السـهل عليهـم التغلّبُ على مشكلة الشر. مسلّمةٌ بسيطةٌ عن إلهٍ شرير، كالذي في كل صفحات العهد القديم. أو لو لم يعجبك ذلك، اختراع إلهٍ شرير مختلف، سـمه الشـيطان، وعَـدَّ الـشر كله نتيجـة معركته مع إلهِ الخـير في العالم. أو حـل أكثر تطوّرًا سـلم بإلـه عنده أمور أهـم مـن أن يحصر اهتمامه بالإنسـان. أو إله ليس لا مباليًـا بمعاناة الإنسـان ولكنه يعدّهـا ثمنًا للخيار الحـر الذي يجب دفعه، كون خاضع للقوانين.

ويُوجـد الكثـيرون مـن علماء الديـن ممن يسترشـدون بأفـكار كهذه. ولذلك لو أعدت عمل تمرين أونوين عن بايس، فلن تحرفني مشكلة الشر أو الأخـلاق في أي اتجاه عن خطرِ الصفر 50 % في حالة أونوين. ولكنني لـن أحاجج هنا لأنني على كل حال لا أسـتطيع أن أتأثر بآراء شـخصية، سواء كانت آرائي أو آراء أونوين.

هناك حجة أقوى بكثير، لا تعتمد على الأحكام الشخصية وهي حجة اللاإحتمالية والتي تنقلنا بشكل درامي بعيدًا عن نقطة الـ50 % اللاأدرية، بتطـرّف نحو الإيمان بالله وذلك بنظر الكثيرين من المؤمنين وبتطرف نحو الإلحـاد بنظري. وقد لمحت ذلك عدة مرات. كل الحجج تدور حول هذا السؤال: من صَنَع الله؟ والناس الذي يفكرون سيكتشفونه بأنفسهم.

لا يمكن اسـتعمال نظرية الإله المصمّم لتفسير الترتيب المعقد؛ لأنَّ أي إله قادر على تصميم أي شيء يجب أن يكون معقّدًا بشكل كافٍ ويتطلب بدوره تفسيرًا لحقهِ في الوجود. الإله يتطلب ارتدادًا لا مفرَّ منه ولا يمكنه تفسـيره. وهذه الحجة كما سـأشرح في الفصل المقبل، ترينا بأنَّ قِلّةَ احتمال وجود الله كبيرةٌ جدًا، على الرغم من أنه تقنيًا غير قابل للنفي، بالطبع.

الفصل الرابع

لماذا الاحتمال الأكبر
هو عدم وجود إله

«إنَّ مرشدي مختلف فروع الديانات يعانون من تقدّم العلم كما تعاني الساحرات من اقتراب الشروق، ويعبسون في وجهِ ذلك البشير الذي يعلن بأنَّ تلك الأحلام المخدِّرة التي يعتاشون عليها في طريقها للزوال».

- توماس جفرسون

طائرة البوينغ 747 الكبرى:

الحجة من اللااحتمالية هي الحجة الكبرى. وتظهر في الحجة التقليدية عن التصميم وهي بسهولة أشهر حجة تقدم في هذه الأيام عن وجود الله، وهي أمـر مدهشٌ وعظيم لدى الكثـير جدًا من المؤمنين بالله، بأنهـا كاملة ومقنعة تمامًا. هي بالتأكيد حجة قوية واشـتبهَ بأنَّ لا جوابلها، ولكن بعكس الاتجاه الـذي يـراه المؤمنون تمامًـا. وحجـة اللااحتمالية في الواقع لو نُشرَتْ بشـكل صحيح، فإنَّ بُرْهِنَ أنَّ الله غير موجود والاسـم الذي اخترته للاسـتعراض إحصائيًا بأنَّ الله غير موجود؛ هو مناورة طائرة البوينغ 747 الكبرى.

الاسـم آتٍ من الصورة المدهشـة التـي أتى بها فريد هويـل عن طائرة البوينغ 747 ومحل الخردة. لسـت متاكدًا إذا ما كان هويل نفسـه قد كتب عن ذلك، وزميلته شـاندرا ويكراماسـنغ هي التي نسبتها إليه والمفروض أنَّ التوثيـق أصيـل. هويل قال بأنَّ احتمال نشـوء الحياة على الأرض ليس أكثر من احتـمال إعصار، يعصف في محل خردة، ويصادفه الحظ بأن يجمع طائرة 747، وآخرون اسـتعاروا هذه التشبيه ليشيروا إلى مواضيع التطوّر للأجسـام الحية المعقدة، مع كل التزوير للحقيقة. الاحتمالات ضد تشكل حصان كامل وشـغال، أو حتى خنفسـة أو نعّامة من جرّاء خلط الأجزاء المختلفـة لها يقـع في حقل احتـمالات الـــــ 747 تلك الحجـة باختصار هي المفضلة عند الخلوقيين حجة تطرح فقط من شـخص لا يفهم أبسـط الأشياء عن الانتخاب الطبيعي، شخص يظن بأنَّ الانتخاب الطبيعي هو نظرية حظ بينما هي بهذا المعنى للحظ تعني العكس تمامًا.

اختـلاس الخلوقيـين لحجـة اللااحتمالية له نفس الشـكل دائـمًا وخيار الخلوقيين بإظهارها بلباقة في مظهر التصميم الذكي (ت ذ) لا يشـكل أي

فـرق. ملاحظات لبعض الظواهر غالبًا عن كائنات حية أو أحد أعضائها المعقـدة وبالإمكان أن تكون أي شيء بدأ من جزء وانتهى بالكون نفسـه، تؤدي للتسليم بأنها إحصائيًا غير محتملة. وفي بعض الأحيان تُستخدم لغة المعلوماتية: نتحدّى الداروينيين لتفسـير مصدر المعلومات للأشياء الحية، وذلـك بالمعنى التقني لمحتوى المعلومـات كقياس لا للاإحتمالية أو القيمة المفاجئة. أو تسـتخدم شـعارات الاقتصاديين المبتذلة مثـل «ليس هناك ما يسـمى غداء مجانيًا» ويتهم الداروينيون بمحاولة الحصول على شيئ من لا شيء. وفي الواقـع كما سـأبيّن في هـذا الفصل، فإنَّ الانتخـاب الطبيعي لداروين هو الحل الوحيـد المعروف لاحجّيّة مسـتحيلة الحل بأي طريقة أخـرى عـن موضوع من أيـن أتـت المعلومات والحـل يوضح بـأنَّ دعاة فرضية الله هم الذين يحاولون الحصول على شيء من لاشيء. والله يحاول الحصـول علـى غداء مجاني بـأن يكون هو نفسـه ذلك الغـداء. ومهما كان الموضوع الذي تحاول تفسير حدوثهِ بربطه بالمصمم قليل احتمال الحدوث احصائيًـا، فـإن المصمم نفسـه يجب أن يكـون قليل الإحتـمال على الأقل بنفس النسبة. الله هو 747 الكبرى.

حجـة اللااحتماليـة تنـص بـأنَّ الأشـياء المعقّـدة لا تـأتي بالصدفـة. والغالبيـة يفـسرون بأن تـأتي بالصدفة بمعنـى تأتي بدون وجـود تصميم مدبر. ولذلك فليـس من المفاجئ أن يظنوا بأن اللاإحتمالية هو دليل على التصميـم. الانتخـاب الطبيعي الدارويني يظهر لنـا خطأ ذلك عند اعتبار اللااحتماليـات فيـما يتعلق بالبيولوجيا. وعلى الرغم مـن أن الداروينية لا تتعلّق بشـكل مباشر بعالم الأشـياء الجامـدة كعلم الكون مثـلاً فإنها ترفع مستوى الوعي عندنا خارج نطاق مجالاتها المحصورة بالبيولوجيا.

الفهم العميق للداروينية يعلمنا الحذر عندما نفترض بأن التصميم هو البديل للصدفة، ويعلمنا أن نبحث عن تدرجات بطيئة جدًا في زيادة التعقيد. وقبل داروين، كان الفلاسفة مثل هيوم يفهمون أنَّ عدم احتمال الحياة لا يعني بالضرورة أن تكون مُصَمَّمة، لكنهم لم يستطيعوا تخيّل البديل. وبعد داروين، علينا جميعًا أن نشعر، عميقًا في عظامنا، بالشك في نظرية التصميم ذاتها. الوهم عن التصمي هو فخ وقعنا فيه من قبل، ويُفترض أن داروين إعطانا المناعة ضدّه برفع مستوى وعينا والأمل أن يكون قد نجح في ذلك مع الجميع.

الإنتخاب الطبيعي والوعي:

في إحدى مركبات الفضاء في الخيال العلمي، كان رواد الفضاء يعانون من الغربة:

> تخيل أن الربيع بدأ هناك على الأرض! ربما لا تلاحظ مباشرة ما هو الخطأ في هذه العبارة، أن الشوفينية لنصف الكرة الشمالي مغروسة بعمق في شخصياتنا نحن الذين نعيش هناك، وحتى بعض الذين لا يعيشون هناك. العقل الباطن هو الكلمة الصحيحة. وفي تلك المنطقةعلينا استعمال رفع الوعي. هناك سبب أعمق من أن يكون دخيلاً على المزاح في أنك تستطيع في أستراليا ونيوزيلاندا، أن تشتري خرائط للعالم والقطب الجنوبي فيها مرسم في الأعلى. يا لتلك الخرائط من رافع رائع للوعي! لو ثبّتناها على جدران الصفوف في نصف الكرة الشمالي. سيتذكّر الطلاب يومًا بعد يوم بأنَّ الشمال هو قطبية اعتباطية لا علاقة لها بـــالأعلى. الخريطة ستثيرهم وترفع من وعيهم. سيذهبون للمنزل ويخبرون أهاليهم

وبالمناسبة؛ إعطاء الطلاب شيئًا يستطيعون معه أن يفاجئوا أهاليهم هو أحد أعظم المنح التي يقدمها مدرس.

أحد الدعاة للمساواة بين الجنسين لفت انتباهي لقوّة رفع الوعي. تبدو كلمة «تاريخه» سخيفة ولكن عدم وجود التاء المربوطة في كلمة تاريخ لا يعني بأنَّ التاريخ متعلّق بالذكور فقط. والاشتقاق سخيف، وكما في 1999 حيث استعمل ضابط في واشنطن كلمة نيغاردلي بمعنى بخيل وأُوقفَ بتهمة استعمال ألفاظٍ عنصرية و«نيغر» تعني العبد الأسود. ولكن حتى الاشتقاقات البسيطة مثل «تاريخه» أو نيغاردلي تنجح في رفع مستوى وَعْيِنا.

في إحدى الأمسيات توقفنا عن المزاح وصقلنا سكاكين الفلسفة، وعندها ظهرت أمور مخبأة أخرى بين «تاريخه وتاريخ» بحسب اختلاف وجهات النظر.

الضمائر المتعلقة بالجنس تقع في الخط الأول في حالات رفع الوعي تلك. يجب عليه أن يسأل نفسه أو عليها أن تسأل نفسها عمّا إذا كان حدسه أو حدسها عن القالب اللغوي يتطلب منه أو منها الكتابة بهذا الشكل. ولو غضضنا النظر عن عدمِ أهليّة اللغة وركّزنا على رفعِ الوعي والإحساس بنصف الجنس البشري. الرجل، الجنس البشري، حقوق الإنسان، كل الرجال خُلِقوا سواسية، رجل واحد، صوت واحد، اللغة الأنكليزية تبدو وكأنها تستبعد المرأة. في شبابي لم يخطر لي بأنه من الممكن أن تشعر النساء بالإهانة من عبارات مستقبل الرجل[1].

---

(1) العبارات السابقة هي شعارات إنكليزية مترجمة حرفيًا «المترجم والمدقق».

وخلال العقود الأخيرة رفعنا من وعينا، وحتى هؤلاء الذين لا يزالون يستعملون كلمة الرجل، بدلاً من الإنسان، يفعلون ذلك بشيء من الاعتذار بسبب الواعي الذاتي أو من ناحية أخرى للمشاكسة، ويقفون موقفًا مساندًا للّغة التقليدية ليثيروا حفيظة المؤمنين بتساوي الجنسين. كل من ينتمي لروح العصر قد رفع من وعيه حتى هؤلاء الذين اختاروا الثبات على موقفهم السلبي ومضاعفة الخلاف.

المؤمنون بالمساواة بين الجنسين وضّحوا لنا قوة رفع الوعي، وأنا هنا سأستعير تقنياتهم لاستعملها في الانتخاب الطبيعي، الانتخابات الطبيعي ليس فقط لتفسير الحياة بشكل كامل، ولكنه يرفع وعينا أيضًا لقدرةِ العلم على شرح كيفية ظهور التعقيدات المرتبة من بدايات بسيطة وبدون توجه متعمد. والفهم الكامل للانتخاب الطبيعي يشجّعنا أن نطبّقه بجرأة في فروعٍ أخرى. إنه يرفع من مستوى الشك، في تلك الفروع الأخرى، في صحّة البدائل المزورة والتي كانت في يومٍ ما، قبل الداروينية خدع بيولوجية. من قبل داروين كان باستطاعته أن يخمّنَ بأنَّ شيئًا يبدو مصممًا بالتأكيد كجناحِ الذبابة أو عين النسر يمكن أن يكون ناتجًا عن سلسلةٍ من التغيّرات غير العشوائية، بل لأسباب طبيعية بحته؟

قصة دوغلاس أدام الطريفة والمحركة للعواطف لتحوله للإلحاد الراديكالي أصرَّ على كلمة راديكالي لئلا يخطأ أحد ويعتبره لا أدريا، شهادة لقوة الداروينية في رفع الوعي. آمل العفو من القارئ عما سيبدو وكأنه مديح للنفس فيما يأتي. إنَّ تحوّل دوغلاس بسبب كتبي السابقة والتي لم تُكتب بهدف تحوّل أحد، هو السبب في إهداء هذا الكتاب لذكراه الذي يهدف لذلك!

سُئِلَ دوغلاس في مقابلة نُشِرَتْ مؤخّرًا في سلمون أوف داوت، من قبل صحافي عن كيفية تحوله للإلحاد وبدأ الإجابة بشرح كيفية تحوله للأدرية ثم استطرد قائلاً:

فكرت وفكرت وفكرت، ولكنني لم أمتلك ما يفكي للاستمرار وبالتالي لم أصل لأي قرار. كنت شكاكًا في فكرة الله لحدٍّ كبير، ولكنني لم أعرف الكثير عن أي شيء يمكنني من تخيّل نموذج أو شرح لكيفية عمل الحياة، الكون وأي شيء آخر. ولكنني تابعت وتابعت القراءة والتفكير. وكنت في الثلاثينات عندما وقعت على بيولوجيا التطور وبالتحديد كتب ريتشارد دوكينز المورث الأناني ومن بعده صانع الساعات الأعمى وفجأة اعتقدتُ خلال قراءتي الثانية لكتاب المورث الأناني كل شيء صار في مكانه. والمبدأ كان مدهشًا وعظيمًا ببساطته، ولكنه يعطينا تدرّجًا طبيعيًا لكل التعقيدات المحيّرة للحياة. والرهبة التي اعترتني جعلت الرهبة التي يتحدث الناس عنها بخصوص التجارب الدينية تبدو بصراحة، سخيفة بجانبها، وأنا أفضّل الرهبة الناتجة عن العلم، على الرهبة الناتجة عن الجهل في أي وقت.

مبدأ البساطة الذي تحدّث عنه، بالطبع ليس لي علاقة به. إنَّ نظرية داروين في التطور بالانتخاب الطبيعي رافع الوعي الأكبر في العلم، دوغلاس افتقدك. أنت أذكى وأطرف وأكثر انفتاحًا وأسرع بديهة وأطول قامةً لمرتد بسبب كتبي وربما إنك الوحيد. أملي أن هذا الكتاب سيضحكك ولكن بالتأكيد أقل مما تستطيع إضحاكي.

الفيلسوف المتمرّس بالعمل دانييل دينيت يشير إلى أنَّ التطوّر يعاكس إحدى أقدم الأفكار التي نملكها فكرة الحاجة لأشياء معقّدة ذكية لعمل

أشياء أقل تعقيدًا. أسمي ذلك نظرية الخلق المقطرة لن تجدَ رمحًا يصنع صانع رماح. لن تجد نعل فرس يصنع حدادًا ولا وعاءً فخاريًا يصنع فخّارًا. اكتشاف داروين لعملية فعالة تناقض الحدس بشكل كامل يجعل مساهمته في الأفكار الإنسانية ثورية بشكل كبير ومشحونة بطاقة هائلة لرفع الوعي.

من المفاجئ جدًا معرفة ضرورة رفع الوعي وحتى في عقول العلماء اللامعين في حقول غير البيولوجيا. فريد هويل كان فيزيائيًا وفلكيًا لامعًا ولكنه أخطأ في فهم البوينغ 747 كذلك أخطأ في مجال البيولوجيا حيث حاول إهمال أحد أنواع المستحاثات وعدّها خدعة، أمور كهذه تنبئنا عن حاجته للاطلاع على شيء ما ليرفع من وعيه بما يتعلق بنظرية الانتخاب الطبيعي. أعتقد أنه على مستوى التفكير قد فهم الإنتخاب الطبيعي ولكن يبدو بأنك تحتاج لئن تنقع وتغطس وتسبح فيها قبل أن تستطيع أن تقدر فعلاً قوتها الحقيقية.

إن علمنا يرفع من وعينا بطرقٍ مختلفة. وعلم فريد هويل الفلكي يضعنا في أماكننا، عمليًا ومجازيًا ويقلل من كبريائنا ليصبح قابلاً للإحتواء على منصة ضيقة نلعب عليها أدوار حياتنا. على شظية الحطام تلك الناتجة عن الأنفجار الكوني. الجيولوجيا تذكرنا بوجودنا القصير سواء كأفراد أو كصنف. وترفع من وعي جون راسكين وتثيره لدرجة البكاء المؤلم في: 1951 لو تركني الجيولوجيون وحيدًا لكنت بخير تمامًا ولكن تلك المطارق المخيفة أسمع نقراتها في نهاية كل جملة من الكتاب المقدس. نظرية التطور تفعل نفس الشي من ناحية إحساسنا بالوقت ليس ذلك مفاجئًا لأنها تعمل على مقياس الزمن الجيولوجي. ولكن تطور داروين،

وخصوصًا الانتخاب الطبيعي تفعل شيئًا آخر أيضًا. إنها تمزّق الوهم عن التصميم في فرع البيولوجيا، وعلمتنا أن نصبحَ شكّاكين في كل ما يتعلق بفرضيات تبدو وكأنها تتعلّق بالتصميم فيما نرى في علم الفيزياء والفلك أيضًا.

أعتقد أن الفيزيائي ليونارد سوسكيند فكّر في ذلك عندما كتب، أنا لست عالم تاريخ، ولكنني سأغامر بإعطاء رأيي: لقد بدا علم الفلك الحديث في الحقيقة مع داروين ووالاس. وبخلاف كل من سبقهم فإنهم قدّموا شرحًا لوجودنا يرفض أي عميلٍ خارق.. لقد وضع داروين ووالاس معايرًا ليس فقط لعلم الحياة ولكن في علم الفلك أيضًا.

فيزيائيون آخرون ممن هم أعلى من أن يحتاجوا رفعًا لوعيهم ومنهم فيكتور ستينغر. وأنا أوصي بكتابه هل وجد العالم إلهًا؟ (الجواب لا) بشدة. وبيتر اتكينز وكتابه إعادة النظر في نظرية الخلق هو أحد الكتب المفضلة عندي لأعمال الشاعرية العلمية المحترفة. أدهش باستمرار من المتدينين، بعيدًا عن رفع وعيهم بالطريقة التي اقترحتها، يبتهجون لفكرة الانتخاب الطبيعي كطريقةِ الله بالخلق.

لقد لاحظوا بأنَّ التطور بالانتخاب الطبيعي سيكون سهلاً للحصول على عالم مليء بالحياة والله في تلك الحال لن يحتاج لعمل أي شيء! بيتر اتكينز، في الكتاب الذي ذكرته يأخذ ذلك الخط الفكري بعقلانية الاستنتاج اللا إلهي عندما يسلم بفرضية إله كسول يحاول أن يفلت بأقل ما يمكن من الجهد ليجعل الكون مليء بالحياة. وإله اتكينز اكسل حتى من إله القرن الثامن عشر: الإله المرفه، لا ارتباطات، عاطل عن العمل، زائد عن الحاجة، عديم الفائدة. وخطوة فخطوة ينجح اتكينز في تقليل

كمية العمل للإله الكسول حتى ينتهي بعمل لا شيء على الإطلاق: وبذلك يمكنه تفادي إزعاج نفسه بأنه يوجد أيضًا. لا يزال حيًا في ذاكرتي مشهد الأنين التعليمي لوودي ألن: لو كان هناك إله فلا أعتقد أنه شرير. وأسوأ ما يمكن أن تقولَ عنه أنه ضعيف إنتاجيًا.

التعقيد المتعذر الإنقاص:

من المستحيل المبالغة في حجم المشكلة التي حلها داروين ووالاس. على سبيل المثال؛ أستطيع أن أذكر التشريح، علم الخلية، الكيمياء الحيوية والسلوك لأي كائن حي على الإطلاق. ولكن ما انتقاه الخلوقيون هو أهم مفخرة فيها ولأسباب واضحة عن المظهر التصميمي، ومن السخرية الرقيقة أني هنا قد أخذت حجتي من كتاب لأحد الخلوقيين. الحياة كيف أصبحت على ما هي؟ لا اسم للمؤلف ومنشور بستة عشر لغة من دار واتشتاور أوفر بايبل وتراكت سوسايتى على 11 مليون نسخة مليون نسخة، على ما يبدو إنه أحد الكتب المفضّلة لدى الشركة؛ لأنَّ ستة نسخ من الأحد عشر مليونًا على الأقل أرسلت لي كهدايا من مجهولين حول العالم مع التمنيات.

لنأخذ صفحة من هذا العمل المجهول والموزع بإسراف، فنجد الإسفنجة المعروفة بـــــ سلة فينوس للزهور (أويبليكتيللا)، مصحوبة بعبارة من السير دافيد اتينبورو، بهذا الشكل: عندما تظهر لهيكل الأسفنجة المعقد من السيليكا سبيكوليس والمعروفة بسلة فينوس للزهور، فأن الخيال يحتار. كيف اتفق لخلايا ميكروسكوبية لأن يكون لها ملايين الشظايا الزجاجية المخفية لتشكل ذلك المشبك المعقد الجميل؟ لا نعرف. وكاتب الواتشتاور لا يضيع وقتًا ويضيف جملته الخاصة المحتوية

على المغزي: ولكننا نعرف شيئًا واحدًا: الصدفة ليست المصمم «بالتأكيد لا، الصدفة ليست المصمم. هذا شيء نتفق عليه جميعنا. واللااحتمالیات الإحصائية لظاهرة كهيكل اللاوبيليكتيللا تقع في قلب المعضلة التي يتوجب على أي نظرية للحياة حلها. وكلما كبر اللااحتمالية إحصائيًا كلما صارت الصدفة أقل تصديقًا لتكون هي الحل: وهذا ما تعنيه كلمة اللااحتمالية. ولكن الحلان المرشحان للمعضلة ليسا التصميم والصدفة، كما هو المعتقد المخطوء، بل التصميم والانتخاب الطبيعي.

الصدفة ليست حلاً، نظرًا لكبر قيمة اللااحتمالية التي نراها في الكائنات الحية، وليس هناك من بيولوجي عاقل يقترحها. والتصميم ليس حلًا حقيقيًا أيضًا، كما سنرى لاحقًا، ولكن الآن سأكمل استعراض المشكلة التي يجب على أي نظرية للحياة حلها المشكلة عن كيفية تفادي الصدفة.

نقلب صفحة واتشتاور، فنجد النبتة الرائعة المساة غليون الهولندي (ارستولوخيا تريلوباتا) كل أجزائها تبدو مصممة بأناقة لالتقاط الحشرات وتغطيتهم بغبار الطلع وإرسالهم لنبتة غليون الهولندي أخرى. الأناقة المعقدة للزهرة تدفع واتشتاور للتساؤل: هل حدث ذلك كله بالصدفة؟ أم إنها بسبب التصميم الذكي؟ ومرة أخرى.

لا بالطبع لا لم تحدث بالصدفة. ومرة أخرى التصميم الذكي ليس البديل الصحيح للصدفة. الانتخاب الطبيعي ليس فقط حلًا إقتصاديًا معقولاً وأنيقًا فقط، بل إنه الحل الفعّال كبديلٍ للصدفة المقترحة منذ الأزل. التصميم الذكي يعاني من نفس الاعتراض كما الصدفة.

ببساطة هو ليس حلًّا معقولاً لاحجية اللااحتمالية العالية. وكما علا مستوى اللااحتمالية، كلما أصبحت نظرية التصميم أقل مصداقية. ولكن نرى بوضوح، بأنَّ التصميم الذكي سيضاعف المشكلة. ومرة أخرى المشكلة هي المصمم نفسه (أو نفسها) وكيف وجد من أصله. أي شيء قابل لتصميم شيء غير محتمل كغليون الهولندي (أو الكون) سيكون أقل احتمالاً من غليون الهولندي. وبعيدًا عن إنهاء الارتداد الشرير، فإن الله يضاعف تهييج النظرية كثأر.

أقلب صفحة أخرى في واتشتاور لترى وصفًا لشجرة الخشب الأحمر العملاقة (سيكويادينرون جيغانتوم)، شجرة لها تأثير خاص على لأن أحداها توجد في حديقتي، مجرد طفل رضيع بعمر قرن تقريبًا، وأطول شجرة في الحارة.

رجل ضئيل يقف بجانب الشجرة، ينظر للأعلى في صمت ودهشة للعظمة الهائلة. هل هناك أي معنى للإيمان بأنَّ شكل هذا العملاق الجليل ونشوئه من البذرة الصغيرة ليس مصممًا؟ ومرة أخرى، لو كنت تظن بأنَّ الصدفة هي البديل الوحيد للتصميم، فالإجابة لا، ليس هناك معنى. ومرة أخرى فكاتبي الكتاب حذفوا أي إشارة للبديل الحقيقي، الانتخاب الطبيعي، ربما لأنهم لم يفهموها بصدق أو لأنهم لا يريدون أن يفهموها.

إنَّ العملية التي تأخذ بها النباتات الطاقة، مهما تكن صغيرة كحشيشة العلق أو عملاقة كشجرة الويلينغتون، تسمى بالتمثيل الضوئي. ومرة أخرى واتشتاور: هناك حوالي سبعون تفاعل كيميائي في عملية التمثيل الضوئي، أحد البيولوجيين قال تلك أعجوبة حقيقية.

النباتات الخضراء تسمى بـــ معمل الطبيعة جميلة، هادئة، لا تلوث، تنتج الأوكسيجين، تنقي المياه وتغذي الكائنات الأخرى. هل حدث ذلك بالصدفة؟ هل هذا ممكن التصديق؟ لا، لا يمكن تصديق ذلك، ولكن تكرار المثال بعد الآخر لن يفيد بشيء.

منطق الخلوقيين لايتغير. بعض الظواهر في الطبيعة عديمة الإحتمال بشكل كبير، معقدة جدًا، جميلة جدًا، ومدهشة جدًا لتكون أتت بالصدفة، والبديل الوحيد الذي يتمكن الكاتب من تخيله هو التصميم الذكي ولذلك يتوجب وجود مصمم.

وإجابة العلم على هذا المنطق الخاطئ لا تتغير أيضًا. التصميم ليس البديل الوحيد للصدفة. الانتخاب الطبيعي هو البديل الأفضل. بالتأكيد التصميم ليس بديلاً حقيقيًا لأنه يؤدي لطرح مشكلة أكبر من المشكلة التي حلّها: من صمَّم المصمِّم؟ الصدفة والتصميم حلان فاشلان لتلك اللااحتمالية الإحصائية؛ لأنَّ أحدهما هو المشكلة والآخر مجرد ارتداد لها. الإنتخاب الطبيعي هو الحل الحقيقي، الحل الوحيد الفعال الذي اقترح حتى الآن. وليس فقط حلاً واقعيًا، بل أنه حل مذهل في أناقتهِ وقوته.

ما هو السبب الذي يجعل الانتخاب الطبيعي ينجح كحل لمشكلة اللااحتمالية حيث تفشل كلا النظريتين، الخلوقية والصدفة عند بوابة البداية؟ الجواب هو بأنَّ الانتخاب الطبيعي عملية تراكمية مما يفتت مسألة اللااحتمالية لفتات. وكل منها صغير بحيث أن لااحتماليته معقولة، ولكن ليست من الممنوعات الحدوث. وعند تكوم العديد من التسلسلات، فإنَّ الناتج النهائي سيكون لا احتماليًا بشكل كبير جدًا جدًا بالطبع، لا احتمالي بشكلٍ لا يقبل مجالاً للشك أن يكون قد حدث بالصدفة. والناتج النهائي

الـذي يشـكل الكائن الـذي يحاجج به الخلوقيين بشـكل مرهق بأشـكالهِ المختلفـة. الخلوقي يخطئ الهـدف. لأنه (لا يجب هنا أن تنزعج السـيدات مـن اسـتبعادهن هنا في الضمير المسـتعمل) يصرّ علـى أن يعامل احتمالية التكوين كخطوة واحدة، حدث واحد. إنه لا يفهم قوّة التراكم.

في كتـابِ صعودِ الجبل اللااحتـمالي وضحت النقطة بمثال. تخيّل جبلاً أحد طرفية منحدر مطلق، من المسـتحيل تسـلقه والطـرف الآخر متدرج لطيـف يصعد للقمة. في القمة يجلس عضو معقد كالعين أو البكتريا ذات المحـرك المروحـي. الفكرة السـخيفة بـأنَّ تعقيدًا كهذا يتجمع بشـكل آني يرمز بالانتقال من قدمِ الجبل لقمته بقفزة واحدة.

التطـور، علـى العكـس مـن ذلك، يذهـب حـول الجبل مـن الناحية الأخـرى ويصعـد المنحـدر اللطيـف زحفًا، بسـيط! أليس كذلـك؟ مبدأ الصعـود للطيـف مقابـل القفـزة الواحـدة بسـيط جـدًا، لدرجـة تدفعنا للتعجب عن الحاجة لكل هذا الوقت حتى أتى أحد ما كداروين للمنصة واكتشـفها. عندما فعل ذلك كانت قد مضت حوالي ثلاثة قرون على نشر نيوتـن لــــ العام العجائبي، رغـم أن إنجازه بدأ وقتها، أصعب من ذلك الذي لداروين.

اسـتعارة أخـرى مفضلة عـن تطـرف اللااحتمالية في حالـةِ قفل خزنة بنـك. نظريًـا يمكن لسـارق أن يكـون محظوظًـا بالحصول علـى مجموعة الأرقام الثمانية بالصدفة وحدها. عمليًا المجموعة تصمم بلااحتمالية عالية لدرجة تجعل ذلك موازيًا للمسـتحيل بنفس درجـة فكرة فريد هويل عن البوينـغ 747 ولكن تخيل قفلاً مصممًا بشـكل سـيّئ وأنه يعطي إشـارات اسـتطرادية تعلـو كلما قرب الرقم من الرقـم الصحيح. أفرض أنَّ اقتراب

القـرص مـن الرقـم الصحيح، فإنَّ بـاب الخزنـة يفتح قليـلاً، وحفنة من النقود تسـقط منها. فاللص في هذه الحالةِ سـيحصل على الجائزة الكبرى في وقت قصير جدًا.

الخلوقيون يحاولون اسـتعمال حجـة اللااحتمالية لصالحهم بالافتراض بأنَّ السـؤال البيولوجي الموازي هو موضـوع الجائزة الكبرى أو لا شيء. والاسـم الآخـر المسـتعمل لــــ الجائزة الكـبرى أو لا شيء هـو التعقيد المتعـذّر الأنقـاص. العين تـرى أو لا تـرى، الجناح يطـير أو لا يطير. ولا يفترض أن يكون هناك أي حلول وسـط ذات فائدة. وهذا ببسـاطة خطأ. والتوسـطيات كثيرة جدًا عمليًا وهـذا بالضبط ما نتوقعه نظريًا. ومجموعة أرقام الخزنة في الحياة يوازي الإشارات الاسـتطرادية التي تعلو وتنخفض بالقـرب أو البعد عن الرقم الصحيح. الحيـاة الحقيقية تبحث عن المنحدر اللطيف خلف الجبل اللااحتمالي، في حين أنَّ الخلوقيين عُميٌ عن كل ذلك بالمنحدر القاسي المطلق في المقدمة.

داروين خصص فصلاً خاصًـا في كتاب أصل الأنواع «الصعوبات في نظريـة الخلفة بالتعديـل»، ومن العدل أن نقول بأن هـذا الفصل المختصر يتوقـع ويرتـب كل المزاعـم الصعبة التي أقترحت منـذ ذلك الحين وحتى يومنا هذا والصعوبات الهائلة كانت في «الأعضاء البالغة الكمال والتعقيد» والتي توصف أحيانًا خطأ بــ«التعقيد المتعذر الأنقاص».

أختـار داروين العـين كونها خاصة جدًا في هـذا التحدّي: «الافتراض بـأنَّ العين بـكل مواصفاتها التي لا تقبل التقليد، كالتركيز على مسـافات مختلفة أو السماح لكميات مختلفة من الضوء بالمرور عبر الحدقة، وتصحيح الشـكل الكروي والانحراف اللوني، قد تشـكلت بالانتخـاب الطبيعي،

يبدو – وأنا أعترف بحرية – أعلى درجات السخف. الخلوقيون يقتبسون هذه الجملة ببهجةٍ كبيرةٍ مرة تلو الأخرى.

ولسنا بحاجةٍ للقول بأنهم لا يذكرون ما يأتي بعد ذلك. اعتراف داروين المقيت ليس إلا أداة بلاغية يشد بها خصمه لناحيتهِ حتى تكون الضربة أقسى عندما يحين وقتها. والضربة بالتأكيد هي شرح داروين السهل عن كيفية تطور العين بشكلٍ تدريجي. يُحتمل أنَّ داروين لم يستعمل عبارة التعقيد المتعذر الإنقاص، أو التدرج السلس نحو قمة جبل اللااحتمالية، ولكنه بالتأكيد فهم كلا المبدأين.

ما هي فائدة عين؟ أو ما فائدة نصف جناح؟ حجّتان فوريتان من التعقيد المتعذر الإنقاص. الجهاز الوظيفي يكون متعذّر الإنقاص في حالةِ توقفهِ تمامًا عن العمل بمجرد إنقاص أي جزء منه. هذا كان من المسلّمات في حالي العين والجناح. ولكن عندما نفكّر لبرهة في هذه الأفتراضيات، نرى الخطأ مباشرة.

إنَّ مريضةَ ماء العين المعتّم التي رفعت عدسة عينها جراحيًا لا تستطيع رؤية صورة واضحة بدون نظارات، ولكنها نرى ما يكفي لتفادي الاصطدام بشجرة أو الوقوع من حافة عالية. ونصف جناح ليس جيدًا كجناح كامل، ولكنه أفضل من لا جناح على الإطلاق. يستطيع نصف الجناح أن ينقذ حياتك بتخفيف الصدمة الناتجة عن الوقوع من على شجرة بعلو ما و51 % من الجناح يساعدك في حالة شجرة أعلى بقليل. ومهما كانت نسبة الجناح الذي نملكه، سيكون هناك علو مرافق يستطيع جزء الجناح إنقاذ حياتك فيما لا يستطيع جزء أصغر فعل ذلك. والتجربة الفكرية عن الأشجار المختلفة الارتفاع، والسقوط من أعلاها،

هي فقط أحد الطرق لنرى نظريًا بأنه من المتوجب وجود تدرج سلس للمنافع على طول الخط بدأ من 1 % من الجناح وإنتهاء بجناح كامل. الغابات مليئة بأمثلة عن حيوانات تنزلق أو تهبط مظليًا لتنير الفكرة عن كل خطوة صعودًا على ذلك الجبل من اللااحتمالية.

بالمشابهة مع الأشجار المختلفة الإرتفاع من السهل تخيّل ظروف تستطيع فيها نصف عين أن تنقذ حيوان في حين أن 49 % من العين لن تكون قادرة على ذلك. تدرج سلس بناء على معطيات الإضاءة المتوفرة، والمسافات التي تستطيع بها لمح الفريسة أو المفترس. وكما الجناح وسطوح الطيران، فمتوسطات معقولة كهذه ليست فقط سهلة التخيل بل إنها منتشرة بوفرة في مملكة الحيوانات.

الدودة المسطّحة لديها عين، وبكل المقاييس تعد أقل من نصف عين بشرية. الناوتيلوس (وربما أبناء عمومتها المنقرضين الذين كانوا مسيطرين على البحار) لها عين متوسطة بين عين الدودة والإنسان. وبخلاف عين الدودةِ المسطّحة التي تميز الضوء عن الظل فقط ولا ترى أي صورة، فإنَّ عيون الناوتيلوس المشابهة لـــــ آلة تصوير ذات ثقب تستطيع عمل صورة حقيقية، ولكنها مشوّشة ومعتمة مقارنة لصور أعيننا. سيكون من التزوير أن نضع سلمًا دقيقًا بأرقام لتدرج تحسن الرؤيا، ولكن لا أحد يستطيع النفي بشكل عاقل بأنَّ تلك الأعين اللافقاريات، وغيرها كثير، هي أفضل من عدم وجود عين الأطلاق، وبأنَّ كل الأعين مصفوفة على المنحدر السلس للجبل اللااحتمالي وأعيننا قريبة من القمّة ليست أعلى من القمة ولكن عالية حتمًا. وفي

صعودِ الجبل اللااحتمالي، خصصت فصلاً خاصًا للعين والجناح، وبنيت في «كم كان من السهل أن يتطوروا ببطء» [ربما ليس بذلك البطء] تدريجيًا وسأترك هذا الموضوع هنا.

وبذلك نرى بأنَّ العين والجناح بالتأكيد ليسا من التعقيد المتعذّر الإنقاص ولكن الأكثر إثارة من هذا المثال هو في الدرس الذي نستنتجه بشكل عام. إلا وهو الواقع بأنَّ الخطأ المميت، الذي وقع فيه الكثيرون فيما يتعلّق بهذه الأمور البديهية، يجب أن ينبهنا لأمثلةٍ أخرى أقل بديهية، مثل الحالات الخلوية والبيوكيميائية المرغوبة من الخلوقيين المُحْتمين بالعبارة الملطَّفة المناسبة لنظرية التصميم الذكي.

لدينا قصة تحذيرية هنا، وتقول لنا: لا تعلن بأنَّ أي شيء هو تعقيد متعذّر الإنقاص؛ لأنَّ هناك احتمالاً كبيرًا لئلا تكون قد مُحّصت بحذر، أو فكرت بشكلٍ كافٍ عنه. ومن جهة أخرى لا يجب علينا نحن الذين في جانب العلم أن نكون اعتقاديين بثقة. ربما إنَّ هناك شيئًا ما في الطبيعة لا يمكنه بسبب تعقيده المتعذر الإنقاص، أخذ مكان على المنحدر السلس لجبل اللااحتمالية.

الخلوقيون محقّون في أنه لو ظهر التعقيد المتعذر الإنقاص بصدق وبشكل صريح، فإنَّ ذلك مما يمكنه أن يهدمَ نظرية داروين.

داروين بذاته قال: «لو كان بالإمكان الاستعراض بأن أي عضو معقّد موجود ليست له الإمكانية أن يكون ناتجًا عن تطور تدريجي ناتج عن تراكم العديد من التغييرات البسيطة، فإنَّ نظريتي تنهار بدون شك. ولكنني لم أجد حالة كهذه. «داروين لم يجد تلك الحالة، ولا أحد من

بعده حتى الآن استطاع، برغم كل الجهود النَّشِطة المستميتة. الكثير من الحالات أُقترحت وعُرضت ولا شيء منها صمد أمام التحليل.

على أيةِ حال، وبالرغم من أن التعقيد المتعذر الأنقاص من الممكن أن يسبب انهيار نظرية داروين لو وُجد، من الذي يستطيع النفي بأنَّ ذلك سيهدم نظرية الخلق أيضًا؟ وبالتأكيد فقد تحطّمت نظرية التصميم الذكي، ومرة أخرى أعيد السبب إلا وهو، مهما كانت معرفتنا قليلة عن ماهية الإله، فإننا نعرف بأنه شديد التعقيد، وبالتالي متعذر الإنقاص أيضًا.

لعبة الحَلْقة المفقودة:

البحث عن أمثلةٍ للتعقيد المتعذر الأنقاص ليس بالأساس طريقة علمية للمتابعة: مجرد حالة خاصة للمحاججة تعتمد على الجهل. ومشابهه لمنطقٍ مزوّر يُسمّى استراتيجية إله الفراغات المنبوذة من قبل عالم الدين ديتريش باهنهوفر.

يبحثون الخلوقيون بحماسٍ عن فراغات في معارف ومفاهيم العصر. وبمجرد ظهور ما يبدو كفراغ، فإنه يفترض بأنَّ الله، يجب أن يملأه بطبيعة الحال. ما يقلق رجال الدين المفكرين مثل باهنهوفر هو أن هذه الفراغات تصغر مع تقدم العلم، والله في هذه الحالة مهدّد بعدم وجود أي شيء يعمله أو أي مكان يختبئ فيه. ما يقلق العلماء هو شيء آخر أنه من الضروري في أي مؤسسة علمية أن تعترف بالجهل، بل وتغتبط به كتحدٍّ لانفتاحات مستقبلية. كما كتب صديقي مات ريدلي، معظم العلماء ضجروا من الأشياء التي اكتشفوها. إنَّ ما يجهلونه هو دافعهم للإستمرار.

غبطـة اللغـز الباطنـي والرغبـة أن نبقيها كلغـز. غبطة العلـماء بسرّيّة الأشـياء له سـبب مختلف تمامًـا، لأنه يعطيهـم الفرصة للعمل، وسـأكرّر ذلك في الفصل الثامن وأحد الآثار السـيّئة للدين هو تعليمنا بأنّ الإقتناع بالأشياء التي لا نفهمها هو ميزة جيدة.

الاعـتراف بالجهل المؤقت أمر حيوي جدًا للعلـم الجيد. ولذلك فإنه من المؤسف القول على الأقل بأنَّ استراتيجية الخلوقين الأساسين سلبية تتمثل بالبحث عن الفراغات العلمية بزعمهم بأنَّ الله يملأها بالتصميم الذكي.

ما سأذكره الآن لا يعدو كونه افتراضًا ولكنه معبّرٌ تمامًا. الخلوقي يقول: «إنَّ مرفقَ الضفدع معقد بشـكل لا يقبل الإنقـاص. وأي جزء من المرفق سـيكون عديم الفائدة بدون أن تتجمّع الأجزاء الباقية معه. وأراهن أنك لن تستطيعَ التفكير بطريقة يستطيع بها مرفق ضفدعة ابن عرس أن يتطور تدريجيًـا ببطء؟ وعندما يفشـل العالم بإعطاء جواب مبـاشر ومفهوم، فإنَّ الخلوقي يسـتنتج الاسـتنتاج الأساسي: حسـنًا، النظرية البديلة، التصميم الذكي، تفوز بالتزكية.

لاحـظ التحيّز في المنطق: فشـل النظرية (أ) جزئيًـا، يجعل نظرية (ب) صحيحة. لا نحتاج القول هنا بأنَّ المنطق نفسه لا يطبق في الحالة المعاكسة. ونحـن نشـجع القفز للنظرية الأساسـية بـدون حتى النظر لمعرفـة فيما إذا كانت ستفشل في بعض أجزائها كالنظرية التي تزعم أخذ مكانها.

التصميـم الذكـي هو الضمان للخـروج أحرارًا من السـجن مع مناعةٍ ضـد الطلبـات الصارمة التـي تطلبها نظرية التطـور. ولكـن النقطة التي أريـد توضيحها هنا هي ذريعة الخلوقين تقـوّض طبيعة العالم، الضرورية

بالتأكيد بالابتهاج بالحيرة المؤقتة. ولأسباب عدّة، ربما يتردّد علماء اليوم قبل القول: «همم، نقطة مثيرة فعلاً. أعجب كيف تمكن أسلاف الضفدع ابن عرس من تطويرِ مفاصل مرافقهم. أنا لست اختصاصيًا بضفادع ابن عرس، على أن أذهبَ لمكتبة الجامعة وأُلقي نظرة. من الممكن أن يكون هذا موضوعًا لمشروع تخرّج مثير لطالب تخرج».

في اللحظة التالية التي يقول أحد العلماء شيئًا كهذا، وقبل أن يبدأ الطالب مشروعه للتخرج بكثير سنرى الاستنتاج المُجتزَأ عنوانًا عريضًا على كتيبات الخلوقيين: ضفادع ابن عرس لا يمكن إلا أنَّ تكون مصممة من قبل الله.

هناك بالتالي وللأسف علاقةٌ بين الطريقة العلمية المطلوبة للبحث في المجالات المجهولة بهدف توجيه الأبحاث نحوها من جهة، وبين دعاة التصميم الذكي المحتاجين للمجالات المجهولة لزعم الاستنتاج التقصيري. ولهذا السبب بالذات ليس هنالك أي أدلة تطلبها نظرية التصميم الذكي، وتزدهر فقط في الفراغات في المعرفة العلمية، لا يلائم ذلك الحاجة العلم للتعرف والاعتراف بنفس هذا الفراغ كمدخل للبحث العلمي فيها. وفي ذلك يجد العلم نفسه متفقًا مع علماء دين متطورين مثل باهنهوفر، متحدًا معه ضد العدو المشترك من السذج، وعلم الدين الشعبي والفراغات المملوءة بالتصميم الذكي.

إنَّ علاقةَ الحب بين الخلوقيين والفراغات في فهرس المتحجرات يمثل كل علم دين الفراغات. وقد قدمت لأحد الفصول فيما يسمى الانفجار الكامبري بالجملة الآتية، يبدو للفكر بأنَّ المتحجّرات قد وُضِعَت هناك بدون تطورٍ عبر التاريخ.

مرة أخرى تلك البلاغة في مقدمة المقال قصد بها شحذ شهية المستمع للتفسير الكامل الذي يتلوها. المحزن كان الإدراك المتأخّر الذي وضح لي الآن كم كان يجب أن يكون متوقعًا أنَّ التفسير الصبور الذي قدمته سيتقطع بأكمله وستُجتزأ المقدّمة ببهجةٍ لتستعمل خارج نطاق الموضوع. الخلوقيون مغرمون بالفراغات في سجل المستحاثات المتحجّرة، كما هم مغرمون بالفراغات الأخرى بشكل عام.

الكثير من مراحل التطور الانتقالية مدوّنة بأناقة، اعتمادًا على سلسلةٍ مستمرّة التغيّر من الشواهد المتحجرة المتوسطة. وتلك السلسلة عند البعض غير مستمرة، وهؤلاء هم الفراغات المشهورة. كما أشار لذلك مايكل شيرمر في قوله بأنه لو تم اكتشاف متحجرة تسد أحد الفراغات بشكل لا يقبل الشك، فإنَّ الخلوقيين سيعلنون بأنَّ عدد الفراغات قد تضاعف! على الأحوال كافة. لاحظ مرة أخرى الاستعمال غير المبرّر للمبدئية. عندما لا يوجد سجل أو وثيقة متحجّرة تُسلِّم بالتطور الانتقالي فإنَّ الافتراض المبدئي هو عدم وجود تطور انتقالي وهذا يعني أنّ هناك تدخل إلهي.

من غير المنطقي تمامًا المطالبة بوثائق كاملة لكل خطوة لأي حكاية، سواء في التطوّر أو أي علم آخر. لأنه يمكنك المطالبة أيضًا وقبل إدانة شخص ما بجرمِ القتل، بتسجيل سينمائي كامل لكل خطوة قبل حصول الجريمة، وبدون أي انقطاع. نسبة ضئيلة جدًا من الجثث تتحجر، ونُعدّ محظوظين لوجود هذا العدد من المتحجّرات بين أيدينا.

بالإمكان بسهولةٍ ألا يكون هناك أي متحجرات بالمرة، ورغم ذلك فإنَّ العديد من الأدلة عن التطور من مصادر أخرى، كالموروثات الجزيئية

والتوزع الجغرافي، شـديدة القوة بشـكل كبير. مع ذلك فإن نظرية التطور تتنبـأ بأنه لو ظهرت متحجرة وحيدة في العـصر الجيولوجي الخاطىء، فإنَّ النظريـة تنهـار برمتها. وعندما سـأل أحد المتحمّسـين البابويـين عمّا يُلزم لتقويضِ نظريةِ التطوّر كانت إجابة ج. ب. س. هالدان: متحجّرة لأرنبٍ تعـود للعصر البريكامـبري. لم توجد حتى الآن متحجّرة كتلك ممّا يعترف بهـا، علـى الرغم من كل أسـاطير الخلوقيـين غير الموثوق بهـا عن جماجم بشريـة في طبقات الفحم الحجري وآثار أقدام بشرية جنبًا إلى جنب لآثار ديناصور».

الفراغـات بالأسـاس في عقل الخلوقيين، تملأ بواسـطة الإله. وكذلك جميـع المنحدرات الظاهرة على الجبل اللااحتمالي الضخم، حيث لا يكون المنحـدر المتدرج واضحًا أو بحالةٍ أخرى غير ظاهرٍ للعيان. المناطق حيث المعلومـات منقوصة أو غـير مفهومة، تُعـزى فورًا للإلـه. الاتجاه السريع الدرامي للزعم بـ التعقيد متعذّر الإنقاص تصرح عن فشل التخيل.

بعـض الأعضاء البيولوجية، وإن لم تكن عين فسـتكون محرك البكتريا المروحية أو أي ممـر بيوكيميائي، يصنّف بدون أي محاججة كتعقيدٍ متعذّر الإنقاص. بدون حتى محاولة إظهار التعقيد متعذر الإنقاص فيها. وبالرغم من الحكايات التحذيرية للعين، الجناح والكثير من الأشـياء الأخرى فإنَّ كل مرشـح جديد للوسـام المريب والذي افترض بشـفافيةٍ ووضوحٍ ذاتي كتعقيد متعذّر الإنقاص تعرض لنفس إجراءات التصريحات.

ولكـن فكر قليلاً بالموضوع. بما أنَّ التعقيد المتعذّر الإنقاص اسـتعمل كحجّـة التصميم، فيجب أن نطبق نفس الإجراءات على التصميم بذاته. ولكـن أن تـصرّحَ ببسـاطة أن ضفدع أبـن عرس (الخنفـس المفجر، إلخ)

يبرهن على التصميم، بدون أي محاججة أو تبرير. فلا صلة لذلك بالعلم بأي شكل. المنطق في هذا الحالة لا يبدو أكثر إقناعًا مما يأتي: أنا أضع اسمك هنا شخصيًا غر قادر على التفكير بأي طريقة عن كيفية بناء «ضع ظاهرة بيولوجية» خطوة فخطوة. ولذلك فإنها تعقيد متعذر الإنقاص. وهذا يعني أنها مصممة».

تخيّل ما سبق وسترى مباشرة ضعف الموضوع في حال استطاعة عالم ما إيجاد مرحلة متوسطة، أو على الأقل تخيل إمكانية وجود حالة متوسطة. وحتى لو لم يأتِ أيُّ عالم بأيِّ تفسير، فالمنطق السيء المنادي بـالتصميم ليس أفضل بأي شكل. والسبب الذي يختبئ خلف «التصميم الذكي» ليس إلا كسلاً وانهزامية، سبب تقليدي لـإله الفراغات. وقد لقبته سابقًا الحجة من الشكوك الشخصية.

تخيل أنك ترى خدعة سحرية عظيمة. الساحران العظيمان تيللر وبن لديهما خدعة يبدوان فيها وكأنهما يطلقان النار على بعضهما بالمسدسات، وكل منهما يبدو وكأنه التقط الرصاصة بأسنانه. إجراءات وقائية متقنة تتخذ بأن تخدشَ الرصاصات بعلامات قبل أن توضع في المسدسات، وكل العملية مشهودة من قبل المشاهدين من الذين لديهم خبرة بالأسلحة النارية على المسرح، ويبدو أن كل الإمكانيات لوجودِ خدعة قد تم إقصاؤها. ورصاصة تيللر المعلمة ينتهي بها الأمر في فم بن، ورصاصة بن المعلمة في فم تيللر. أنا ريتشارد دوكنز غير قابل بشكل تام للتفكير بأي خدعة يمكن استعمالها في هذا المشهد. وحجة الشكوك الشخصية تصرخ من مركز دماغي ما قبل العلمي، وترغمني تقريبًا على القول، لابد أنها أعجوبة. ليس هناك أي تفسير علمي. لابد أن يكون الموضوع

خارق للطبيعة. ولكن هناك صوت خافت ناتج عن الثقافة العلمية ينادي برسالة مختلفة. تيللر وبن، ساحران على مستوى عالمي. وهناك تفسير كامل وجيد. ولكنني ساذج أو غير دقيق الملاحظة، أو منقوص الخيال، لأدراكه.

هـذا هو الجواب الجيد أيضًا فيما يتعلق بالظواهر البيولوجية التي تبدو كتعقيد متعذر الأنقاص. هؤلاء الذين يقفزون مباشرة من ظاهرة طبيعية محيرة للدعوة السريعة لما هو خارق للطبيعة، ليسوا بأفضلٍ من الحمقى الذين يرون مشعوذًا يلوي ملعقة ويقفزون مباشرة للاستنتاج بأنَّ ذلك «خارق للطبيعة». في كتابهِ سبع أفكار تلميحية لأصل الحياة، يطرح الكاتب كاير نسميث نقطة إضافية باستعمال التشبيه بالقنطرة.

القنطرة المبنية من حجارة مأخوذة من مقلع حجري ولا يمكن أن يكون الهاون (الجزء العلوي من القنطرة) بناءً مستقرًا[1] ولكنه تعقيد متعذر الإنقاص، وسينهار برفع أي حجرة منه.

كيف بني أذن؟ إحدى الطرق تكون بصف كومة من الأحجار تحت القنطرة ومن ثم رفعها واحدًا بعد الآخر. وبشكل عام، هناك العديد من التركيبات البنائية المتعذرة الإنقاص بمعنى أنها لا يمكن أن تبقى بعد إنقاص أي جزء منها، بنيت بمساعدة السقالة التي رفعت لاحقًا ولم تعد مرئية. وعندما يكتمل البناء، يمكن رفع السقالة بأمان ويبقى البناء ثابتًا. وكذلك الأمر في التطور، ربما يكون العضو الذي تنظر إليه الآن قد كان مرفقًا بسقالة من نوع ما عند أجداده، والتي رفعت ولم تعد مرئية.

(1) لا يمكن البناء حجرة فحجرة فإما الكل أو لا شيء «المترجم».

«تعقيد متعذّر الإنقاص» ليسـت بالفكرة الجديدة، ولكن التعبير بحد ذاتـه اخترعتـه الخلوقي مايكل بيهي عـام 1996 الكلمة تعزي له وكذلك نقـل الخلوقية لحقبة جديدة: البيوكيميائية وبيولوجيا الخلية والتي وجدها علـى ما يبدو مكانًا أفضل للصيد من العين والجناح ونظرته المفضلة لمثال جيد (ولكنه سيء في الحقيقة) كانت البكتريا ذات المحرك المروحي.

المحـرك المروحـي للبكتريا هو أعجوبـة طبيعية. وهي المثـال الوحيد، خـارج نطـاق التكنولوجيـا البشريـة، للمحور الـدوار الحر. واشـتبه بأنَّ الدواليـب في حيوانات كبيرة سـتكون مثـالاً أصيلاً علـى التعقيد المتعذّر الإنقاص، وقد يكون هذا هو سببُ عدمِ وجودها.

كيف يمكن للأعصـاب والأوعية الدموية أن تعبر الوصلة؟ المروحية هـي عبـارة عن خيط دوار، وبواسـطته تشـق البكتريا طريقهـا من خلال المـاء. وأقول تشـق من خـلال ولا أقول تسبح لأنه على مسـتوى حجم البكتريا في الوجود، فإنّ ما يبدو سـائلاً كالماء بالنسـبة لنا، فالنسبة لها يبدو كالدبس أو الجيلو، أو حتى كالرمل، وتبدوا البكتريا وكأنها تشـق طريقها أكثر مما تبدو بأنها تسـبح. وعلى عكس ما يسمى المروحية في كائنات أكبر كالبروتـوزوان، فإنَّ البكتريـا المروحية لا تلوح بها كسـوط، أو تجدف بها كالمجـداف. ولكنها تملك محورًا حقيقيًا يدور بشـكل متواصل عبر وصلة ومدفوعًا بمحرك جزيئي صغير مثير للدهشـة. وعلى المسـتوى الجزيئي، يسـتعمل المحـرّك نفس المبـدأ بالأسـاس كالعضلـة، ولكن بـدوران حر عوضًـا عـن الأنكماش المتقطـع..! وقد وصف بـسرور كمحرك خارجي (علـى الرغـم مـن أن تواجد ذلـك في نظـام بيولوجي يعتبر غـير طبيعي بالنسبة لقوانين الهندسة، فإنه غير كفء بشكل ملفت للنظر).

وبـدون أي تبريـر، أو شرح، يعلـن بيهي ببسـاطة بأنَّ المحـرك المروحي للبكتريـا هـو تعقيـد متعذر الإنقـاص. وبما أنـه لم يقدّم أي حجـة في صالح ادّعائه، فبإمكاننا أن نبدأ بالاشـتباه في فشـل المخيلة لديـه. ويزعم بعد ذلك بـأنَّ المدوّنـات البيولوجيـة المختصّة قـد تجاهلت هذه المسـألة. كـذّبَ هذه المزاعم مدون بكثافة محرجة (بالنسبة لبيهي) في صالة المحكمة للحاكم جون إي جونز في بنسـلفانيا 2005 عندما كان بيهي يشهد كخبير لمصلحة مجموعة من الخلوقيين الذين حاولوا فرض التصميم الذكي ليكون ضمن برنامج مما يدرس في مدرسة عامة، حركة في «منتهى السفاهة» الاقتباس هنا من الحاكم جونـز (الجملة والرجل بالتأكيد مقدر لهما الشـهرة الراسـخة). ذلك لم يكن الإحراج الوحيد الذي عاناه بيهي في الجلسة، كما سنرى لاحقًا.

المفتاح لاسـتعراض التعقيـد المتعذّر الإنقاص هو الإقنـاع بعدم فائدة أي قسم بمفرده. وبأنَّ كل الأقسام يجب أن تكون في مكانها قبل أن يصبح أي قسـم منه مفيد (تشبيه بيهي المفضل هو مصيدة الفئران). في الواقع أنَّ علـم الخليّـة الجزيئي لم يجد أي صعوبة في برهان أنَّ الأقسـام تعمل خارج مجتمع الأقسام، وذلك بالنسبة للبكتريا المروحية كما للأمثلة الأخرى التي قدمّها بيهي بالزعم أنها تعقيدٌ متعذِّر الإنقاص.

النقطـة وضّحها كينيـث ميللر من جامعة براون بشـكل جيد، والذي هو في رأيي أكبر عدو مقنع للتصميم الذكي وليس لسـببٍ آخرَ غير كونه مسـيحيًا مكرسًـا. وأنا أوصي بكتاب براون البحث عن إله داروين كثيرًا للمتدينين المخدوعين من قبل بيهي.

في حالـة البكتيريا ذات المحرك المروحي، يلفت ميللر انتباهنا لآليّةٍ من صنـفِ النظـامِ الإفرازي الثلاثـي. النظام لا يسـتعمل في حركة الدوران.

ولكنـه أحـد الأنظمـة العديـدة المستخدمة مـن قبـل البكتيريـا الطفيلية لضخِّ المواد السـامة من خلال جدران خلاياها لتسـميم الجسـم المضيف. وبمقياسـنا البـشري، بإمكاننا تخيّل الموضوع وكأنه صبٌّ أو تدفّقٌ لسـائل مـن خلال ثقب، ولكن مرة أخـرى، بمقاييس البكتيريا يبدو ذلك مختلفًا. حـل جزئي من المـادة الخفية هو عبارة عـن جزء بروتينـي ثلاثي الأبعاد، مُحدّد البناء بشـكلٍ معرّف بالنظام الإفرازي الثلاثي: الأكثر شـبهًا بتمثال من سـائل. وكل جُـزَيْء مدفوع من خلال آليّة مشـكلة بإتقـانٍ وكأنه آلةٌ تـوزّع ألعابًا إفرازية أو زجاجاتٍ تخرج من خـرج فيها أكثر من كونها آلية بثقب «يسـيل» منه سـائل ما. والثقب الموزّع هو عبارة عن عددٍ صغير من جُزيْئـات البروتـين، وبحجم وتعقيد مشـابه للجزَيء المدفـوع للخارج. والمثـير إن هذه الآليات البكتيرية ذات الثقب مشـابهة في عدد من البكتريا لأتمـت لبعضهـا بصلـة قرابـة وثيقة. ويبـدو أن المـوروث الـذي جعلهم يملكون هذه الآلية ربما كان منسـوخ وملصـوق من بكتريا أخرى: وهذه عملية تبرع فيها البكتريا بشكل ملحوظ وهي موضوع ساحر بحد ذاتها.

الجزيئات التي تشكل النظام الإفرازي الثلاثي مشابهة جدًا لتلك التي تشـكل المحرك المروحي. وبالنسـبة للتطـوري فإنه مـن الواضح أن تلك المكونات اسـتولت عليها وظيفة جديدة، وليسـت منفصلـة تمامًا، عندما تطـوّرت بكتريا المروحـي. المعطيات هي أنَّ النظـام الثلاثي يجر جزيئات من خلاله، فإنه ليس من المفاجئ أن تسـتعمل نسخة أولية من المبدأ نفسه من قبل البكتيريا المروحية والتي تجر جزيئات المحوّر حول نفسها.

من الواضح؛ إنَّ المكونات الحاسمة للمحرك المروحي كانت موجودة وشغّالة قبل أن يتطوّرَ المحرِّك المرْوحي، واستعمال نظامٍ موجود هو طريقةٌ

بديهيـة يمكن من خلالها لما يبدو لتعقيدٍ متعـذّر الإنقاص أن يصعدَ الجبل اللااحتمالي.

الكثير من العمل يجب أن يتم بالطبع، وأنا متأكّدٌ بأنَّ ذلك سيحصل. عمـلٌ كهذا لن يتـم لـو كان العلماء مُكْتَفين وسـعداء بالتقصير الكسـول كالـذي تدعمه نظرية «التصميم الذكي». وتلك عبارة أتخيّلها مرسـلة من شـخصيةٍ خياليـة لـــــمنظرٍ عـن التصميمِ الذكـي: في حالةِ عدم فهمك لكيفية عمل شيء ما، لا تهتم، استسلم وقُلْ بأنَّ الله فعلها.

لا تعرف ماهيّةَ عمل النبصات العصبية؟ حسـنا! لا تفهم كيفية عمل الذاكرة في المخ؟ ممتاز! هل التمثيل الضوئي عملية مثير للحيرة بتعقيدها؟

رائـع! أرجـوك ألّا تنـصرفَ للعملِ علـى أي من هذه الأسـئلة، فقط استسـلم، ونـادِ بالله. عزيـزي العالم، لا تعمـلْ على كشـفش أيٍّ من هذه الأسرار. بـل أجلبهـم لنا لنسـتخدمهم. لا تبـذّر الجهل الثمـين بالبحث العلمي بهذه الطريقة. نحن بحاجة لتلك الفراغات كملجأ أخيرٍ لله.

لقـد قالها سـانت أغوسـتين بصراحة: هناك شـكل آخر مـن الإغراء. مشـحون بالخطـر. ألا وهـو داء الفضـول. ذلـك الـذي يدفعنـا لتجربـة واكتشاف أسرار الطبيعة، تلك الأسرار التي خارج حدود فهمنا، والتي لا تفيدنا بشيء ولا يجب على الإنسان آت يتمنى تعلمها (اقتباس من فريمان 2002) الزعـم المفضل الآخر لدى بيهي عن التعقيد المتعذّر الإنقاص هو نظام المناعة ولنَرَ ما يروي الحاكم جونز عنها:

«في الواقع، وبعد التحقق سُـئِلَ البروفيسـور بيهي عن موضوع زعمهِ عـام 1996 بـأنَّ العلم لن يستطيعَ أبـدًا إيجاد تفسـيرٍ لجهـاز المناعة. وقد

تقدّم ثمان وخمسون من أقرانه بأبحاث مدروسة ومنشورة، وتسع كتب، والعديد من الفصول من كتب في النظم المناعية وتطورها، ورغم ذلك أصر ببساطةٍ بأن ذلك ليس أدلة كافية على التطوّر وإنَّ ذلك ليس جيدًا بشكلٍ كافٍ».

بيهي، بنتيجة التحقيق من قبل إريك روتشيلد، رئيس المستشارين، اعترف بأنه لم يقرأ معظم المنشورات الثمانية والخمسين. ليس ذلك بمفاجئ بأي شكل، لأنَّ المناعيات عمل شاق. ولكن الأقل قابلية للعفو هو رفضه للدراسات باعتبارها غير أمينة. إنها بالتأكيد غير أمينة في حال أن الهدف هو الدعاية بين البسطاء من الناس والسياسيين، بدلاً من اكتشاف حقائق مهمة عن حقيقة العالم. بعد الاستماع لبيهي، لخّص روتشيلد بشكلٍ بليغ إحساسَ كل شخص أمين في قاعة المحكمة:

«ما يستحق الشكر، إنَّ هناك علماء يبحثون عن أجوبةٍ لأصلِ الجهاز المناعي... إنه دفاعنا ضد العنف والأوبئة المميتة. من كتب تلك الكتب والمقالات من العلماء يكدحون في الغموض، بدون كتب ملكية أو خطابات. جهودهم تساعدنا على محاربة وشفاء حالات طبية جدية. على العكس من ذلك فإن البروفيسور بيهي وكل حركة التصميم الذكي لا يفعلون أي شيء لدفع العلم أو المعرفة الطبية للأمام ويقولون للأجيال المستقبلية من العلماء، لا تزعجوا أنفسكم».

وكما قال عالم الجينات الأمريكي جيري كوين في مراجعته لكتاب بيهي: «لو أراد تاريخ العلم أن يقول لنا شيئًا واحدًا، فسيقول بأننا لم نكن لنكتشف أي شيء لو وضعنا لافتةً الله على مواضيع جهلنا. أو كما

كتب أحدهم في مذاكراته على الإنترنت كتعليقٍ على مقابل عن التصميم الذكي كتبته بالمشاركة مع كوين في صحيفة الغارديان.

لماذا يعتبر الله شرحًا لكل شيء؟ هو ليس شرحًا، بل بالأحرى هو فشل في الشرح، لا مبالاة، هو عبارة عن «لا أعرف» متنكرة بالروحانيات والطقوس. وعندما يلقي بالسبب على الله، فذلك يعني غالبًا بأنه ليس لدينا أي أمل بالمعرفة، ولذلك فأننا نلقي بالتبعية على ما لا يمكن أن نعرفه أو نصل إليه إلا وهو الأسطورة السماوية. ولو سألت من أين أتت تلك الشخصية، فالاحتمالات هي أن تحصلَ على إجابةٍ ضبابية، نصف فلسفية عن وجوده الأزلي، أو وجوده خارج الطبيعة والتي بالطبع لا تفسر شيئًا على الإطلاق.

الداروينية ترفع الوعيَ بطرقٍ أخرى. تطور الأعضاء، الأناقة والمهارة التي ترافقهم غالبًا ترينا بعض الأخطاء فيهم تمامًا كما نتوقعها لو كانت نتيجة تطور تاريخي، وتمامًا بعكس ما نتخيّله لو كانت مصممة. وقد ناقشت أمثلة في كتب أخرى: عصب لارينغيل، أحد الأمثلة، يفضح أصله التطوري بتبذيرهِ الكبير في الطريق المتعرّج الذي يسلكه للوصول للهدف. الكثير من الأمراض التي تصيب الإنسان، من ألمِ أسفلَ الظهر والفتوق، هبوط الأرحام وسهولة التأثر بالتهاب الجيوب، هي نتيجة أننا نسير على قدمين بشكلٍ عمودي لجسم تطوّر عبر ملايين السنين ليسير على أربع. كذلك يرتفع وعينا للإحساس بالتبذير والوحشية للإنتخاب الطبيعي. الحيوانات المفترسة تبدوا وكأنها مصمّمة بشكل جميل لصيد الفريسة كما تبدو الفرائس مصممة بشكل جميل لتفادي الاصطياد في صالح من يقف الإله؟

المبدأ الأنثروبي: النسخة الكوكبية:

ربما استسلم علماء الدين المعتمدين على الفراغاتِ عن تقديم أدلّة كالعين والجناح، أو المحرّك المروحي أو جهاز المناعة، وبالتالي فإنهم يعتمدونها كملاذٍ أخير على أصل الحياة. جذور التطوّر في نطاق الكيمياء المعدنية الذي يبدو وكأنه يؤمن فراغًا أكبر من أي انتقال لتطوّرٍ لاحق. وبمعنى ما فهو فعلاً فراغ أكبر وهذا المعنى خاص جدًا ولكنه لا يعطي راحة للمتدينين.

أصلُ الحياة يجب أن يكون قد حدث مرة واحدة فقط. وبذلك نسمح لأنفسنا بأن نعدَّ حدثًا على قدر كبير من اللااحتمالية، بدرجة أكبر كثيرًا مما يدركه العديدين كما سأستعرض لاحقًا. وخطأ التطوّرات اللاحقة مجرد إعادات بشكل أو بآخر، عبر ملايين من الأنواع الحيّة وبشكل مستقل، وبشكلٍ مستمر ومعاد عبر العصور الجيولوجية. ولذلك ولشرح تطوّر تعقيد الحياة، لا نستطيع اللجوء لنفس النوع من الإحصائيات العقلانية التي نستطيع اعتبارها في أصل الحياة. الأحداث المشكلة للتطور المتكرّر كدوران الطاحونة كشكل مستقل عن الأصل المنفرد وربما القليل من الحالات الخاصة لا يمكن أن يكون لا احتماليًا بشكلٍ كبير.

التمييز قد يكون محيرًا، وعليّ أن أشرحه أكثر، باستعمال المبدأ الأنثروبي. المُسمّى من قبل عالم الرياضيات البريطاني براندون كارتر في 1974 ووسّعَ مفهومه الفيزيائيون جون بارو وفرانك تيبلر في كتابهم حول الموضوع. الحجة الأنثروبية عادة تطبق على الكون وسأتي لذلك لاحقًا. ولكني سأقدّم الفكرة على مقياس أصغر، كوكبي.

نحـن موجـودون هنا على الأرض. ولذلك فـالأرض يجب أن تكون كوكبًا مؤهلاً لتوليدنا واحتوائنا، مهما كان الموضوع غير عادي، بل وفريد مـن نوعه لكوكـب من هذا النـوع. وكمثال فـإنَّ نوع الحياة التـي نحياها ليسـت ممكنة بدون ماء سائل. بالتأكيد، البيولوجيون الخارجيون يبحثون عن أدلة على الحياة خارج الأرض بمسحِ السماء، عمليًا بحثًا عن إشارات تدل على وجود الماء. وحول نجم عادي كشمسـنا هناك ما يعرف بنطاق القفـل الذهبي ليس حـارًا أو باردًا مضبوط فقط لكوكب مع ماء سـائل. وهنـاك مدارات ضيقة تقع بين مـا هو بعيد جدًا عن النجم، حيث يتجمد الماء، وقريب جدًا حيث يغلي.

من المفترض أيضًا، أنَّ مدارًا صديقًا للحياة عليه أن يكون دائريًا تقريبًا؛ لأنَّ المـدار الأهليلجـي الحـاد، كالذي اكتشـف حديثًا للكوكـب العاشر المعروف شـكليًا باسـم كزينًا، سيسـمح للكوكب بالمرور لفترة وجيزة في نطـاق القفـل الذهبي كل بضع عقود أو قرون أرضية. كزينًا نفسـه لا يمر بالقفـل الذهبي بالمرة، حتـى في أقرب نقاطِ مداره حول الشـمس، والتي يصلها مرة كل 560 عامًا أرضيًا.

الحرارة على مذنب هالي بين 47 درجة سنتيغراد في أقرب نقطة وناقص 270 درجـة في النقطـة البعيدة. مـدار الأرض أهليلجـي ككل الكواكب الأخرى (الأقرب للشمس في كانون الثاني وأبعدها في تموز) ولكن الدائرة ليسـت إلا حالـة خاصة من الأهليلج، ومـدار الأرض قريب جدًا من أن يكـون دائريًا بحيث أنها لا تخـرج عن نطاق منطقة القفل الذهبي. ووضع الأرض مـأتيٌّ لتطـوّر الحياة في مجالات أخرى أيضًا ممـا يجعلها منفردة. إنَّ جاذبية المشـتري الكبيرة موضوعة في مكانها لسحب كل الكويكبات التي

تهدد الأرض بالاصطدام المميت. والقمر الأرضي الكبير نسبيًا يؤمن استقرارًا للأرض على محور دورانها. ويساعد في رعاية الحياة بطرق أخرى أيضًا. وشمسنا غير عادية بكونها ليست مزدوجة وليست محبوسة في مدار مشترك مع نجم آخر. من الممكن للنجوم المزدوجة أن يكون لها كواكب ولكن مدارات الكواكب ستكون من الفوضى بحيث أنها ستشكل عائقًا لتطور الحياة.

قدم تفسيران حول خصوصية كوكبنا لاحتضان الحياة، نظرية التصميم تقول بأنَّ الله خلق العالم، ووضع الأرض في نطاق القفل الذهبي، ووضع كل التفاصيل بقصد منفعتنا. النظرة الأنثروبية مختلفة تمامًا وتعطي إحساسًا شبيهًا بالداروينية.

غالبية الكواكب في الكون لا تقع في نطاقات الأقفال الذهبية لنجومها، وليست مناسبة للحياة. ولا يوجد حياة على أن منها. ولكن على أية حال هنالك أقلية صغيرة من الكواكب بشروط مناسبة للحياة، ونحن بالضرورة على أحد تلك الأقلية من الكواكب، لأننا بكل بساطة هنا ونفكر بالموضوع.

من الغريب، إنَّ المتديّنين يحبون المبدأ الأنثروبي. ولسبب ليس معقولاً على الإطلاق وهو أنهم يفكرون بأنَّ ذلك يخدم قضيتهم. والعكس تمامًا هو الصحيح بأنها كالانتخاب الطبيعي نظرية بديلة لفرضية التصميم. وتقدم تفسيرًا عقلانيًا، بعيدًا عن تفسير التصميم لأننا نجد أنفسنا في وضع مواتي لوجودنا وأظن أنَّ الحيرة تظهر في العقل الديني لأنَّ التنوية بالنظرية الأنثروبية هو الوحيد الذي يحصل عن طريق محتوى السؤال الذي تحاول الإجابة عليه، يعنى كوننا نعيش في مكان يحتضن الحياة. ما

يفشـل العقل الديني في فهمه هو أن هناك مرشـحان لحل المسألة. أحدهما الله والآخر هو المبدأ الأنثروبي، وفي الحقيقة إنهما حلّان متبادلان.

الماء السـائل شرط ضروري للحياة كما نعرفها، ولكن ليس كافيًا بالمرّة لوحـده. الحياة عليهـا أن تتأصّل في الماء، وأصل الحيـاة ربما كان لااحتمالي بشـكل كبير. التطـور الدارويني يكمـل الموضوع بسرور مجرد أن نشـأت الحيـاة. ولكـن كيف بـدأت الحياة؟ أصـل الحيـاة كان حدثًـا كيميائيًا، أو سلسـلة من الأحـداث، حيث حدثـت الـشروط الحيوية لبدايـة التطور. العنـصر الأهـم كان الوراثـة، د ن أ أو (الأكثر إحتمالاً) شيء شـبيه بها من حيـث موضوع النسـخ ولكن أقل ضبطًا، ربما جزيئـات ر ن ا القريب لها. وبمجرد أن يصبح هذا العنصر نوع من الجزيئات القابلة للتوارث موجودًا يبدأ التطور الدارويني، وتبدأ الحياة المعقدة بالظهور كنتيجة نهائية. ولكن الظهـور التلقائـي للجُـزَيْء القابل للتـوارث بالصدفة يبـدو للعديد غير محتمل. وربما إنه لا احتمالي بشـكل كبير، وسأبقي عند هذه النقطة، لكونها نقطة مركزية في هذا القسم من الكتاب.

أصـل الحيـاة يزدهـر كموضـوع بحـث تخمينـي والخـبرات المطلوبـة كيميائية وليسـت من اختصاصي وأنا على الطرف كمتفرج فضولي، ولن أتفاجأ لو أنه في خلالِ بضعة سنين قادمة، بأنّ الكيميائين نجحوا في توليد أصل للحياة في المختبر. على الرغم من ذلك لم يحصل حتى الآن، ولا يزال مـن الممكن المحافظة على الـرأي القائل بأنّ احتمال حصولها كان ولا يزال ضئيلاً بشكل هائل برغم أنها حصلت في وقت ما ولمرة واحدة...!

وكـما فعلنا مع مـدار القفل الذهبي، نسـتطيع أن نضـعَ النقطة الآتية، مهـما كانت الإحتمال لأصل الحيـاة ضعيفًا ولكننا نعلـم أنها حصلت مرة

على الأرض لأننا هنا. وكما في درجات الحرارة هنالك فرضيتان لشرح ما حصل فرضية التصميم والفرضية العلمية «الأنثروبية».

التصميم يسلم بوجود إله تعمد عمل تلك الأعجوبة، ضرب الحساء ما قبل البيولوجي بنارٍ مقدّسة وأطلق الـــــ د ن أ، وما شابهها، في بداية مستقبلها المهني. ومرة أخرى كما في القفل الذهبي فإنَّ البديل الأنثروبي للتصمي هو فرضية إحصائية. والعلماء يلجأون للأرقام الكبيرة. وعدد الكواكب في مجرتنا بين مليار وثلاثين مليار كوكبًا، ويوجود حوالي 100 مليار مجرة في الكون.

لنرفع عددًا من الأصفار جانبًا لمجرّد التعقّل العادي، فنحصل على مليار مليار كرقم متحفظ لعدد الكواكب في كوننا. والآن لنفرضَ أنَّ ظهور الحياة التلقائي أو ما يشابه الـــ (د ن أ)، هو ظاهرة بلا احتمالية مدهشة. لدرجة أنها تظهر مرة في كل مليار كوكب.

سيضحك بعض أصحاب المنح للأبحاث الكيميائية لو قال لهم كيميائي طالبٌ للمنحة بأنَّ احتمال نجاح البحث واحد بالمئة. ولكننا هنا نتكلم عن احتمال واحد في المليار. ومع ذلك ورغم ضآلة الاحتمالات، فأنَّ هناك احتمالاً أن توجد الحياة على مليار كوكب، ومنهم الأرض بطبيعة الحال.

النتيجة مفاجئة جدًا، وسأكرر هنا. لو كان احتمال ظهور الحياة التلقائي على كوكب ما واحد في المليار، وعلى الرغم من اللااحتمال الكبير، فسيكون هناك حياة على مليار من الكواكب. فرصة إيجاد أحد تلك الكواكب المليار يذكر بالمثل أبرة في كوم القش. ولكن ليس علينا

أن نجهدَ أنفسنا في البحث عنها لأن (نعود للمبدأ الأنثروبي) أي كائن يستطيع البحث هو موجود بالضرورة على أحدى تلك الأبر العديدة حتى قبل أن نبدأ بالبحث.

أي تصريح احتمالي يُوضع في سياقٍ متعلّق بمستوى الجهل به. وإن لم نعرف أي شيء عن كوكب ما، فربما نسلم بأنَّ احتمالات نشوء الحياة عليه، لنقل واحد في المليار. ولكن لو أستطعنا وضع بعض الفرضيات على احتمالاتنا، فالأشياء تتغير. كوكب ما يمكن أن يكون له خواص ما، ربما بعض لمحات حيوية مهملة في صخوره، والتي تسحب الإحتمال في صالح نشوء الحياة. بعض الكواكب، بكلمات أخرى اكثر «شبه أرضية» من كواكب أخرى.

والأرض نفسها هي طبعًا شبه أرضية بشكل خاص! وهذا يشجع أصدقاءنا الكيمائيين الذي يحاولون خلق الظاهرة مرة أخرى في المختبر؛ لأنه من الممكن أن تزيد احتمالات النجاح. ولكن كما أظهرت حساباتي السابقة بأنه حتى لو كان النموذج الكيميائي باحتمال نجاح واحد في المليار، فأنه لا يزال يتنبأ بوجود الحياة على مليار كوكب في الكون.

وجمال المبدأ الأنثروبي بأنه يقول لنا، بعكس الحدس، بأنَّ النموذج الكيميائي يحتاج فقط للتنبؤ بأنَّ الحياة ستنشأ على كوكب واحد من مليار مليار كوكب ليعطينا تفسيرًا جيدًا ومقبولاً بشكل كاملٍ لوجودِ الحياة. أنا لا أعتقد أنَّ أصل الحياة بهذه الدرجة من اللا احتمالية في الواقع. وأعتقد بأنه من الحق صرف المال على تجارب لتكرار تلك الظاهرة في المخبر، ونفس الشيء بالنسبة للبحث عن الحياة خارج الأرض؛ لأنني أعتقد بأنَّ هناك حياة ذكية في مكان آخر.

حتى في حالة قبول أكثر التقديرات تشاؤمًا عن نشوء الحياة بشكل ما، فإنها كحجّةٍ إحصائية ستحطّم أي اقتراح إذ يأتي إلينا فنستخدم نظرية التصميم لملء الفراغ. ومن بين كل الفراغات في قصة التطور، فإنَّ أصلَ الحياة يبدو عصيًا على الفهم لدماغٍ بتدريرات تساعد على تقييم احتمالات ومجازفات على موازين يومية: كالموازين التي بواسطتها تقرر هيئة المنح إعطاء المنحة المالية للبحث المقدم من الكيميائي. ولكن حتى فراغ كهذا فإنه يُملأ بسهولةٍ من قبل عام إحصائيات قدير، وتقدّم نفس الإحصائيات سببًا لإخراج الخالق المقدّس من أرض الـــ 747 الكبرى التي نوهنا عنها سابقًا.

ولكن الآن لنعد للنقطةِ المثيرة التي انطلق منها هذا المقطع. لنفرض بأنَّ أحدًا ما حاول تفسير ظاهرة التأقلم البيولوجي بواسطة السطور التي استخدمناها في أصل الحياة:

نستخدم الأعداد الهائلة من الكواكب المتوفرة. الواقع بأنَّ كل نوع من الإحياء، وكل عضو درس في أي جسم حي، هو جيد فيما يفعل. أجنحة الطيور، النحل والخفافيش جيدان في الطيران. العيون جيدة للرؤيا، الأوراق جيدة في التمثيل الضوئي.

نعيش على كوكبنا محاطين بملايين أنواع الأحياء وكل منها على حدة يعطينا الوهم القوي بوجود تصميم. كل نوع حي مناسب جدًا لنوع حياته الخاص. هل بإمكاننا أن نتملّصَ باستعمال حجة «العدد الهائل للكواكب» لشرح كل أوهام التصميم تلك؟ لا، لانستطيع. وأعيد مرة أخرى لا، لا تفكر بذلك. هذا مهم جدًا؛ لأنَّ ذلك يكمن في قلب أشد أشكال سوء الفهم للداروينية.

ليس من المهم كم عدد الكواكب التي نلعب بها، الحظ السعيد لا يمكن أن يكون كافيًا لشرح التنوع المعشب لأنواع الحياة المعقدة على الأرض بنفس الطريقة التي استعملناها لشرح وجود الحياة في الأصل. تطور الحياة مختلفة تمامًا عن حالة نشوئها لأنه وسأعيد هنا أصل الحياة كان (أو ربما كان) ظاهرةً فريدة حدثت مرة واحدة فقط وتكيف الأحياء للبيئات المختلفة، ومن الناحية الأخرى يصطحب ملايين الطيات ولا يزال ساريًا.

من الواضح بأننا هنا على الأرض نتعامل مع عملية عمومية لتحسين الأحياء بيولوجيًا، عملية تحدث في كل أنحاء الكوكب، كل القارات والجزر، وفي كل الوقت. ونستطيع التوقع باطمئنان بأنه لو أننا انتظرنا عشر ملايين سنة أخرى، فإنَّ مجموعة جديدة تمامًا من الأحياء ستكون متأقلمة تمامًا لطرقها في الحياة كما هو الحال في أحياء العصر.

وهذه ظاهرة متكرّرة، متوقعة وليست قطعة من إحصائية حظر إدركناها في وقت متأخر والفضل يرجع لداروين، نعرف الآن كيف حصلت، بالانتخاب الطبيعي.

المبدأ الأنثروبي عاجزٌ عن تفسير تنوع تفاصيل الكائنات الحية ونحن بحاجة حقيقية لتفسير داروين القوي لتفسير تنوع الحياة على الأرض وبصورة خاصة الوهم المغري لنظرية التصميم وبعكس ذلك فإنَّ أصل الحياة يقع خارج حدود هذا التفسير؛ لأنَّ الانتخاب الطبيعي لا يمكن أن يبدأ بدونه. وهنا يأتي المبدأ الأنثروبي من نفسه.

بإمكاننا معالجة فكرة أصل الحياة بافتراض عددٍ هائلٍ من الفرص الكوكبية وبمجرد أن نضمن ضربة الحظ والمبدأ الأنثروبي يضمن لنا

حصولها بشكل شبه أكيد يبدأ الانتخاب الطبيعي في العمل، والانتخاب الطبيعي ليس موضوع حظ أبدًا.

على الرغم من ذلك، ربما كان أصل الحياة ليس الفراغ الوحيد في نظرية التطور والذي نجتازه بمجرد الحظ، المبرر انثروبيا. فعلى سبيل المثال، زميلي مارك ريدلي في شياطين ماندل (والذي تغير عنوان بشكل محير ومجاني من قبل الناشر الأمريكي لـــ تعاون الجينات) يقترح بأنَّ أصل الخلية الأوكاريوتية (من نوع خلايانا، مع نواة وأشياء أخرى معقدة مثل الميتوكوندريا، والتي لا وجود لها في البكتريا) شديد الأهمية، صعب ولا احتمالي إحصائيًا بشكل اكبر من أصل الحياة، وأصل الوعي يمكن أن يكون فراغًا آخر من نفس درجة اللااحتمالية. يمكن تفسير الظواهر من خطوة واحدة بالمبدأ الأنثروبي كما يلي:

> هناك المليارات من الكواكب التي تطوّرت فيها حياة على مستوى بكتيري، وفقط جزء بسيط منها استطاع العبور لمرحلة الخلية الأوكاريوتية ومن هؤلاء بدورهم، فإنَّ جزءًا أصغر عبر تلك المرحلة للحياة الواعية. لو أن كلتا الحالتين تعتبران ظواهر ذات خطوة واحدة، فإننا بصدد عملية منشرة ومتخلخلة في كل شيء، كما هو الحال في عملية التأقلم البيولوجي الدائر والمستمر. المبدأ الأنثروبي يصرح بالتالي، إنَّ كوكبنا يجب أن يكون من النوادر حتى يستطيع اجتياز كل تلك العقبات.

الانتخاب الطبيعي يعمل لأنه تراكم على طريق باتجاه واحد للتحسن. وهو بحاجة لبعض الحظ ليبدأ بالعمل، المبدأ الأنثروبي لـــ «مليارات الكواكب» يضمن لنا ذلك الحظ. وربما أنَّ هناك بعض الفراغات الأخرى

في نظريـة التطـور مما يحتاج للحظ، مع تبريـرات أنثروبية. وعلى كل حال مهما أردنا قوله، فإنَّ نظرية التصميم لا يمكنها تفسير الحياة؛ لأنَّ التصميم في النهايـة ليس عملية تراكمية وبالتالي تطرح سـؤالاً أكبر من الذي تجيب عنه أنها تعيدنا للسؤال التراجعي عن الـــ 747 الكبرى.

نعيـش على كوكب صديق لنوع الحياة التي نحياها. وقد رأينا سـببين لذلك. أحدها هو أن الحياة تطورت وازدهرت بسبب الشروط التي أمنها لنـا كوكبنا وذلـك بالانتخاب الطبيعي. والسـبب الآخـر الأنثروبي هناك المليارات من الكواكب في الكون، ومهما كانت نسـبة الكواكب المسـاعدة علـى التطور صغـيرة فإنَّ كوكبنا يجـب أن يكون أحدهـا؛ وعلينا الآن أن نعيد المبدأ الأنثروبي لمرحلة أبكر، من البيولوجية للفلك.

المبدأ الأنثروبي: النسخة الفلكية:

نعيش ليس فقـط على كوكب صديق لحياتنا ولكن في كون صديق لنا أيضًا. ووجودنا يأتي من الواقع بأنَّ القوانين الفيزيائية يجب أن تكون مناسبة بشـكل كافي لتسمح للحياة بالنشوء. وليست مصادفة أننا نرى النجوم في السـماء، النجوم من المتطلبات الضرورية حيث أنها تحتوي على الكثير من العناصر الكيميائية وبدون كيمياء لا توجد حياة. وبحسـاب الفيزيائيين، فإنه لو اختلفت الثوابت الفيزيائية عما هي عليه حتى بشـكل ضئيل جدًا، فإنَّ الكون سـيتطور بشـكل تصبح معه الحياة مسـتحيلة والتعابير تختلف باختـلاف الفيزيائيين، ولكـن النتيجة كانت دائمًا واحدة. مارتن ريس، في كتابه سـتة أرقام فقط، يعرض لائحة بسـت ثوابت أساسية، والتي يعتقد بثبات قيمتها في كل الكون.

وكل واحد من هذه الثوابت معير بدقة بمعنى أنه لو تغير بشكل ضئيل، فإنَّ الكون سيكون غير ما نعرفه الآن بشكل شامل ومن المفترض أنه لن يكون مساعدًا للحياة.

أحد الأرقام الستة كمثال هو قيمة العامل المسى «القوة» الشديدة. تلك القوة التي تربط أجزاء الجزيئات: القوة الواجب التغلب عليها عندما نريد «فلق» الذرة. وقيمتها تسمى ي، وهي القسم المتحول لطاقة من انصهار ذرّة هيدورجين متحولة من الهيليوم والقيمة في كوننا هي عبارة عن 0.007 وعلى ما يبدو أنَّ القيمة يجب أن تكون قريبة جدًا من ذلك في حال أردنا أن نحصل على أي تفاعلات كيميائية (والتي هي شرط الحياة).

الكيمياء كما نعرفها هي عبارة عن تركيب وإعادة تركيب لذرات العناصر الطبيعية البالغ عددها حوالي تسعين والتي نجدها في الجدول الدوري. الهيدروجين هو الأبسط والأكثر انتشارًا لهذه العناصر. كل العناصر الأخرى في الكون مصنوعة في النهاية من الهيدروجين بواسطة الانصهار النووي. الانصهار النووي عبارة عن عملية صعبة تحصل في شروط ضغوط حرارية عالية جدًا تحصل داخل النجوم (وفي القنبلة الهيدروجينية). وبالنسبة للنجوم المتوسطة الحجم، كما هو الحال في شمسنا، فإنَّ ذلك يولد عناصر خفيفة كالهيليوم وهو العنصر التالي على الجدول الدوري من ناحية الخفّة بعد الهيدورجين.

ونحتاج لنجوم أكبر وأكثر حرارة لنستطيع توليد معظم العناصر الثقيلة. وفي تتابع للأنصهار النووي والذي درسه وشرحه فريد هويل وأثنان من زملائه (إنجاز لسببٍ غامض، لم يحصل به على حصة من

جائزة نوبل، التي كسـبها شركاؤه الآخرون). وهـذه النجوم الكبيرة ربما تنفجر فيما يسـمى سوبر نوفا، قاذفة بمحتوياتها، المتضمنة عناصر الجدول الدوري، على شـكل غيوم غبارية. وهذه بدورها تتكثف وتنشئ كواكب ونجوم جديدة، ومنها شمسـنا وأرضنا. وهذا هو السبب في غني الأرض بالعنـاصر الأثقـل مـن الهيدروجـين المنتـشر في كل مـكان، وبـدون تلك العناصر تستحيل الحياة.

ما يتعلق بموضوعنا هنا هو أن قيمة «القوة» تحدد بشكل دقيق وحرج كـم إمكانيـة تشـكل المـواد علـى الجـدول الـدوري. ولو كانـت صغيرة 0.006، مثـلاً بدلاً من 0.007 فإنَّ الكون لن يتكون من أي شيء آخر غير الهيدورجين ولن ينتج أي عنصر كيميائي مثير.

و لـو كانت أكبر 0.008 مثلاً فإنَّ كل الهيدروجين سـينصهر مع بعضه لتشـكيل عناصر ثقيلة. والكيمياء بدون هيدروجين لا تسـتطيع تشـكيل حياة بالطريقة التي نعرفها. لسـبب واحد ألا وهو أنه لن يكون هناك ماء. والقيمـة الذهبية 0.007 هي القيمة الوحيدة التـي تؤدي لوجود العناصر بتنوعها للحصول على كيمياء مثيرة وداعمة للحياة.

لـن أتطرق لـكل أرقام ريس السـتة. النتيجـة لكل منها تبقى نفسـها. الرقـم له قيمة (ذهبية) والحياة لن تكون ممكنة خارجها. كيف يمكننا الرد على ذلك؟

مـرة أخـرى، لدينا رد المؤمنين من طرف، والمبـدأ الأنثروبي في الطرف الآخـر. المؤمن يقول بأنَّ الله، عندما ضبط معايير الكون، فإنه وضع القيم لهـذه الثوابت الأساسـية بحيـث أنَّ كلًّا منهـا يقع في نطـاق ذهبي لإنتاج

الحيـاة. وكان الله عنـده 6 من المقابـض التي يديرها، وقـد ضبط كلاً منها بحـرص للقيمـة الذهبية. وكـما هو الحال دائـمًا، فإنَّ جـواب المؤمن ليس كافيًا. لأنه يترك موضوع وجود الله بدون شرح.

لا احتمالية الإله القادر على حسـاب القيم الذهبية للأرقام الستة يجب أن يكون على الأقل مساويًا للااحتمالية ضبط الأرقام الستة نفسها، وهذا بالتأكيد قليل الاحتمال وهذه المُسلَّمة هي من الأساس في نقاشنا.

وبذلك فإنَّ جواب المؤمنين يفشـل تمامًا في دفعنا باتجاه حل المسألة. ولا أجد أي بديل عن طرده بعيدًا وفي نفس الوقت انظر لأعداد الناس الذيـن لا يرون تلـك المعضلة ويبـدون مكتفين بحجة «المقـدّس مدير المقابض».

ربما أنَّ أحدَ أسـباب ذلك العمى المدهش هو عدم وجود وعيٍ مرتفعٍ لأولئـك النـاس، كالذي حصل عليـه البيولوجيـون، بنظريـة الانتخاب الطبيعي وقوتها في ترويض اللااحتمالية.

ج. أندرسـون تومسـون، ومـن وجهة نظـره كطبيب نفسي تطوري، لفت نظرية لسـبب آخر، التحيّز النفسي الذي نملكه ويؤدي بنا لشخصنة الأشياء الساكنة. وكما يقول تومسون نميل للخطأ أكثر في اعتقادنا أنَّ ظلًّا مـا للصٍّ أكثر مـن اعتقادنا أنَّ لصًّا ما هو عبارة عـن ظل. فالخطأ الإيجابي مضيعة للوقت فقط. بينما الخطأ السلبي يمكن أن يكون قاتلاً.

في رسالةٍ لي اقترح تومسون، بأنه بالنسبة لأسلافنا في الماضي، كانت أهم التحدّيات في البيئة تأتيهم من الآخرين من بني جنسهم. التراث يقول بأنَّ الافتراض الأول، الخوف غالبًا من نوايا الإنسـان. هناك صعوبات جمة في

رؤية أي شيء غير الأسباب الإنسانية. وسأعود لموضوع أغواء الشخصنة في الفصل الخامس.

البيولوجيون، ذوي الوعي العالي لقوة نظرية الانتخاب الطبيعي في تفسير ارتقاء الأشياء اللااحتمالية، لن يرضوا بأيٍّ نظرية تتفادى مشكلة اللااحتمالية برمتها. وجواب المؤمنين للأحجية اللااحتمالية هو تفادٍ لها بشكل هائل. إنها ليست أكثر من إعادةٍ لطرح المشكلة، بل إنها تشويه لها بشكل كبير. لنلتفت الآن للحل الأنثروبي البديل. الجواب الأنثروبي، في شكلهِ الأعمّ هو أنه باستطاعتنا نقاش السؤال عن نوعِ الكون القادر على إنتاجنا. إنَّ وجودنا يفرض أن الثوابت الأساسية للفيزياء ضمن حدود قيمها الذهبية والحلول الأنثروبية تختلف باختلاف الفيزيائيين العاملين على أحجية وجودنا.

بعض الفيزيائي العنيدين يقولون بأنَّ المقابضَ الستة لم تكن لها الحرية في أي وقت من الأوقات لتتغير. وعندما نصل لنظرية الكل التي طالما أملنا بمعرفتها، سنجد أنَّ الأرقام الستة تعتمد على بعضها، أو على شيء آخر ليس معلومًا بعد، وبطرق لا نستطيع بعد تخيلها في أيامنا. ربما تكون الأرقام الستة عديمة الحرية في التغيّر تمامًا كما محيط الدائرة بالنسبة لمحيطها. وسيستنتج لذلك بأنَّ هناك طريقة واحدة لوجود الكون وبعيدة جدًا عن الحاجة لوجود إله يضبط المقابض الستة، وليس هناك مقابض للضبط في الأصل.

فيزيائيونا (مارتن ريس كمثال) يجدون ذلك غير مرض، وأعتقد أني أوافقهم. من المعقول بالطبع أن يكون هناك طريقة واحدة ليوجد الكون. ولكن لما على هذه الطريقة أن تكون بشكل أعداد وتمهيد للتطور النهائي؟

لماذا على الكون أن يكون بالشـكل الذي يبدو فيه تقريبًا وكأنه والكلمات للفيزيائـي النظـري فريـمان دايسـون، مـن المؤكـد قـد عـرف بقدومنـا؟ والفيلسـوف جون ليسـلي يسـتعمل التشـبيه عـن رجل محكـوم بالإعدام رميًـا بالرصاص. من الممكن أن يخطئ جميـع أعضاء فريق الإعدام الهدف وبالتبـصّر للخلـف يجـد الناجي نفسـه في وضـع يفكر فيه بحظه بسـعادة ويقـول: من الواضح أن جميعهم أخطأوا الهدف، وإلّا فلن أكون هنا أفكر في ذلك». ولكن من الممكن أنه لا يزال يعجب لماذا أخطأوا جميعًا، وتدور في رأسه فرضيات عن كونهم قد ارتشوا أو كانوا سكارى.

نجيـب على الاعـتراض بالاقـتراح، ويدعمنـا مارتن ريـس في ذلك بـأنَّ هنـاك العديـد من الأكوان، متعايشـة كـما فقاعات الرغـوة، في العالم المتعدد الأكوان (أو الكون العظيم، كما يجب ليونارد سوسـكيند تسميته). القوانـين في أحـد الأكوان كالـذي في نطاق ملاحظتنا، هـي قوانين محلية. والعـالم المتعدد الأكوان لديه الكثـير من القوانين المحليـة المتبادلة. والمبدأ الأنثروبي يأتي هنا ليشرح بأنه من الواجب أن نكون في أحد تلك الأكوان ذات القوانين المحلية المواتية في النهاية لتطورنا وتأملنا في المسألة ذاتها.

نسـخة فاتنة مـن نظرية العالم المتعدد الأكوان تـأتي من اعتبارنا بالمصير النهائـي لكوننـا. بالاعتماد على ثوابت مارتن ريس السـتة، ربما سـيتمدد كوننا للانهاية، أو يسـتقر على وضع متوازن، أو سينقلب التمدد لتقلص، ينتهي بما يسـمى «الالتحام الكبير». وبعض نـماذج الالتحام الكبير ترُجع الكون لحالة التمدّد، وهكذا بدون نهاية وبترددٍ قدرهُ حوالي 20 مليار عام.

النموذج الأسـاس لكوننا يقول بأنَّ الوقت بدأ مع الانفجار الكبيرف كـما الفراغ، منذ حوالي 13 مليار سـنة. وسلسـلة الإلتحـام الكبير تفرض

مـا يـأتي: زمننا وفراغنا بـدءًا مع الانفجـار الكبير، ولكن ذلـك الانفجار هـو الأخير من عدة انفجارات، ونشـأ كل منها مـن التحام كبيرٍ قد أهلك الكـون السـابق في السلسـلة. ليس بمقـدور أحد أن يفهـم تفاصيل شيء كالانفجار الكبـير، وبالتالي فإنه من المعقول بأن القوانين والثوابت يمكن أن تكـون لها قيمٌ مختلفة في كل دورة لـــــ (الانفجار التمدّد، التقلّص، الالتحـام) وذلك منذ الأزل وإلى الأبد كآلةِ أكورديون كونية، وهنا لدينا متسلسـلة اكوان، وليس أكوانًا متزامنة. ومرة أخرى، فإنَّ المبدأ الأنثروبي يؤدّي واجبه في الشرح.

مـن كل هـذه الأكوان هنـاك عددٌ ضئيـل بثوابت مضبوطـة للشروط البيوجينية. وبالطبع الكون الحالي هو أحد تلك الضآلة، لأننا فيه. وكما هو ظاهر لنا، فإننا لا نستطيع الحكم على هذا النوع المتسلسل من الأكوان كما كان في السابق؛ لأنها أدلّة جديدةٌ بدأت بالظهور لتأخذنا بعيدًا عن نموذج الالتحام، ويبدو بأنَّ كوننا مقدور عليه التمدد اللانهاية.

فيزيائـي نظـري آخر، لي سـمولين، جهـد في تطوير نظريـة ذات طابع داروينـي عـن العـالم المتعـدد الأكـوان، تضمـن كلا النوعـين، التسـلسي والمتوازي (المتواقت).

فكرتـه التـي شرحهـا في حيـاة الكـون عن أكـوان بنـات لأكـوان آباء، ونشـوءهم ليـس بنتيجـة الالتحـام الكبير ولكـن بنتيجةٍ محلية عـن الثقوب السـوداء. الأكوان البنات لديهم ثوابت مختلفة قليـلاً عن آبائهم. والتوارث هـو العنصر الأسـاسي في الانتخاب الطبيعـي، وبقية نظرية سـمولين نتيجة طبيعـة. الأكـوان التي لها مـا يُلزم «للبقـاء» و«التكاثر» تصبح لهـا الهيمنة في العالم المتعدّد الأكوان. وما يلزم هنا يتضمن الديمومة لزمن كافٍ لـلتكاثر.

لأنَّ فعل التكاثر يحصل في الثقوب السـوداء، والأكوان الناجحة يجب أن يكـون لديها ما يلزم لتشـكيل الثقوب السـوداء وهـذه القابلية ميراث لقابليات أخرى. كمثال ميل العناصر للتكثف على شكل غيوم ومن ثم نجوم هو شرط لعمل الثقب الأسـود. النجوم أيضًا، كما رأينا، هي بوادار لتطور الكيمياء المثيرة، ومن ثم الحياة. ولذلك يقترح سـمولين، بأنَّ هناك انتخابًـا طبيعيًّـا دارويني للأكـوان ضمن العالم المتعدد الأكوان، وبشـكل مباشر يفضل الأكوان التي تطور ثقوب سوداء خصبة وبشكل غير مباشر يفضل إنتاج الحياة. ليس كل الفيزيائيين متحمسـين لفكرة سمولين. على الرغم من أنَّ الفيزيائي الحاصل على نوبل ماري جيلمان قال: سـمولين؟ هل هو ذاك الشاب ذو الأفكار المجنونة؟ ربما لا يكون مخطئًا.

ربـما سيتسـاءل بيولوجـي خبيـث في وقـت مـا عـما إذا كان فيزيائيون آخرون بحاجةٍ لرفع الوعي بنظرية داروين.

من المغري التفكير (والعديد استسـلمَ) بأنَّ العالم المتعدّد الأكوان نوع مـن الترفِ المسرف التي لا يجب السـماح بها ولو سـمحنا بتعـدد الاكوان المسـرف، تقول الحجة، فدعونا نسـمح بالإله. أليسـت الفرضيتان بنفس الدرجةِ من السماحِ وعدم الإرضاء؟

الذيـن يفكّـرون بهـذا الشـكل لم يتعرضـوا لرفـع الوعـي بالانتخاب الطبيعي. الفرق الأسـاسي بـين فرضية الأكوان المتعـددة الجريئة وفرضية الإلـه الجريئـة هـي الإحصائيـات اللااحتماليـة. وبرغـم التبذيـر في تعدد الأكـوان، إلا أنهـا بسـيطة، الله، أو أي ذكاء يأخـذ قرارًا بحسـابات، عليه أن يكـون من ضخامـة اللااحتمال على الأقل بنفس الدرجة للكيان الذي نحاول شرحه. العالم المتعدد الأكوان يبدو نظرية في غاية التبذير من ناحية

تعدد الأكوان. ولكن في كل من تلك الأكوان هناك قوانين أساسية. نحن هنا لا نفترض أشياء بدرجة عالية من اللااحتمال. والعكس يجب أن يقال في أي نوع من أنواع التصميم الذكي.

بعض الفيزيائيين معروفون بالتديّن (راسل ستانارد والموقر جون بولكنغتون مثالان من بريطانيا ذكرتهما قبلاً). وكما هو متوقع فأنهم يتعلقون بلاإحتمالية الثوابت ووقوعها في المجال الضيق بشكل عام للنطاق الذهبي ويقترحون بأنه يجب أن يكونَ هناك ذكاء من النوع الكوني والذي قصد تغيير الثوابت. وأنا قد نفيت كل ذلك كون هذه الأقتراحات تؤدي لمشكلة اكبر من التي تحلها. وما هي محاولات المتدينين للرد على ذلك؟ كيف يمكن لهم المحاججة بأن أي إله قادر على تصميم كون، بشكل دقيق وببصيرة كاملة يضبطه ليؤدي لتطورنا، عليه أن يكون على درجةٍ من التعقيدِ واللااحتمالية مما يجعل وجوده يحتاج لشرح أكبر من الذي يفترض أن يقدمه؟

عالم الدين ريتشارد سوينبورن، كما تعلمنا أن نتوقع، يظن بأنَّ لديه إجابةً للمسألة، ويشرح ذلك في كتابِه هل هناك إله؟ يبدأ بالقول بأنَّ رأيه صحيح بالإستعراض بشكلٍ مقنع بأنه يُفضّل أبسط الفرضيات التي توافق الوقائع. العلم يشرح الأشياء بعلاقاتها المعقدة لأشياء أبسط منها، وبالنهاية نصل للعلاقات بين الأجسام الأساسية للذرة. أنا (وأتجاسر على القول أنت أيضًا) أفكّر بأنَّ الفكرة جميلة في بساطتها بأنَّ كل الأشياء مصنوعة من الأجسام الجزيئية والتي بالرغم من تعدّدها آتية من عدد محدود صغير من أنواع الجسيمات. ولو شككنا بذلك فإننا نفعل لأنَّ

الفكرة تبدو بسيطة بشكل كبير. ولكن بالنسبة لسوينبورن فذلك ليس بسيطًا البته، بل على العكس.

وبما أنَّ عدد أي نوع من الجسيمات، ولنقل الأكثرون مثلاً، كبيرًا جدًا، فإنَّ سوينبورن يفكر بأنه ليس من الصدفة أن ذلك العدد الهائل يملك نفس المواصفات. بإمكانه هضم فكرة إلكترون واحد. ولكن مليارات المليارات من الإكترونات. كلها بنفس المواصفات، ذلك هو ما يثير شكوكه. وبالنسبة له، فأنه سيكون من الأبسط، والطبيعي أكثر، وأقل تطلبًا للتفسير، لو كانت الإكترونات مختلفة عن بعضها. أسوأ من ذلك هو أن الإلكترون لا يحافظ على مواصفاتِه سوى لبرهةٍ ضئيلة من الوقت، كل منهم يجب أن يتغيّر نزويًا، بشكلٍ عشوائيٍّ وفانٍ من لحظة لأخرى.

ذلك هو رأي سوينبورن عن الأمور البسيطة الطبيعية. كل ما هو اكثر رسمية (أو ما نسميه أنت وأنا اكثر بساطة) يقتضي تفسيرًا خاصًا. أن كون الكترونات وجزيئات النحاس وكل ما صنع منها تملك نفس القوة في القرن العشرين التي كانت لها في القرن التاسع عشر هو السبب بأن الأشياء هي كما عليه حاليًا.

و هنا أدخل الله في الشرح. يأتي الله للإنقاذ وذلك بالمحافظة بشكل مقصود على مواصفات المليارات من الاكترونات وجزيئات النحاس، وإبطال ميولها للعشوائية الحركية. ولذلك فإنك عندما ترى الكترونًا فإنك كما لو رأيتهم جميعًا: ولذلك فإن جزيئات النحاس تتصرف كجزيئات النحاس، ولهذا يبقى كل الكترون وكل جزئ نحاس كما هم من ميكروثانية لأخرى ولقرن بعد قرن. لأنَّ الله باستمرار يضع إصبعًا

على كل جزئ منها، يكبح أي زيادة في تهورها ويسوطها للصراط المستقيم مع زملائها ليكونوا جميعًا متماثلين.

ولكن كيف يمكن لسوينبورن أن يبرّرَ بأنَّ فرضية أن الله يضع زيليونات من الأصابع على الإكترونات الفالتة هي فرضيةٌ بسيطة؟ إنها بالطبع عكس البساطة تمامًا. ولكن سوينبورن يمرّر خدعته لاقتناعهِ الشخصي بذكاءٍ وقِحٍ بمغالطةٍ تأخذ الألباب. يصرح، وبدون أيِّ تبريرٍ بأنَّ اللهَ يتكوّن من مادة وحيدة. باللامعية في الشرح المقتصد، مقارنة بكل الزيليونات من الإلكترونات المختلفة التي بشكلٍ ما أصبحت متشابهة!

الإيمان يدّعي بأنَّ أي عنصر موجود، قد أوجد وبقى في الوجود بسبب شيء واحد، الله. ويدّعي بأنَّ كل مميزة لأي عنصر هي بسبب أو بسماح من الله بوجودها. تلك علامةٌ لبساطةِ الشرح للتسليم بتعدّد الأسباب. وبذلك فلا يمكن أن يوجد شرح أبسط من الذي يسلم بالسبب الأوحد. الإيمان بالله. أبسط من الإيمان بعديد من الإله. والإيمان يشرح أسبابه لنفسه، شخص بقدرة لا نهائية (الله يستطيع فعل أي شيء منطقيًا). علم لا نهائي (الله يعرف كل ما يمكن أن يعرف منطقيًا)، وحرية لا نهائية.

يتكرم سوينبورن بالإعتراف بأن الله لا يستطيع تحقيق الأشياء المستحيلة منطقيًا، وهنا يشعر الإنسان بالإمتنان لهذا الإمتناع وبقولنا، فأنه ليست هناك أي حدود لقدرة الله على الأشياء. هل يواجه العلم صعوبة في تفسير س؟ لا مشكلة. لا تلقي بالاً بالمرة. قوة الإله اللامتناهية مجهزة لتفسير س بسهولة (كما هو الحال في أي مسألة أخرى)، والجواب في كل الأحوال بسيط لأنه وبعد كل شيء هناك إله واحد. ما الذي يمكن أن يكونَ أبسط من ذلك؟

في الواقـع كل شيء هو أبسـط من ذلك. الإله القابـل لمراقبة والتحكم في كل جُـزيء من الكون لا يمكن أن يكون بسـيطًا، وجوده يحتاج لشرح ضخـم ليوفيـه حقه. والأسـوأ من ذلك (مـن وجهة نظر البسـاطة)، فإنَّ الزوايـا الأخـرى مـن وعي الإله مشـغولة بأعـمال وعواطـف وصلوات ودعاءات كل إنسـان وربما المخلوقات الفضائيـة الذكية أيضًا أن وجدت علـى كواكـب أخرى في مجرتنا أو المئة مليار مجـرة أخرى. وأيضًا بناء على رأي سـوينبورن، عليه أن يقرر بشكل مسـتمر بأن لا يتدخل بالأعاجيب لإنقاذنا عند تعرضنا للسرطان. لن يفعل ذلك أبدًا، لأنه «لو استجاب الله لمعظم دعاءات الأقارب ليشـفي مريض السرطان، فإنَّ السرطان لن يبقى مشكلة للإنسـانية ليتوجب حلها» وعندها فما الذي يجب أن نصرف وقتنا به؟

لا يذهـب معظـم علماء الديـن بعيدًا كسـوينبورن. ورغـم ذلك، فإنه مـن الملاحظ بأنَّ فرضية بسـاطة الإلـه توجد في العديد الكتابـات الدينية الحديثة. كيث وارد، الذي كان بوفيسـورا للعلوم القدسـية في اكسـفورد، كان صريحًا بما يتعلق بذلك في كتابه عام 1996 الله، احتمال وضرورة:

وكل ما في الكون يدعى بأن الله حل أنيق واقتصادي ومفيد لتفسير وجـود الكون. اقتصادي لأنـه يعزّي الوجود برمته في الواقع وكل ما في الكون لشيء واحد، هو السـبب الأسـاسي الذي أعطى سببًا لوجـود كل شيء وحتى ذاته. وأنيق لأنه حل يأتي من فكرة واحدة أساسـية، الفكرة عن الكمال التام لشيء مـا وبه يمكن توضيح كل طبيعة الإله ووجود الكون بذكاء.

كما كان الحال مع سوينبورن، فإنَّ وارد أخطأ في معنى شرح الأشياء ولا يبدو أنه يفهم معنى أن يكون الشيء بسيطًا. ليس من الواضح فيما إذا كان وارد يفكّر بحق بأنَّ الله بسيط، أو أنّ الفقرة السابقة هي مجرد تمرين بسيط مؤقّت «لمجرد الجدل».

السير جون بولكنغتهورن، في العلم والإيمان المسيحي، يقتبس عن وارد نقد لأفكار توماس اكويناس: إنه يعني بأن ما ينطبق على أي جزء من الله ينطبق على الكل. وليس من التناقض أن يعتبر، وإن كان لا يقبل التقسيم فإنه بحد ذاته معقد».

وفي ذلك فإنَّ وارد محق. بالتأكيد، فإنَّ البيولوجي جوليان هكسلي، عام 1912 يعرف التعقيد باستعمال شروط «عدم تجانس الأجزاء» وعني بذلك شكل محددًا من عدم القابلة للتجرئ وظيفيًا.

وفي جزء آخر، يعطينا وارد أدلة على الصعوبات التي يواجهها العقل الديني في فهم مصدر تعقيد الحياة ويقتبسُ من عالمٍ متدين آخر، البيوكيميائي آرثر بيكوك (العضو الثالث من ثلاثية العلماء الإنكليز المتديّنين)، الافتراض بأنَّ وجودِ حياةٍ يعود «للنزعة للتعقيد المتزايد» وارد يصنف ذلك على أنه «علاوة متأصّلة في التطوّر والتي تفضِّل التعقيد على البساطة. ويمضي ليقترح بأنَّ تحيّزًا كهذا «ربما كان من أصل عملية التغيير الطفري، لضمان نشوء المزيد من الطفرات». وارد شكوك في ذلك، كما يجب عليه أن يكون فعلاً.

التطوّر نحو التعقيد يأتي، في السلالة التي يحصل فيها، ليس لأي علاوة متأصّلة نحو التعقيد الزائد، وليس بسبب التحيّز الطفري. بل

إنها تأتي من الانتخاب الطبيعي: تلك العملية كما نعرفها حتى الآن، تُعدّ الوحيدة القادرة على تفسير نشوء التعقيد من البساطة.

نظرية الانتخاب الطبيعي بسيطة وصريحة. وكذلك هو الأصل التي بدأت منه. ومن ناحية أخرى فإنَّ التفسير الذي تقدّمه لنا عن التعقيد اللامتناهي: أكثر من أي شيء نطمح في تخيله وهو يغنينا عن ضرورة الإله المصمّم.

استراحة في كامبريدج:

في مؤتمرٍ حصل مؤخّرًا في كامبريدج عن العلم والدين. عندما عرضت الحجة التي سميتها هنا بالـــــ 747 الكبرى، واجهت على الأقل ما يمكن أن أصفَه بالفشل الودّي لتجميع الأفكار عن السؤال المتعلّق ببساطة الله. والتجربة كشفت لي أمورًا أحبُّ أن أقاسمَكم إيّاها.

في البدء أريد الاعتراف (ربما تلك الكلمة هي الصحيحة) بأنَّ ذلك المؤتمر كان ممـوّلاً من هيأة تمبلتون والمستمعين قلة منتقاة من الصحفيين العلميين في بريطانيا وأمريكا. وكنت أنا المتكلّم الملحد من المتكلمين الثمانية عشر.

أحد الصحفيين جون هورغان، صرّح بأنَّ كل منهم حصل على مبلغ محترم قدره 15000 $ للقدوم للمؤتمر، إضافة لكل المصاريف. كان ذلك مفاجئًا لي، وخبرتي الطويلة في المؤتمرات العلمية الأكاديمية لم يكن فيها مستمعون دفعت لهم نقودًا للحضور. لو عرفت ذلك في وقتها لثارت لدي الشبهة.

هل رَشَتْ مؤسسة تمبلتون الصحفيين العلميين وأفسدت أمانتهم العلمية؟ جون هورغان تساءل عن نفس الشيء وكتب مقالاً عن تجربته. لأسفي الشديد، فقد عرفنا بأنَّ إدراج اسمي ضمن المتكلّمين كان أحد الأسباب الذي ساعده والآخرين على قبول الدعوة:

«البيولوجي البريطاني ريتشارد دوكينز، والذي ساعد مشاركته في المؤتمر باقناعنا بشرعتيه، كان المتكلم الوحيد الذي رفض الاعتقاد الديني وعدّهُ متعارضًا مع العلم، لا عقلاني ومؤذٍ. المحاضرون الآخرون ثلاثة منهم لا أدريين واحدٌ يهودي، إلوهي و12 مسيحيون (فيلسوف مسلم ألغى اشتراكه في آخر لحظة) أعطوا وجهات نظر مترافقة مع الدين بوضوح وخصوصًا المسيحية»

مقال هورغان متناقض بحد ذاته. وبالرغم من تخوفه فإنَّ هناك سمات من تجربتِهِ قد قدرها بوضوح (وكذلك فعلت أنا كما سأوضّح لاحقًا). كتب هورغان:

نقاشاتي مع المؤمنين عمقت تقديري لمعرفة لماذا بعض الأذكياء، المثقفين يعتنقون الديانات. أحد الصحفيين ناقش ظاهرة التكلم بلغات أجنبية، وآخر تحدّث عن تجربةٍ لعلاقتهِ الحميمة مع المسيح. قناعاتي لم تتغير، ولكن قناعات الآخرين تغيّرت.

أحد الزملاء أعلن على الأقل بأنَّ إيمانه تزعزع بعد سماعِ تشريح دوكينز للدين. وعندما تتوصل مؤسسة مثل تمبلتون لمسعى يبدو كأنه خطوة صغيرة باتجاه ما أراه عالم بدون دين، فهل من الممكن أن يكون الوضع أسوأ مما هو عليه.

عـرضَ مقـال هورغان ثانية مـن قبل وكيل الآداب جـون بروكمان في موقعـه علـى الإنترنـت الموصـوف غالبًـا كصالـون العلوم وانتـزع ذلك ردود فعـل متباينة، واحدها مـن الفيزيائي النظري فريمان دايسـون. وقد أجبت على دايسون، مقتبسًا من خطاب تقبله لجائزة تمبلتون. وسواء أراد دايسـون ذلك أو لا، فإنَّ تقبّله للجائزة هو إشـارة جدية للعالم. وسيؤخذ كمصداقية أحد الفيزيائيين في العالم للدين.

«أنا سعيدٌ بأن أكون أحد المسيحيين العديدين الذين لا يهتمون للتلقين عن الثالوث الأقدس كحقيقةٍ تاريخية من الإنجيل»

أليس ذلك بالضبط ما سيقوله أي عالم ملحد، لو أراد أن يبدو مسيحيًا؟ وقد عرضت اقتباسات عديدة من خطاب تقبله للجائزة، وبعثرت خلاله بشكل هجائي أسئلة تخيلية هنا وهناك في رسالة أرسلتها لمسؤولي تمبلتون:

آه، تريد شيئًا أعمق قليلاً؟ ما رأيك بـــــــــ.......

«لا أضع فروقًا تُميّز الله من العقل. الله هو العقلُ عندما يجتاز مقاييس الفهم».

هل قُلتُ ما فيه الكفاية، وهل أسـتطيع العـودة لعملي كفيزيائي؟ لا ؟ ليس كافيًا؟ حسنًا،

ما رأيك بـــــــ..

«حتـى في التاريـخ المـزري للقـرن العشرين، فـإني أرى بعـض الأدلّة علـى التقدم في الدين. الشريران اللـذان لخصّا الشر في القرن الحالي، هتلر وستالين فإنهما ملحدان، أقرّا بذلك».

هل أستطيع الذهاب الآن؟

بإمكان دايسون أن يدحضَ الاستنتاجات من الاقتباسات من خطابِ قبولـهِ للجائزة، وذلك بشرحه وبوضوح الأدلة التي وجدها للإيمان بالله، وليس بالمعنى الإينشتايني الذي شرحته في الفصل الأول، والذي نستطيع كلنـا الانتـماء إليه. ولو فهمت مـا يعنيه هورغـان، فإنه يقصد بـأنَّ أموال تمبلتون تخرب العلم.

وأنـا واثـق بـأنَّ دايسـون أعلـى مـن أن يفسـد. ولكن خطـاب قبوله للجائزة للأسـف يبدو وكأنه مثال للآخرين. جائزة تمبلتون ضعف مقدار الحافز المدفوع للصحفيين في كامبريدج، وقصدوا أن تكون أكبر من جائزة نوبل. بجهد فاوسـتي، صديقي الفيلسـوف دانييـل دينيت مزح معي مرة «ريتشارد إذا ضاقت بكل الظروف»....

في كل الأحـوال، حـضرت يومـين مـن المؤتمر في كامبريـدج، أعطيت محاضرة وشـاركت في النقاشات لمحاضرات أخرى. تحديت رجال الدين لإعطائي جوابًا عن الإله الذي يمكنه أن يصمم الكون، أو أي شيء آخر، والـذي عليه أن يكـون أكثر «لااحتماليًـا» بكثير من تصميماتـه. والجواب الأقوى الذي سمعته هو أنني أدسُّ نظريّةً معرفيّةً بوحشيّةٍ في مجال لاهوتي لا يرغب فيها، وبما أنَّ رجال الدين يعرفون الله بالبساطة.

فمن أنا، العالم، لأفرض على رجال الدين بأنَّ الهمم معقد؟ أنَّ الحججَ العلمية التي اعتدت أن أطبّقها على المجال الذي أعمل به، ليست ملائمة هنا باعتداد أنَّ رجالَ الدين يصرّون على الدوام بأنَّ اللهَ خارجُ مجال العلم.

لم أكتسـبِ الانطبـاع بـأنَّ رجـالَ الدينِ الذيـن صعدوا ذلـك الدفاع المـراوغ كانـوا غشّاشـين. اعتقد أنهم كانـوا صادقين، وعلـى الرغم من

ذلك لم أستطع مقاومة تذكر تعليق بيتر ميداوار على كتاب الأب تيلهارد دو شاردان ظاهرة الإنسان التي ربما كانت أكبر نقد سلبي لكتاب في التاريخ:

«يعذر الكاتب لعدم أمانته فقط بسبب أنه، قبل أن يُضلّل الآخرين، قد بذل جهدًا عظيمًا في تضليل نفسه».

رجال الدين الذين جابهوني في كامبريدج كانوا يعرفون أنفسهم بوضعها ضمن نطاق مأمون لنظرية معرفية بحيث لا يصل إليهم أي خرق عقلاني لأنهم عرفوا إجراءات واعتبروا أنها لا تصل فحسب. ومن أنا لأقول بأنَّ الحجج العقلانية هي النوع الوحيد من الحجج؟ هناك طرائق أخرى للمعرفة إلى جانب الطرق العلمية، وإحدى تلك الطريق هي التي يجب استعمالها لمعرفة الله.

والطريقة الأهم من تلك الطرق الأخرى هي الطريقة الشخصية، تجربة شخصية عن الله. العديد من المناقشين في كامبريدج زعموا بأنَّ الله تكلم معهم، داخل رؤوسهم، بشكل واضح تمامًا كما لو كان شخصًا آخر. لقد شرحت مواضيع الوهم والهلوسة في الفصل الثالث (الحجج من التجارب الشخصية) ولكني أضفت نقطتان في كامبريدج:

الأولى: لو أنَّ الله فعلاً تكلم مع أشخاص، فإنَّ هذا بحد ذاته يؤكّد بأنَّ الموضوع لا يقع خارج نطاق العلم. الله يأتي زاعقًا من عالم يقع في مجال آخر حيث يسكن، يقتحم عالمنا حيث يكون بالمستطاع فهم رسالته من خلال الدماغ الأدمي وتلك ظاهرة ليس لها علاقة بالعلم؟

الثاني: الله القادر على إرسال الملايين من الإشارات المنفردة في نفس الوقت، واستقبال رسائل منهم في نفس الوقت أيضًا، لا يمكن أن يكون بأي معنى من المعاني بسيطًا. موجات هائلة! ربما أن ليس له دماغ من النيورونات، أو معالج من السيليكون ولكن القوى التي تعزى له تجعله ممتلكًا لأشياء مدبرة مبهرة وليست عشوائية أبدًا وأعظم كثيرًا من أفضل الكمبيوترات التي نعرفها.

مرة أخرى، اصدقائي رجال الدين يعودون للنقطة القائلة بأنَّ هناك سببًا لوجودِ شيء ما. يجب أن يكون هناك سبب لكل شيء. وهذا يمكننا أن نسمّيه الله. وجوابي كان حسنًا ولكن عليه أن يكون بسيطًا وبالتالي فإن الله ليس أسمًا مناسبًا (إلا إذا جرّدنا الكلمة من كل مواصفاتها المحمولة في عقول المؤمنين بالله). والسبب الأول الذي نبحث عنه يجب أن القاعدة البسيطة لرافعة ذاتية والتي أدّت لرفعِ العالم تدريجيًا لوضعِهِ المعقد الحالي. واقتراح المحرك الأوّلي، له الذكاء الكافي لحَبْكِ التصميم الذكي، بغض النظر عن قراءة عقول الملايين معًا وفي نفس الوقت، لهو مساوٍ لئن تحصل على مجموعة أوراق لعبٍ كاملة في لعبة البريدج.

انظرْ حولك في عالم الحياة، لغابات الأمازون وغنى تداخل غاباتها المتسلقة، الأورق العريضة، الجذور، الفراشات الطائرة، حيوانات التابير وجيوش النمل والنمور، ضفدع الأشجار والببغاءات.

ما تنظر إليه مساو ليدٍ كاملة في لعبة الورق (فكر بكل الطرق الأخرى لاستبدال أماكن الأعضاء، ليس من أي طريقة أخرى ناجحة، باستثناء أننا نعرف كيف حصل ذلك: باستعمال رافعة الانتخاب الطبيعي بالتدريج. ليس فقط العلماء من يثور على التقبل الأخرس اللااحتمالية للنشوء

التلقائي، بل الحس العام أيضًا. واقتراح أنَّ المسبب الأول، اللامعروف العظيم المسؤول عن وجودِ الأشياء، كان قادرًا على تصميم الكون والتكلم مع ملايين الأشخاص معًا، هو تنازلٌ تام عن امسؤولية البحث والشرح. تساهل ذاتي مخيف، خطّاف سماوي معرقل للأفكار.

لا أقترح هنا نوع من التضييق على التفكير العلمي ولكن على الأقل بعض الأمانة في السعي للحقيقة والتي يجب وضعها كقاعدة في شرحنا للأمور العظيمة اللااحتمالية كغابات الأمازون، وشق المرجان أو الكون، والقاعدة هي العمل كرافعة وليس كخطاف سماوي والرافعة ليست الانتخاب الطبيعي بالضرورة. مع الاعتراف، بأن لا أحد فكر بطريقة أفضل. ولكن من الممكن أن تكون هناك نظريات أخرى تنظر الاكتشاف.

وربما أن «التضخّم» الذي ينادي به الفيزيائيون والذي حصل في جزء من أول ياكوثانية في وجود الكون، ستصبح حين فهمهما بشكل أفضل، الرافعة التي ستقف جنبًا إلى جنب مع رافعة داروين البيولوجية. أو ربما الرافعة الغامضة التي يبحث عنها الفلكيون ستكون نوعًا منسوخًا من فكرة الداروينية نفسها: نموذج سمولين أو ما شابه أو ربما ستكون تعدد الأكوان مقترنًا بالمبدأ الأنثروبي كما في حالة ريس وآخرين.

ربما يكون هناك مصصم خارق ولكن في هذه الحالة لن يكون مصممًا أتى من العدم بالتأكيد. ولو (وإن كنت لا أصدّق ذلك حتى للحظة) كان كوننا مصمّمًا، ومن بابٍ أولى لمصمّم يقرأ أفكارنا ويعرف الغيب، يسامح ويصحّح، فإنَّ المصمم نفسه يجب أن يكون نتيجة لتراكم العديد من أعمال الروافع والمصاعد، ربما نسخة داروينية في كون آخر.

وخنـدق الدفاع الأخير لدى نقـادي في كامبريدج كان الهجوم ولعنت وجهـات نظري عن العالم باعتبارها من القرن التاسـع عشر. وتلك حجة سـيئة جدًا حتي أنني كـدت ألا أذكرها هنا. ولكن للأسـف فإنني أواجه إجاباتٍ كهذه في أغلب الأحيان.

لا نحتـاج للقـول بـأنَّ نقد فكـرة بوصفها مـن القرن التاسـع عشر ليـس شرحًا لمـا هو الخطأ فيها. بعـض أفكار القرن التاسـع عشر كانت جيـدة جـدًا، ناهيك عن فكـرة داروين الخطـرة. وعلى كل حـال، فإنَّ الدعـوة الأسـمية بدت وكأنها قادمة لسـبب مادي، كـما حصل من قبل أحـد الأفـراد (جيولوجـي مميز مـن كامبريدج، سـلك طريق فاوسـت بشـكل يضمن له جائزة تمبلتون) والذي برر إيمانه المسـيحي باستخدام ما سـماه تاريخية العهد القديم. ما حصل في القرن التاسـع عشر بالضبط وخصوصًا في ألمانيا، عندما دعى علماء الدين للشك في التاريخ المزعوم، باسـتعمال طرق البحـث التاريخي. وقد نـوّه رجالُ الديـن لذلك بدون شك في مؤتمر كامبريدج.

علـى كل حال، أعـرف التعنيف القديم من القرن التاسـع عشر حول الاسـتهزاء «بملحـد القرية». على عكس ما تتوقـع. ها ها ها لم نعد نؤمن بالرجـل المسـن ذو اللحية البيضـاء ها ها هـا. النكات الثلاثـة عبارة عن شـيفرات لأمور أخرى، تمامًا كما، عندمـا كنت أعيش في أمريكا في أواخر السـتينات حيـث كان «القانـون والنظـام» شـيفرة السياسـيين التي تعني الأجحاف المضاد للسود.

ماذا تعني شيفرة «أنت تنتمي للقرن التاسع عشر بشكل عميق» عندما تأتي في سياق حديث عن الدين؟ أنها تعني بأنك خالي من اللباقة والكياسة

ومن المستحيل عدم ملاحظة ذلك، كيف يمكن لك أن تسألني بدون أي مشاعر وبعدم اللباقة وبشكل مباشر سؤالاً مثل: «هل تؤمن بالمعجزات؟» هل تؤمن بأنَّ المسيحٌ وُلِدَ من عذراء؟» ألا تعلم بأننا في المجتمع المؤدّب لا نقبل بأسئلة كهذه؟ أسئلة كهذه ظهرت في القرن التاسع عشر. ولكن فكّرْ لماذا من غير اللبق أن تطرحَ سؤالاً بشكل مباشر عن واقعة ما على رجل دين؛ لأن ذلك محرج! ولكن في الواقع فإنَّ الإحراج يأتي من الإجابة، عندما تكون بـــ نعم.

صلة «القرن التاسع عشر»، أصبحت واضحة. القرن التاسع عشر هو آخر وقت كان مسموحًا فيه لشخص متعلم أن يعترف بإيمانه بالمعجزات، مثل حمل العذراء بدون إحراج. وعندما يحرجون، فإن الكثيرين من المثقفين المسيحين مخلصين بدرجة أنهم لا يستطيعون نفي حمل العذراء أو القيامة. ولكن ذلك يحرجهم، لأنَّ عقولهم المفكّرة تعرف بأنَّ ذلك لا منطقي، ولذلك فإنهم يفضلون بألّا يسألوا. وبهذا فعندما يصرّ شخصٌ مثلي على السؤال، فسأصبح مهتمًا بأنني من جماعة «القرن التاسع عشر». ذلك مضحكٌ حقًا، عندما تفكّر به.

تركت المؤتمر متحفزًّا ونشيطًا، وقد قويت قناعتي بأن الحجة اللااحتمالية، مناورة الـــ 747 الكبرى، هي حجةٌ قوية جدًا ضد وجود الله، وأنتظر سماع رد مقتنع من رجال الدين بالرغم من الدعوات والفرص العديدة التي كانت لتسمح لهم بفعل ذلك. دان دينيت وصف ذلك محقًا بـــ تفنيد غير ممكن، ومدمر في أيامنا هذه كما كان الوضع عندما كان فيلو يضرب كلينش في حوار هيوم قبل قرنين من الزمن. خطاف سماوي نجح في أن يؤجّلَ حل المسألة، وهيوم لم يستطعِ التفكير

بأي رافعة، ولذلك استسلم. بالطبع داروين هو الذي عرّفنا على الرافعة، هيوم كان سيحبها جدًا.

هذا الفصل احتوى على الحجج المركزية في الكتاب، وبهذا وبالمخاطرة لا أكون تكراريًا، سألخصهم في ست نقاط:

1 - أعظم التحديات للذكاء الإنساني وعبر القرون كان شرح التعقيد الكبير والعظيم اللااحتمالية الذي يظهر في الكون.

2 - الاتجاه الطبيعي المغري هو نعزي ما يبدو مصممًا لأن يكون مصممًا بالفعل. وفي حالة المصنوعات الدقيقة الإنسانية كالساعة مثلاً، فإنّ المصمّم كان بدون شك مهندسًا ذكيًا ومن الغري تطبيق نفس المنطق على العين والجناح، العنكبوت والإنسان.

3 - الأغراء مزور، لأنّ فرضية المصمم ستطرح فورًا السؤال الأكبر عن مصمم المصمم. كل المسألة بدأت من محاولة شرح لااحتمالية إحصائية. وهذا بوضوح ليس حلًّا لأنه يطرح سؤالاً أكثر لا احتمالية. ونحن بحاجة للرافعة وليس للخطاف السماوي، لأن الرافعة تستطيع العمل بتدرج معقول التصديق من بداية بسيطة لنهاية معقدة عظيمة اللااحتمالية لو أخذنا أي تفسير آخر.

4 - الرافعة الأبدع والأقوى حتى الآن هي الداروينية للتطور بالانتخاب الطبيعي. داروين ومن خلفه استعرضوا كيف أنّ الأحياء، مع لااحتماليتهم الكبيرة والإنطباع الذي يعطونه عن التصميم، تطوروا ببطء وبشكلٍ تدريجيٍّ من بدايات بسيطة وبإمكاننا القول بأنّ الوهم عن موضوع التصميم في الكائنات الحية هو مجرد وهم.

5 - ليس لدينا رافعة مماثلة للفيزياء. وشيء ما كنظريةِ الأكوان المتعددة يمكنهـا من حيـث المبدأ أن تعمـل ما عملتـه الداروينيـة للبيولوجيا. شرح من هذا النوع بشـكل سـطحي أقل إرضاء مـن قرينه الدارويني البيولوجـي؛ لأنـه يتطلّب كمية أكبر من الحظ. ولكـن المبدأ الأنثروبي يؤهلنا لحظ أكبر بكثير مما يمكن لحدسنا الإنساني أن يتقبله بإرتياح.

6 - لا يجـب أن نفقـدَ الأمـل في إيجـاد رافعـة للفيزيـاء، شيء مـا بقوة الداروينيـة للبيولوجيـا. ولكـن حتـى في غيـاب الرافعـة فـإنَّ وجود الروافع الضعيفة الحالية، بدعمها من النظرية الأنثروبية، فإنها بوضوح أفضل بكثير من خطاف سـماوي، آتٍ من مصمّم ذكي، يكذّب نفسـه بنفسه.

ولـو قبلت المحاججات في هـذا الفصل، فإنَّ المسـلمة الواقعية للدين فرضية الإله ضعيفة. وإلهك ليس موجودًا بشـكل شبه حتمي. وهذه هي النتيجة النهائية لهذا الكتاب حتى الآن. ما سيأتي سيكون بضع من الأسئلة والإجابـات. حتى لو قبلنا بعدم وجـود الله، أفليس للدين فوائد أخرى؟ أليـس مواسـيًا في المصاعـب؟ أليـس دافعًـا للنـاس لفعل الخـير؟ وكيف سنعرف ما هو الخير بدون الدين؟ لماذا المعاداة للدين على أية حال؟ لماذا، كون الدين خطأ، موجود في كل الحضارات؟ صح أو خطأ، الدين موجود في كل مكان، من أين أتى؟ وهذا السؤال الأخير هو موضوعنا الآتي.

الفصل الخامس

منشأ الدين

«بالنسبة لطبيبٍ نفسي مؤمن بالتطور، فإنَّ المبالغة العالمية في الطقوس الدينية وتضييعها للوقت، المصادر، الألم والتجريد، تبدو وكأنها تقترح بأنه من الممكن أن يكونَ الدين تكيّفًا كما هو الحال في حيوية مؤخرة القرود».

- مارك كوهن

الأولوية الداروينية:

كلٌّ منا عنده نظريته الخاصة عن مصدر الدين وسبب وجوه في كل حضارة إنسانية. إنه يوفر العزاء والراحة ويغذي روح الجماعة. ويرضى حنيننا لمعرفة سبب وجودنا. سأتي لشرح ذلك بعد برهة، ولكنني أريد أن أبدأ بسؤالٍ سابق، سؤالٍ يسبق الأسئلة الأخرى لسبب سنراه لاحقًا: سؤال دارويني عن الانتخاب الطبيعي. بمعرفتنا بأننا نتاجُ انتخابٍ طبيعي دارويني، يجب أن نسأَلَ عن الضغوطات التي مارسها الانتخاب الطبيعي والتي فضلت الاندفاع نحو الدين. سؤال تبرز أهميته الفائقة بمجرد اعتبارنا لمبادئ الداروينية الأساسية في الاقتصاد.

الدين تبذير، بل تبذير هائل والإنتخاب الدارويني بطبيعته يستهدف ويلغي التبذير. الطبيعة محاسب بخيل، تتذمّر بسبب قروش، تراقب الساعة وتعاقب أقل تبذير. بدون عطلة وبدون توقف، كما شرح داروين «الانتخاب الطبيعي هو فحص دقيق يجري كل يوم وكل ساعة، عبر العالم وكل تغيراته حتى أصغرها. يرفض ما هو سيّئ، ويحفظ ويزيد ما هو جيد، يعمل بصمت وبدون اكتراث، وكلما سنحت الفرص، على تحسين كل عضو حي».

لو مارس حيوان نشاطًا ما بدون فائدة كعادة من عاداتِهِ، فإنَّ الانتخاب الطبيعي سيفضّل الأفراد الذين يخصّصون وقتهم وطاقتهم، لأجل البقاء والتكاثر. الطبيعة لن تتحمل أفراح روحانية طائشة. أو تفضل النفعية العديمة الرحمة التي لعبت الورقة الرابحة، حتى لو بدا لنا ذلك مختلفًا في بعض الأحيان.

بصدد ذلك فإنَّ ذيل الطاووس هو فرحة روحانية ممتازة. وبالتأكيد فإنها ليست ذات منفعة بقائية لصاحبها. ولكنها تفيد الجينات التي تجعله

مميزًا عن منافسيه الأقل استعراضًا. الذيل دعاية، تضمن مكانها في اقتصاد الطبيعة بجذب الإناث. والشيء ذاته ينطبق على العمل والوقت الذي يصرفه ذكرُ طائر البوير في بناء كوخه: نوع من الذيل الخارجي مبني من الأعشاب، الأغصان، أنواع التوت الملونة، زهور، وعندما يكون متوفرًا فإنها تضيف الخرز والبلى وأغطية الزجاجات.

أو لنختار مثالاً لا يتطلب الدعاية، التنمثل (عادة قديمة عند الطيور، كطائر الزاغة)، بالاستحمام في عش النمل، وبمعنى آخر إدخال النمل في ريشهم. لا أحد يعرف بالضبط الغاية من التنمل، ربما للنظافة، والتخلص من أنواع الطفيليات في الريش، هناك العديد من الفرضيات ولكن بدون أدلة قوية تدعم أيًا منها. ولكن الحيرة فيما يتعلق بالتفاصيل لن توقف داروينيًا وليس من المفروض أن تفعل، عن الافتراض بكل ثقة، بأنَّ التنمل يجب أن يكون «لسبب ما». في هذه الحالة ربما يوافق الحس العام، ولكن الداروينية لها سبب خاص للتفكير بهذا الشكل، لو أنَّ الطير لم يفعل ذلك فإنَّ الاحتمالات الإحصائية لفرص نجاحها الجيني ستنخفض وإن كُنّا لا نعرف بعد سبب هذا الانخفاض وطريقته.

النتيجة تأتي من البناء المزدوج للانتخاب الطبيعي الذي يعاقب التبذير في الوقت والطاقة وملاحظة أنَّ الطيور تعطي دائمًا جزء من وقتها وطاقتها للتنميل. ولو أن هناك عبارة واحدة تبين بشكل عام مبدأ التكيّفيّين فإنه قد عبر عنها بشكل متطرف ومبالغ به من قبل عالم الجينات في هارفارد ريتشارد ليونتين: «النقطة التي يوافق عليها كل التطوريون في رأيي، هي أنه من المستحيل أن نؤدي عملاً أفضل من الذي يفعله عضو ما في بيئته الخاصة» ولو أن التنميل ليس مفيدًا بشكل إيجابي للبقاء والتكاثر، فإنَّ

الانتخاب الطبيعي كان يفضل الأفراد الذين توقفوا عن فعل ذلك من زمن طويل. ربما يغري ذلك داروينيًا لأنَّ يقول الشيء ذاته فيما يتعلق بالدين، ولذلك نحتاج لمناقشة الفكرة.

بالنسبة لأي تطوري، تبدو الطقوس الدينية كذيل طاووس في ساحة مشمسة (التعبير مأخوذ من دانييل دينيت). السلوك الديني بشكل عام هو المكافئ الإنساني للتنميل أو بناء الكوخ للطيور. تحتاج لوقت وطاقة وغالبًا بزخرفة تبذيرية كما في حالة ريش طيور الجنة.

بإمكان الدين أن يشكل خطرًا على حياة إنسان تقي، كما على حياة الآخرين. الآلاف عُذّبوا بسبب ولائهم لدين ما، اضطهدوا من قبل متطرفين ممن ينتمون لاعتقادٍ مغاير. الدين يلتهم المصادر الإنسانية، وغالبًا على صعيد جماعي.

كاتدارئية من العصور الوسطى ربما استهلكت مئة رجل خلال قرن من الزمن لبنائها، ولم تستخدم كمسكن أبدًا، أو لأي سبب آخر مفيد آخر يمكننا معرفته. هل هذه عمارة من قبيل ذيل الطاووس؟ لو أنَّ الإجابة بنعم، فمن هو المقصود بالدعاية هنا؟ موسيقا مقدسة ورسوم للتعبّد احتكرت مواهب العصور الوسطى وعصر النهضة. المتعبدون قُتلوا في سبيل الهمم وقَتلوا آخرين من أجله، أدموا ظهورهم بالسياط، أقسموا أن يهبوا حياتهم كعزّاب أو متوحّدين صامتين، كل ذلك لخدمة الدين، لمَ كل ذلك؟ ما فائدة الدين؟

«الفائدة» هنا، تعني داروينيًا، بعض التحسين على جينات البقاء للفرد. ما هو مفقود في هذه النقطة الهامة هو أنَّ الفائدة الداروينية ليست محصورة

بجينات الأفراد. بل إنَّ هناك ثلاث أهداف أخرى لها. الأول يأتي من نظرية اختيار المجموعة وسأتي لذلك لاحقًا. الثاني يأتي من نظرية كنت قد حاميت عنها في النمط الظاهري الممتد: الفرد الذي تراقبه ربما يكون خاضعًا في تصرفاته لاحتكار متنفِّذٍ من جينات كائن آخر، ربما كان طفيليًا.

دان دينيت يذكرنا بأن الرشح هو ظاهرة عالمية كما هو التدين تمامًا، ولا نستطيع الادّعاء أبدًا بأنَّ الرشح مفيد لنا. هناك العديد من الأمثلة عن حيوانات تتصرف بتلك الطريقة ليستفيد كائن آخر طفيلي بداخلها وينتقل لمضيف جديد. لقد شرحت هذه الظاهرة في نظريتي عن «مركزية النمط الظاهري الممتد» تصرف الحيوان يهدف لتكبير فرص البقاء لجينات فيه لأجل هذا التصرف، سواء كانت تلك الجينات تعود لجسد الحيوان الذي ينفذ التصرف أم لا».

والهدف الثالث «النظرية المركزية» ربما تستبدل «الجينات» بتعبير أكثر عمومية ألا وهو «المضاعفات». واقع وجود الدين في كل مكان ربما يعني بأنه عمل على إفادة شيء ما. وربما لسنا نحن المستفيدين أو حتى جيناتنا. ربما كانت الفائدة لأفكار الدين ذاتها، للحد الذي تصرّفت فيه تلك الأفكار بشكل شبيه للجينات، كمضاعفات. وسأتي لذلك لاحقًا تحت عنوان «ادعسْ بهدوء، لأنك تدعس على ميماتي».

وبهذه الأثناء، سأركز أكثر على الداروينية التقليدية، والتي نفترض بها بأنَّ «الفائدة» تعني لبقاء الفرد وتكاثره.

الصيادون القاطفون كما الحال في القبائل الأُسترالية الأصلية، يعيشون بطريقةٍ أقرب ما تكون لطريقة أسلافنا الأقدمين.

الفيلسوف الأوسترالي/ النيوزيلاندي كيم ستيرينلي، يشير لتناقضٍ درامي في حياتنا. السكان الأصليون لديهم مهارات فائقة للبقاء تحت الشروط التي تتحدى مهاراتهم للحد الأقصى. ولكن يكمل ستيرينلي، مخلوقات ذكية كما هو الحال لدينا ولكن بشكل منحرف.

نفس الأشخاص الشاطرين في العالم الطبيعي وكيفية البقاء فيه يملكون عقولاً بأفكار فوضوية خاطئة تمامًا وكلمة «عديمة الفائدة» تعتبر وصفًا كريمًا تجاهها. السكان الأصليون لـــ «بابوا» في غينيا الجديدة، مألوفون بالنسبة لستيرينلي. تعايشوا وبقوا تحت ظروف قاهرة حيث الطعام صعب المنال وذلك بواسطة «تفهم اسطوري للبيئة البيولوجية المحيطة بهم. ولكنهم دمجوا ذلك التفهم باستحواذ عميق ومدمر عن الحيض عند النساء وعلاقته بالسحر.

الكثير من الحضارات المحلية معذبة بالخوف من السحر والعنف الذي يصاحب ذلك الخوف. ستيرينلي يتحدانا لتفسير كيف يمكن أن نكون أذكياء وأغبياء بنفس الوقت.

مع أنَّ التفاصيل تختلف عبر العالم ولكن ليس هناك حضارة معروفة لم يكن فيها نسخة من طقوس مستهلكة للوقت والصحة، ومثيرة للعداوة، التخيّلات المخالفة للواقع ومضادة للإنتاج. ربما بعض المثقفين أهملوا الدين، ولكن الجميع تربّى في حضارة دينية وكان عليهم في وقتٍ ما أن يتّخذوا قرارًا لتركهِ. والنكتة الإيرلندية «هل أنت ملحد كاثوليكي أم ملحد بروتستانتي؟ تصرخ بمرارةِ الحقيقة.

التصرّف الديني يمكن أن يطلق عليه لقب «عالمي» بنفسِ الشكل الذي نستطيع أن نمثّل له بالتصرّف الجنسي المتغاير. كلاهما تعميمٌ يسمح باستثناءات، وهؤلاء الاستثناءات يفمون جيدًا القواعد التي تركوها. والخاصية العالمية تتطلّب تفسيرًا داروينيا.

من الواضح أنه ليس هناك أي صعوبات في إيجاد التفسير الدارويني للتصرّف الجنسي. الإنجاب، وحتى في حالة المثلية أو استعمال مانعات الحمل التي تبدو أنها تكذّب ذلك. ولكن ما هو تفسير التصرّف الديني؟ لماذا يصوم الإنسان، يسجد، يركع، يضرب نفسه بالسوط، يومئ برأسِهِ بشكل جنوني أمام حائط، حملات صليبية، أو في حالات أخرى ينغمس في تصرّفات مكلفة قد تستهلك حياته، وفي حالات متطرّفة، تنهيها؟

الفوائد المباشرة للدين:

هناك القليل من الأدلّة بأنّ الإيمان الديني يؤمن بعض الحماية من الضغط النفسي والأمراض الناتجة عنه. الأدلة ليست قوية، وصدقها ليس مفاجأة لي، وذلك لنفس السبب الذي يؤدي لفعالية الطب الإيماني في بعض الحالات. آمل أنه ليس من الضروري إضافة بأنَّ حدوث فوائد كهذه لا يجب أن يدعمَ القيمة الحقيقة للزعم الديني. وبكلمات برناردشو «الواقع بأن المتدين أسعد من الشكوك لا يتعدي كونه أكثر من أنَّ السكران أسعد من الصاحي».

إنَّ جزءًا مما يقدمه الطبيب للمريض هو الغراء والاطمئنان. لا يمكن أن نهملَ ذلك أبدًا. طبيبي أنا لا يمارس الطب الإيماني بشكلٍ حرفي بوضع يده عليّ. ولكنني في كثيرٍ من الأحيان أشعر وكأني تعافيت مباشرة من

بعض الأمور البسيطة بمجرد الشعور بالاطمئنان لصوتٍ يخرج من وجه ذكي عليه سماعة طبية.

ذلك العلاج المموّه وتأثير مدون ومدروس بشكل جيد وليس حتى بسر. الحبوب الخلبية، بدون أي محتويات صيدلانية فعالة، تحسن الصحة في بعض الأحيان ولذلك فإنَّ تجارب الأدوية يجب أن تجري بشكل مضاعف العماء وتستعمل أدوية خلبية للمقارنة. وذلك بسبب أنَّ المعالجة بالهوميوباتيك تبدو وكأنها فعالة، على الرغم من أن العناصر ممدة بشكل كبير بحيث أن المواد الفعّالة توجد بكميات مساوية للأدوية الخلبية. وسبب ذلك، للأسف عارضًا جانبيًا انتهاك المحامين لاختصاص الأطباء بأنَّ الطبيب أصبح خائفًا من أن يكتبَ أدوية خلبية بشكل أو بآخر.

أو أن البيروقراطية تفرض عليهم أن يدوّنوا الدواء الخلبي في عبارة يستيعى المريض قراءتها إذا أراد، مما يفنّد الغرض منها. الهوميوباتيين يحصلون على بعض النجاح؛ لأنهم على عكس الأطباء التقليديين، يستطيعون وصف الأدوية الخلبية تحت أسماء أخرى.

و لديهم قدر أكبر من الوقت يخصصونه للكلام مع المريض وملاطفته. وفي أيام الهوميوباتي الأولى، تحسنت صورتها بشكل غير مقصود لأن معالجتها لم تؤدي لأي فعل على الإطلاق، على عكس الطب التقليدي الذي يتطلب أحيانًا تسييح الدم المؤذي.

هل الدين هو العلاج المموّه لإطالة الحياة بواسطة تخفيف التوتر النفسي؟ ربما كان كذلك، رغم أنَّ العديد من الدراسات للمشككين قد وجدت أنَّ الدين هو سببُ التوتر النفسي في العديد من الظروف، عوضًا

أن يكـون المخفـف لها. مـن الصعب التصديـق بأنَّ الصحة تتحسـن عند الشعور السقيم بالذنب بشكل نصف متواصل والذي يعانيه من ينتمي لطائفة الـروم الكاثوليـك ويمتلك الضعف الإنسـاني وبمسـتوى تحت الوسط من الذكاء.

ربما أنه ليس من الحق أن نختارَ الكاثوليكية فقط. الكوميدية الأمريكية كاثي لاندمان لاحظت أن «كل الأديان متماثلة: هي بالمبدأ شعورٌ بالذنب، مع أيام عطلٍ مختلفة».

وعلى كل حـال، أجـدُ أنَّ نظرية العلاج المموّه ليست كافيةً لتفسير الانتشـار الواسـع للديانات عبر العالم. ولا أظن أننا متدينون؛ لأنَّ الدين قد خفف التوتر في أسـلافنا. تلك النظرية ليسـت صالحة للتفسير، على الرغم أن ذلك ربما قد لعب دورًا مسـاهمًا. الدين ظاهرة واسـعة ويلزمها نظرية واسعة لتفسيرها.

النظريات الأخرى تهمل وجهة النظر الداروينية بشكل كامل. وأتكلم هنا عن اقتراحات مثل «الدين يرضي فضولنا عن الكون ومكاننا فيه»، أو «الدين مواسـاة». ربما هناك بعض الحقائق النفسـية، كما سنرى في الفصل العاشر، ولكنها لا تحتوي في مضمونها شرحًا داروينيًا.

كما قال سـتيفن بينكر عن نظرية المواسـاة، في كتابه كيف يعمل العقل: «إنها فقط تطرح السؤال كيف يتطور العقل ليجد راحة في تفسير يرى خطأه بوضـوح. الشـخص المتجمّد من البرد لا يجد راحـة في التفكير بأنه دافئ، شـخص يواجه أسـدًا وجهًا لوجه لن يسـهل أمره بالاقتنـاع بأنه أرنب». وعلى الأقل تحتاج نظرية المواساة لترجمة بالمصطلحات الداروينية، وذلك

أصعب مما تظن. التفسيرات النفسية للمؤثرات التي يجد بها بعض الناس إيمانًا ما موافقًا أو موافقًا لهم هي تفسيرات مباشرة وليست نهائية.

الداروينية تضع تمييزًا بين المباشرة والنهائية. التفسيرات المباشرة للإنفجار ضمن اسطوانة المحرك تختص بالشرارة. التفسيرات النهائية تهتم بالغرض الذي صمم الأنفجار لأجله: لدفع المكبس من الأسطوانة، وبالتالي تدوير ساعد العمود. السبب المباشر للدين ربما كان نتيجةَ نشاطٍ في قسم ما من الدماغ. ولن أتطرّقَ لفكرة «مركز الله» في المخ لأنني لست معنيًا بالسبب المباشر للسؤال. وليس للتصغير من شأنه. أوصي بشدة بكتاب مايكل شيرمر كيف نؤمن: البحث عن الله في عصر العلم كمختصر مفيد، والذي يحتوي على مقترحات من مايكل بيرسنغر وآخرين بأنَّ ظواهر الرؤى الدينية تتعلق بما يسمى صرع الأذن الدنيا.

ولكن شغلي الشاغل في هذا الفصل هو التفسير النهائي الدارويني. ولو وجد علماء الأعصاب «مركز الله» في المخ، فإن علماء الدرونية وأنا كمثال يريدون أن يفهموا سبب تفضيل الإنتخاب الطبيعي لذلك. لماذا نجح أسلافنا الذين كانت لديهم جينات تسعى لتطوير مركز الإله في المخ في البقاء وامتلاك أحفاد أكثر من الذين لم يكن لديهم هذا المركز؟ السؤال الدارويني النهائي ليس سؤالاً أفضل، وليس أساسيًا أكثر، وليس علميًا أكثر من السؤال المباشر المختص بالأعصاب. لكنه فقط السؤال الذي أتكلم عنه الآن.

لا تكتفي الداروينية بالتفسير السياسي، مثل «الدين وسيلة استخدمها الطبقة الحاكمة لإخضاع الطبقة الدنيا». من المؤكد أن العبيدَ السود في أمريكا قد تواسوا بالحياة الأخرة، والتي قللت من عدم رضاهم بهذه

الحيـاة وبالتالي أفادت مالكيهم. والسـؤال عما إذا كان الدين قد صُمّمَ من قبـل رجال دين أو حكّام متهكّمين، لهو سـؤالٌ مثير وعليه يجب أن يجيبَ علماء التاريخ.

الداروني يريد أن يعرفَ ما سبب ضعف الإنسان أمام الجاذبية وعليه فهو معرض للاستغلال من قبل الحكام ورجال الدين والملوك.

ربما يستخدم مستغلٌّ ما، الرغبة الجنسية لأجل النفوذ السياسي، ولكننا نظلُّ بحاجةٍ للتفسير الدارويني عن كيفية عملها. في حالة الرغبة الجنسية، الجواب سهل: نحّنا مجهّز ليستمتعَ بالجنس؛ لأن الجنس في الحالة الطبيعية، يصنع الأطفال.

أو ربما يستخدم السـياسي المسـتغلُّ التعذيـبَ لتحقيـق أهدافه، ومرة أخـرى، التفسـير الداروينـي يزودنـا بالشرح عـن فعالية التعذيـب، لماذا نحـن مسـتعدون لفعـل أي شيء لتفـادي الألم المبرح. ومرة أخـرى يبدو ذلك واضحًـا لدرجة الإبتذال، ولكن الداروينيـة تحتاج لتهجئة الإجابة، الانتخـاب الطبيعـي لأجـل فهم الألم كرسـالة تهديـد للحياة عـن طريق تدمير الجسـم، وبرمجتنا لتفادي ذلك. والحالات النادرة من الأفراد الذين لا يأبهـون بالألم أو لا يشـعرون به، عادة يموتون في سـن مبكـر من نتيجة إصابات من النوع الذي نحاول نحن تفاديه. وسواء كان الأمر يستغل أو يظهر نفسه بشكل آني، ما الذي يستطيع شرح الرغبة في الآلهة؟

الانتخاب الجماعي:

ظهر تفسير زعم بأنه نهائي أو أجهر بذلك ما يسمى نظريات الانتخاب الجماعـي. الانتخاب الجماعي هي فكرة جدالية بـأنَّ الانتخاب الدارويني

يختـار بين الأنواع أو مجموعات من الأفراد. وعالم الآثار كولن رينفرو من كامبريدج يقترح بأنَّ المسيحية بقيت من خلال الانتخاب لمجموعة لأنها غدت فكرة الولاء للمجموعة والمحبة الأخوية للمجموعة وذلك ساعد المجموعـات المتدينـة على البقاء على حساب المجموعـات الأقل تدينًا. وداعيـة الانتخاب الجماعي الأمريكي دي أس ويلسـون طور فكرة مماثلة بشكل مستقل وبشرح مستسهب أكثر في كتابه كاتدرائية داروين.

وإليكـم مثـالاً ابتدعته لـشرح ماهية عمل نظريـة الانتخاب الجماعي. قبيلـة تؤمـن بإلهٍ مثـير محارب «إله الحـروب» تربح ضد قبيلـة إلهها يحض على السـلام والتناغم، أو قبيلة ليس لديها إلـه على الإطلاق. المحاربون المؤمنـون بأنَّ الشـهادة سترسـلهم للجنة يحاربـون بشـجاعة، ويضحون بحياتهـم. وبذلـك فـإن قبيلة بنـوع تدين كهـذا ترجح للبقـاء في حروب القبائل، يسرقون أسباب حياة القبيلة المغلوبة ويأسرون نسائها كجواري.

قبلية ناجحة بهذا الشـكل المنتج سـوف تلد قبائـل مماثلة وهي بدورها تلـد قبائـل وليدات لهـا، والجميـع يعبدون نفـس إله الحـرب. ولى فكرة فـإنَّ مجموعـة أم تلد مجموعـة بنت، مثل فكـرة خلية نحل ترمي بحشـود خارجها، ليسـت فكرة غـير قابلة للتصديق. الأنثروبولوجيسـت نابليون شـانيون وضـع مخططات لأنشـطارات قرى في دراسـته الشـهيرة «أناس غاضبون» لقبائل اليانومامو في أدغال أمريكا الجنوبية.

شـانيون ليس مـن مؤيّدي نظرية الانتخاب الجماعـي وكذلك أنا. هناك اعتراضات هائلة تواجهها. وكمحارب مخالف، يجب أن أحذر من الركوب على جوادي المحبوب، بعيدًا عن مسلك هذا الكتاب. بعض البيولوجيون يوشـون بحـيرة بين الانتخاب الجماعـي الحقيقي كما هو الحـال في مثالي عن

إله الحرب وشيء آخر يدعونه الإنتخاب الجماعي والذي ظهر بعد التحري على شكل انتخاب الأقارب أو الإيثار المتبادل (انظر الفصل السادس).

الذين يستصغرون الانتخاب الجماعي مِنّا يعترفون بأنه ممكن الحصول. والسؤال هو عمّا إذا كان من الممكن لذلك أن يرقى ليكون له تأثير هام على التطور. وعندما يتم التحريض ضد الانتخاب في مستويات دنيا، كما هو الحال عندما يتقدم الانتخاب الجماعي كتفسير للتضحية بالنفس على المستوى الفردي، فإنَّ الانتخاب في المستويات الدنيا يميل للقوة.

وفي قبيلتنا المفترضة، تخيل مقاتلاً أنانيًا في جيش يغلب فيه وجود الفدائيين المتحمّسين للموت من أجل القبيلة والمكافأة السماوية، ففرصته ستكون أفضل قليلاً لئن ينتهي في طرف الفائزين، نتيجة لكونـهِ تعمّدَ التأخّر في المعركة للنجاة بجلده.

واستشهاد رفاقه سيفيده أكثر من فائدتـهِ لأيٍّ منهم في المتوسّط، لأنهم سيموتون. وستكون لديه الفرصة أفضل منهم للإنجاب، وجيناته الرافضة للاستشهاد ستنتشر للجيل اللاحق. وبذلك تقل الميول الاستشهادية في الأجيال اللاحقة.

ذلك كان نموذجًا مبسطًا، ولكنه يُلقي الضوء على مشكلة مستمرة في موضوع الانتخاب الجماعي. الانتخاب الجماعي كنظرية هي عرضة دائمًا لفتنة داخلية. وموت الأفراد والإنجاب يحصل بزمنٍ أسرع من أنقراض الجماعة. وبالإمكان وضع نموذج رياضي للحصول على الشروط الخاصة والتي تحت تأثيرها يمكن أن يكون الانتخاب الجماعي تطوّريًا بشكل قوي.

هـذه الشروط الخاصة بشـكل عـام غير واقعيـة بطبيعتهـا، ولكن من الممكن المحاججة بأنَّ الدين في الجماعات الإنسانية يتبنى ظروفًا ويطورها والتـي في حـالات عادية غـير واقعيـة. تلـك نظريـة مثيرة، ولكنني لن أتابعهـا فيما عدا الإعتراف بأن داروين نفسـه، برغـم أنه عادة محام مخلص للانتخـاب على مسـتوى العضـو الفردي، قـد اقترب لئن يكـونَ منتخبًا جماعيًا في مناقشته عن القبائل الإنسانية:

«عندمـا يحصل منافسـة بـين قبيلتين بدائيتين تعيشـان في نفـس البلد، ولـو احتوت إحداهما علـى عدد (في حالات أخرى يكون مسـاويًا) أكبر مـن الأعضاء الشـجعان والمخلصـين، والذين هم على اسـتعداد لتحذير بعضهـم للخطر، ومسـاعدة بعضهم والدفاع المشـترك، فـإنَّ تلك القبيلة سـتحتل وتربح القبيلة الأخرى بدون شـك.. الأنانيـة والتعقيد لا يمكن أن يتماسـكا، وبدون تماسكٍ لا شيء يتأثر. القبيلة التي تملك المواصفات المذكورة بدرجة كبيرة ستنتشر وتنتصر على القبائل الأخرى، ولكن طبعًا مع الوقت، وبالحكم من كل التجارب في الماضي، فهي أيضًا سيأتي دورها لتقع ضحية قبيلة أخرى تمتلك المواصفات بدرجة أعلى».

ولإرضـاء أي اختصـاصي في البيولوجيا ربما يقرأ هـذا، على أن أقول أن فكـرة داروين ليس عـن الانتخاب الجماعي بشـكل صارم، بالشـكل الحقيقـي وبمعنـى أن الجماعـة الناجحة تخلـف جماعات بنات لهـا وبتردد يمكـن أن نعـده كوصـف سـكاني للمجموعة. بل على شـكل آخـر فإنَّ داروين يرى أعضاء القبيلة الذين يتعاونون هم الذين يكتب لهم الانتشار كأفراد. نموذج داروين يشـبه أكثر انتشـار السـنجاب الفـضي في بريطانيا على حساب السنجاب الأحمر، استبدال طبيعي وليس إنتخاب جماعي.

الدين كناتج عرضي لشيء آخر:

على أية حال، أريد الآن أضع جانبًا الإنتخاب الجماعي والالتفات لوجهة نظري الخاصة عن البقاء الدارويني للدين. أنا واحد من بين كثير، الذين يزداد عددهم، الذين يرون الدين كناتجٍ عرضي لشيء آخر. بشكلٍ أعم أصدق بأننا نحن الذين نخمّن الأفكار عن قيمة البقاء لشيء ما نحتاج لـــــ "التفكير بالنتاج العرضي».

عندما نسأل عن البقاء لقيمة ما، ربما أننا نسأل السؤال الخاطئ. نحتاج لإعادةِ كتابة السؤال بطريقة اكثر مساعدة على المعرفة. ربما تكون الميزة التي تهمنا (الدين في هذه الحالة) ليس لها قيمة مباشرة للبقاء ولكنها ناتج عرضي لشيء آخر له قيمة. وأجد أنه من المساعد على الفهم أن أضرب مثالاً من حقل إختصاصي في سلوك الحيوان.

العث يطير إلى لهبِ الشمعة، ولا يبدو ذلك حادثًا عرضيًا. بل يبدو وكأنهم يكلّفون أنفسهم ليكونوا ضحايا الحريق. بإمكاننا أن نسمّي ذلك «سلوك التضحية بالنفس» وتحت هذا الاسم المثير، نتساءل عن كيفية تفضيل الانتخاب الطبيعي لسلوك كهذا. النقطة التي أنوّه إليها هي أنه علينا أن نعيد كتابة السؤال قبل حتى محاولة التفكير بإجابة ذكية.. ليس هذا انتحارًا. ما يبدو انتحارًا هو في الواقع نتيجة أعراض جانبية غفلنا عنها أو نتائج عرضية لشيء آخر. ولكن.. لأي شيء؟ حسنًا إليكم أحد الإمكانيات التي يمكنها أن توضّحَ النقطة.

الضوء الاصطناعي وصل حديثًا على مشهد الليل. وحتى وقت قريب، فإنَّ الأضواء الوحيدة في الليل كانت القمر والنجوم وهم على مستوى اللانهاية البصرية وبالتالي فإنَّ الأشعّة الضوئية التي تأتي منها

تأتي متوازية. وهذا يجعلنا قابلين لاستعمالهم كبوصلة. ومن المعروف عن الحشرات استعمالها للأجسام السماوية كالشمس والقمر للتوجّه بشكل صحيح في خط مستقيم وبإمكانهم استعمال البوصلة ذاتها وبالاتجاه المعاكس، للعودة للموطن بعد الغزوة.

والجهاز العصبي للحشرة تأقلم لوضع قاعدة من النوع الآتي: «توجّه بحث أن إشعاع الضوء يصل لعينك بزاوية 30 درجة». وبما أنَّ الحشرات لها أعين مركبة (مع أنبوب ضوئي يشع من مركز العين للخارج كما أشواك القنفذ). فإنَّ ذلك يمكن أن يصل ببساطة لقاعدة أنَّ الضوءَ سيدخل من أنبوب واحد على الطريق. ولكن البوصلة الضوئية تعتمد بشكل حرج على الأجسام السماوية المتناهية البعد. وإذا لم يكن الوضع كذلك،فإن الأشعة ليست متوازية ولكنها متباعدة مثل قطر الدولاب.

أي جهاز عصبي يطبق قاعدة الـــــ 30 درجة (أو أي زاوية حادة) بجانب شمعة، ويفكر بأنها القمر في اللانهاية البصرية. سوف يقود العث بشكل لولبي نحو اللهب. أرسمها بنفسك باستعمال زاوية حادة مثل 30 درجة، وسترى بأنَّ الشكل الناتج سيكون لولبًا أنيقًا باتجاه الشمعة.

بالرغم من أنَّ ذلك مميتًا في تلك الظروف الخاصة، فإنَّ القاعدة تظل، بشكل عام، جيدة للعث، ذلك لأن رؤية شمعة لهو مما ندر مقارنة برؤية القمر. نحن لا نلاحظ المئات من العث يتوجهون بصمت وفعالية بالقمر أو النجوم، أو حتى ضوء الشمع من بلدة على مسافة ما.

نحن نرى فقط عثًا يدور بشكل لولبي حول الشمعة، ونسأل أنفسنا السؤال الخاطئ: لماذا ينتحر العث؟ عوضًا عن ذلك، علينا أن نسأل،

لماذا يملكون جهازًا عصبيًا يوجههم بواسطة تثبيت زاوية على إشعاع ضوئي، نلاحظ التكتيل فقط عندما يخطئ. وعندما تُعاد صياغة السؤال يتخبر الغموض. لم يكن من الصحيح تسمتها بالانتحار. إنها فقط تهديفٌ خاطئ لبوصلة مفيدة في الظروف العادية.

والآن طبق درس الناتج العرضي على السلوك الديني في الإنسان. هناك عدد هائل من الناس يصل لمئة بالمئة في بعض المناطق من المؤمنين بأمور تعارض العلم بكل وضوح وتنافس اعتقادات دينية متبعة من قبل آخرين ولا يحفظ الناس هذا الإيمان بشغف وحسب، بل يخصصون له وقتًا ومصاريف غالية. يموتون من أجلِ أو يقتلون من أجله.

نحن نعجب لذلك، كما عجبنا من «السلوك المدمر للذات» للعث. نحار، ونسأل لماذا. ولكن النقطة التي أريد لفتَ النظر إليها هي أننا ربما نسأل السؤال الخاطئ هنا. ربما كان السلوك الديني مجرد خطأ في الإصابة، مجرد ناتج عرضي لنزعة وراثية نفسية، والتي في أحوال أخرى تكون أو كانت مفيدة، وبوجهة النظر تلك، فإنَّ النزعة التي انتخبت طبيعيًا في أسلافنا لم تكن دينًا بحد ذاته، بل كان لها منافع أخرى، وأظهرت نفسها كدين لمجرد مصادفة. سنفهم السلوك الدين بمجرد أن نغير اسمه.

فإذا كان الدين إذن ناتجًا عرضيًا لشيء آخر، فما هو هذا الشيء؟ ما نظير عادة العث للملاحة بالبوصلة السماوية؟ ما هي المميزة البدائية المفيدة التي تخطئ الهدف أحيانًا وتولّد الدين؟ سأسوق اقتراحًا موضّحًا، وعلى التأكيد بأنَّ هذا المثال هو النوعية للأشياء التي أعنيها، وسأتي لاقتراح موازٍ نادى به آخرون. أنا متمسك بالمبدأ العام بأن علينا أن نضيعَ

السؤال بشكل صحيح ونعيد كتابته بالكامل عند الضرورة أكثر من إجابةٍ خاصة عنه.

فرضيتي الخاصة هم عن الأطفال. نحن أكثر من كل الكائنات الأخرى نحافظ على بقائنا بواسطة تراكم الخبرات من أجيال سابقة، وهذه الخبرات يجب نقلها للأطفال لحمايتم وتحسين حالهم. نظريًا ربما يتعلم الأطفال من تجاربهم الشخصية ألا يقتربوا من حافة جرف، أو ياكلوا توتًا بريًا أحمر غير مجرب، أو يسبحوا فيماء يعج بالتماسيح، ولكن على الأقل، هناك بعض المميزات الانتخابية لمخ الطفل الذي يمتلك القاعدة المجربة: أمن، بدون أسئلة، كل ما يقوله الكبار لك. أطعْ أهلك، أطعْ كبارَ القبيلة، وخصوصًا عندما يتكلمون بصوت ينم عن التهديد أو الجدية. ثق بهؤلاء الكبار بدون سؤال. هذه قاعدة ثمينة بشكل عام بالنسبة لطفل. ولكن كما في حال العث، باستطاعتها الفشل احيانًا.

لم ولن أنسى الطقس المرعب، الذي وعظه في مدرستي عندما كنت صغيرًا. مرعب جدًا كذكرى، ذلك لأنه: كنت طفلاً في وقتها، وعقلي الطفولي تقبل الوعظ بالروحانية التي أرادها الواعظ. أخبرنا عن قصة فرقة عسكرية تمشي بالقرب عن سكة قطار. وفي اللحظة الحرجة تشتت انتباه الرقيب، وفشل في إعطاء الأمر بالتوقف. الجنود كانوا مدربين لإطاعة الأوامر بدون سؤال واستمروا بالمسير، مباشرة نحو قطار قادم، والآن بالطبع، لا أصدق القصة وأمل أن الواعظ لم يكن يصدقها أيضًا. ولكنني صدقتها عندما كنت في التاسعة، لأنني سمعتها من بالغ لديه سلطة علي. وسواء صدقها هم أم لا، فإنه كان يأمل أننا نحن الأطفال سنعجب به ونشكل شخصياتنا على نموذج الجندي المستعبد والمطيع

للأمر بدون سؤال، وبرغم اللامعقولية وأتكلم عن نفسي هنا، فإننا قد أعجبنا بذلك. وكبالغ راشد أجد أنه من المستحيل تقريبًا أن أكون قد تساءلت في طفولتي عما إذا كانت لدي الشجاعة لأداء الواجب بالمسير تحت القطار. ولكن ذلك فعلاً هو ما أذكره عن مشاعري وقتها. الطقس طبعًا ترك لدي انطباعًا عميقًا، حتى إنني لا أزال أذكره وكتبته لكم الآن.

للعدل هنا، لا أعتقد أنَّ الواعظَ فكّر بأنه يخدم قضيةً دينية وقتها. بل كان ذلك عسكرية أكثر من تديّن، وفي روحانية تينيسون «مهمة الكتيبة الخفيفة والتي ربما ذكرها واعظنا وقتها:

لتمشي الكتيبة الخفيفة للأمام

هل هناك رجلٌ يفزع

لا أحد يعرفه الجنود

شخص ما أخطأ

ليس عليهم أن يجيبوا

ليس عليهم أن يعرفوا لماذا

ليس عليهم ألا أن يقاتلوا ويموتوا

وباتجاه وادي الموت

ركب الستمئة جندي

(أحد أول وأقدم التسجيلات المخربشة لصوت إنسان كانت للورد تينيسون يقرأ تلك القصيدة والانطباع عن الخطاب الأجوف التي من

أعماق نفق مظلم طويل من الماضي لهو مخيفٌ بشكلٍ مناسب هنا). سيكون الأمر جنونيًا من وجهة نظر القيادة لو سمحوا لكل جندي أن يناقشَ نفسه قبل إطاعة الأوامر. وبلدان بجيوش يسمح لجنودهم بالتصرّف بما يرونه مناسبًا عوضًا عن إطاعة الأوامر، ستكون خاسرة في الحروب. فمن وجهة نظر البلد، فإنَّ الطاعة قاعدة جيدة حتى وإن كانت في بعض الأحيان تؤدّي لكوارث فردية. والجنود يتدرّبون ليكونوا أوتوماتيكيين، أو كمبيوترات بقدر الإمكان.

الكومبيوترات تفعل ما تؤمر به. تطيع كالعبيد أي أوامر تعطي لها بلغتها الخاصة. وهكذا تؤدي إغراضًا مفيدة كالحسابات ومعالجة النصوص. ولكن كناتج عرضي لا مفر منه، فإنهم مبرمجون أيضًا بشكل آلي لإطاعة الأوامر السيئة. ليس لديهم طريقة يعرفون بها نتيجة تنفيذ الأمر لو كانت جيدة أو سيئة. ببساطة يطيعون، كما على الجنود أن يكونوا. وفي طاعتهم بدون سؤال، والتي تجعل الكومبيوتر مفيدًا، تجعله أيضًا معرضًا للأصابة بالفيروسات بلا مفر. هي برامج مصممة بقصد الأذى وقوله للكمبيوتر أنسخني وأرسلني لكل عنوان تجده في هذا القرص الصلب «سيطاع ببساطة، وبعد ذلك سيطاع أيضًا من الكمبيوترات الأخرى التي أرسل لها في انتشار أسي. من الصعب وربما المستحيل، أن تصمّمَ كومبيوترًا يفيد بطاعته ويكون منيعًا للإصابة.

لو كنت قد أفلحت في عملي التمهيدي فإنك قد أتممت الحجة عن مخ الطفل والدين. الانتخاب الطبيعي بنى مخ الطفل مع ميل لتصديق ما يقوله الأهل والكبار في السن من أهل العشيرة لهم. وطاعة الثقة تلك

مهمة للبقاء: بطريقة مشابهة للتوجّه بالقمر بالنسبة للعث. ولكن الوجه الآخر للطاعة والثقة هو السذاجة الخانعة.

ناتج عرضي لا مناص منه هو الضعف تجاه العدوى بفيروس الفكر. ولسبب ممتازٍ مرتبطٍ بالبقاء الداروني، يحتاج دماغ الطفل للثقة بالأبوين، والآخرين الأكبر سنًّا والذين قيل لهم من قبل الأبوين أن يثقوا بهم. والنتائج الأوتوماتيكية هي أنَّ الواثق لديه أي طريقة يميز بها النصيحة الجيدة من السيئة. ليس بإمكان الطفل معرفة أن «لا تسبح في النهر الذي تنتشر فيه التماسيح» هي نصيحة جيدة بينما «يجب أن تضحّي بخروفٍ عندما يكتمل القمر، وإلا فلن ينزل المطر» هي في أفضل حالاتها مضيقة للوقت والخرائف.

التحذيران أتيا من مصدرٍ محترم وبلهجة جدية توحي بالأمر بأنَّ تطاع باحترام. والشيء نفسه ينطبق على المقترحات عن الكون والعالم، الأخلاق والطبيعة الإنسانية. وغالبًا عندما يكبر الطفل ويصبح لديه أو لديها أطفالهما الخاصين، فمن الطبيعي أن تمرّر هذه الخبرات كلها للأطفال، ماله معنى وما ليس له معنى أيضًا وذلك باستعمال نفس الأساليب في العدوى.

وبهذا النموذج المذكور علينا أن نتوقع أنه، في مناطق الجغرافية المختلفة، يجب أن توجدَ أنواع مختلفة اعتباطية من الإيمان، ولا أحد منها مبني على قاعدة واقعية، وسيتوارث، ويصدق من قبل المجموعة بنفس الطريقة على أنه جزء من التراث الحكيم المفيد كما يصدق بأنَّ السماد مفيد للمحصول. وعلينا أن نتوقع أيضًا أن الغيبيات والأمور الأخرى غير واقعية ستتطور محليًا وتتغير عبر الأجيال بشكل عشوائي أو بشكل يتبع

نوعًا من الانتخاب الداروينـي، ممـا يرينا بعض الفوائد في انزياح الاعتقاد عن مثيلهِ في الأسـلاف. اللغات تبتعد عن أصلها المشترك لو أعطيت وقتًا كافيًا في مناطق جغرافية متباعدة (وسأعود لهذه النقطة بعد برهة). ويبدو أنَّ الشيء نفسه صحيح فيما يتعلق بأنواع الإيمان الإعتباطية والمحقونة عبر الأجيال إيمان ربما دعمها البرنامج المفيد في مخ الطفل.

الزعماء الدينيون يعرفون جيدًا نقاط الضعف في مخ الطفل، وأهمية أن يُلقّـنَ باكرًا. يقول اليسـوعيون «أعطني طفلاً أول سـبعة أعوام من عمره وسأعطيك الرجل» لا يعني ذلك غير الشر والابتذال».

وفي أيامنا المعاصرة، جيمس دوبسـون، مؤسـس الحركة سيئة السمعة (ركـز علـى عائلتـك)، ليـس بأقل علـمًا بتلك القاعـدة حيث أنـه يقول: «هؤلاء الذين يتحكمون بها يدرسـه الأطفال، وما يمارسونه من معارف، وما يرون ويسمعون وكيف يفكّرون ويصدقون، هم الذين يحدّدون مسار المستقبل للأمة».

ولكن تذكّرْ، اقتراحي عن فائدةِ السذاجة في عقل الطفل هو مثال فقط عن نوعية الأشـياء التي يمكن أن تشـابه سـلوك العـث في التوجه بالقمر أو النجـوم. الأيثولوجـي روبرت هيند، في كتابه لماذا تسـتمر الإله، وعالم الإنسانيات باسكال بوير، في كتابه تفسير الدين، وسكوت اتران، في كتابه نثق بالله، دعوا لفكرة الناتج العرضي كنتيجة لتغيير في أشـكال أخرى من العوامل النفسـية وكل منهم بشكل مسـتقل أحدهم عن الآخر. وعليّ أن أقولَ هنا، أنه بالنسـبة لعلماء الإنسـان خاصة، أنهم يهتمون بتنوّع الأديان في العـالم وتناقضاتها كما هو الحال بما هو مشـترك بينهما. وما يجدنونه يبدو محـيرًا لنـا ولكن ذلك فقط لأنه ليـس مألوفًا لنا. كل أنـواع الإيمان الديني

تبدو غريبة لإنسانٍ لم يتربَّ داخلها. وبوير أجرى أبحاثًا عن أهل الفانغ في الكاميرون والذين يؤمنون بـــــ.....

.... إنَّ هناك ساحرات بأعضاء داخلية أضافية تشبه أعضاء الحيوانات، تطرن بعيدًا في الليل لتخريب أبدان أناسٍ آخرين أو تسميمِ دمائهم. وقيل أيضًا أن تلك الساحرات يجتمعنَ على مائدة ضخمة وعليها يقرّرون مَنِ الضحايا ويخطّطون للهجومات المقبلة. الكثيرون من أهل المنطقة سيقولون لك بأنَّ أحدَ أصدقاء أصدقائهم رأى بالفعل إحدى الساحرات تطيرُ فوق القرية في الليل. تجلس على ورقة شجرة موز وتلقب بالنبال السحرية على الضحايا الغافلين.

يكمل بوير هنا بنكتةٍ حصلت معه شخصيًا:

> كنت أذكر هذه الأشياء وأشياء أخرى مثيرة في حفلة عشاء في كامبريدج عندما التفت إلى أحد ضيوفنا وهو من علماء الدين الأصلاء في كامبريدج وقال: «هذا ما يجعل علم الإنسان مثيرًا وصعبًا. عليك أن تكون قابلاً لشرح كيفية يمكن لإنسان أن يؤمنَ بأشياءٍ بدون معنى كتلك». صُعِقت لذلك التصريح، لقد مضى الحديث لأمور أخرى قبل أن أتمكن من إيجاد إجابة وثيقة الصلة بموضوع الغلايات والأباريق.

لنفترض أن عالم الدين ذاك من كامبريدج يتبع للمسيحية بإتجاهها العام، ربما يؤمن إذن ببعض ما يأتي:

- في زمن أسلافنا، ولد شخص ما لام عذراء وبدون أن يقحم أب بيولوجي في الموضوع.

- نفس الشخص الذي بدون أبٍ نادى شخصًا اسمه اليعازر [العزير]، والذي كان ميتًا لمدة تكفي لأن تنتشر رائحة كريهة منه، واليعازر عاد فورًا للحياة.
- الشخص بدون أب نفسه عاد للحياة بعد أن مات ودفن بثلاثة أيام.
- بعد أربعين يومًا، ظهر الإنسان الذي بدون أب على قمّة تلة ثم أرتفع إلى السماء بجسمه واختفى.
- عندما تفكر بشيء ما بينك وبين نفسك وفي رأسك، فإنَّ هذا الشخص الذي بدون أب، وأبوه (الذي يكون هو نفسه) سوف يسمع أفكارك وربما يفعل شيئًا بناء عليهم. إنه قابل لسماع أفكار كل الناس في الأرض بنفس الوقت.
- لو فعلت شيئًا سيّئًا، أو شيئًا جيدًا، فإنَّ نفس الشخص الذي ليس له أب سيرى كل شيء، حتى لو لم يرى ذلك أي أحد آخر. وربما ستكافئ أو تعاقب بناء عليه، وهذا ينطبق على ما بعد المات أيضًا.
- أمُّ الشخص الذي بدون أب لم تمت أبدًا بل «صعدت» بجسمها إلى السماء.
- الخبز والنبيذ، لو باركهما القدّيس (الذي يجب أن يكون له خصيتان)، «يصبحان» جسم ودم الرجل الذي بدون أب.

ماذا سيكون موقف عالم إنساني محايد، عندما يصادف نوعًا من ذلك الإيمان أثناء عمله في كامبريدج، وماذا سيقول عنه تلك الأمور؟

التهيئة النفسية للدين:

فكرة الناتج العرضي النفسي خرجت من إطار الأهمية في حقل التطور النفساني. والتطوريين النفسيين اقترحوا الآتي، كما أنَّ العين تطوّرت من أجل الرؤية كعضو، والجناح تطور كعضو للطيران، كذلك الدماغ الذي هو مجموعة من الأعضاء (أو الوحدات) التي عليها تقع مسؤولية التصرف حيال المعلومات.

وهناك وحدة للتصرّف حيال الأقارب، وأخرى لمعالجة التبادل الحراري، وأخرى للتعاطف، وهكذا. يمكن النظر للدين على أنه ناتج عرضي لمجموعة من هذه الوحدات، وكمثال فإن الوحدة التي تكون مسؤولة عن تشكيل نظريات عن العقول الأخرى، لتشكيل الأحلاف، وممارسة العنصرية لصالح من هو في الحلف وضد الغرباء. بإمكان ذلك أن يخطئ بشكل مشابه لخطأ العث والأجرام السماوية. وذلك عرضة لنفس الخطأ الذي اقترحته عن سذاجة الطفولة.

عالم النفس باول بلوم، محام آخر عن موضوع «الدين ما هو إلا ناتج عرضي»، يشير إلى أن الأطفال لديهم الميل لتكوين نظرية مزدوجة في عقولهم. والدين بالنسبة له هو نتيجة هذه الازدواجية الغريزية. نحن البشر، وخصوصًا الأطفال مولودون بإزدواجية طبيعية، هذا ما يقترحه.

الازدواجي يعترف بالفرق الأساسي بين المسألة والعقل. الموحد على العكس من ذلك، يؤمن بأن العقل هو الذي يعرف المسألة مادة في المخ أو حتى الكمبيوتر، ولا يوجد بدون وجود المسألة.

الإزدواجي يؤمن بأن العقل هو روح لا تتجسد تسكن الجسد وينتج

عن ذلك إنه بإمكانه ترك الجسد والوجود في مكان آخر. الإزدواجي يفسر أن الأمراض العقلية هي «تلبس من الشياطين». تلك الشياطين هي عبارة عن أرواح تقطن في الجسد بشكل مؤقت، وذلك لأجل أن يطردوا لاحقًا. الازدواجيون يعطون معنى شخصيًا للعناصر الفيزيائية غير المتحركة في أقرب فرصة، ويرون الأرواح الشريرة حتى في الشلات والغيوم.

رواية ف. انستي عام 1882 والعكس بالعكس لها معنى بالنسبة للازدواجي، ولكنها لن تعني شيئًا بصرامة لموحد متعمق مثلي. السيد بالتيتود وأبنه يجدون بأنهما تبادلاً أجسادهما بشكل غامض ما. الأب، ولغبطة الأبن، عليه أن يذهب إلى المدرسة في جسم الابن، بينما الأبن، في جسد الأب، يكاد يقضي على أعمال والده بقراراته الغير ناضجة.

واستعمل بي جي وودهاوس نفس خط المؤامرة تقريبًا في غاز الضحك. عندما يقع إيرل هافرشوت وطفل من نجوم السينما تحت المخدر في عيادة طبيب أسنان ويستيقظان في أجساد بعضهما. ومرة أخرى، فإن ذلك يمكن أن يكون له معنى بالنسبة لازدواجي. هناك شيء تابع لايرل هافرشوت والذي ليس قسمًا من جسمه، وإلا فكيف يمكنه أن يستيقظ في جسد طفل ممثل؟

و كما معظم العلماء، أنا لست ازدواجيًا، ولكن لا يمنعني ذلك من الاستمتاع في العكس بالعكس وغاز الضحك. باوْل بلوم سيعلل ذلك بما يأتي. على الرغم من تعلمت أن أكون توحديًا ذكيًا، ولكنني إنسان يجثم حيوان ما خلف عيناي وهو قابل، على الأقل خياليًا على الإنتقال لرأس إنسان آخر، وهذا مغروس بعمق في شخصي وفي كل إنسان آخر، مهما كان توجهنا ذكيًا نحو التوحيدية.

بلوم يدعم زعمه بأدلة تجريبية عن أن الأطفال اكثر قابلية لأن يكونوا أزدواجيين من البالغين، وبالخصوص الأطفال الصغار جدًا. وهذا يدل على أنَّ الازدواجية مبنية من صلب المخ، وبناء على بلوم، فإنها تؤمن تأهيلاً طبيعيًا لتقبل الأفكار الدينية.

يقترح بلوم أيضًا بأننا مؤهلون داخليًا لنكون خلوقيين. الانتخاب الطبيعي «ليس محسوسًا بالحدس». الأطفال بالأخص أكثر ميلاً لوضعِ غرض لكل شيء كما تخبرنا الطبيبة النفسية ديبورا كيلمان في مقالها «هل الأطفال مؤمنون بالحدس؟» الغيوم لأجل المطر. الصخور المدببة معمولة حتى تستطيع الحيوانات حك جلدها بها». تعيين الغرض الوظيفي لكل شيء يسمى علم التيلولوجيا. الأطفال تيلولوجيون بالفطرة، والعديدين منهم لا يتخلون عن ذلك بتقدم السن.

الازدواجية الفطرية والتيلولوجية الفطرية تعرضنا، بوجود الظروف المناسبة، للدين، كما هو الحال في العثة التي يعرضها رد الفعل الناتج عن التوجه بواسطة الضوء للانتحار على غفلة. ازدواجيتنا الفطرية تؤهلنا للإيمان «بروح» تقطن الجسد عوضًا عن كونها جزء من الجسد. وروح بدون جسد كتلك يمكن تخيلها بسهولة تتحرك لمكان آخر بعد موت الجسم. ويمكننا تخيل الإله على أن روح صافية، وليس كشيء ظاهر له مواصفات معقدة ولكن موجود بشكل مستقل عن أي مواصفات. أو حتى بوضوح أكثر، التيلولوجي الطفولية تضبطنا للتدين. بما أن كل شيء له هدف، لمن ترجع تلك الأهداف؟ الله، بالطبع.

ولكن ما هو الطرف الآخر المفيد المشابه للبوصلة الضوئية للعث؟ لماذا فضل الانتخاب الطبيعي الازدواجية والتيلولوجيا للمخ في أسلافنا

وأطفالهم؟ حتى الآن، حساباتي عن الازدواجية الداخلية افترضت أنَّ الإنسان يولد ازدواجيًا تيلولوجيا بطبيعته. ولكن ما هي الفائدة الداروينية لذلك، هناك أهمية لتخميننا وإعطائنا معان ما لتصرفات الأحياء في عالمنا تساعدنا على البقاء، ونتوقع أن الانتخاب الطبيعي قد شكل مخنا لفعل ذلك بشكل فعال وسريع.

هل يمكن أن تخدمنا ازدواجيتنا وتيلولوجيتنا بتلك الطريقة؟ ربما نفهم تلك الفرضية بشكل أفضل في ضوء تفسيرات الفيلسوف دانييل دينيت والذي سماها الموقف المقصود.

دانيت عرض طريقة مفيدة لتصنيف ثلاثي لـــــــ «المواقف» التي نتخدها للفهم وبالتالي توقّعَ تصرفات الكيانات الأخرى كالحيوانات، والآلات أو البشر الآخرين. هناك الموقف الفيزيائي، الموقف حيال التصميم والموقف حيال القصد.

الموقف الفيزيائي يعمل دائمًا وفقًا للمبدأ؛ لأنَّ كل شيء في النهاية يتّبع القوانين الفيزيائية. ولكن التصرّف حيالَ كل شيء باستعمال الموقف الفيزيائي يمكن أن يكون بطيئًا. والوقت الذي نستغرقه ريثما نحسب كل ردود الأفعال الحركية لأشياء معقدة تتحرك معًا، قد تجعل توقعاتنا تأتي متأخرة. وبالنسبة لشيء مصمم كغسالة، فإنَّ الموقف حيال التصميم هو موقف اقتصادي وطريق مختصر وبإمكاننا أن نعرفَ كيف سيتصرف هذا الشيء بغض النظر عن المواضيع الفيزيائية والقفز مباشرة للتصميم. وكما يقول دينيت:

«يمكن لأي أحد تقريبًا أن يتوقّع متى سيرنّ المنبّه بمجرد تحري بسيطة من خارجه. ولا أحد يهتم أن كان يربط بنابض ورقاص

أو أنـه يسـير بالبطارية أو الطاقة الشمسـية، مصنوع من مسـننات نحاسـية أو رقائـق سـيليكونية أننـا نفـترض أنه مصنـوع ليرن في الوقت الذي نعيره فيه للرنين»

الأشـياء الحية ليسـت مصممة، ولكن الانتخـاب الطبيعي الدارويني أعطاهـم رخصة للموقـف التصميمي. نحـن نختصر الطريـق لفهم آلية عمل القلب إذا افترضنا أنه «مصمّم» لضخ الدم.

لقـد قاد كارل فون فيـش تحريات عن رؤية الألوان في النحل (في وجهِ النظريـة المتعصّبـة بأنهـم عُميّ ألـوان) لأنه أفـترض أنَّ الألـوانَ الناصعة للزهـور «مصممـة» لجذبهـم. وعلامـات بين القوسـين يقصد بهـا إخافة المخلوقين الكاذبين الذين سـوف يزعمون بأنَّ عالم الحيوانات النمسـاوي العظيم هو واحد منهم. ولا نحتاج للقول بأنه كان قابلاً بشكل تام لترجمة الموقف من التصميم بتعابير داروينية مناسبة.

الموقـف حيـال القصـد هـو طريق مختـصر آخـر، وبدرجـة أفضل من الموقف من التصميم. تفترض أن الكيان ليس فقط مصممًا من أجل هدف ولكنه، أو أنه يحتوي، على وكيل مع نيّة أو قصد يقود أفعاله. وعندما ترى نمرًا، فمن الأفضل لك أن تتأخر في توقعاتك عن احتمالات تصرفاته.

لا تهـم فيزيائيـة الجزيئـات التي هو مكـون منها، ولا تصميـم أطرافه، وأظافره أو أسنانه. تلك القطة تنوي اكلك، وستستعمل أطرافها وأظافرها وأسـنانها بطريقـة مرنـة ومبدعة لإتمـام قصدهـا. أفضل طريقـة لتخمين تصرفها القادم هو بنسيان الفيزياء والفيزيولوجيا والقطع بالقصد. ولتنتبه هنا، فكما يعمل القصد حيال التصميم لأشـياء ليست مصممة بالواقع كما

يعمـل تجاه الأشـياء المصممة، فـإنَّ الموقف حيال القصـد يعمل من أجل الأشياء التي ليس لها قصد واعي كما يعمل في حالة الأشياء الواعية.

ويبـدو منطقيًا بشـكل كامل بالنسـبة لي بـأنَّ الموقفَ حيـال القصد له قيمة للمسـاعدة على البقاء مما يجعل المخ يأخـذ قرارات هامة وسريعة في الظـروف الخطـرة. وفي أوضاع اجتماعية دقيقة. وليسـت ضرورة الالتزام بالازدواجيـة من أجل الموقـف حيال القصد واضحة بشـكل مباشر هنا. ولـن أتابـع أكثر من ذلـك، ولكنـي أظن أنه مـن الممكن تطويـر حالات لنظريـات عن أن عقول أخرى، واضحة الازدواجية، من السـهل أن تقع تحـت الموقف حيال القصد خصوصًا في أوضاع اجتماعيةٍ معقّدة بل وأكثر مـن ذلك عندمـا تؤثر مواقف أعلـى مرتبة من الموقف حيـال اقصد على الوضع.

دينيـت يتكلم عـن النيـة الثلاثيـة الطبقات (الرجـل يؤمن بـأنَّ المرأة تعـرف أنه يريدهـا) والرباعية (المـرأة انتبهت إلى كون الرجـل يؤمن بأنَّ المرأة تعرف حبه لها). وحتى الخماسية (الشامان ظن بأنَّ المرأة انتبهت إلى أنَّ الرجل يؤمن بأنَّ المرأة تعرف أنه يريدها).

التراتيـب العليا مـن النوايا ربما تكـون محصورة بالخيـال، كما في رواية ميشيل فراين الهستيريث رجال من الصفيح: بمراقبته لنانوبولوس، عرف ريك بأنه متأكد تقريبًا بأنَّ أنا أحسست باحتقار عاطفي نحو فيدلينغشايلد، وعرفـت أيضًا بأن نينا عرفـت بما تعرفه عن معرفـة نانوبولس.».. ولكن الواقع هو أن كوننا مسـتعدين للضحك على تشـويهات العقول الأخرى في التعامل مع الخيال يحتمل أنه يقول لنا شـيئًا مهما عن الطريقة التي عمل بها الانتخاب الطبيعي لجعل عقلنا يعمل بهذه الطريقة.

في المراتب الدنيا على الأقل، الموقف حيال القصد، كما في الموقف حيال التصميم، يوفر الوقت الذي يمكن أن يكون مهما جدًا للبقاء. وبالنتيجة فإنَّ الانتخاب الطبيعي شكل المخ ليمكنه استعمال الموقف حيال القصد كطريق مختصر. نحن مبرمجين بيولوجيًا لنسب النوايا للكائنات التي يهمنا تصرفها. ومرة أخرى، بول بلوم اقتبس اثباتات تجريبية بأنَّ الأطفال بشكلٍ خاص يمليون لتبنّي الموقف حيال القصد. عنما يرى الأطفال شيئًا يتبع شيئًا آخر (على شاشة كومبيوتر مثلاً)، فهم يحسبون بأنهم يرون مطاردة بين عناصر تقصد ما تفعل، ويبدو ذلك كواقع ملاحظ بشعورهم بالمفاجأة عندما يفشل العنصر المشهور في متابعة المطاردة.

الموقف من التصميم والقصد مفيدان كآليات دماغية، ومهمان لتسريع عملية تقدير تصرف الكيانات الأخرى فيما هو ضروري للبقاء، كما هو الحال في الحيوانات المفترسة أو الشريك، ولكن وكأي آلية دماغية أخرى، بإمكان هذا المواقف أن تخطئ أهدافها. الأطفال والناس البسطاء ينسبون قصدًا للظواهر الجواية، للأمواج والتيارات والصخور المتساقطة.

لكنا معرضين لنفس الأمر فيما يتعلق بالآلات، وخصوصًا عندما يخيبون ظننا. العديد منا يذكرون الأمسية التي تعطّلت فيها سيارة باسيل فاولتي خلال مهمتِهِ الهامة لإنقاذ أمسية تذوّق من مصيبة كبرى. أعطى سيارته تحذيرًا، وعد حتى الثلاثة، وبعد ذلك خرج من السيارة وأخذ غصن شجرة وحطمها وهي في آخر أيامها. كلنا كنا في مواقف كتلك، ولو حتى للحظات، مع كومبيوتر إن لم يكن مع سيارة.

وقد أعط يجوستين باريت الإختصار (و ف ج ك) للعبارة جهاز كشف فعاليات النشاط المفرط. نحن نفرط في نشاطنا لاكتشاف وكلاء

في أنـه لا يوجد شيء من هذا القبيل، وهذا يجعلنا نفترض وجود خبث أو عبـث في حين، أنـه في الواقع، ليس أكثر من عدم اكـتراث الطبيعة. وأرى نفـسي في بعـض الأحيان أكظم غيظـي تجاه شيء لا يفـترض أن يلام مثل جنزيـر دراجتي. وهناك تقرير محزن عن رجل تعثر برباط حذائه المفكوف في متحـف فيتزويليامـز في كامبريدج، وقع على الدرج وكسر ثلاث تحفٍ لا تُقـدّر بثمـن من أيـام مملكة كنغ: «وقـع بين الفـازات وتكسروا لملايين الشـظايا، كان لا يزال يجلس مصعوقًا عندما قـدم الموظفون لعنده. كلهم وقفوا في سكون، كما في صدمة، والرجل يشير بإصبعه لرباطِ حذائه قائلاً: «ها هو، ها هو المذنب».

شروح أخـرى عـن الناتـج العرضي قدمت مـن هيند، شـيرمر، بوير، اتران، بلوم، دينيت، كيليهان وغيرهم. هناك عرض فاتن من دينيت يقول بـأنَّ لا عقلانية التديني هو ناتج عرضي عـن آلية غير عقلانية موجودة في الدماغ: وهي نيتنا، المفيدة جينيًا، للوقع في الحب.

عالمة الأنثروبولوجيي هيلين فيشر، في كتابها لماذا نحب؟ عبرت بشكل جميل عن جنون الحب الرومانسي وكيف يبدوا ضروريًا ما هو فوق القمة. انظـر للموضوع بالشـكل الآتي. من وجهـة نظر الرجل، بشـكل ما، فإنه ليـس من الممكن أن تكـون أي امرأة من معارفه محبوبـة أكثر بمئة مرة من المـرأة التي تأتي في المرتبة الثانية. ولكن هـذا ما يصفها به في الغالب عندما يكـون «واقعًا في الحب». وعوضًا عن الإخلاص الأحادي السريع التأثير بنا، فإنَّ نوعًا من «الحب المتعدد» يبدو أكثر عقلانية هنا. (الحب المتعدد هو الاعتقاد بأنَّ الإنسـان يمكن أن يحب أكثر من شـخصٍ من الجنس الآخر في وقـتٍ واحد، تمامًـا كما هو ال حال أنواع النبيذ والمؤلفين الموسـيقين أو

الكتب أو الرياضة). نحن نقبل بسرور قدرتنا على محبة أكثر من طفل، أهل، أخوة، أساتذة، أصدقاء أو حيوانات أليفة. عندما تفكر بهذا الشكل، ألا يبدو أنَّ الحبَّ للشريك استثنائيًا بشكلٍ غريب؟ بالرغم من ذلك، فإنَّ هذا ما نتوقعه، وهذا ما نحن عليه ونريد تحقيقه، لابد من سبب لذلك.

هيلين فيشر وآخرون استعرضوا بأنَّ الوقوع في الحب يرافقه وضعٌ خاص للدماغ، يتضمن ذلك تواجد عناصر كيميائية عصبية (في الواقع مخدّرات طبيعية) وتلك العناصر خاصة جدًا بتلك الحالات. علماء النفس التطوريون يوافقون معها على أنَّ تلك الضربة اللاعقلانية يمكن أن تكون لضمان الإخلاص في الطرف الآخر من الأهل، ولمدة تكفي لرعايتهما طفل لفترة معينة ما.

من وجهة نظر داروينية فإنه من المهم، بدون شك، اختيار شريك جيد، لعدة أسباب. ولكن عندما يقع الاختيار حتى الخاطئ ويحصل الحمل، فإنه من الأهم الالتزام بذلك الاختيار في «الحلوة والمرة» على الأقل حتى يُفطم الطفل.

هل يمكن أن يكون الدين اللامنطقي ناتج عرضي للآلية اللاعقلانية التي بنيت في المخ بالانتخاب الطبيعي للوقوع في الحب؟ إنَّ الإيمان الدين بالتأكيد يشبه في بعض ملامحه الوقوع في الحب (و الاثنان لديهما نفس الأعراض الناتجة عن تأثير مخدرات مسببة للإدمان). عالم النفس العصبي جون سميثيس ينبهنا من أنه هناك فروق واضحة في مواقع المخ التي تتفاعل في كلتا الحالتين، على الرغم من ذلك فإنَّ هناك بعض التشابهات:

«أحد مظاهر الدين هو الحب العنيف المركز على الشخصية الماوراء الطبيعية، مثل الله، بالإضافة لاحترام الإيقونات ما يتعلق بها لتلك الشخصية. حياة الإنسان محكومة بشكل كبير بجيناتنا الأنانية وعملية الدعم. وكثير من الدعم الإيجابي يأتي من الدين: المشاعر المطمئنة والدافئة عن كونك محبوبًا ومحميًا من المخاطر في العالم، والغاء الخوف من الموت، المساعدة السماوية كجواب على الصلوات في الأوقات الصعبة، الخ».

وبنفس الطريقة، فإنَّ الحبَّ تجاه شخص ما (من الجنس الآخر عادة) يؤدّي لنفس التركيز العنيف على الآخر وما يلحقه من دعم إيجابي. هذه المشاعر يمكن أن تقدح من إيقونات الآخر، مثل الرسائل، الصور، وحتى كما في العصر الفيكتوري، خصل من الشعر. حالة الوقوع في الحب ترافقها حالات فيزيولوجية عديدة، مثل التنهد العميق».

وضعت مقارنة بين الوقوع في الحب والدين عام 1993 عندما لاحظت أنَّ الفرد المصاب بالتدّين يذكروننا بشكل مذهل بحالات الآخرين المرافقة للرغبة الجنسية. وتلك قوة فعالة جدًا في الدماغ وليس من المفاجئ أن بعض الفيروسات قد تطورت لتستغلّها (فيروسات هنا مجازية وتعني الأديان: لأنّ عنوان مقالي وقتها كان فيروسات الدماغ). ورؤيا سانتا تيريزا الأفيلية أشهر من أن نحتاج لذكرها هنا. والأكثر جدية من ذلك، وعلى مستوى أقل من الهمجية الحسية، فإنَّ الفيلسوف أنثوني كيني يعرض لنا اعترافًا يهز العواطف عن السرور الصافي الذي ينتظر الذين استطاعوا الإيمان بغموض الإستحالة الجوهرية. بعد أن وصف ترسيمه ككاهن من الروم الكاثوليك، ومدعوم بأيدي المحتفلين

بالقداس والتي استقلى عليها، يستعرض لنا بأنَّ ما يذكره لا يزال حيًا في مخيلته:

«الأعلاء في خلال الشهر الأول الذي حصلت فيه على القوة لقيادة القداس، باعتباري كنت كسولاً في النهوض من الفراش، جعلني استيقظ مملوءًا بالحيوية والإثارة لمجرد التفكير بقوة الدور الذي أعطيت الامتياز للقيام به..».

لقد كنت ألمس جسد المسيح، واقتراب القس من المسيح، والذي سحرني أكثر من أي شيء آخر. أمعن النظر في المضيف بعد كلمات التكريس، عيون طيبة كعاشق ينظر في عيني حبيبته.. تلك الأيام الأولى لي كقسٍّ تبقّى في ذاكرتي كأيام من الأشباع والإرتعاش بالسعادة، شيء ثمين، وفي نفس الوقت هش جدًا على أن يدوم، مثل حالة عشق رومانسي خيالي قصرت وقطعت بزواج غير متوافق».

ما يساوي رد فعل العث للبوصلة الضوئية هو ما يبدو لا عقلانيًا ومفيدًا في حالة الوقوع في الحب مع شخص واحد فقط من الجنس الآخر. الخطأ الناتج عرضيًا مساو للطيران بإتجاه لهب الشمعة هو الوقوع في الحب مع يهوه (أو العذراء، أو الله) والقيام بتصرفات لاعقلانية مدفوعة بذلك الحب.

البيولوجي لويس والبرات، في كتابه المستحيلات الستة قبل الأفطار، يقترح ما يمكن رؤيته بشكل عام في فكرة اللاعقلانية النباءة. والنقطة التي ينوّه لها هي أنَّ القناعة القوية بشيء لا عقلاني هي حماية للعقل من التقلب: «لو لم يؤخذ الإيمان الذي تسبب في إنقاذ حياة العديد، لتسبّبِ

بالضرر للإنسان القديم. سيكون من المضرِّ كثيرًا على سبيل المثال أن يغير الشخص رأيه تكرارًا عند الصيد أو صناعة الأدوات». النتيجة التي يصل إليها وألبرت في حجّته هي، على الأقل تحت ظروف معينة سيكون من الأفضل التمسك بإدمان لاعقلاني عوضًا عن التأرجح، حتى لو ظهرت أدلة جديدة أو استنتاجات تدعو لتفضيل التغيير. من السهل أن نرى موضوع «الوقوع في الحب» كحالة خاصة، وبنفس العلاقة تبدو سهولة رؤية حالة وألبرت «الإصرار اللاعقلاني» كمثال على الفائدة النفسية للميل الذي يستطيع بعض السمات المهمة للسلوك اللاعقلاني: ناتج عرضي آخر.

وفي كتابهِ التطور الخاص، يتوسع روبرت تريفرس في شرح نظرية التطور عن خداع النفس. (1976) خداع النفس هو:

«تورية الحقيقة عن العقل الواعي هي الطريقة الأفضل لتوريتها عن الآخرين. في جنسنا نتعرف على العينين الحائرتين، الكفين المتعرقين والصوت المتهدج كعلامات على تدل على العصبية المرافقة للمعرفة الواعية بالإقدام على الخداع، والخداع يمكنه أن يواري لتلك الإشارات من الشخص الذي يراقبه عندما لا يكون واعيًا للخدعة، وبالتالي يصبح قادرًا على الكذب بدون عصبية؟»

الأنثروبولوجي ليونيل تيغر يقول شيئًا مشابهًا في كتابة التفاؤل: بيولوجيا الأمل. ونرى ما ناقشناه لتونا عن العلاقة بين اللاعقلانية المفيدة في مقطع عن «الدفاع الإدراكي»:

«هناك ميل واع في الإنسان لرؤية ما يريد رؤيته. ولديهم صعوبات في رؤيـة الأمور ذات المضمون السـلبي وسـهولة متزايدة في رؤية الأمـور الإيجابيـة. كمثـال، الكلمات التي تسـتدعي القلق، سـواء كانـت لأمـور تتعلق بالتاريـخ الشـخصي أو لتجـارب في المعالجة تتطلّب إيضاحات أكثر لتقبلها».

أن تعلق ذلك بالأمنيات التي يقدمها الدين لا يحتاج لإيضاح.

النظريـة العامـة عن الديـن كناتج عـرضي، شيء مفيد أخطـأ الهدف، هـو الذي أريد أن أحامي عنه. التفاصيل متغـيرة، معقدة وقابلة للنقاش. ولأجـلِ التوضيـح، سأسـتمر باسـتعمال نظريتي عـن «الطفل السـاذج» كتعرف لما نطلق عليه نظرية «الناتج العرضي»في العموم.

تلـك النظريـة التـي تقول بـأنَّ دماغ الطفل «لأسـباب مفيـدة» يمكن أن يكـون ضحية عـدوى لفيروس عقلي سـوف تبدو لبعـض القراء بأنها ليسـت كاملة. ربـما يكون العقل مؤهـلاً ليكون ضحية... حسـنًا. ولكن لماذا العدوى بذلك الفيروس وليس الآخر؟ هل بعض الفيروسـات لديها قدرة أكبر على عزو العقل الساذج؟ لماذا «العدوى» تظهر على شكل دين عوضًا عن.. عن ماذا؟ ما أريد قوله هو أن نوع اللامنطقية التي يصاب بها عقل الطفل ليس مهما. وعندما يصاب سيكبر ويعدي الجيل القادم بنفس اللامنطقية، مهما كان نوعها.

مسحة أنثروبولوجية من التي اتحفنا بها فرايزر والمساة الغصن الذهبي تحتـوي على الكثير من أنواع الإيمان اللاعقـلاني وعندما يتحصن أحدها في ثقافة فإنه يسـتمر، يتطور ويتحول، بطريقة تذكرنا بالتطور البيولوجي.

ولكـن فرايـزر لـه رؤيـا خاصـة في تلـك المبـادئ عامـة، وكمثـال فـإن «الهوميوباتيـة السـحرية» حيـث التعاويذ والعزائم تسـتخدم بعض رموز عن أشـياء في العالم الحقيقي والتي يراد التأثـير عليها. ومن ذلك الإعتقاد التراجيدي بأن البودرة المعمولة من قرن حيوان وحيد القرن لديها مفعول المقـوّي الجنسي، لأنَّ القرن يشـبه القضيـب الذكرى المنتصـب. والحقيقة إنَّ انتشـار «الهوميوباتية السـحرية» يفرض الاقتراح بأنَّ اللاعقلانية التي تصيب العقول الساذجة ليست عشوائية تمامًا.

يبدو من المغري مواصلة السعي باتجاه نقطة التساؤل عما إذا كان هناك ما يشـابه التطور البيولوجي بالإنتخاب الطبيعي. هل بعض الأفكار اكثر قابلية للانتشـار مـن أخـرى، لجوهرها أو لاسـتحقاقها، أو لتماشـيها مع الترتيـب البيولوجـي، وهل يمكن اعتبار ذلك مسـببًا عـن طبيعة الأديان ومواصفاتهـا كما نراهـم الآن، بطريقة ما كما نسـتعمل الانتخاب الطبيعي كسبب للحياة العضوية؟ من الهم أن نفهم بأنَّ الاستحقاق هنا يعني البقاء والانتشار. ولا تعني الحكم باستحقاق لقيمٍ إيجابية كشيء يجعلنا فخورين به كبشر.

وحتـى بنموذج تطـوري، فلا يجـب أن يكون هناك انتخـاب طبيعي. يعترف علماء البيولوجيا بأن انتشار موروثٍ ما لمجرّد كونه محظوظًا وليس لأنه جيد. ونسـمي هذا بالانجراف الوراثي. وأهميته بالمقارنة بالانتخاب الطبيعي لم تزل موضع جدال.

ولكنها الآن مقبولة على نطاقٍ واسع بما يسمّي نظرية الجينات الجزيئية الحيادية. لو نسـخ المورث بصورة معدلة ولكن بتأثـير مطابق، فإنَّ الفرق الحيادي. والانتخاب الطبيعي لن يفضل واحدًا على الآخر.

علـى الرغـم من ذلـك، وبالأخـذ بعـين الاعتبار ما يسـمّى مـن قبل الإحصائيـين عينات الأخطاء عبر الأجيال، فإنَّ المـورث بصورته المعدلة يمكـن أن يحـل محل المـورث الأصـلي في مجموعـة المورثات. وهـذا تغيير تطـوري على المسـتوى الجزيئـي (حتى ولو لم يكن هنـاك تغير ملاحظ في عـالم العضو بشـكل عام). ذلك تطـور محايد لا يدين للانتخـاب الطبيعي بأي مميزات.

الشـبه الثقـافي للانجـراف الوراثي خيـار مقنع لا نسـتطيع إهماله عند الحديـث عن تطور الدين. اللغة تتطور بشـكل شـبيه للتطـور البيولوجي والاتجاهـات التـي تتطـور بها تبـدو باتجاهـات غير محـددة، تمامًـا كما هو الحـال في حالـة الانجراف الوراثي. بل يتم تسـليمها عـبر الأجيال كما في نظيرتها وتتغير ببطء عبر القرون، حتى الوقت الذي تصل مشتقاتها لنفاق متباعـدة بحيث يصبح الأصل الواحد غير واضـح. من الممكن أن يكون بعض التطور للغات محكوم بشكل من أشكال الانتخاب الطبيعي، ولكن الحجة لا تبدو تستحق المتابعة.

وسـأشرح لاحقًـا بأنَّ أفـكارًا كهـذه طرحت في مواضيـع الاتجاهات الرئيسـية في اختلاف اللغات، كما هو الحال في التغيّر الكبير في الصوتيات الـذي حصل في اللغة الإنكليزية بين القرنين الخامس عشر والثامن عشر. ولكـن فرضيـة كهذه لا تشرح بالـضرورة ما نراه غالبًا. ويبـدو محتملاً أن اللغات تطورت بما يشبه الاجراف الوراثي العشوائي.

وفي أقسـام مختلفة مـن أوروبا، تطورت اللاتينية لتصبح لغة إسـبانية، برتغاليـة، ايطالية، فرنسـية ورومانيـة إضافة للعديد مـن اللهجات لتلك

اللغـات. ولا يبـدو أبـدًا أن هنـاك أي فوائـد واضحـة لتلـك التغـيرات التطورية أو أي نوع من الضغط الانتخابي.

تخمينـي؛ أنَّ الدين، كاللغة، تطوّرَ بشـكلٍ عشـوائي، مـن بدايات غير محددة، وذلك خلق الغني المحير، والخطر أحيانًا لتعدديتها التي نلاحظها. في نفـس الوقت، من الممكن أنَّ شـكلاً من أشـكال الانتخـاب الطبيعي، مترافقًا مع القواعد الأساسـية لعلمِ النفس البـشري، يفسّر لنا أنَّ الأديان تحتوي على قواسـم مشـتركة. الكثير من الأديان على سـبيل المثال، تعلم مذاهب قابلة للتصديق بموضوعية ولكنها جذّابة بشـكل شخصي عن أن شخصياتنا سنبقى بعد موتنا الجسدي. فالفكرة عن البقاء سو تحيا وتنتشر لأنها تغذي الأمنيات. والأمنيات لها إعتبارها، لأن النفسـية البشرية لديها الميـل للتصديـق بالرغبة كما قـال هنري الرابـع لأبنه: يرغبـون بأن يكون هنالك أب، لهذه الأفكار.

يبـدو أن ليـس هنـاك مـن شـك بـأن العديـد مـن مواصفـات الدين مؤهلة بشـكل جيد للحفاظ على بقاء الدين نفسـه، وبالتـالي البقاء لتلك المواصفات، وفي خليط الثقافات الإنسانية. فإنَّ السؤالَ الذي يطرح الآن هـو عما إذا كان ذلك التأهيل قد تم الحصول عليـه بـــتصميمِ الذكي أو أنه نتيجة انتخابٍ طبيعي.

ربـما يكون الجـواب مزيجًا من الاثنـين، التصميم من طـرف القيادات الدينية قادرة بشـكل تام على صياغة الخدع التي أدت لبقاء الدين بشـكل فعال. مارتن لوثر عرف بشـكل جيد بأن العقلانية كانت هي عدو الحكم الدينـي، وقد حـذر منها مـرارًا: العقلانية هي العدو الأكـبر للإيمان، ولا

يمكـن أن تسـاعد في الأمـور الروحانية، ولكـن تنافي في معظـم الأحيان الكلام المقدس، وتحتقر كل ما ينبثق من الإله». وفي قول آخر:

«من يريد أن يكون مسيحيًّا عليه أن يرمي بعيون عقله بعيدًا» ومرة أخـرى: «العقلانيـة يجب تدميرهـا في كل المسـيحين» لم يكن لدي لوثر أي صعوبة في الخلق الذكي لسـمات لا عقلانية لتساعد الدين علـى البقـاء. ولكـن هذا لا يعني أنـه، أو أي أحد آخـر، قد صمم ذلـك. مـن الممكن أن ذلـك تطور بشـكل غير جينـي بالانتخاب الطبيعي، ولوثر لم يكن المصمّم ولكن مجرد ملاحظ ذكي لذلك.

برغـم أنَّ الداروينيـة التقليدية في اختيار الجينـات ربما تفضل الجينات التي تعطي مَيْلاً نفسـيًّا للدين كناتجٍ عرضي، فإنه من غير المحتمل بشـكل كبير بأنها شـكلت التفاصيل. لقد نوهت بأنه، لو كنا سنطبّق شكلاً ما من أشكال نظرية الانتخاب على هذه التفاصيل، فإنَّ علينا ألّا ننظر للجينات وإنما ما يقابلها في ثقافة الحياة. هل الدين منتوج له نفس خواص الميمات.

اخطوا بهدوء، لأنك تدعس على ميماتي:

«الحقيقـةُ فيـما يخصُّ بالدين، هي ببسـاطةِ الرأيِ الـذي كُتِبَ له البقاء».

– أوسكار وايلد

بدأ هذا الفصل بالملاحظة التالية، بما أنَّ الانتخاب الطبيعي الدارويني يمقت الإسراف، فإنَّ أي وجودٍ مطلق لخاصّة ما في المخلوقات مثل الدين يجب أن يكونَ لها فائدة أو أنه لن يكتب لها البقاء. ولكنني نوهت أن الفائدة لا يجب أن يكون لها تأثير على البقاء أو نجاح الاستمرار بالخلفة للفرد.

وكما رأينا فإنَّ فوائد جينات فيروسات الرشح تكفي لشرح الوجود المطلق للشكاوي البائسة في نوعنا البشري. ولا يجب أن يكون الجين حتى مستفيدًا. بل أي مضاعف سيؤدي غرض الشرح بشكل جيد. والجينات هي فقط المثال الأكثر وضوحًا للمضاعفات. المرشحون الآخرون هم فيروسات الكومبيوترات، وميمات وحدات الحياة الثقافية المتوارثة وموضوع هذا القسم. إذا أردنا فهم الميمات، فعلينا أن ننظرَ أولاً بدقة أكبر لكيفية عمل الانتخاب الطبيعي.

بشكل عام، يجب على الإنتخاب الطبيعي أن يختار بين المضاعفات المختلفة. المضاعف هو قطعة من المعلومات المشفرة التي تصنع نسخًا مطابقة لذاتها، وقليلاً من النسخ الغير مضبوطة تمامًا أو ما يسمى المحورة. والنقطة التي نتكلم عنها هي داروينية هنا.

أصناف المضاعفات التي تصادف أن كانت جيدة لتتضاعف ويزداد عددها على حساب المضاعفات الأخرى والتي أنتج نسخها مضاعفًا سيئًا. ذلك، هو الشرح الأولى للإنتخاب الطبيعي. المضاعف هنا هو المورث، امتداد للـــــــد ن أ يتضاعف، وبدقة بالغة، وعلى أجيال لا تحصى.

السؤال المركزي في نظرية الميمات هي عمّا إذا كان هناك وحدات ثقافية تقليدية تسلك سلوك المضاعفات، مثل الجينات. لا أقول هنا أنَّ الميمات هي بالضرورة متشابهة مع الجينات، أقول فقط بأنه كلما اقتربت الميمات شبهًا بالجينات فإن النظرية تعمل بشكل أفضل والسؤال هنا هو عما إذا كان بإمكان نظرية الميمات أن تعمل في تلك الحالة الخاصة المسماة بالدين.

في عـالم الجينـات، تكـون الأخطـاء في النسـخ كالتـالي، الجـين عـادة ينتمـي لمجموعة تحتوي على جينات مشـابهة في الغـرض تنافس بعضها. تنافس بعضها على ماذا؟ على مكان المـورث الذي بخص هذه الفئة من المواصفات ضمن سلسلة الــــ دي أن أ. وكيف يتنافسون؟ ليس بمعركة بـين الجزئ والجـزئ الآخر بل بواسـطة وكلاء. الوكلاء هـم المواصفات الخارجيـة أشـياء كطول الرجلـين أو لون الفـرو: مميزات الجينـات تظهر للخـارج علـى شـكل تشريحي، نفـسي، بيوكيميائـي أو سـلوكي ومصير الجين مربوط بالأجسـام الذي يسـكن فيها بالوراثـة. والطريقة التي يؤثر فيها الجين على هذه الأجسـام تؤثر على فرص بقائه في مجموعة الجينات. وعبر الأجيـال تكثر الجينات أو تقل في مجموعاتها بحسـب قيمة الظواهر الخارجية التي تسببها لوكلائها.

هـل ينطبق نفـس الشيء على الميـمات؟ نأخذ بعين الاعتبـار بأنهم من ناحية ليسوا أبدًا كالجينات لأنه لا شيء ينتمي للمورثات أو المواصفات أو التجميع الجنسي. مجموعة الميمات أقل تنظيمًا وترتيبًا من مجموعة الجينات. برغم ذلك، فليس من السخيف الكلام عن مجموعة الميمات، والتي يكون لبعضها «ذبذبات» تتغير كنتيجة للتفاعل بين ميمات مختلفة.

البعـض تعترضون علـى الشرح الميماتي، ولأسـباب مختلفة تـأتي غالبًا مـن الواقع بأنَّ الميمات ليس تمامًا كالجينـات. التركيب الفيزيائي للجينات معروف (سلسلة الــــ دي أن أي) وتركيب الميمات ليس معروفًا، الميمات المختلفة تنتقل من وسط فيزيائي لآخر. هل توجد الميمات في الدماغ فقط؟ أو أن كل نسخة ورقية أو إلكترونية لقصيدة فكاهية يحق لنا تسميتها بالـــ

ميمة؟ ومرة أخرى تتضاعف الجينات بدقة عالية جدًا، بينما لو تضاعفت الميمات، أفلن تفعل ذلك بدقّة منخفضة جدًا؟

تلك المشاكل المزعومة عن الميمات مبالغ بها إلى حد ما. وأهم اعتراض عليها هو الزعم بأن الميمات لا تنسخ بدقة عالية بالنسبة لوظيفتها كمضاعف دارويني. الإشتباه كالتالي، لو أن «نسبة التحوير» في الميمات كانت عالية (دقة منخفضة في النسخ) فإن الميمات ستتغير بشكل تخرج معه من الوجود قبل أن يستطيع الإنتخاب الطبيعي أن يؤثر على «ذبذباتها» في مجموعة الميمات ولكن تلك المشكلة وهمية.

فكر بمعلم نجارة، أو حجر من قبل التاريخ، وهو يستعرض المهارات للصانع الشاب الذي سيخلفه. لو أنَّ الخليفة قلّد بأمانة كل حركة يدوية للمعلم، ستتوقع بكل تأكيد أنَّ الميمات ستتغير بشكل لا يمكن التعرّف عليها بعد عدد قليل من تناقلها عبر «الأجيال» من معلم صانع. ولكن الصانع بالطبع لن يحاول تأدية نفس الحركات اليدوية.

ذلك سيبدو سخيفًا. عوضًا عن ذلك، سيلاحظ الهدف الذي يحاول المعلم أن يحققه، ويقلد ذلك. دق المسمار حتى يصبح الرأس على مستوى الخشب، لا يهم عدد ضربات المطرقة، والتي ربما ليس بنفس عدد ضربات المعلم. تلك هي القواعد التي يمكن أن تعبر خلال الأجيال بدون تغييرات، ولا يهم كون طريقة التصرف مختلفة بشكل ما من شخص لآخر، ومن حالة لحالة.

عدد الشكات في التطريز، عدد العقد في شبكة الصيد، طريقة طي الأورغامي، الخدع المفيدة في النجارة: كل ذلك يمكن اختزاله لعدة

عناصر والتي ستكون لها فرصة المرور عبر الأجيال المتلاحقة عبر التقليد بـدون تغيير. ربما تختلف التفاصيل، ولكن الخلاصة ستمرر بدون تغيير، وهذا كل ما نحتاجه في عملنا على المقارنة بين الميمات والجينات.

في مقدمتـي التـي أرسـلتها إلـى سـوزان بلاكسـميث ماكينـة الميمات طورت مثـالاً عن طريقة الأورغامي في عمل نمـوذج من الجنك الصيني (صناعة نماذج بطي الأوراق لأشياء كالقوارب أو الطيور... لعبة يمارسها الأطفـال). الوصفـة المعقدة ولها أثنـان وثلاثون خطوةً عمليـة طي أو ما شابه.

النتيجـة النهائيـة كانـت نموذجًا ظريفًـا وكذلـك كان ظريفًا في ثلاث خطـوات خلال الفـترة «الجينينة» وهـي «الرمث» والصنـدوق مع غطاء مضاعـف وبرواز اللواحة. العملية تذكـرني بالتأكيد بالطيات التي تحصل في الأغشية الجينية خلال مراحل تطورها من شكل لآخر.

تعلمت عمل الجنك الصيني في طفولتي وذلك من أبي، والذي تعلمها بدوره، عندما كان في نفس العمر، من أقرانه في المدرسـة. أنتشر هوس في المدرسـة بالجنك الصيني بدأته رئيسة المدرسـة، كما ينتشر مرض معد، ثم مـات الهوس، كما ينتهـي المرض المعدي أيضًا. وبعد سـت وعشرين عامًا وبعد إن ماتت الرئيسة بزمن طويل، ذهبت للمدرسة ذاتها. ونشرة الهوس مـرة أخرى وأنتشر مرة أخـرى، أيضًا كمرض معد ومـات بعد ذلك مرة أخرى.

إن الواقـع بـأنَّ مهـارات كتلك تنتشر بهذا الشـكل يقول لنا شـيئًا عن أمانة النسـخ في الميـمات. وبإمكاننا الفرض بأنَّ الجنـك الذي صنعة أقران

والدي في العشرينات في تلك المدرسة ليس مختلفًا عن الذي صنعناه نحن بشكل علم في الخمسينات.

ما هو الفرق الجوهري بين المهارتين اليدويتين؟ أنَّ المهارة الأصلية تحتوي على سلسلة من الأفعال المنفصلة، وليس أي منها صعبًا على التنفيذ. في الغالب العمليات تكون مشابهة لـ: «أطوي طرفي الورقة نحو الوسط». وعضو معين في الفريق ربما ينفذ الخطوة بحماقة، ولكن سيكون واضحًا للعضو التالي ما يريد فعله.

وبالتالي فأن خطى الأورغامي فيها شيء من التطبيع الذاتي، وذلك ما يجعلها رقمية بطبيعتها. تمامًا كما هو الحال مع المعلم النجار والذي هدفه يبدو واضحًا للصانع عن إدخال المسمار بغض النظر عن التفاصيل في عددٍ ضربات المطرقة. أما الخطوة كاملة أو لا.

وعلى العكس من ذلك فإن الرسم هو مهارة نظيرية غير رقمية. الكل يستطيع تقليد الرسوم ولكن البعض يفعله أفضل من الآخرين. ولا أحد ينقل الرسم بأمانة كاملة. الدقة في النسخ، تعتمد أيضًا على الوقت والحرص على الإنتاج الجيد وتلك أيضًا متغيرات. وبعض أعضاء الفريق ربما «يُحسنون» الرسم بدلاً من مجرد نسخ النموذج السابق.

الكلمات على الأقل عندما تكون مفهومة فيها تصحيح ذاتي بنفس الطريقة التي تعمل بها الأورغامي. وفي لعبة الهمس الصيني التلفون تروى حكاية للطفل الأول، أو عبارة ويطلب منه أن يمررها للطفل التالي، وهكذا. وعندما تكون العبارة أقل من سبع كلمات، في اللغة المحكية لكل الأطفال، فهناك فرصة جيدة أن العبارة ستبقى بدون تحوير، لعشرة

أجيـال. وعندما تكون بلغة أجنبية غـير معروفة بحيث أن الأطفال مجبرن علـى التقليد الصوتي بدلاً عن الكلمات، فإنَّ العبـارة لن تبقى. والتدهور عبر الأجيال مشابه للرسم.

وسـتغربل أيضًـا. عندما تكـون العبارة لها معنى باللغـة الأم للأطفال ولا تحتـوي على كلمات معقدة مثل «النمط الظاهري» أو ما شـابهها فإنها تبقـى. وعوضًا عـن محاولة تقليد الصوت النمطـي، فإن كل طفل يتعرف على كل كلمة كعضو في مجموعة المفردات النهائية ويختار الكلمة نفسـها، ربما ملفوظة بطريقة مختلفة غالبًا، عندما يريد تمريرها للطفل التالي. واللغة المكتوبـة أيضًـا لها نفس مميـزة التصحيح الذاتي لأنه مهـما كان الخط مختلفًا بمويله فإن هناك عددًا محدودًا من الأحرف وكل الكلمات تأتي منها.

إن تفسـير الأمانة في النقل للميمات بموضوع التصحيح الذاتي بشكل من الأشكال يكفي للإجابة عن بعض التساؤلات ـ والرد على الإعتراضات العامـة في موضوع تشـابه الجينـات بالميمات. وعلى أية حـال، إنَّ الغرض من نظرية الميمات في هذا الطور المبكر ليس لإعطاء تفسـير تفصيلي لنظرية تطور الثقافة، مناظرة لجينات واطسون وكريك.

غـرضي الرئيسي هنا في الدفـاع عن الميمات، كان بالطبـع لدفع الفكرة بأنَّ الجينات ليسـت اللعبـة الداروينية الوحيدة في الميدان، خاطرت بذلك الإنطباع وكان من مخاوفي في كتابي الجين الأناني.

لقـد أكد بيتر ريشرسـون وروبرت بويـد على النقطـة في كتابهم القيم والفكري ليس بالجينات وحدها، برغم أنهما أعطيا أسبابًا لعدم تبني كلمة «ميمـة» بذاتهـا، ومفضلين عليهـا كلمة «التحويـرات الثقافيـة». وكتاب

ستيفان شينان جينات، ميمات، وتاريخ الإنسان استوحى من كتاب أقدم لـــ بويد وريشرسون، الثقافة وعملية التطور. وهنا الكثير من الكتب مخصصة لشرح الميمات وتتضمن كتاب روبرت أونغر الميمة الكهربائية وكات ديستين الميمة الأنانية وفيروسات العقل: علم الميمات الجديد للكاتب ريتشارد برودي.

ولكن سوزان بلاكمور في كتابِ آلة الميمات، هي التي أعطت دفعًا لنظرية الميمات أكثر من أي أحد آخر. تصوّرت بشكل متتالي عالمًا من الأدمغة (أو أي أوساط أخرى يمكنها تخزين المعلومات، كالكومبيوترات أو أمواج الراديو) وميمات تتدافع لاحتلالها. كما الجين في مجموعة الجينات والميمات التي تربح هي الميمات التي تستطيع أن تؤمن نسخ لنفسها. ربما لأنَّ لها مظهرًا حسنًا يبدو بشكل مباشر، كما نفترض، في حالة فكرة الخلود لدى البعض. أو ربما لأنها تزدهر في وسط من الميمات الأخرى التي أصبح عددها كبيرًا في مجموعة الميمات. ومن ذلك تنشأ الميمات المعقدة. وكما هو الحال في الميمات، فإننا نستطيع فهمها بالعودة لشبيهتها في الوارثة البيولوجية.

لغرض تعليمي، عالجت موضوع الجينات على أنها واحدات منفصلة، وتتصرف بشكلٍ مستقل. ولكن بالطبع أنها ليست مستقلة على بعضها، وهذا واضح من خلال نقطتين.

الأولى، الجينات مصفوفة بشكل خطي على المورثات، وتميل للتحرك معًا عبر الأجيال بمرافقة الجينات المجاورة على الكروموزومات. ونحن الأطباء ندعوا ذلك الترابط بالترابط، ولن أقول اكثر من ذلك في هذا الموضوع لأن الميمات ليس لها كروموزومات أو ارتباطات تتعلق بالجنس.

والنقطة الثانية التي لا يكون فيها الجين مستقلاً تختلف تمامًا عن الترابط الجيني، وهناك تشابهًا بينها وبين الميمات. وتتعلق بعلم الأجنة الذي هو في معظم الحالات مفهوم خطأ، متميز تمامًا عن علم الجينات. فالأجسام ليست مصفوفة كالموزاييك وكل منها له مهمة وينتمي لجين مختلف. فليس هناك ما يقابل مخطط يربط الجين بالعضو أو السلوك بعلاقة واحد لواحد. الجينات تشترك بالمئات لتطور عملية والتي تظهر في الجسد، بنفس الطريقة التي تشترك فيها كلمات وصفة في كتاب طبخ لتظهر بعد ذلك في الطبق. وليس بأن كل كلمة في الواصفة تؤدي للقمة في الطبق.

الجينات، إذن تشترك بالإحتكار لبناء الأجسام، وهذا ربما أحد أهم المبادئ لعلم الأجنة. ومن المغري القول بأنَّ الانتخاب الطبيعي يفضل احتكار الجينات كشكلٍ من أشكالِ الانتخاب الجماعي بين مختلف مجموعات الاحتكار. ذلك محير. في الواقع ما يحصل أنَّ الجينات الأخرى في مجموعة الجينات تكون الوسط المحيط الذي تختار فيه الجينات وتهمل أخرى؛ لأنَّ كل منها يختار لأنه يكون ناجحًا بوجود الآخرين، الذين اختيروا أيضًا بنفسِ الطريقة وبذلك تظهر ظاهرة الاحتكار. ويبدو أنَّ لدينا سوقًا حرًا عوضًا عن تخطيط اقتصادي. هناك اللحام والخباز، ولكن هناك فراغ في صناع الشموع. تلك اليد الطبيعية غير المرئية للانتخاب الطبيعي تملأ الفراغ. وذلك مختلف عن وجودِ مخطَّطٍ مركزي والذي يفضل الثلاثي لحام +خباز + صانع شموع. إنَّ اليد الخفية التي تشكل هذا الاحتكار ستكون مركزية في فهمنا لميمات الدين وتفسير فعاليتهم.

احتكارات مختلفة للجينات تظهر في مجموعة الجينات. مجموعة جينات الحيوانات اللاحمة فيها جينات لإلتقاط رائحة الفريسة وجينات

للمخالـب اللاقكة، لا أسـنان قاطعة ولا إنزيـمات لهضم اللحم وجينات أخرى، وكلها معيرة بشكل جيد لتعمل معًا. وفي نفس الوقت، في مجموعة جينات العاشبات توجد مجموعات مختلفة من الجينات التي تفضل العمل مع بعضها. الفكرة التي نألفها هي أن الجينات التي تفضل بسبب تطابقها مع الظـروف الخارجية في الوسـط المحيط للكائنات صحـراء، غابات أو غـيره. والنقطـة التـي أنـوّه لها هنا هـو أن الجين يفضـل أيضًـا لتطابقه مع جينـات أخرى في مجموعة الجينات. والجـين المخصص للاحمات لن يبقى ويستمر في مجموعة العاشبات والعكس بالعكس، وعلى المدى الطويل.

فإنّ مجوعة جينـات كائن ما، مجموعة خلطت تكرارًا بالتكاثر الجنسي، تتألـف من بيئة جينيـة حيث يختار الجين لقدرته علـى التعاون. وبرغم أنَّ مجموعاتِ الميمات ليسـت منظمة ومخططـة كمجموعات الجينات، إلا أننا نستطيع التكلم عن مجموعة الميمات كبيئة مهمة لأي ميمة في المجموعة.

مجموعـة الميـمات، مع أنها ربما لـن تنجح بالبقاء بإعتمادها على نفسـها فقط، لكنها تصبح أقدر على ذلك بوجود أعضاء آخرين في المجموعة. في الفقرة السابقة كنت قد شككت بأن تفاصيل اللغة وتطورها ستفضل من طـرف أي نوع مـن الإنتخاب الطبيعي. واقترحـت أن تطور اللغة محكوم بانزياح عشـوائي. من البديهي أنَّ بعض الأحرف الصوتية تصل لمسافات أبعـد من غيرها في مناطـق الهضبات، ولذلك فربما اصبحت خواص للغة المحلية لمناطق مثل سويسرا، التبت، إلخ.

بينـما أحرفة أخرى تكـون أفضل للهمس في الغابـات الكثيفة وبذلك تصبـح مـن خـواص لغـات الأمـازون ومـا شـابه. ولكـن المثـال الـذي استشـهدت بـه عن اللغات وخضوعهـا للانتخاب الطبيعـي النظرية عن

تطور الأحرف الصوتية بسبب فعاليتها ليس من هذا النوع. ولكنه ناتج عن الميمات التي تقع موقعًا حسنًا في مجموعة الميمات.

أحد الأحرف الصوتية يتغير في الأول ولسببٍ غير معلوم، ربما للتقليد لأحد الأشخاص المهيمن المحبوبين، كما يقال عن اللغة الأسبانية. ولكن ليس المهم كيف تحول الحرف الأول: اعتمادًا على تلك النظرية، فعند تغير الحرف الأول، تتبعه أحرف أخرى مثل عربات القطار لتخفف من الحيرة وباستمرار. وفي هذه المرحلة من العملية، أختيرت الميمات من خلفية مجموعة ميمات موجودة، وبنيت منها مجموعة ميمات متألفة جديدة.

وأخيرًا أصبحنا جاهزين للتطبيق نظريةِ الميمات على الأديان. بعض الأفكار الدينية مثل بعض الجينات، تبقى وتستمر لأنها تستحق. وتلك الميمات ستبقى في أي مجموعة ميمية، بغض النظر عن الميمات التي حولها. (على أن أركز على أهمية الإستحقاق في هذا السياق والتي لا تعني أبدًا وجود قيمة ما للفكرة وإنما فقط «قدرتها على البقاء في المجموعة") وبعض الأفكار الدينية تبقى لأنها متطابقة مع ميمات أخرى متعددة في المجموعة وكجزء منها. فيما يلي استعرض بعض الميمات التي يبدو أنها بقيت واستمرت في مجموعة الميمات، لاستحقاقها أو بسبب تطابقها وتماشيها مع ميمات أخرى:

- ستحيا بعد موتك

- لو مت كشيهد، فسيكون لك مكان خاص في الجنة الرائعة حيث تستمع باثنين وسبعين حورية عذراء (فكر قليلاً بالعذراوات المساكين).

- الزنادقة، الكفار والمرتدين يجب قتلهم (أو معاقبتهم بمقاطعة عائلاتهم لهم مثلاً)

- الإيمان بالله هو ميزة على قدر عظيم من الأهمية. وعندما تجد بأنَّ إيمانك يهتز، عليك العمل بجد لترميمه، وأطلب من الله أن يساعدك في ذلك (في مناقشتي لرهان باسكال نوهت على أنه من المحير أن الله يريدنا حقًا أن نؤمن به. وقتها كان الموضوع احجية والآن أصبح لدينا شرح لذلك)

- الإيمان (التصديق بدون أدلة) ميزة. وكلما كان إيمانك ينافي الأدلة كلما تميزت بشكل أكبر. المؤمنون المميزون يطوّرون قدرات على الإيمان بأشياء غريبة، لا أساس لها، ولا يمكن أن يكون لها أساس عند مواجهة الأدلة، هؤلاء لهم أجر عظيم.

- الجميع، وحتى هؤلاء الذين لا يؤمنون بالدين، عليهم تقديم أقصى آيات الاحترام الأوتوماتيكي وبدون أي تساءل عما يتعلق بهذه الأشكال من الإيمان (ناقشنا ذلك في الفصل الأول).

- هناك أشياء غريبة (مثل الثالوث الأقدس، القيامة، الصعود للسماء) والتي لم نخلق لفهمها. لا تحاول الفهم لأي منها؛ لأن المحاولة ربما تهدمها. تعلم كيفية الرضا بوصفها بالأشياء الغامضة.

- الموسيقا الجميلة، الفن والكتاب المقدس يعملون كناسخين للأفكار الدينية.

هناك بعض العناصر من اللائحة السابقة مما له قيمة مطلقة للبقاء وسيزدهر في أي مجموعة ميمات. ولكن وكما هو الحال في الجينات، فإنَّ

بعض الميمات تبقى فقط في الوسط المناسب من ميمات أخرى، وتؤدي لبناء مجموعة بديلة من الميمات، دينان مختلفان مثلاً يمكن أن يكونا مجموعتي ميمات. وربما كان الإسلام يشابه جينات اللاحمات، والبوذية تشابه العاشبات. الفكرة هي أنه ليس أحد الدينين بأفضل من الآخر بشكل مطلق، كما هو الحال من أن اللاحمات أفضل من العاشبات. والميمات الدينية في هذه الحالة ليس لها أي كفاءة للبقاء، ولكن من جهة أخرى، فإنهم يزدهرون بوجود ميمات أخرى من دينهم، وليس بوجود ميمات من الدين الآخر. وتبعًا لذلك النموذج، الروم الكاثوليك والإسلام مثلاً لم يصمما من قبل أفراد، ولكن تطورا بشكل مستقبل كبدائل من الميمات التي ازدهرت بوجود أعضاء أخرى من نفس مجموعات الميمات.

الأديان المنظمة يقوم عليها أشخاص، قسس ومَطارين، حاخامات، أئمة وآيات الله. ولكن ومرة أخرى للتأكيد على النقطة التي أريد توضيحها عن مارتن لوثر، ذلك لا يعني بأنها مصممة أو مخلوقة من الأفراد. حتى في حالة استغلال الدين ومعالجته لمصلحة بعض الأفراد، فإنَّ الإمكانية القوية تبقى بأنَّ تفاصيل كل دين قد شذبت بطريقة تطورية لا واعية. ليس بالانتخاب الطبيعي الجيني، والذي هو بطيء جدًا ليكون سببًا في التطور السريع والمتنوع للأديان. ودور الانتخاب الطبيعي الجيني يقتصر على تأمينِ الدماغ، بكل ميوله وانحيازاته القسم الصلب والبرنامج البدائي والذي يخلق الخلفية.

وبهذه الخلفية يبدو لي أنَّ الانتخاب الطبيعي بشكل ما تؤمن مصداقية لتفاصيل التطور لدين ما. في الأطوار البدائية من تطوّر الدين وقبل أن

يصبح منظمًا، تدين الميمات ببقائها لقيمتها المستقلة وجاذبيتها من ناحية النفسية البشرية. وهنا تتقاطع نظريتي الميمات والناتج العرضي النفسي والمراحل اللاحقة حيث يصبح الدين منظمًا مدروسًا ومميزًا عن الأديان الباقية، تعالج بشكلٍ جيد بنظرية مجموعة الميمات، احتمارات من الميمات المتوافقة، ذلك لا يلغي الدور الآخر الذي يلعبه القساوسة والآخرون لتطويع الدين لمصالحهم. الأديان على الأقل مصممة بذكاء كما هو الحال في المدارس والموضة في الفن.

الدين الوحيد الذي صمم بذكاء، في كل تفاصيله تقريبًا، هو السيانتولوجي، ولكني أشتبه في أنه حالة استثنائية. والمثال الآخر عن الدين المصمم كليًا هو الهورمون. جوزيف سميث، الكاذب الجرء الذي اخترعته، ذهب لحدٍّ تأليفِ كتاب مقدس جديد بشكل كامل، كتاب المورمون، ألف تاريخًا مزيّفًا لأمريكا، كتبه بلغةٍ إنجليزية مزيّفة تعود للقرن السابع عشر.

ولكن المورمونية على أية حال تطورت منذ زمن صناعتها في القرن التاسع عشر وأصبحت أحد أديان أمريكا التي تعتبر رئيسية بالطبع تدعي أنها الديانة الأسرع انتشارًا وهناك بعض الشائعات عن مرشح للرئاسة الأمريكية ممن ينتمون إليها (الشائعة صارت واقعًا، السيد رامني كان من المرشحين وانسحب - المترجم)

معظم الأديان تطورت، ومهما كانت نظرية تطور الأديان، فعليها أن تستطيع تفسير السرعة الهائلة للعملية التي تطور فيها الدين، بوجود الظروف المؤاتية تستطيع الأديان الإزدهار وفي ما يلي حالة مدروسة.

طائفة الشحن:

في فيلم حياة برايان، كانت إحدى النقاط التي برع فريق المونتي بايثون في إظهارهـا هي السرعة الهائلة التي يستطيع فيها ديـن جديد الانطلاق. يستطيع الظهور للوجود تقريبًا بين ليلة وضحاها وبعدها يصبح جزءًا من الثقافة، ويلعب دورًا رئيسـيًا مزعجًا. طائفة الشحن في ميلانزيا في المحيط الهادي وغويانا الجديدة تستعرض لنا أشـهر مثال حي عن ذلك. وتاريخ بعض الطوائف من هذا الشـكل، من البداية حتى إنتهاء المفعول، يتواجد في الذاكـرة الحيـة. وعلـى عكس طائفـة المسيح، والتي لا يمكـن إثبات أصلها بشـكل اكيد، فإننا هنا نستطيع رؤية أحداث كل مرحلة أمام أعيننا (وحتـى هنا كما سـنرى ضاعت بعض التفاصيل). مـن المثير جدًا التفكير بأنَّ طائفة المسـيحية قد بدأت بشكل شـبه مؤكد بنفس الطريقة وانتشرت في البدء بنفس السرعة.

مصـدري الرئيـسي عن طائفة الشـحن هـو دافيـد ايتينبـورو في كتابه السـعي في الجنة. والذي تلطف بتقديمه لي. النمط نفسه للجميع من أبكر طائفة في القرن التاسـع عشر حتى الطوائف الأكثر شهرة والتي نمت بعد أحـداث الحرب العالمية الثانية. ويبدو أنه في جميع الحالات قد انصرع أهل الجـذر بعجائب أمـلاك المهاجرين البيض الذي قدمـوا لجزرهم، متضمنًا المشرفـين والجنود والمبشّرين. ربما أنهم كانوا ضحية قانون كلارك الثالث، الـذي نوهت عنه الفصـل الثاني: «أي تكنولوجيا متقدّمة بشـكلٍ كافٍ لا يمكن تمييزها عن السحر».

أهـل الجزيرة لاحظـوا بأنَّ البيض الذيـن يتمتعون بتلـك العجائب لم يصنعوها أنفسـهم أبدًا. وعندما يحتاج شيئًا ما للإصلاح فإنه يرسل لمكان

آخر، وأشياء أخرى واظبت على القدوم في شحنات في بواخر، وبعدها بالطائرات.

لم يشاهد رجلاً أبيضَ يصنع أو يصلح شيئًا ألبتة، ولا حتى فعلوا أي شيء مما يمكن اعتباره عملاً من أي نوع (الجلوس خلف المكتب واللعب بأوراق بدا واضحًا بأنه نوع من الولاء الديني). من الواضح، إذن بأنَّ الشحنة يجب أن تكونَ ذات أصلٍ غير عادي. وكتعزيزٍ لتلك الفكرة؛ فإنَّ البيض يقومون بأشياء لا يمكن تفسيرها إلا بأنها طقوس احتفالية دينية:

يبنون سواري مع أشرطة متعلقة بها، ويجلسون يستمعون لصندوق صغير يشع بضوء ضعيف ويصدر ضجة مثيرة للفضول وصوت مخنوق، أغروا السكان المحليين لارتداء زيٍّ موحد، والمشي في صفٍّ منظّمٍ ذهابًا وإيابًا ومن الصعب التفكير بشيء أقل فائدة من ذلك. وبعدها لاحظ السكان المحليون أنهم وصلوا للجواب على السؤال الغامض. تلك التصرفات غير المفهومة هي الطقوس التي يستعملها البيض لإغراء الإله وإرسال الشحنة، ولو أراد المحلّيون الحصول على الشحنة فإنَّ عليهم فعل ذات الشيء.

من اللافتِ للنظر بأنَّ طوائف شحن ظهرت فجأة وفي الوقتِ نفسه بشكلٍ مستقل في جزرٍ متباعدة جغرافيًا وثقافيًا. دافيد أتينبورو يقصُّ علينا بأن علماء الأنثروبولوجيا، لاحظوا بأنَّ عوارض مفاجئة متباعدة ظهرت في كاليدونيا الجديدة، أربعة في السلومون، وأربعة في فيوجي، سبعة في هيبريد الجديدة، وما يقارب الخمسين في غويانا الجديدة، الغالبية كانت مستقلة وليس هناك علاقة بين أحدها والأخرى. غالبية تلك الأديان تدعي بأنَّ هناك مخلصًا ما سيأتي بشحنة في يوم القيامة.

إن الإزدهـار، للعديد من الطوائف المتماثلة، يقترح علينا بعض الأمور المشـتركة عن النفسية الإنسـانية. أحد الطوائف المشهورة في جزيرة تانا في هيبريد الجديدة (المعروفة باسـم فانواتو منذ عـام 1980 لا يزال موجودًا. ومركزها مبشر يسمى جون فروم.

هناك ذكر لجون فروم في سجلات الدولة الإنكليزية يعود لــــ 1940 ولكن حتى وقت قريب لا أحد يعرف أن كان شخصًا حقيقًا أو إن كان قد وجـد بالفعل كرجل حقيقي. أحد الأسـاطير تصفه كرجل قصير بصوت حاد وشعر مصفف، يلبس معطفًا بأزرار لامعة.

أصـدر العديد من النبوءات الغريبة، وتكبد مشـاقًا ليلقب الناس ضد المبشريـن. وفي الآخـر عاد إلى الأسـلاف، بعد أن وعد بعـودة ظافرة مع شـحنة عظيمة. ورؤيته عنـد القيامة تتضمن كارثة عظيمة، جبال تسـطح ووديـان تمتلـئ، العجائـز سيسـتعيدون صباهـم والأمـراض سـتختفي، البيض سيطردون من الجزيرة بدون عودة، وشحنة ستصل بكميات كبيرة بحيث إنَّ كل واحد سيحصل على كل ما يريد.

أكثر ما يقلق الحكومة، هو أنَّ جون فروم تنبّأ بأنه في عودته، سـيحضر معه عملة جديدة، مصكوكة بصورةٍ جوزة هند. ولذلك فإنه على السكان المحليـين أن يتخلصـوا من كل العملـة الخاصة بالرجـل الأبيض. في عام 1941 أدى ذلـك لحصـول حركة صرف نقود مرحة، توقف السـكان عن العمـل وتضرّر اقتصاد الجزيرة بشـكل جدي. وإدارة الاحتلال سـجنت زعـماء الحلقات الدينيـة ولكن لا شيء نفع لإلغـاء الطائفة، وهجر الناس الكنائس والمدارس.

بعـد ذلك بفـترة قصيرة، نشـأ تلقين جديد بـأنَّ جون فـروم هو ملك أمريـكا. وللحـظ، حطـت فـرق جيـش أمريكيـة رحالها في جـزر هيبريد الجديـدة في نفـس الوقت، وأعجـب العجائب حصـل، كان بينهم رجال سود ولم يكونوا فقراء كأهل الجزيرة أنفسهم ولكن:

«موهوبـون وأغنياء بالشـحنات تمامًا كما هو الحـال في الجنود البيض. وإثارة عارمة اجتاحت الجزيرة المسـماة تانا. لقـد اقترب يوم القيامة. وبدأ كل شـخص يحضر نفسـه لوصول جون فروم. وأحد القادة قال بأن جون فرم سيأتي من أمريكا بطائرة وبدأ المئات من الرجال بتنظيف الأحراش في مركز الجزيرة حتى يكون هناك مجال لتحط الطائرة على مهبط».

والمهبـط له برج مراقبة مصنوع من قصب البامبو وفيه مراقب للحركة لجويـة يلبس سـماعات رأس مزيفـة مصنوعة من الخشـب. وهناك نماذج طائـرات علـى المهبـط تعمل كفـخ ومصممة لتسـحر طائرة جـون فروم وتسحبها للأسفل.

وفي عام 1950 أبحر دافيد اتينبورو الشـاب إلى تانا مع مصور، اسـمه جيفـري موليغان، لتحرّي موضوع طائفة جون فروم. وجدوا العديد من الأدلـة على الديـن وتعرفوا في الآخـر على الكاهن الأعلى رجل أسـمه نامباس.

نامباس يتكلم عن المخلص بــــ جون ويدّعي بأنه يتكلم معه بشـكل منتظم، بــــالراديو وهذا الراديو خصوصية جون عبارة عن امرأة عجوز وشريـط كهربائـي يلف خصرهـا وتصاب بما يشـبه نوبة الـصرع وتتكلم بغمغمة غير مفهومة ونامباس يفسر كلمات جون فروم.

نامبـاس يدعـي بأنه عرف مسـبقًا بقـدوم اتينبورو لرؤيتـه، لأن جون أخـبره بذلـك بـــالراديـو. اتينبوروا طلـب أن يرى الراديـو ولكن طلبه رفض لاعجب. وتغيّر الموضوع وسـأل نامباس عما إذا كان قد رأي جون فروم:

نامباس هز رأسه بالإيجاب بشكل مؤكّد. أنا أرى جون مرّات كثيرة.

كيف هو شكله؟

أشـار نامبـاس بأصبعه على. هو يشـبه أنـت. هو له وجـه أبيض، هو رجـل طويل، هو يعيش طويـلاً في أمريكا جنوبية طويـلاً تلك التفاصيل تتناقـض الأسـطورة عن أن جون فـروم كان قصير القامـة، وهذه أحدى الطرق التي تتطور بها الأساطير.

مـن الأمـور المُسـلَّم بها هو عـودة جون فروم سـتكون في 15 شـباط، ولكـن ليـس من المعـروف في أي عام. وي15 شـباط مـن كل عام يجتمع أتباعـه لاحتفـال دينـي للترحيـب بقدومه. وحتـى الآن لم يعـد وكنهم لم ييأسوا. دافيد أينبورو قال لأحد أفراد الطائفة واسمه سام:

» ولكن يا سـام، لقد مضى تسـعة عشر عامًا منذ الوقت الذي قال فيه جـون أنَّ الشـحنة سـتصل. لقد وعد ووعـد، لكن الشـحنة لم تصل بعد. أليست تسعة عشر عامًا وقتًا طويلاً للانتظار؟

سام رفع عينيه من الأرض ونظر إلي قائلاً:

«إذا كنت تسـتطيع الإنتظار لألفي عام حتى يعود المسـيح ولم يعد، فأنا إذن أستطيع انتظار جون أكثر من 19 عامًا».

في كتابه هل باستطاعتنا أن نكون صالحين بدون الإله؟ لروبرت بوكمان يتقبس الكاتب الرد السريع والمدهش لتابع جون فروم، وهذه المرة لصحفي كندي بعد حوالي أربعين عامًا من لقاء أتينبورو.

الملكة والأمير فيليب زارا المنطقة عام 1974 وبالنتيجة أصبح الأمير والملكة تتحدى نموذج جون فروم (مرة أخرى، لاحظ السرعة التي تتطور بها تفاصيل الدين والتغيّر) الأمير رجل وسيم وبهندام عسكري أبيض أنيق وخوذة مريشة، وليس مفاجئًا - بأنه وليس الملكة - قد حصل على السمو بتلك الطريقة، وذلك بعيدًا عن تقاليد أهل الجزيرة والتي تستصعب وجود أنثى إلهية.

لا أريد أن أعطي طوائف الشحن الكثير من الأهمية. ولكنهم يقدمون لنا مثالاً ساحرًا حديثًا عن نموذج للطريقة التي تنشأ بها الأديان من العدم تقريبًا. والأهم أن ذلك يعلمنا أربعة دروس عن أصول الدين بشكل عام، وسأستعرضهم بشكل مقتضب هنا.

الأول هو السرعة الهائلة التي تنشأ بها طائفة ما.

الثاني هو السرعة التي تمحي بها الفكرة الأصلية آثارها. أن جون فروم بفرض أنه وجد حقًا قد فعل ذلك في مرحلة الذاكرة الحية. ولكن حتى بتلك الآونة الحديثة من التاريخ فإنه من غير المؤكد أنه قد وجد من أصله.

الدرس الثالث نأخذه من الظهور المستقبل لطوائف متماثلة في جزر متباعدة والدراسة المنظمة للتشابهات تعلمنا بعضًا من سيكولوجيا الإنسان واستعدادها للتدين.

الدرس الرابع، طوائف الشحن متشابهة، ليس فقط مع بعضها ولكن من الأديان القديمة كالمسيحية التي انتشرت عالميًا وربما بدأت بطائفة محلية مثل طائفة جون فروم.

و بالتاكيد، فإن بعض الدارسين مثل غيزا فيرميس، بروفيسور في الدراسات اليهودية في اكسفورد، يقترح بأن المسيح كان واحدًا من العديد من الشخصيات المؤثرة التي ظهرت في فلسطين في وقته، ومحاطة بالعديد من الأساطير المشابهة.

العديد من تلك الطوائف اندثرت. والتي بقيت في رأيه هي التي نراها حتى اليوم. وبمرور القرون، شحذت بتطورات (انتخاب ميماتي، لو أردت التعبير عنها بهذا الشكل) لتشكل نموذجًا معقدًا أو نماذج أحفاد مختلفة من نفس السلف والتي سيطرت على مناطق واسعة من العالم اليوم.

أن موت شخصية مؤثرة في العالم مثل هيلا سيلاسي، الفيس برسلي والأميرة ديانا يعطينا فرصًا أخرى لدراسة النشوء السريع للطوائف وظواهر تطور ميماتها. هذا كل ما أردت أن أقوله عن أصل الأديان، عدا عن فاصل صغير في الفصل العاشر عندما أناقش الظاهرة الطفولية «الصديق الخيالي» تحت عنوان «الحاجات» النفسية التي يؤمن الدين.

من المتعارف عليه أنَّ الأخلاق تأتي من الدين، وفي الفصل التالي سأناقش وجهة النظر تلك. وسأحاجج بأنَّ الأخلاق بحد ذاتها هي موضوع دارويني. تمامًا كما كان سألنا سابقًا: ما هي القيمة الداروينية

التي يقدمها الدين؟ نستطيع طرح السؤال نفسه عن الأخلاق. الأخلاق بدون شك ربما سبقت الأديان. وكما أعدنا صياغة السؤال بالنسبة للدين، سنفعل نفس الشيء وربما نجد أن الأخلاق ربما كانت ناتج عرضي لشيء آخر.

الفصل السادس

منشأ الأخلاق

لماذا نحن طيبون؟

«غريب وضعنا على الأرض. كل منا يأتي في زيارة قصيرة، لا يعرف لماذا، ولكن في بعض الأحيان يبدو بأنَّ هناك سببًا مقدّسًا. من وجهة نظر الحياة اليومية، على أيّة حال، هناك أشياء نعرفها، بأنَّ الأنسان هنا من أجل الإنسان الآخر وقبل كل شيء لأجل هؤلاء الذين نعتمد على سعادتهم وابتساماتهم لإسعادنا».

- ألبرت آينشتاين

الكثـيرون مـن المتديّنـين يجـدون صعوبـة في التصـوّر، كيـف يمكـن للمـرء أن يكونَ جيدًا بدون الدين، أو حتـى كيف يمكن أن يريد أحد أن يكون جيدًا بدونه. سـأناقش ذلك السـؤال في هذا الفصل. ولكن الشـك يمـضي لأبعد من ذلك، ويسـوق بعض المتدينين لنوبـات كراهية ضد من لا يقاسـمونهم إيمانهم. وهذا مهـم لإعتبارات أخلاقية تختبئ وراء مواقف دينية إزاء مواضيع أخرى ليس لها ارتباط بالأخلاق.

معظـم الاعتراضـات على تدريـس التطور ليـس لها علاقـة بالنظرية نفسها، أو بأي شيء علمي آخر، ولكنها تتسبب في غضبٍ أخلاقي. وعلى مـدى يبدأ بالسـذاجة «لو درسـت أطفالك بأنهم تطوروا من السـعادين، فسـيتصرفون كالسَّـعَادين» وينتهي بالأسـلوب الرفيع الـذي يقبع خلف «الوتد» المسـمى اسـتراتيجية «التصميم الذكي» كما عرض من قبل بربارا فورست وباول كروس بشكل عار في كتاب حصان الخلق لطروادة الوتد في التصميم الذكي.

يصلنـي عدد كبـير من الرسـائل من كثير مـن قُرّائـي، معظمهم لطيف وحمـاسي وبعضهـم ناقد بشـكل نافـع، وقلة من الرسـائل القـذرة وحتى الشريرة. والأكثر قذارة وآسـف للقول بشـكل عام من دافع ديني. سـوء الاسـتخدام للتسامح المسـيحي يتعرض له كل من يعد عدوًا للمسيحية. وهـذه على سـبيل المثـال، رسـالة نشرت علـى الأنترنت موجهـة لبريان فيلمينغ، كاتب ومخرج الفيلم الإله الذي لم يكن هناك، فيلم يدعوا للإلحاد بصدق. عنوان الرسـالة لتحـترق بينما نحن نضحـك وتاريخها 21 كانون الأول 2005 الرسالة كما ياتي:

«مـن المؤكّدَّ أن لديك الكثير من الشـجاعة. أود أن أُخرجَ أمعاءك بسـكّينٍ أيها المجنون، وأصرخ من الفرح عندما يخرج من بداخلك للخارج أمامك. أنك تحاول أشـعال حرب مقدسـة حتى أستطيع أنا، وآخرون مثلي، أن نحصل على فرحتنا الكبرى بعمل ما نوهت لك عنه؟

وحتى هنا لا تبدوا الرسـالة بلغة مسيحية، ويبدوا أن الكاتب تأخر في معرفة ذلك ولذلك فهو يتابع بشكل أكثر تسامحًا:

«ولكن، الله علّمنا ألا نسعى للانتقام، بل نصلّي لكل من هو مثلك»

ولكن يبدو أنَّ التسامح يموت بسرعة:

«سأجد الراحة في معرفة أن عقاب الله سيكون 1000 مرة أسوأ من أي شيء أسـتطيع فعله أنا. وأفضل ما هنالك هو أنك سـتتعذب للأبد لتلك الذنـوب التي تتجاهلها تمامًا. إنتقام الله لن يريك أي رحمة ولأجلك أتمنى أن تتضح الحقيقة لك قبل أن تصل السكين إليك.

ميلاد سعيد

ملاحظة: ليس لديك أي معلومة عم ينتظرك.. أشكر الله أني لست أنت»

أجـد أنه مـن المحير بصدق أن مجـرد اختلاف في رأي دينـي يمكن أن يولد سـمًا كـذاك. وإليكم مثالاً آخـر (الكلمات ذاتها) من جعبة الرسـائل لمحـرر مجلة التفكير الحـر لهذا العصر، نشرت من قبل مؤسسـة الحرية من الأديان، والتي تشـن حملات سـلمية ضد الحركات المضادة لقانون فصل الدين عن الدولة:

«مرحبًا يا آكلي الجبن التافهون، المسيحيّون منا هم الأغلبية الفائقة عليكم أيها الخاسرون. لن يكون هناك فصل للكنيسة عن الدولة وستخسرون أيها الكفرة»...

ما هو موضوع الجبن؟ بعض الأصدقاء الأمريكان اقترحوا أنَّ لذلك علاقة بالولاية الحرة ويسكانسون موطن مؤسسة الحرية من الأديان وصناعات الألبان ولكن من المؤكد أنَّ هناك سبب آخر لذلك؟ وماذا عن الفرنسيين «اكلي الجبن المحاطون بالقرود؟» ما هي الرمزية للجبن؟ لنكمل:

«يا عباد الشيطان التافهون... أرجوكم موتوا وأذهبوا للجحيم.. آمل أن يصيبكم وباءٌ مؤلم مثل سرطان القولون وتموتون ببطء وألم، حتى تلاقوا إلهكم، الشيطان، يا صاح أن تلك الحرية من الدين هي شيء مقرف... ولذلك أيها الشواذ المخندقون اهدأوا وانتبهوا لخطاكم لأنّ الله سيأخذكم في الوقت الذي تتوقعونه.. إذا كنتم لا تحبون هذه البلاد والأسس التي بنيت عليها، أخرجوا منها يا عواهر وأذهبوا للجحيم...

ملاحظة: انتاكوا، أيها الشيوعيون العواهر.. خذوا مؤخراتكم السوداء إلى خارج الولايات المتحدة.. ليس لكم عذر. إنَّ الخليقةَ هي أكثر من دليلٍ كاف على القدرة المطلة التي يملكها الإله عيسى المسيح.

لماذا ليست القوة المطلقة لله؟ أو السيد براهما؟ أو حتى يهوه؟

«لن نترككم بحالكم. ولو نطلب الأمر في المستقبل استعمال القوة تذكروا أنكم أنتم من بدأ، بندقيتي ملقمة».

لا أستطيع التوقّف عن التساؤل، لماذا يحتاج الله للدفاع عنه بتلك الطريقة الشرسة؟ ربما على المرء أن يفكّرَ بأنّ الله يستطيع تدبر أمره بنفسه. خذ بالاعتبار أنَّ المحرّرَ الذي تعرض للتهديد بهذا الشكل ليس إلا سيدة مهذبة ولطيفة جدًا.

ربما لأنني لا أعيش في أمريكا، فإنَّ معظم بريد الكراهية الذي اتلقاه ليس بذلك المستوى، ولكنها أيضًا لا تستعرض كرم الأخلاق الذي يفترض أنَّ مؤسسَ المسيحية تميّز به. وما سيأتي هو رسالة من طبيبٍ بريطاني مؤرّخة في أيار، 2005 ورغم أنها مملوئة بالكراهية تبدو لي وكأنها مملوءة بالعذاب أكثر منها نتنة، وتوحي لنا بوضوح موضوع تأصّل الأخلاق وتأصّل العداوة نحو الإلحاد. بعد شيء من المقدّمات تسلخ فيها نظرية التطور سلخًا (والسؤال بسخرية عمّا إذا كان العبد الأسود هو جزء من العملية لما يزال قيد التطور) والهزْء بداروين شخصيًا، والاقتباس المزوّر من هاكسلي على أنه معادي للتطور وتشجيعي على قراءة كتاب قرأته والذي يحاجج بأنَّ العالم عمره 8000 سنة).

هل يمكن أن يكون حقًا طبيب؟ ومن ثم يستنتج أن:

«كتبك، ومنصبك في اكسفورد، وكل ما تحب في هذه الحياة، وكل ما حققته، لا يعدو كونه شيئًا من العبث.. سؤال كامو المحرج يبدو لا مهرب منه هنا: لماذا لاننتحر جميعًا؟ بالتأكيد، نظرت عن العالم لديها تأثير على الطلاب والكثير من الآخرين، بأننا تطورنا بمحض الصدفة العملياء، من لا شيء، وسنعود اللاشيء حتى لو كانت الأديان ليست صحيحة، فإنه من الأفضل، كثيرًا أن نؤمنَ بالأساطير، مثل أفلاطون، إذا كانت تؤدّي لراحة البال في الحياة.

ولكن رؤياك للعالم تؤدي للإرهاق، واستعمال المخدرات والعنف والإنكارية اللـذة وعلـم فرانكشـتاين، وجهنـم علـى الأرض، والحرب العالمية الثالثة.... أتساءل عن مدى سعادتك في علاقاتك الشـخصية؟ هل أنت مطلق؟ أرمل؟ شـاذ؟ من هم مثلك ليسـوا سـعداء مطلقًا، أو أنهم يحاولوا جاهدين أن يبرهنوا أنه ليس هناك سعادة أو معني لأي شيء»

الشـعور الذي يعطيه وقع تلك الرسـالة ليس إلا أحد الأمثلة الكثيرة. يؤمن هذا الشـخص بـأنَّ الداروينية وريثة العدمية، وأننـا تطورنا بصدفة عمياء (وللمرة التريليون الإنتخـاب الطبيعي هو المعاكس تمامًا للصدفة) وأننا سـنعود للعدم بعد موتنا. وكنتيجةٍ مباشرة للمعنى السـلبي المزعوم، تأتي كل أخلاقيات الشر.

ربـما أنـه لم يعني إقـتراح موضـوع الترمل كدافـع للداروينيـة، ولكن الرسـالة في تلـك النقطـة، وصلت لمستوى مسـعور مـن السـوء والذي الاحظه بشـكل عام في مراسـلتي المسـيحيون. لقد خصصت كتابًا كاملاً (حل قوس قزح) للمعنى النهائي ولشـاعرية العلم، وبإسـهاب وبشـكل مطول نقضت تهمة السـلبية العدمية، ولذلك سـأمتنع هنا عن ذلك. هذا الفصـل هو عـن الشر، ونقيضة، الخـير، عن الأخلاق: من أيـن أتت لماذا علينا الإلتزام بها، وعما إذا كنا نحتاج للدين لفعل ذلك.

هل للمعاني الأخلاقية أصلٌ دارويني؟

العديد من الكتب، ومنها كتاب روبرت هيند لماذا الخير جيد، ومايكل شـيرمر علم الخير والشر، وروبرت باكمان هل نسـتطيع أن نكون جيدين

بـدون الله؟ ومـارك هـاوزر العقـل الأخلاقـي، كلهـا تناقـش بـأنَّ معنى الصحيـح والخطأ يمكن أن يـأتي من الماضي الدارويني. وهذا القسـم هو رأيي الخاص في هذا الموضوع.

بهـذا الخصـوص تبـدو فكـرة الانتخـاب الطبيعي غـير ملائمـة بالمرة لشرح الخير التي نمتلكها، أو حتى شـعورنا عن القيم الأخلاقية، الأمانة، التعاطـف والأسـف. الانتخاب الطبيعي يسـتطيع شرح الجـوع، الخوف والرغبـة الجنسـية، وكل ما يمكن أن يسـاهم مباشرة في بقائنـا أو الحفاظ على جيناتنا. ولكن ماذا عن الشفقة التي نشعر بها عند رؤيتنا ليتيم يبكي، أو أرملة عجوز قانطة تشـكو الوحدة؟ ما الذي يدفعنا لإرسـال هدية من مجهول أو نقودًا أو ملابس لضحايا التسـونامي في الطرف الآخر في العالم، لـن نراهـم قط واحتـمال أن يردوا الجميل لنا هو أقل مـن أن نفكر به؟ من أين يأتي الخير السامري المتأصل فينا؟ أليس الخير متناقضًا مع نظرية الجين الأنـاني؟ لا.. هـذا فهـم خاطـئ للنظرية فهـم خاطئ محزن (وبشـكل ما متوقع). من الضروري أن نركّزَ على الكلمات الصحيحة. وذلك بالتركيز علـى الجين الأناني؛ لأنَّ ذلك متناقض مع الكائن الأناني، مثلاً أو الصنف الأناني دعوني أشرح.

المنطق الدارويني يفرض علينا اسـتنتاج أنَّ واحدات الحياة في التدرج الطبقـي التـي تبقى لتنتقل مـن خلال الانتخاب الطبيعـي تميل لأن تكون أنانية. والواحدات التي تبقى سـتكون على حسـاب الواحدات المنافسـة في نفس الدرجة من الطبقية. وهذا بالضبط ما تعنيه الأنانية بهذا الصدد.

السـؤال هـو، ما هـي تدرجات هذا الفعـل؟ كل فكرة الجـين الأناني، ولنركـز علـى الكلمـة الأخـيرة، هـو أن واحـدات الانتخـاب الطبيعـي

(الواحدة التي تهتم بذاتها) ليست الكائن الحي الأناني، وليست المجموعة الأنانية أو الصف الأناني، بل الجين الأناني.

إنَّ الجين بهذا الصدد هو من يبقى للأجيال أو لا يبقى. وعلى عكس الجينات (و الميمات أيضًا)، فإنَّ الكائن الحي، أو المجموعة أو الصنف ليسوا بالواحدات التي يمكن أن تخدمنا بهذا المعنى؛ لأنهم ببساطة لا يصنعون نسخًا مطابقة لأنفسهم، ولا يتنافسون في موضوع النسخ الذاتي المطابق تمامًا. وهذا بالضبط ما تفعله الجينات، وهذا هو الأصل المنطقي الذي يبرر إختيار الجين فقط ليكون واحدة (الأنانية) بالمعنى الداروني لكلمة أنانية.

إنَّ الطريقة البديهية للجينات لضمان «أنانيتها» هو أن تبرمج الكائنات لتكون أنانية. وهناك بالطبع العديد من الظروف التي يقتضي فيها بقاء الكائنات من أجل بقاء الجينات التي تحويها. ولكن في ظروف أخرى يستعمل تكتيك آخر. وهناك بعض الظروف ليست نادرة بأي شكل، حيث يضمن الجين بقاءه بجعل الكائن يتصرف بطريقة إيثارية. وهذه الظروف اصبحت مفهومة بشكل جيد في أيامنا وتصنف على فئتين رئيسيتين. الجين الذي يبرمج الكائن ليفضل احتواءه في نسله سيحوز على الكثير من النسخ إحصائيًا. وجينٌ كهذا سيتزايد في مجموعة الجينات بحيث أنَّ التصرّف الإيثاري سيصبح هو المعيار الجديد. ومثال واضح على ذلك هو رعاية الأطفال، ولكنه ليس المثال الوحيد.

فالنحل والنمل وسوس الخشب ونقار الدف، كلها طورت مجمتعات يقوم فيها الكبار برعاية صغارهم (والذين يتقاسمون الجينات معهم غالبًا). وبشكل عام وكما استعرض زميلي المتوفى، هاميلتون فالحيوانات

تميل لرعاية من يقاسمونهم جيناتهم والدفاع عنهم وتحذيرهم من الخطر وإيثارهم، لأنَّ الاحتمال الإحصائي لشراكة الجينات كبير.

النوع الآخر من الإيثار والذي له تفسير عقلاني دارويني هو الإيثار المتبادل (حك لي لأحك لك) هذه النظرية قدمها لأول مرة البيولوجي روبرت تريفيرس وغالبًا ما يعد عنها بشكل رياضي لنظرية الألعاب، ولا تعتمد على اقتسام الجينات. وبالتأكيد تعمل بشكل ممتاز، وحتى بشكل أفضل بين كائنات متباينة ومختلفة وتسمّى عندها بالسمبيوسيس.

المبدأ هو التبادل والمقايضة الذي يعتمده الإنسان. الصياد يحتاج لرمح والحداد يحتاج لحمًا واللاتساوي بينهما يؤدّي لعقد من نوع ما. النحل يحتاج للنكتار والزهور بحاجة للإلقاح.

الزهور لا تستطيع الطيران وبالتالي فإنها تدفع للنحل بنقود النكتار لاستعمال أجنحتها. الطير المسمّى بمرشد العسل يستطيع إيجاد عش النحل ولكنه لا يستطيع اقتحامه والغرير يستطيع اقتحامه ولكنه بدون أجنحة للبحث عنهم.

مرشد النحل يقود الغرير (والإنسان في بعض الأحيان) للعسل بطريقة طيران مغرية، ولا تستعمل تلك الطريقة في الطيران لأي غرض آخر والطرفان يستفيدان من العقد. ربما تقع قطعة من الذهب تحت حجر لا يستطيع المكتشف تحريكه بمفرده. ويطلب المساعدة من الآخرين رغم أنهم سيقاسمونه به، لأنه بدون مساعدتهم لن يحصل على أي شيء ومملكة الحياة غنية بأمثلة كهذه عن العلاقات المشتركة: الثيران الأمريكية والعصفور ناقر الثيران. الزهور الحمر والطائر الونان، البقر

والكائنات المجهرية في أمعائها. الإيثار المشترك يعمل لأنَّ عدم التناظر في الاحتياجات والمقدّرات يساعدها في ذلك، ولذلك تعمل بنجاحٍ أكبر بين الكائنات المختلفة، حيث عدم التناظر أكبر وأوضح.

عند الإنسـان، تُعد النقود أدوات تؤخّـر التبادل الفعلي. والأطراف التي تتبادل لا تسـلـم وتستلم البضائع بشكل مباشر، بل تحتفظ بها يشبه الديـن للمسـتقبل أو حتى التجـارة بالديـن مع الآخريـن. وعلى حد علمـي ليـس هناك كائنـات حيوانية غير إنسـانية ممن لديهـم ما يوازي النقـود. ولكن الذاكرة الفردية والشـخصية تلعب دورًا موازيًا بشـكل غير نظامي. الخفافيش المصاصة للدماء يتعلمون من الذي يسـتطيعون الاعتماد عليه من أبناء عشـيرتهم لدفع ديونهـم (بالقيء الدموي) ومن الذين يغشـون. والانتخاب الطبيعي يفضل أولئـك المهيئين، بما يتعلق بعـدم تناظر الاحتياجات والفرص، للعطـاء عن المقدرة والتوقف عنه عند الإسـتطاعة. وتفضل الميـل لتذكر الواجبات، تذمـر الدب، تبادل العلاقـات البوليسـية وعقاب الغشاشـين الذين يأخـذون ولا يعطون عندما يأتي دورهم.

وبما أنه سـيكون هناك غش بشـكل دائم، فإنَّ الحلَّ المتوازن سـيكون بفـرض عقـاب علـى الغشاشـين في لعبـة اللايثـار المتبـادل. والنظريات الرياضية للألعاب تسـمح بصنفين من الحلول التي تسـمح باستقرار لعبة كهـذه. «كـن قـذرًا كل الوقـت»، عندما يكـون الجميع كذلك فـإن الفرد اللطيف لن تسنح له الفرصة ليؤدي عملاً أفضل. ولكن هناك استراتيجية أخـرى تسـمح بالإسـتقرار أيضًـا. (الاسـتقرار يعني، عندمـا يصل عدد الأفـراد للحـد الحرج، فلن يكـونَ هناك أي تـصرّف بديل يـؤدي لنتيجة

أفضل). وهاكم تلك الاستراتيجية أبدًا بكونك لطيفًا، ثم اعطِ الآخرين الفرصة ليعرفوك، قابل المعروف بالمعروف وعاقبِ التصرفات البشعة.

وبتعريفات نظرية الألعاب الرياضية، فإنَّ هذه الاستراتيجية (أو ما شابهها) تصنف تحت أسماء مختلفة، ومنها هذه بتلك الإنتقام والتبادل. وهي تسمح بالاستقرار التطوري تحت ظروف ما بمعنى، لو كانت هناك عشيرة تطغى فيها المشاركة المتبادلة، فلا الفرد القذر، ولا الفرد الطيف سيكونون قادرين على أن يتميّزوا بأي شكل. هناك تنوعات أخرى من هذه بتلك والتي يمكنها أن تعمل بشكل أفضل في ظروفٍ مماثلة.

كنت قد نوهت على القرابة والتبادل كعمودين رئيسيين للإيثار في العالم الداروينى، ولكن هناك بناء ثانوي يقع على قمة تلك الأعمدة. وبخاصة في المجتمع الإنساني، بوجود لغة وغيبة تصبح السمعة مهمة. واحد الأفراد تكون له سمعة كشخص لطيف أو كريم. وآخر له سمعة كغشاش وكسول ومرتجع بكلامه.

وآخر تصبح له سمعة كريمة عندما تبنى ثقة به من خلال معاقبته للغش بشكل عنيف. النظرية غير المنفتحة عن الإيثار المشترك تتوقع أن تبني الحيوانات سلوكها على تبادل غير واعي لتلك المميزة مع أقرانها وعند الإنسان أردفنا اللغة وقوتها لنشر السمعة، وعادة على شكل لغط كلامي.

لا تحتاج للمعاناة الشخصية من فضل (س) بشراء المشروب للإصدقاء في البار. بل تسمع «على شجرة العنب» بأن (س) حشوة ضيقة (تعابير إنكليزية عن البخل - المترجم) أو لإضافة بعض السخرية على الموضوع بأن ع مثلاً نمام رهيب.

السـمعة مهمـة، والبيولوجيـون يسـتطيعون الاعـتراف بـأنَّ البقـاء الدارويني يقتضي ليس فقط أن يكون الفرد مشاركًا ولكن أيضًا أن يكون له سمعة جيدة كمشارك أيضًا.

مات ريدلي في كتابه أصل القيم، فيه الكثير من الدراسـة عن السـمعة إضافة لكونه مرجعًا مشرقًا عن الأخلاقية الداروينية أيضًا.

عالم الاقتصاد النرويجي تورسـتين فيبلين وبطريقة أخرى، عالم الحيوان الإسرائيـلي أموتـز زاهافي، إضافًا فكـرة جذابة أخرى. الإيثـار ربما يكون كدعايـة أو اسـتعراض السـلطة والتفـوق. الأنثروبولوجيـون يعرفـون ما يسـمى بتأثـير بولتاتش. والذي سـمى تيمنـا بتلقيد يتبـارز فيه الزعماء المتنافسـون في قبائـل الشـمال الغـربي بإقامـة مأدبـة مدمـرة بكرمهـا. وفي حـالات التطـرف، تتمادي النوبـات الإنتقامية حتى يصبـح أحد الطرفين شديد الفقر، تاركًا الطرف الآخر ليس بأفضل حال منه.

مبـدأ فابلان عن «الاسـتهلاك المظهري» يضرب على الوتر الحسـاس عند الذي يشـاهد المنظر المعاصر. ومسـاهمة زاهافي، التـي طورها العديد مـن البيولوجيـون ومن ثم وضع الريـاضي اللامع الآن غارفـين نموذجًا رياضيًا لها، ساهمت في وضع نسخة تطورية لفكرة البولتاتش.

زاهافي درس العصافير الثرثارة البنية التي تعيش وتتكاثر في مجموعات. ومثـل العديـد مـن الطيـور الغصيرة فـإنَّ الثرثـار يطلق صيحـات تحذير ويبترعـون بـالأكل لبعضهـم وتحقيق داروينـي عن ذلك الإيثار سـيبدو، لأول وهلـة، وكأنه للتبادل والقرابة بـين العصافير. وعندما يطعم الثرثار طيرًا آخر فهل يتوقع أن بأن الثرثار المتسـلط يؤكـد هيمنته بإطعام أتباعه.

وبإستعمال تعابير تشبيهية لإرضاء زاهافي، فإنَّ الطائر المهيمن وكأنه يقول انظروا كم أنا متفوّق بالنسبة لكم، أنا عندي المقدرة على أعطائكم طعامًا.

أو انظروا كيف أتفوق عليكم بأنَّ أجعل نفسي عرضة للنسور بالجلوس على فرع عال لأعطي إشارة الإنذار للباقين الذين يأكلون على الأرض. وملاحظات زاهافي وزملائه ترينا بأنَّ طيور الثرثار تتبارى بشكل دائم على دور الحارس. وعندما يحاول أحد الطيور إعطاء الطعام لطائر مهيمن، فإنَّ محاولته تقابل برفض عنيف. وملخص فكرة زاهافي هو أنَّ استعراض التفوّق يتماشى مع كلفته.

والمتفوق فقط يستطيع استعراض تفوّقه بتلك الهدايا الثمينة. وبذلك السعر يستطيعون جذف عدد أكبر من الإناث، وذلك باستعراض الكرام والاستعداد للمخاطرة من أجل الآخرين.

لدينا أربعة أسباب جيدة من الناحية الداروينية ليتمتّع الفرد بالإيثار والكرم والأخلاق الحميدة تجاه الآخرين. الأول هو وجود القرابة الجينية كحالة خاصة. الثاني وجود رد الجميل المتبادل والمعروف بالمعروف، وعمل المعروف بتوقع الدفع لاحقًا. وذلك يقودنا للنقطة الثالثة، المنافع الداروينية الناتجة من وجود السمعة الحسنة للكرم واللطف. والرابع لو كان زاهافي محقًا، فهناك منفعة إضافية للكرم المتبادل كطريقة لشراء دعاية أصيلة وغير قابلة للتزييف.

معظم الوقت فيما قبل التاريخ، عاش الإنسان في ظروفٍ تقتضي تفضيل مناحي الإيثار الأربعة المذكورة من أجل التطور. عشنا في قرى، أو أبكر من ذلك في مجموعات متجولة كما يفعل قرد البابون، وبشكل

جزئي معزولـون عن الجيران أو القرى القريبة. ومعظم الذين يشـاركونا الحياة من الأقارب، وقرابتهم لك أكثر بكثير من القرابة للعشيرة الأخرى لـك، وهنـاك الكثير مـن الفرص لتطور الإيثار. وبشـكل عـام كنا لنقابل الفرد الآخر من العشـيرة مرة تلو أخرى بغض النظر عن كونه قريبًا أم لا وهذه ظروف مثالية لتطور الإيثار المتبادل.

وهي أيضًا الشروط المثالية لبناء سمعة إيثارية والإعلان عنها للشخص بأحـد أو جميع الطـرق الأربع التي ذكرناها. والاتجـاه الجيني للإيثار يجب أن يفضلَ من قبل الانتخاب الطبيعي في الإنسـان الأول. ومن السـهل أن نرى لماذا كان أسـلافنا جيدين بالنسـبة لمجموعاتهم وسيئين وخائفين من المجموعات الأجنبية الأخرى. ولكن لماذا بما أننا الآن نعيش في مدن كبيرة ولسنا محاطين بالأقارب بشكل عام، وفي كل يوم نرى أشخاصًا لن نراهم بعد ذلك طوال حياتنا، لماذا نحن جيدون بالنسبة للآخرين وحتى بالنسبة للآخرين الذين ينتمون لمجموعات خارجة عن نوعنا؟

مـن المهـم ألّا نخطـئ بتقديـر دور الانتخـاب الطبيعـي، فالانتخاب لا يفضـل تطـور من هو مدرك بوعي لـما هو جيد بالنسـبة لجيناته. وذلك الإدراك كان عليه أن ينتظر القرن العشرين ليصل إلى مستوى من الوعي، بـل الفهم الكامل في حالـة قلة من العلماء المختصـين. القاعدة فيما يفضل الانتخاب الطبيعي عمومًا هو نشر الجينات التي صنعت القاعدة. والقواعد بشـكل عام وبطبيعتها تخطئ أهدافها أحيانًا. وفي دماغ هناك القاعدة التي تقـول: «أبحث عن أحيـاء صغيرة تزقزق في العش وادفـع ببعض الطعام في الفـراغ الأحمر في رؤوسـها» تؤدّي إلى الحفـاظ على الجينات التي بنت تلك القاعدة، لأن الأشـياء الصغيرة التي تزقزق سـتكون بشـكل طبيعي

من نسـله. ولكن القاعدة تخطئ عندما يصل أبن طائر آخر للعش بشـكل ما، وذلك شـئ يبرع طائر الوقواق فيه. هل من الممكن أن يكون اندفاعنا الأخلاقي الجيد في سومريتنا الجيدة هو الذي يخطئ الهدف.

كـما أخطـأت غريزة الطائر الأحمر وتسـببت له بإجهادٍ نفسـه من أجل طائـر الوقـواق؟ بل هناك تشـبيه أقرب وهو اندفاع الإنسـان لتبني طفل. وهنـا علـى أسرع بتوضيح أن أخطاء الهدف مقصود بـه المعنى الداروينى المحط. ولا يحمل أي معنى انتقاصي بأي شكل من الأشكال.

فكـرة الخطـأ أو الناتـج العـرضي الـذي أريـد الدفـاع عنـه، يعمـل بالشـكل التالي. الإنتخـاب الطبيعي، في زمن الأسـلاف عندما كنا نعيش في مجموعـات جوالـة كالبابـون، برمج في أدمغتنـا الإندفـاع للإيثار، إلى جانـب الاندفاع الجنسي والجوع والخوف مـن الأجنبي.. إلـخ. وعندما يقرأ زوجان من الأذكياء كتاب داروين فإنهما يعرفان بأنَّ السـبب النهائي لاندفاعهـم الجنسي هو التكاثر. ويعلمون بأنَّ المرأة لن تحمل لأنها أخذت الحبـة. ولكـن ذلـك لم يؤدي بأي شـكل لتخفيـض الدافـع الجنسي بتلك المعرفة. إنَّ الرغبةَ الجنسـية هي رغبة جنسـية في النفس وهي مستقلة تمامًا عن هدفها الدارويني الذي ساقها. إنها حاجة قوة موجودة بشكل مستقل عن هدفها النهائي والعقلاني.

وأنـا أقـترح هنـا أنَّ الحاجـة والدافع هو نفسـه بالنسـبة لـــ اللطف والطيبة والإيثار والكرم والتعاطف والرأفة. في أيام الأسلاف كانت لدينا الفرصة لنكون إيثاريين فقط بالنسـبة للأقرباء ومن المحتمل أن لن يبادلنا المعـروف. في أيامنها هذه لم تعد تلك القيود موجودة لكن القاعدة بقيت. ولمـاذا لا؟ إنها كالرغبة الجنسـية. ولا نسـتطيع شـيئًا إزاء الشـعور بالرأفة

عند رؤية شخص يبكي لمصيبة ما (و ليس بالقريب أو ممن نتوقع منه رد الجميل) تمامًا كما لا نستطيع شيئًا إزاء رغبتنا في شخص من الجنس الآخر (رغم أنه من الممكن أن يكون عقيمًا أو غير مهيأ للإنجاب). الاثنان خطأ بالهدف، أخطاء داروينية: أخطاء مباركة وثمينة.

لا تفكر ولو للحظة بأننا عندما ندرون الأشياء (نردّها لنظرية داروين – المترجم) فإنَّ ذلك يقلل من قيمة المشاعر النبيلة والكرم. والأمر نفسه بالنسبة للرغبة الجنسية، والتي أدّى استخدامها في اللغة والثقافة لظهور الكثير من الشعر الباهر والدراما العظيمة كما قصائد الحب لجون دون، أو روميو وجولييت. وبالطبع يحدث الشيء نفسه بالنسبة للخطأ في الهداف بالنسبة للمشاعر تجاه للأقرباء أو من يبادلون المعروف. العفو عن المدين مثلاً، عندما نراه خارج الموضوع، فهو لا دارويني تمامًا مثل تبنّي طفل شخص آخر:

الرحمة لا تعرف القوة

بل أنها تنهمر كالمطر اللطيف من السماء

على الأرض التي تحتها.

الرغبة الجنسية هي القوة الدافعة المسببة للكثير من الطموح الإنساني والكفاح في الحياة، وغالبها يأتي كخطأ في الهدف. وليس هناك أي سبب لئلا ينطبق الشيء ذاته على الرغبة بالكرم أو التعاطف، إذا كان ذلك يأتي من الحياة القروية للأسلاف. الطريقة المثلى للانتخاب الطبيعي لبناء نوعي الرغبة في وقت الأسلاف هو بتركيب قواعد ما في المخ. وتلك

القواعد لا تزال تهيمن علينا حتى اليوم، حتى عندما تجعل الظروف غير مناسبين للغرض الأساسي الذي كان مطلوبًا منهم.

قواعد كتلك تتحكم فينا حتى الآن، ليس بطريقة حتمية ولكن بطريقة مصفاة بتأثير الأدب والعادات، القوانين والتقاليد وبالطبع أيضًا. الدين.

وكما تمر الرغبة الجنسية عبر مصفاة الحضارة لتظهر كقصة حب بين روميو وجولييت، فإنَّ قواعد أخرى بدائية في المخ عن الثأر بيننا وبين الآخرين يظهر بشكل معارك بين الكابوليت والمونتاغ، بينما قواعد بدائية أخرى عن الإيثار والتعاطف تؤدّي بنتيجة أخطاء الهدف لئن نشعرَ بالفرح في مقاعدنا في المنصة عندما يمثل المشهد الأخير في مسرحية شكسبير.

حالة دراسية عن منشأ الأخلاقيات:

لو أنَّ إحساسنا الخلقي، مثل رغبتنا الجنسية، تعود جذوره لأصولنا الداروينية في الماضي السحيق قبل ظهور الأديان، فعلينا أن نتوقع أن البحث في العقل الإنساني سوف يرينا بأنَّ بعض الأخلاق عالمية وليس لها حدود جغرافية أو ثقافية، وأيضًا وبشكل حرج لا حدود دينية. البولوجي مار هاوسر من هارفارد في كتابه العقل الأخلاقي: كيف صممت الطبيعة الإحساس العالمي بالصح والخطأ، توسع في فكرة تجريبية طرحها بالأصل فلاسفة الأخلاق. ودراسة هاوسر استخدم الهدف الإضافي من تقديم الطريقة التي يفكر بها فلاسفة الأخلاق.

تطرح قضية أخلاقية فرضية، والتردد في الإجابة والصعوبة التي نواجهها فيها تنبئنا عن قدرتنا على الإحساس بالصح والخطأ. بينما يذهب هاوسر لأبعد من ذلك بأن يجري إحصائيات وتجارت سيكولوجية،

وذلك باستعمال أسئلة عن الإنترنت كمثال للتحرّي عن الإحساس الأخلاقي للناس الحقيقيين. ومن وجهة النظر العصرية، فإنه من المثير بأن معظم الناس يقررون نفس القرارات عندما تطرح عليهم نفس الأسئلة واتفاقهم على الآراء نفسها يبدو أقوى من قابليتهم على التعبير عن السبب الكامن وراء ذلك.

وهذا ما علينا أن نتوقعه إذا كنا نتوقع أنَّ هناك إحساسًا أخلاقيًا مركبًا في أدمغتنا، كما هو الحال في الرغبة الجنسية أو خوفنا من الأماكن العالية أو كما يفضل هاوسر وصفه بمقدرتنا اللغوية (التفاصيل التي تختلف من ثقافة لأخرى ولكن ما يختفي تحت خطوط القواعد العريضة عالمي).

وكما سنرى فإنَّ الطريقة التي يجيب بها الناس على اسئلة الأخلاقيات والطريقة التي يعبرون فيها عن الأسباب، تبدو مستقلة تمامًا عن وجود دينهم أو معتقداتهم أو عدم وجودها. والعبرة من كتاب هاوسر، ولنذكرها كما عبر هو عنها: «سلوكنا فيما يتعلق بالقرارات الأخلاقية هو عبارة عن قواعد عالمية، فرع من العقل قد تطور عبر ملايين السنين ليحتوي على مجموعة من المبادئ تبنى عليها نظم أخلاقية. وكما في اللغة فإن المبادىء التي تجعل القواعد الأخلاقية تطير تحت مستوى رادارنا الواعي"

من الأحجيات الأخلاقية التقليدية التي يطرحها هاوسر أحجية القاطرة أو الترام على السكة والتي تهدد بقتل عدد ما من البشر، مثلاً القصة الأبسط تتخيل شخصًا أسمه أو أسمها دينيس، يقف في منطقة يمكنه أن يوجه القطار لتحويلة فرعية وبذلك ينقذ حياة الناس العالقين في الخط الرئيسي.

للأسف هناك شخص عالق على التحويلة ولكن بما أنه شخص واحد فقط والآخرين كثر. فإنَّ غالبية الناس يوافقون على أنه من الأخلاق وربما إجباري أن يضغط دينيس على ذرع تحويل السكة ليحافظ على حياة الخمسة بقتل ذلك الواحد. ونحن نتجاهل إمكانية أن يكون الشخص على التحويلة هو بيتهوفن مثلاً أو صديق حميم.

اكمال التجربة يعرض علينا مسائل يتعالى فيها مستوى الإثارة للالغاز الأخلاقية. ماذا لو كان بالإمكان إيقاف الترام بإلقاء حمل ثقيل أمامه من على جسر فوق السكة؟ وهذا سهل: من الواضح أنه علينا أن نرمي الثقل. ولكن ماذا لو كان الثقل الوحيد المتوفر هو رجل سمين جدًا يجلس على حافة الجسر، ويتأمل في غروب الشمس؟ الجميع تقريبًا أتفق على أنه من غير الأخلاقي دفع الرجل السمين من على الجسر، على الرغم من أنه، من وجهة نظر ما، فإنَّ الأحجية مشابهة لحالة دينيس، حيث أن دفع ذراع تحويل السكة سيقتل واحد لينقذ خمسًا. ولكن غالبيتنا عندهم إحساس قوي بأنَّ هناك اختلافًا حرجًا بين الحالتين ولكننا لا نعرف كيف نعبّر عنه.

إن دفْعَ الرجلِ السمين على الجسر يذكرنا بأحجية أخرى يعدّها هاوسر أيضًا في حساباته. خمس مصابين في مستشفى يحتضرون، كل منهم يشكو انهيار عضوٍ مختلفٍ في جسمه. وبالإمكان إنقاذهم جميعًا لو وجدنا متبرّعًا لكل عضو في كل منهم، ولكن ليس من مُتبرّع. يلاحظ الجراح شخصًا في غرفة الانتظار، ولديه تلك الأعضاء الخمسة وتعمل بشكلٍ جيد وجاهزين للنقل والزراعة في تلك الحالة لن يوافق أحد تقريبًا على القول بأنه من الأخلاقي قتل ذلك الشخص لإنقاذ الخمسة.

وفي حالـة الرجـل السـمين علـى الجسر، فـإنَّ الإحسـاس الداخـلي لغالبيتنـا بـأنَّ ذلـك الجالـس البريء لا يجـب أن يجـر فجأة لموقف سـيّئ لمصلحة آخرين بدون موافقته. وقد عبر عن ذلك بشـكل واضح إيمانويل كانـط بأنَّ الكائنـات العاقلة لا يجب أن تسـتخدم بدون موافقة كوسـائل لمنـع أو إنهـاء أوضاع مـا، حتى لو كانـت تلك النهاية لمصلحـة الآخرين. هذا يعطينا الفرق الحرج الذي بين الرجل السمين أو الرجل في المستشفى والرجل العالق على السـكة في حالة دينيس. الرجل السمين على الرجل سيسـتخدم كأداةٍ لإيقافِ القاطرة. وهذا يخالف مبدأ كانط بوضوح. بينما الشـخص الذي على السـكة لن يسـتخدم لإنقاذ حياة الخمس الآخرين. بل إنَّ محوّل السـكة الذي يسـتخدم، والرجل سـيّئ الحظ لكونه موجودًا عليهـا. ولكن.. عندما يتوضح الفرق بذلك الشـكل، لماذا يرضينا ذلك؟ بالنسبة لكانط فإنَّ ذلك شيء أخلاقي محض. أما بالنسبة لهاوسر فإن ذلك مبني فينا جميعًا بواسطة التطور.

فرضيـات الأوضاع التي يطرحهـا هاوسر عن القاطرة تـزداد ابداعًا، والدوامة الأخلاقية تزداد تعقيدًا والتواءً. ويضع هاوسر شـخصيات هي نيـد وأوسـكار، نيد يقـف على السـكة، وخلافًا لدينيس، الذي يسـتطيع تغيير السـكة التي يسـير عليها القطار، ولكنه يستطيع أن يغيّر مسيره للفة بسيطة يعود بعدها للسكة الرئيسية في طريقة للأشخاص الخمسة. وبالتالي دفع ساعد تغيير المسار لن ينفع والقطار سيصدم الخمسة أشخاص في أي حال عندما يعود للسـكة الرئيسية. ولكن هناك شخص. سمين جدًا على اللفة وثقيل بشكل يكفي لئن يوقف العربة هل يجب على نيد تغيير المسار للقطـار؟ رد الفعـل الأول لمعظم الناس أنه لايجـب أن يفعل ذلك. ولكن

مـا هو الفرق بـين حيرة نيد وحيرة دينيس؟ الفرض هنا أنَّ الناس يطبقون مبدأ كانط بالحدس. دينيس يغير مسـار القطار ليتفادى صدم الأشخاص الخمسـة والضحية على المسـار آخر هو «ضرر جانبي»، باسـتعمالنا لتعبير رامسـفيلد الجـذاب هنا. ليس مسـتخدمًا مـن قبل دينيـس لينقذ الخمس الآخريـن. بينما ند يسـتخدم الرجل السـمين بالفعل هنا ليوقـف القطار، ومعظـم النـاس (ربـما بـدون تفكـير)، ومنهـم كانـط (الـذي فكـر بكل تفاصيلها)، يرَوْن أنَّ ذلك فرق مهم جدًا.

الفرق يظهر مرة أخرى بمسـألة محيرة مع أوسـكار. أوضاع أوسـكار مطابقة لأوضاع نيد، باسـتثناء أنَّ هناك كتلـة ثقيلة من الحديد على اللفة، وواضح بأن أوسـكار لن يفكر وليس لديه مشـكلة في القرار بتغيير مسار القاطرة. باسـتثناء أن هناك شـخص يمشي قبل الكتلة الحديدية. وسيقتل بالتأكيد الحديدية. وسـيقتل بالتأكيد لو غيّر أوسـكار المسـار كما هو الحال مع الرجل السمين.

الفرق هو أنَّ الشـخص الذي يمشي - في حالة أوسكار - لي يستخدم لإيقـاف القطار: بل هو ضرر جانبي، كـما في حالة دينيس. وكما هو الحال في هـاوسر والكثيرين ممن أجروا تجاربه، أشـعر أنـا بصعوبة تبرير مواقفي الحدسـية. النقطـة التـي يريـد هـاوسر التركيز عليهـا هـي أن أخلاقيات بالحـدس كهـذه لم يفكر بها كثـيرًا وإنما تأتي من خلال الإحسـاس، وذلك بسبب التوارث التطوري فينا.

قـام هاوسر وزمـلاؤه بمغامرة أنثروبيـة مثيرة، وذلـك بأخذ تجربتهم لقبيلـة كونا الصغيرة التـي تعيش بمعزل تام تقريبًا عـن الغرب وليس لها ديـن رسـمي. واسـتبدال الباحثون: «القاطرة على السـكة» بمـواز لها مما

يفهمه السكان المحليون، كتمساح يسبح نحو قارب. وما عدا تغييرات بسيطة غير مهمة عبر أشخاص الكونا عن نفس الأحكام الأخلاقية مثل الآخرين منا.

وربما يهتم به هذا الكتاب، فإنَّ هاوسر تساءل أيضًا عمّا إذا كان المتديّنون يختلفون عن الملحدين فيما يتعلق بالحدس الأخلاقي. لو كنا نأخذ أخلاقنا من الدين فإنه من المفترض أن يكون هناك أختلاف. ولكن يبدو أنه لا يوجد. وقد عمل هاوسر مع فيلسوف الأخلاق بيتر سينغر، وركزار على ثلاثة فرضيات محيّرة وقارنوا النتائج بين الملحدين والمتدينين. في كل حالة يطلب من الممتحن أن يقرر إذا ما كان تصرّف ما «إجباري»، «مسموح» أو ممنوع. وتلك هي النتائج.

1 - حالة دينيس. تسعون بالمئة قالوا بأنه من المسموح له أن يحوّل مسار القاطرة، قتل شخص لإنقاذ خمسة.

2 - ترى طفلاً يغرق وليس هناك من منقذ. باستطاعتك إنقاذه ولكنك ستخسر بنطالك. سبع وتسعون بالمئة وافقوا بأنَّ عليهم إنقاذ الطفل (من المدهش أن هناك ثلاثة بالمئة ممن أرادوا الحفاظ على سروالهم).

3 - موضوع زراعة الأعضاء الذي شرحناه سابقًا. سبع وتسعون بالمئة وافقوا بأنه من الممنوع قتل الشخص السليم لإنقاذ الآخرين بزراعة أعضائه.

الاستنتاج الرئيسي الذي وصل إليه هاوسر وسينغر هو أنه ليس هناك فروق إحصائية تذكر بين الملحدين والمتدينين من ناحية اتخاذ قرار

أخلاقي. وهذا يبدو متطابقًا مع وجهة النظر، التي تمسك العديد بها، بأننا لسنا بحاجة لله لنكون جيدين أو سيئين.

لو لم يكن هناك إله، فلماذا نكون صالحين؟

إنَّ طرحَ السؤال بتلك الطريقة يبدو دنيئًا. وعندما يطرحه على رجل دين بهذا الشكل (والعديد منهم يفعل ذلك)، تغمرني رغبة ملحة بالتحدي التالي: «هل تعني أن تقول لي بأنَّ السبب الوحيد الذي تحاول لأجله أن تكون صالحًا هو لتحصل على رضا الله ومكافأته، أو لتفادي غضبه وعقوبته؟ هذا ليس أخلاقيًا، بل أنه تملّق، وتمسيح جوخ، ترمق النظر من خلفك للكاميرا العظيمة للمراقبة في السماء، أو الميكروفون التجسسي في رأسك، والذي يراقب كل حركاتك وحتى أدنى الأفكار التي تدور في رأسك».

وكما قال آينشتاين: «لو أنَّ الناسَ صالحون فقط لخوفهم من العقوبة وطعمهم بالمكافأة، فإننا صنف يؤسف لنا بالتأكيد».

مايكل شيرمر، في علم الخير والشر، يضع ذلك كحاسم للنقاش. لو وافقت على أنك، في غياب الله، سوف تسرق، تغتصب وتقتل، فإنك شخص لا أخلاقي وعلينا فعلاً أن نحتاط منك. ولو على الطرف الآخر، لو وافقت أن تستمر في كونك صالحًا حتى بدون وجودك تحت مراقبة السماء، فإنك تقوّض زعمك بأنَّ الله ضروري لنكون صالحين. اشتبه في أن كثيرًا من المتدينين يفكرون بأن الدين هو ما يدفعهم ليكونوا صالحين، خصوصًا تابعي أحد فروع الإيمان الذي يستغل الشعور الشخصي بالذنب.

يبدو لي بأن التفكير بذلك يستدعي وجود عدم ثقة بالنفس بحيث إنه لو الأيمان بالله اختفى فجأة من العالم، فإننا جميعًا سننقلب لقساة أنانيين نهتم بالمتعة فقط، بدو صلاح أو صدقة أو كرم، لا شيء مما يستحق أن يوصف بالجودة على الإطلاق. من المصدق به بشكل واسع أن ديستويفسكي كان له هذا الرأي، مستنتجين ذلك من الكلمات التي وضعها في فم إيفان كرامازوف:

«إيفان لاحظ بجدية بأنه ليس هناك أي قانون في الطبيعة مما يكون أن يجعل الإنسان يحب الإنسانية، ولو أن الحب وجد ولا يزال في العالم فإنه ليس ميزه من مزايا قانون الطبيعة، لكنه يعود بشكل تام لإيمان الإنسان بخلوده الشخصي، وزاد تعليقًا جانبيًا بأن ذلك بالضبط هو ما يحدد القوانين الطبيعية، وذلك يعني، بأنه لو تحطم إيمان الإنسان بخلوده، فلن تتعطل قدرته على الحب فحسب، ولكن ستتعطل كل القوى الضرورية لبقاء الحياة على هذه الأرض. والأكثر من ذلك، لن يكون هناك أي شيء لا أخلاقي، وسيكون كل شيء مسموحًا، حتى آكل لحم البشر».

وأخيرًا وكأن كل ذلك لم يكن كافيًا، صرّح بأنَّ كل شخص، مثلي ومثلك، مثلاً والذي لا يؤمن بإله أو بخلودهِ الشخصي، فإنَّ قوانين الطبيعة تقتضي فورًا بأن يكون الشخصية المعاكسة تمامًا لقوانين الدين التي سبقتها، وأنَّ الأنانية، وحتى ارتكاب الجرائم سيعتبر ليس فقط مسموحًا، بل وأساسيًا أيضًا، وسيكون هو الأكثر عقلانية، والاكثر نبلاً من أجل البقاء في تلك الظروف».

ربما أنها سذاجتي، ولكنني أميل لوجهة نظر أقل تهكمًا عن الطبيعة الإنسانية من إيفان كرامازوف. هل نحتاج حقيقة، لأن نكون مراقبين من الله أو من بعضنا البعض، حتى نتوقف عن الأنانية والسلوك الإجرامي؟ أريد وآمل أن أصدّق بأني لا أحتاج مراقبة كتلك، ولا أنت يا عزيزي القارئ. ومن ناحية أخرى ولنقوي ثقتنا، لنستمع إلى ستيفن بينكر وتجربته الحقيقة خلال إضراب البوليس في مونتريال، والذي وصفه باللوح الأسود:

«كيافع في كندا الفخورة باستقرارها وسلامها خلال الستينات، كنت مؤمنًا تمامًا بالفوضوية التي دعا لها باكونين. وكنت أضحك من رأي أهلي القائل بأنه لو ألقت الحكومة سلاحها فإنها تفتح أبواب الجحيم. وأراؤنا المتفاوتة وضعت قيد الإمتحان عندما اضربت قوات الأمن في مونتريال في الساعة الثامنة من يوم 17 تشرين الثاني».

1969 وعندما بدأ إضراب البوليس في الساعة 11:20 تعرض أول بنك للسرقة. وعند الظهر أغلقت معظم متاجر مركز المدينة أبوابها بسبب السرقات. وبعد بضع ساعات أحرق سائقو تكسي كاراجا لسيارات الليموزين كان ينافسهم على زبائن المطار. قناص من سقف قتل شرطيًا محليًا، اقتحامات حصلت في العديد من الفنادق والمطاعم، وحصيلة النهار كانت ستة بنوك، مئة متجر 12، حريقًا 40، سيارة محملة ببضائع على واجهات المحلات المهشمة، وثلاثة ملايين دولار أضرار للمتلكات. حتى اضطرت المدينة أن تستعين بالجيش، لإحلال النظام.

ذلك الإمتحان التجريبي لآرائي تركها ممزقة كخرقة بالية»...

ربـما أني أميل بسـذاجة لتصديـق أن الناس سـيقون جيدين في غياب المراقبـة الإلهيـة. ولكن من ناحيـة أخرى، فـإنَّ غالبية أهـل مونتريال من المفـروض أنهم مؤمنينب. فلـماذا لم يخافوا من عقوبتـه عندما خاب رجال الشرطـة الأرضيـين مؤقتًا عن السـاحة؟ أليـس إضراب مونتريـال تجربة جديـدة لتجربـة النظريـة القائلة بـأنَّ الإيمان بـالله يجعلنا صالحـين؟ أم أن السـاخر مينكين أصاب بملاحظته اللاذعة: «الناس يقولون بأنهم بحاجة للدين في حين أنهم في حاجة للبوليس».

بالطبـع لـن يتـصرف كل شـخص في مونتريال بشـكلٍ سـيّئ بمجرد غيـاب الشرطة عن السـاحة. وسـيكون من المثير معرفة فيـما لو كان هناك أيـة ميـول إحصائيـة، ولو بشـكل ضئيل، للمؤمنـين بالديـن لأنَّ يسرقوا ويحطموا أكثر من غير المؤمنين. وتوقعي الغير مبني على أية معلومات هو العكـس. هناك من يقول بتهكم أنه لا يوجـد ملحدين في مخابئ الثعالب. وأنا أميل للشك (مع بعض الأدلة، برغم أنها بسيطة لدرجة أنها لا يمكن الإعتماد عليها لأي استنتاج) بأنَّ هناك أقلية من الملحدين في السجون. أنا لا أزعـم بالضرورة بأنَّ الإلحاد يرفع مسـتوى الأخـلاق، على الرغم من أن الإنسـانية النظـام الأخلاقي الذي يتماشي مع الإلحـاد ربما تفعل ذلك. والإمكانيـة الأخرى هي أن الإلحاد يتناسـب مع عامل ثالث، كمسـتوى دراسي أعلى، أو ذكاء أو تفكير، والتي بشـكل عام تتعارض مع الإندفاع الإجرامـي. والأبحاث من هذا القبيل لا تدعم بالتأكيد النظرة العامة بأنَّ الديـن يتناسـب طردًا مـع الأخلاق. والتناسـب الطـردي لا يعني صحة النتيجـة ولكـن المعلومات التاليـة، والتي وصفها سـام هاريـس في كتابه رسالة إلى وطن مسيحي، لابد أنها مثيرة جدًا:

«إنَّ علاقـة الدين بالأحزاب السياسـية في أمريكا ليـس علامة فارقة، ولكن ليس من السر أن الولايات الحمراء الجمهوريين قد سـميت كذلك نظرًا للنفوذ القوى للمسيحية المحافظة. ولو كان هناك علاقة بين الصحة الاجتماعية والمسيحية المحافظة فيجب أن نتبينها في تلك الولايات الحمراء في أمريـكا. وضمـن المحافظات الـــــ 25 والتي فيها أقل نسـبة جرائم، فـإنَّ 62 بالمئة منها تقع في ولايات زرقاء ديمقراطيين و38 تقع في ولايات حمراء. والواقع أن ثلاث محافظات من أصل خمس والتي فيها أعلى نسـبة أجرام في الولايات المتحدة تقع في ولاية تكساس التقية. الولايات الـــــ 12 والتي تتميز بأعلى نسب سرقات ولايات حمراء. ومن الولايات الـــــ 22 بأعلى نسبة جرائم قتل هناك 17 ولاية حمراء».

إنَّ الأبحاثَ المنظمة تميل بشـكل عام لدعـم معلومات مثل هذه. دان دينيـت، في كتابه كـسر الطوطم، عقل بسـخرية مريرة، ليـس على كتاب هاريس، ولكن بشكل عام على دراسات كتلك:

«لسـنا بحاجـة للقول، بـأنَّ نتائـجَ كتلك تصـدم الزعم القائـل بالمثل الأخلاقيـة العليا وقيمهـا بين المتدينين لدرجة أن أصبـح هناك اندفاع من قبـل المؤسسـات الدينية لدحضهم... يمكننا أن نكـون متاكدين من شيء واحـد وهـو، لو كان هنـاك أي علاقة إيجابيـة بين الأخلاقيـات والتدين، أو الممارسـات الدينية، أو الإيمان، فإنها ستكتشـف قريبًا، بما أنَّ الكثير من المؤسسـات الدينية تسعى بجهد لإثبات إيمانهم التقليدي عن ذلك علميًا. (معجبون تمامًا بقدرة العلم على اكتشاف الحقيقة عندما توافق ما يؤمنون به). وكل شـهر يمضي بدون اكتشـاف كهذا يضع خطًّا أحمرَ تحت الشـبهة بأنَّ تلك العلاقة ليست موجودة».

معظـم من يفكـر بالموضوع يصل لنتيجـة بأن الأخلاقيـات الموجودة في غيـاب البوليس أكثر صدقًا بشـكل ما من تلك التـي تتبخّر فور أعلان البوليس للإضراب أو عند إطفاء كاميرا التجسـس، سواء كانت الكاميرا حقيقة ومراقبة من قبل مخفر البوليس أو كانت خيالية في السماء.

ربـما لا يكـون من العدل تفسـير السـؤال لـو لم يكن هناك إلـه، لماذا تزعج نفسـك بالصلاح؟ بتلك الطريقة التهكمية. ويمكن لمفكّر ديني أن يعطينا تفسيرًا أخلاقيًا صادقًا، وتلكم بعض من أقوال مؤمن خيالي. بـما أنـك لا تؤمـن بـالله، فإنك لا تؤمـن بأن هنـاك أي قواعـد أخلاقية نموذجية، وربما تحاول أن تكون إنسـانًا صالحًا بكل الصدق الموجود في الأرض، ولكـن كيـف يمكنك القرار بما هو جيد وما هو سيّئ؟ الدين وحده يستطيع تأمين القواعد النموذجية للصالح والطالح. وبدو الدين عليـك أن تخترعهـا من خـلال ممارسـاتك. وتلك اخلاق بـدون كتاب للقواعد: وهذا ينقض الأخلاق برمتها فلو كانت الأخلاق مسألة خيار، لإستطاع هيتلر الزعم بأنـه أخلاقي بالقياس لنظريته المتعلقة بتحسـين النسل، ويسـتطيع كل الملحدون أن يختاروا شخصيًا قواعدًا ليعيشوا في ضوئها. بعكس اليهود والمسـيحين والمسلمين، الذين يستطيعون الزعم بـأن الـشر له معنى حقيقـي وأزلي وواحد في كل مـكان، وبناء عليه فإن هتلر هو شرير مطلق».

حتـى ولـو كان حقيقيًا أننـا بحاجة للإله لنكـون أخلاقيين، فذلك لن يجعـلَ بـأي شـكل من الأشـكال وجود الإلـه أكثـر احتمالاً، ولكـن أكثر رغبـة في وجوده (الكثيرون لا يسـتطيعون ملاحظة الفـرق). ولكن ليس هـذا هو المهـم. أن متديني التخيـلي لايحتاج للإعتراف بـأن تملق الإله هو

الدافع لعمل الخير في الدين. بل زعمه كالتالي، لا يهم من أين أتى الدافع لعمل الخير، ولكن بدو الدين لن يكون لدينا قواعد لتحديد الصلاح، والتصرّف على أساسه.

المبادئ الأخلاقية المبنية فقط على الدين (على خلاف «القاعدة الذهبية» مثلاً، والتي تعتبر غالبًا متعلقة بالدين ولكن يمكننا استخلاصها من مكان آخر) ربما تسمى بالمطلقة. الخير خير والشر شر، وليس علينا أن نقرّرَ بحسب الحالات، كمعانات شخص ما على سبيل المثال. ومتديني الخيال يزعم بأنَّ الدين وحده يستطيع تحديد ما هو جيد.

بعض الفلاسفة، وكانط بالأخص، جرّبوا استخراج أخلاقيات مطلقة ليست من أصول دينية. وكونه هو ذاته متدينًا معروفًا حيث لم يكن هناك أي مخرج آخر تقريبًا في أيامه، فقد حاول كانط أن يبني الأخلاقيات عن الواجبات لأجل الواجبات فقط، بدلاً عن الله. وتصنيفاته للواجبات المشهورة توجهنا لأن «نتصرف فقط بتلك الحكمة بإعتبارها تسري في نفس الوقت كقانون عالمي عام».

وكمثال يوضّح بشكل مرتي سنأخذ الكذب. تخيّل أن هناك عالمًا بأكمله حيث الجميع يكذب على أساس أنَّ ذلك هو الأساس، والكذب يعتبر شيئًا أخلاقيًا وجيدًا. في عالم كهذا سيفقد الكذب معناه. الكذب يحتاج للفرض بأن هناك صدق وحقيقة بالتعريف. ولو أن نظامنا أخلاقيًا هو شيء علينا أتباعه، فإنَّ الكذب لا يمكن أن يكون نظامًا أخلاقيًا لأن المبدأ بذاته يتلاشى معنويًا. الكذب كقاعدة للحياة لا يمكن أن تكون مستقرة. وبشكل أعم، الأنانية، والتطفل باستغلال النوايا الطيبة للآخرين، ربما يكون مفيدًا لي كفرد أناني وحيد ويعطيني سعادة شخصية،

ولكن لا أستطيع أن آمل أن يكون الجميع طفيليين وأنانيين بالمبدأ، لأنني لن أحصل على من أتطفل عليه عندها.

الأولويات الكانطية تبدو وكأنها فعّالة في حالات الصدق وبعض الحالات الأخرى. ولكن ليس من السهل تعميمها على الأخلاقيات العامة. وبالرغم من كانط، فإنه من المغري الموافقة مع فرضية المتديّن التخيلي بأنَّ الأخلاقياتِ المطلقة تنحدر بشكلٍ عام من الدين. أيُعدّ تخليص مريض بمرض عضال من عذابه وبطلبه هو خطأ دائمًا؟ هل من الخطأ المطلق ممارسة الجنس مع شخص من نفس الجنس؟ هل قتل بويضة مخصبة يعتبر خطأ اكيدًا؟ هناك من يؤمن بذلك، والقواعد عندهم مطلقة. لا يساقون لأي نقاش أو جدال. وكل من يخالفهم الرأي يستاهل القتل: نتكلم بالرموز بكل تاكيد هنا، وليس الكلام حرفيًا ما عدا حالة بعض الأطباء الأمريكيين في عيادات الإجهاض (أنظر الفصل القادم). لحسن الحظ وبشكل عام، فالأخلاق لا يجب أن تكونَ مطلقة.

فلاسفة الأخلاق هم الأخصائيون عندما يتعلق الأمر بالتفكير بالصح والخطأ. كما عبر عن ذلك بالمختصر المفيد روبرت هيند، اتفقوا على أن «النصائح الأخلاقية، بالرغم من أنها ليست بالضرورة مبنية عقلانيًا، يجب أن نستطيع العقلانية الدفاع عنها». يصنفون أنفسهم بعدة طرق، ولكن التعاريف الحديثة تقسمهم بين المحاججين بالواجبات (سنسميهم الوجبيون) كانط كمثال والمحاججون بالنتائج (النتائجيون) (يتضمنون النفعيين مثل جيريمي بينثام 1832 - 1748).

الواجبيون هو اسمٌ مفخّمٌ للإيمان بأنَّ الأخلاقيات تبنى على أساس طاعة القوانين. وحرفيًا هي علم الواجبات وأصل الكلمة من الأغريقية

ومعناها الشيء الملزم. وذلك ليس ما يسمى بالأخلاقيات المطلقة، ولكن في أغلب الحالات لكتاب ديني لا نحتاج لمعرفة الفرق.

المطلقيون يؤمنون بأن هناك صح مطلق وخطأ مطلق، الأولويات التي تشدهم لا تنوه بأي شكل للنائج. النتائجيون يشددون ببراغماتية على أنَّ أخلاقيات عمل ما يجب أن تقاس بنتائجها. واحد أنواع النتائجية هو النفعية، وهي الفلسفة المرتبطة ببينثام، وصديقه جيمس ميلل (1773 - 1936) وابنه جون ستيوارت ميل (1806 - 73) النفعية غالبًا تتخلص بعبارة بينثام البراقة للأسف: السعادة الكبرى لأعظم عدد هي القاعدة للأخلاقيات والقوانين.

ليست كل القواعد المطلقة نابعة من الدين. برغم ذلك، من الصعب أن ندافعَ عن الأخلاقيات المطلقة على أسسٍ غيرِ دينية. والمنافس الوحيد الذي أستطيع التفكير به هو الوطنية وخصوصًا في أوقات الحرب. كما قال المخرج الإسباني المميز. الله والوطن فريق لا يمكن الفوز عليه: يحطمون كل الأرقام القياسية للظلم وإراقة الدماء. ضباط التجنيد يعتمدون بشكل كبير على أحاسيس ضحاياهم بالواجب الوطني. وفي الحرب العالمية الأولى أهدتِ النساء ريشة بيضاء للشباب الذين لا يلبسون اللباس الموحد.

«لانريد فقدانك، ولكن نظن بأن عليك أن تذهب، لأن الملك والوطن يحتاجون لك».

البشر يكرهون الفارون الواعون، حتى اولئك الذين في بلد العدو، لأنَّ الوطنية تعدّ مزية مطلقة. ومن الصعب أن نحصل على مطلق أكثر

من أنه وطني سواء كان على حق أو على خطأ، من جندي ما، ذلك الشعار الذي يلزمك بقتل كل من يقع عليه إختيار سياسيوا المستقبل لإعطائهم لقب عدو.

ربما يفلح منطق النتائجيون في التأثير على القرار السياسي بخوض الحرب، ولكن بمجرد إعلان الحرب، فإنَّ الوطنية المطلقة تستلم زمام الأمور بقوة وطاقة لا توجد خارج نطاق الدين. والجندي الذي تدفعه أفكاره الأخلاقية النتائجية لعدم تخطي الحدود سيجد نفسه غالبًا في محكمة ميدانية وربما يواجه الإعدام.

إنَّ الدافع لتلك المناقشة عن الفلسفة الأخلاقية كان فرضية الدين الزاعمة بأنه لو لم يكن هناك إله، فإن الأخلاق نسبة واعتباطية. كانط وآخرون من الفلاسفة الأخلاقيين المختصين على حده، ومع كل الاعتراف بالتأجّج الوطني، فإنَّ المصدر المفضل للأخلاقيات المطلقة يكون عادة كتابًا مقدّسًا دينيًا من نوع ما، ويفسر على أن لديه سلطة أكبر من أن يستسطيعَ تاريخه تبريرها. وبكل تأكيد، فإنَّ اتباع السلطة المقدسة يبدون القليل جدًا لدرجة مؤلمة من الفضول بما يتعلق بالأصول التاريخية (المريبة عادة) لكتبهم الدينية. الفصل التالي سيستعرض التالي، على أي حال، الناس الزاعمون بأخذهم للأخلاقيات من الكتب المقدسة لا يفعلون ذلك عمليًا. وهذا شيءٌ جيد أيضًا، كما يجب عليهم أنفسهم الموافقة بعد التفكر.

الفصل السابع

الكتاب الصالح
وأخلاقيات روح العصر المتغيرة

«السياسةُ قَتَلَتِ الآلاف، ولكن الدين قتلَ مئاتِ الآلاف».

- شون أوكاديسي

توجـد طريقتـان يمكـن بهـما أن يكـون الكتـاب المقـدس مصـدرًا للأخلاقيات أو قوانين العيش. الأول بالأوامر المباشرة، مثلاً عبر الوصايا العشرة، والتي كانت أحد أسباب المرارة في الحروب الثقافية في بعض أماكن أمريكا النائية. والثاني هو بالمثال: الله وأحد الشخصيات الإنجيلية الأخرى والذي يجب علينا الاعتداد به ولنستعمل التعبير الحديث مثالاً أعلـى. والطريقتان - لـو اتبعنا بتزمّت - (والتعبير هنا برمزيته يشـير إلى أصلـه) سـتقودا لأخلاقيات معينة وأي شـخص عـصري، متدين أو لا، سيعدها ولا أجد تعبيرًا الطف هنا، بغيضة.

للعـدل، الكثير من الإنجيل ليس شريرًا بشـكل مقصود ولكنه مؤسي بشـكل غريب، كما هو متوقع مـن وثيقة ادبية لأمور غـير متعلقة ببعضها اعـدت بشـكل عشـوائي، وحـررت وروجعـت، وترجمـت وشـوهت وحسـنت من قبل المئات مـن الكتاب والمحررين والناسـخين المجهولين بالنسـبة لنا وغالبًـا غير معروفين من قبل بعضهم البعض، وخلال تسـعة قرون.

قـد يفسر هـذا الغرابـة المطلقـة للإنجيـل. ولكـن للأسـف فـإنَّ تلـك الوثيقـة الدينيـة المتطرفـة الغريبة مفروضـة علينا لتكـون المصدر للأخلاقيـات وطريقة الحياة. هؤلاء الذين يرغبون أن يأسّسـوا حياتهم بحسـب الأنجيـل لم يقـرأوه أو يفهموه غالبًا كما لاحظ الأسـقف جون شـيلبي سـبونغ، في كتابه آثام الكتاب المقدس. الأسـقف سبونغ، على فكـرة هـو مثال لطيـف لرجل الدين الحـر وصاحب إيـمان لا يعترف به غالبية من يسمون أنفهم بالمسيحيين. وخلافًا لريتشار هالواي، المتقاعد حديثًا من منصبه كأسـقف أدنبرة. الأسـقف هالواي يصف نفسـه بأنه

«مسيحي متعافي». لقيته في مناقشة علنية في أدنبره وكانت أحدى أهم وأكثر اللقاءات إثارة للحوافز.

العهد القديم:

لنبدأ بسفر التكوين والقصة المثيرة للإعجاب لنوح، والمأخوذ من اسطورة بابلية «لاوتانابشتيم» والمعروفة في أساطير القدم عند كثير من الحضارات. أنّ أسطورة الحيوانات التي تذهب للسفينة زوجًا زوجًا جذابة جدًا، ولكن أخلاقيات قصة نوح تستحق التحميص. نظر الله للبشرية نظرة ظلماء، وقرّر باستثناء عائلة واحدة أن يغرقهم جميعًا ومن ضمنهم أطفال، وأيضًا لأسباب جيدة كل باقي المفترض أنه لأعتب عليهم الحيوانات أيضًا.

طبعًا رجال الدين المتضايقين سيعترضون بأننا لا نأخذ قداس التكوين بحرفيته. ولكن تلك هي القضية بعينها! نحن نختار وننتقي المقاطع التي نؤمن بها من الكتاب المقدس، والمقاطع التي نعدّها رمزية أو مجرد حكايات. وانتقاء واختيار كهذا هو موضوع اختبار شخصي، تمامًا كما يختار الملحد أن يتّبعَ أخلاقيات كهذه أو تلك كقرار شخصي وبدون أي أسس مطلقة. ولو أنّ أيًا من هذه الأخلاقيات تستحق حقًّا معينًا فكذلك الأخلاقيات الأخرى.

على كل حال، وبالرغم من النوايا الحميدة لرجال الدين المرموقين، فإنَّ الغالبية من الناس لا تزال تأخذ الكتاب المقدّس، ومن ضمنه قصة نوح، بشكل حرفي. واعتمادًا على إحصائيات فالعدد يتضمن 50 بالمئة من المنتخبين في الولايات المتحدة. وكذلك وبدون شك، الكثيرون من

القدّيسـين الآسـيويين الذين ألقوا تبعة التسـونامي عـام 2004 ليس على التحركات التكتونية للأرض ولكن على ذنوب البشر، وتتراوح الذنوب بـين الـشرب والرقص في البـارات حتى نقـض بعض قواعـد العمل يوم السبت.

منقوعـين بقصة نوح، ومتجاهلـين كل شيء ما عـدا تعاليم الإنجيل، ومن يلومهم؟ كل ثقافتهم تدفعهم للتفكير بأنّ الكوارث الطبيعية مرتبطة بأعـمال البشر بدلاً من ارتباطها بالحركات التكتونية للقارات. وبالمناسـبة فـإنّ ذلك الصلف المتطـرف للإيمان بأنّ ارتجـاج الأرض بالدرجات التي يتبعهـا الله (أو المسـطحات التكتونيـة) يجـب أن يتعلّقَ بالبـشر. لماذا يجب على الخالق والذي في عقله تكمن الأزلية والخليقة، أن يكترث لتصرفات خاطئـة تصـدر عـن إنسـانٍ تافـه؟ نحن البـشر نهـوى، بل نعطـي فخامة لتضخيم «ذنوبنا» الصغيرة لمستويات كونية.

وعندمـا أجريـت مقابلـة تلفزيونيـة مـع الموقـر مايـكل بـراي، أحـد الناشـطين المميزيـن الأمريكان ضد الإجهاض، سـألته عن سـببِ هوس الإنجليز المسـيحين بأمور الجنس الخصوصية كالمثلية، والتي لا تؤثر على حياة أحد آخر. واحتوى جوابه على شيء كالدفاع عن النفس.

المواطنون الأبرياء يُمكن أن يكونوا ضحايا غير مقصودين عندما يقرّر الله أن يضربَ مدينة بكارثة طبيعية لأنها تحوي مذنبين. وفي 2005 ضرب طوفـان مدينة نيـو أورليانـز الجميلة كنتجـة لإعصار كاتيرنـا. وصدرت تقارير عن الموقر بات روبرتسـون، أحد أشـهر الإنجيلين التلفزيونيين في أمريكا وأحد المرشحين السـابقين للرئاسة بأنه ألقى باللائمة على إحدى الكوميديـات المثليات التي تعيش في مدينة نيو اورليانز (الخبر المنشـور في

الإنترنـت ليس أكيدًا، ولكنه ليس بالمستغرب فلطالما صرح الإنجيليون بتصريحات مماثلة -المترجم). لا بد أنك تفكر بأنَّ إلهًا كلي القدرة سيستخذ أسـلوبًا أكثر تحديدًا للهدف لو أراد عقاب مذنب ما: كسكتة قلبية مثلاً، عوضًا عن مدينة كاملة كانت لسـوء حظ سـاكنيها مكان سـكن زوج من السحاقيات؟

وفي نومـبر 2005 قـام مواطنـوا دوفر في ولايـة بنسـلفانيا بإقالة الهيئة التدريسـية من المتطرفين ذوي السـمعة السيئة، الذين أرادوا أن يفرضوا تدريـس ما يسـمى التصميم الذكي. وعندما سـمع بات روبرتسـون بأن المتطرفون ابعدوا ديموقراطيًا في الانتخابات، أعطى تحذيرًا أخيرًا لسـكان دوفر:

«أحب أن أقول لسـكّان دوفر، بأنه لو حصلت كارثة في منطقتكم لا تلجأوا للرب. لأنكم رفضتموه من مدينتكم، ولا تتساءلوا لماذا لم يسـاعدكم عندما تبدأ المشـاكل، هذا لو حصلت مشاكل، وأنا لا أقـول بأنها سـتحصل، لكن لو بدأت، تذكـروا فقط بأنكم صوتتم لإخـراج الله من مدينتكم. وفي حالة كتلك، لا تسـألوه العون لأنه ربما ليس هناك».

بات روبرتسـون سـيبدوا ككوميدي عديم الأذى، وهـو أحد الأمثلة للناس الذين لديهم سلطة في الولايات المتحدة.

في تحطيم صادوم وعامورة، كان الإنسان الموازي لنوح، والذي قدر له النجاة مع عائلته لأنه كان المسـتقيم الوحيد، كان ابن أخ إبراهيم والمسمّى لـوط. مـلاكان على هيأة رجال أرسـلوا على لوط لتحذيـرهِ ودفعه لتركِ

البلـد قبل وصول الحريـق. ورحب لوط بالضيوف الملائكـة في بيته، بينما اجتـماع رجـال صـادوم حـول بيته وسـألوه بأنَّ يسـلّمَ الملائكـة لهم حتى يستطيعوا (ماذا غير؟) ممارسة الصادومية معهم.

أيـن الرجـال الذيـن أتـوا إليـك في الليل؟ أجلبهـم لنا حتى نسـتطيع التعـرّف عليهـم (التكويـن 19:5) نعـم، نتعـرّف، كانـت الكلمـة التـي اسـتخدمها النسـخة المعتمدة كمعنى تلطيفي، والذي يبدو مضحكًا جدًا في موقـف كهذا. وكياسـة لـوط في رفض طلبهم يقترح علينـا بأنّ الله ربما يخطّـط لشيء ما عندمـا اختاره من بـين الجميع كالرجـل الوحيد الجيد في صـادوم. ولكن الهالة على لوط تتبخّر عندمـا يعرض رفضه: أرجوكم يا إخوتي، لا تفعلوا هذا الشر. انظروا عندي ابنتان لم تعرفا الرجال من قبل: اسـمحوا لي، أرجوكم بأن أحضرهما لكم في الخارج، وافعلوا بهم ما يحلو لكم: ولكن لا تفعلوا شـيئًا لهؤلاء الرجال: لأنهم تحت سـقفي (التكوين 7 - 9 - 19) مهـما قالـت لنا هذا القصة الغريبة، فإنهـا بالتأكيد تخبرنا عن احترامِ النساء في تلك الحضارة المتدينة بعنف.

وعندمـا تحصـل القصة. فإنَّ المسـاومة التي يضحّي فيهـا لوط بعذريةِ بناتـه كانت غـير ضروريـة؛ لأن الملائكة نجحـوا في طـرد اللصوص بأن جعلوهـم عميانًا بمعجزة فجائية. وبعدها فـورًا حذروا لوط بأنَّ عليه أن يرحـل مع عائلته فورًا لأن المدينة سـتدمّر. وكل العائلة هربت، باسـتثناء زوجتـه المنحوسـة والتي حوّلها الـرب لكومةِ ملح لأنهـا ارتكبت معصية ربما نعدّها بسيطة بالمقارنة بالعقوبة التطلّع للوراء لرؤية النار المستعرة.

وابنتـا لـوط تظهران بشـكلٍ مختـصر مرة أخـرى في القصـة. وبعد أن تحوّلـت أمهما لكومةِ ملح، عاشـتا مع أبيهما في كهـفِ بين الجبال، تحترقان

على مصاحبة رجل، وقرّرتا أن تُسكرا والدهما وتناما معه. ولوط لم يكن في وضعٍ يسمح له بالملاحظة عندما اقتربت ابنته الكبرى من سريرهِ أو عندما تركته، ولكنه لم يكن سكرانًا بالقدر الذي يسمح له بجعلها حامل. وفي الليلة التالية اتفقت البنتان على أن دور الصغرى قد حان. ومرة أخرى جعلها لوط حاملاً (التكوين 6 – 31: 19) لو أن تلك العائلة المريبة هي أفضل الموجود في صادوم أخلاقيًا، ربما يشعر بعضهم بالتعاطف مع الإله وقراره بإحراقها.

حكاية لوط والصادوميين لها إعادة مماثلة للصدى بشكلٍ مخيفٍ في الفصل 19 من كتاب الحكماء، حيث كان أحد القدّيسين مسافرًا مع محظيته في جباها. وقد أمضوا ليلتهم بضيافة رجل عجوز. وبينما كانوا يتناولون العشاء، أتى رجال المدينة يقرعون الباب، يطلبون من صاحب المنزل أن يسلّمهم الضيف الذكر حتى يتعرفوا عليه. وبشكلٍ مطابقٍ تقريبًا لما قاله لوط، قال العجوز: لا يا أخوتي لا، أرجوكم بدون شرور، ترون أنَّ الرجلَ قدم لمنزلي فلا تمسّوه بحماقة.

انظروا هذه ابنتي العذراء وتلك محظيته، سأحضرهم إلى الخارج، ولتفعلوا بهما ما يرضيكم، ولكن لا تؤذوا هذا الرجل بأي شيء (الحكماء 4 – 19,23). ومرة أخرى الأخلاقيات الشريرة المضادة للنساء تحضر، بكل قوة ووضوح.

إنني أجد العبارة «حظوا من أمرهم» تثير القُشَعْريرة. تمتعوا باغتصاب ابنتي ورفيقة القديس، ولكن قدموا الاحترام لضيفي لأنه قبل كل شيء رجل ذكر. وبالرغم من التماثل بين القصتين. فإنَّ خاتمتها كانت أقل سعادة لرفيقة القديس من مثيلتها لابنتي لوط.

القديس سلّمها للعصابة، التي اغتصبتها جماعيًا طول الليل: تعرّفوا عليها واستخدموها طوال الليل، وعندما حل الفجر، تركوها تذهب ووصلت المرأة عند الفجر وسقطت على الباب حيث كان سيّدها، حتى طلوع النهار (الحكماء: 19 – 25,6). وفي الصباح وجد القدّيس محظيته ساجدة على درج المنزل وقال بطريقة نعدّها اليوم فظة وقاسية «أأنهضي ودعينا نذهب» ولكنها لم تتحرك. كانت ميتة «فأخذ سكينًا، وقطع محظيته لأثنى عشر قطعة، وأرسلها لكل شواطئ إسرائيل».

نعم لقد صحت قراؤتكم. انظروا إلى الحكماء. 19:29 دعونا نحسن الظن ونضعها مع باقي الأمور الغريبة الموجودة في كل مكان في الإنجيل. تلك القصة المماثلة بشكل ما لقصة لوط، ولا يمكننا ألا أن نتساءلَ عمّا إذا كان ذلك الجزء من المخطوط قد وضع بالخطأ في مكان خاطئ من المخطوطة المنسية: مما يوضح العصبية نحو النص المقدس.

إبراهيم عم لوط هو الأب المؤسس للديانات التوحيدية «العظيمة» الثلاث. وتلك المنزلة الأبوية تجعله بشكل ما أقل من يتبع كنموذج. ولكن من هو الأخلاقي المعاصر الذي يريد أن يتبع خطواته؟ في باكورة حياته الطويلة، ذهب إبراهيم لمصر هربًا من المجاعة مع زوجته سارة. لاحظ عندها بأنَّ امرأةً بجمالها ستكون مرغوبةً من قبل المصريين، وبالتالي ستكون في خطر وكذلك سيكون زوجها.

لذلك قرّر أن يعرف عنها بأنها أخته. وبهذا الصدد أخذت وضمت لحريم الفرعون، وأصبح إبراهيم غنيًّا بفضل فرعون. الله لم يوافق على هذه الصفقة وأرسل طاعونًا على الفرعون ومنزله (لماذا ليس على إبراهيم؟) والفرعون الحزين طلب من إبراهيم تفسيرًا عن أنه لم يقل

لفرعون أنَّ سارة هي زوجته. وأعادها له وطردهم من مصر (التكوين 18 – 19: 12) للغرابة، يبدو أنَّ هذين الاثنين حاولا أن يفعلا نفس الشيء مرة أخرى وهذه المرة مع أبيميليخ ملك جيرار. وهو أيضًا دفع من قبل إبراهيم ليتزوج سارة، ومرة أخرى على أنها أخت أبراهيم وليست زوجته (التكوين 2 – 5:20). وهو أيضًا أبدى الامتعاض، بطريقةٍ مشابهةٍ كثيرًا لفرعون، وأحدنا لا يملك ألا أن يتعاطفَ مع الاثنين. أليس التشابه مؤشرًا على أنَّ النص ليس مما يمكن الثقة فيه؟

تلك الأحداث غير السارة في حياة إبراهيم تبدو كهفواتٍ فقط عند مقارنتها بالقصة البغيضة عن التضحية بابنه إسحاق (في الكتاب المقدس الإسلامي تقال نفس القصة عن الابن الآخر إسماعيل).

الرب أمر إبراهيم بتقديم قربان على النار مكوّن من الابن الذي طالما حلَم بأنَّ يكون لديه.

بنى إبراهيم المذبح، ووضع حطب النار عليه، وربط ابنه إسحق فوق الحطب. وسكين القتل كان في يده عندما تدخل ملاك بشكل درامي ومعه أخبار بتغيير الخطّة في اللحظات الأخيرة: الرب كان يمزح فقط «ليغري إبراهيم، وليختبر إيمانه. والأخلاقي الحديث سيتساءل بالتأكيد عن إمكانية التعافي النفسي للطفل بعد صدمةٍ نفسية كتلك. وبمقايس الأخلاق الحالية فإنَّ تلك القصة تحتوي على العنف ضد الأطفال، الشراسة من جهتين مختلفتين في الروابط والقوة، وأول حادث استعملت به طريقة دفاع محاكم نيورنبرغ النازية: «كنت أنفذ الأوامر فقط». ولكن تلك الأسطورة هي إحدى الأساسات الرئيسية في الأديان التوحيدية الثلاثة.

ومـرة أخرى سـيعترض علماء الدين بأنَّ قصة تضحيـة إبراهيم بابنه لا يجـب أن تؤخذَ كواقعـة. ومرة أخرى أيضًا، فالإجابـة الصحيحة لها شقّان:

الأول: الكثـيرون الكثـيرون من الناس في عصرنـا لا يزالون يأخذون الكتـاب المقـدس كأحـداث واقعيـة حصلـت، وهـؤلاء لديهـم قـوة وسيطرة سياسـة على الآخرين ونحن منهم، وبالأخص في الولايات المتحدة والعالم الإسلامي.

الثاني: لو لم نأخذ القصة كواقع فكيف علينا أن نأخذها؟ فقط كحكاية؟ ولكن حكاية عن ماذا؟ بالتأكيد لا شيء يستحق التقدير فيها. أنأخذها كدرس في الأخلاق؟ ولكن ما نوع الأخلاق التي يمكن أن نستوحيها من تلك القصة المروّعة؟ لنتذكر هنا.

بـأنَّ ما أحاوله في هذه اللحظة هو إثبات إننا عمليًا لا نسـتقي أخلاقنا من الكتاب المقدس. أو إذا فعلنا ذلك فإننا نختار وننتقي ما هو لطيف فيه ونرمـي ما هو قذر. ولكن يجـب أن يكون لدينا تصنيفات مسـتقلة والتي بواسـطتها نقـرر ما هو التـصرف الأخلاقـي. تصنيف مهـما كان مصدره لا يمكـن أن يكـون من الكتاب المقـدس ويجب أن يكون المصـدر متوفرًا للجميع سواء كانوا متدينين أم لا.

المتدينـون يحاولون حتى أن يعطوا للإله بعض الحشـمة في تلك القصة المحزنة. أليس خير الإله هو الذي أنقذ حياة إسحاق في اللحظة الأخيرة؟ وفي حالة سقوط أحد القراء ضحية لتلك المقولة، سأسرد قصة أخرى من الأضاحي الإنسانية والتي انتهت بنهاية أقل سعادة.

في سفر الحكماء الفصل 11 ينذر القائد العسكري جيبثاه لله، بأنه لو ضمن له النصر ضد الأمونيين، فإنه سيضحي بدون أستثناء، «أول من سيستقبله على أبواب منزله» عندما يعود للبلد، وجيبثاه بالتأكيد ينتصر على الأمونيين (بمذبحة عظيمة، كما هو الحال عمومًا في كتاب الحكماء) ويعود للبيت منتصرًا. لا مفاجأة هنا، أن ابنته الوحيدة، خرجت لتستقبله (وهي ترقص وتغني) وللأسف كانت هي الكائن الحي الأول الذي فعل ذلك.

ومن المفهوم أن جيبثاه وقع في مأزق، ولكن ليس هناك ما يستطيع فعله. ويبدو أنَّ الله كان ينتظر ضحيته بفارغ الصبر، وبناء على الظروف فقد رضيت الفتاة أن تكون الأضحية. وطلبت فقط أن تخلو بنفسها في الجبل لشهرين لتندب عذريتها. وفي النهاية عادت بوداعة، حيث طبخها جيبثاه والرب لم يتدخل هذه المرة.

إنَّ غضب الله العظيم عندما يتلعب شعبه المختار مع إله آخر لا يشابه أي شيء كمشابهته للغيرة الجنسية في أسوأ حالتها. ومرة أخرى تبدو واضحةً لأخلاقيٍّ حديث بعيدة كل البعد عما يمكن دعوته بالمثال الأعلى. إن الإغراء الجنسي المسبّب لعدمِ الإخلاص مفهوم. حتى لهؤلاء الذين لا يستسلمون له أبدًا، وهو أقرب ما يكون لشبكة درامية أو خيالية، ابتداء بشكسبير وحتى مهزلة غرفة النوم. ولكن يبدوا لنا في الوقت الحاضر بأنَّ الإغراء الذي لا يُقاوم للعبث مع الهة غريبة أصعب من أن نتعاطف معه. وفي رأيي الساذج أجد أنه من السهل جدًا الالتزام بعبارة «لا يكن لك إله غيري» هذا سهل، ربما تفكر، مقارنة بـــ لا تشتهي امرأة جارك. أو حمارها أو ثورها. وبرغم ذلك فخلال العهد القديم، وبنفس الطريقة

المتوقعة في مهزلة غرفة النوم، كان على الرب أن يدير ظهره لبرهة، حتى يبدأ أبناء إسرائيل بعبادة بعل، أو صورة محفورة أخرى أو بصورة مفجعة العجل الذهبي....

إنَّ موسى أكثر من إبراهيم، يمكن الاعتداد بالمثال لاتّباع الديانات التوحيدة الثلاث. ربما يكون إبراهيم الأب الأول لتلك الديانات. ولكن من يكن دعوته بالملقن الأول لتلك الديانات هو موسى. وفي حادثة العجل الذهبي، كان موسى في طريقه لأعلى جبل سيناء يناجي ربه ويأخذ منه الألواح المنقوشة من قبل. والناس في الأسفل (يتألمون من الجوع لدرجة لا يمكنهم معها لمس الجبل) لم يضيعوا الوقت:

«عندما رأى الناس أن موسى تأخر في النزول من الجبل، جمعوا شتاتهم وقالوا لهارون، هيا، اجعل لنا آلهة، لتعمل في صالحنا كما فعلت مع موسى، الرجل الذي اتى بنا لهنا، وأخرجْنا من مصر، ولا نعلم ما حصل معه (سفر الخروج 1: 32)».

هارون أمر الجميع بأن يخرجوا ما لديهم من ذهب، أذابه وصنع منه العجل الذهبي، ولذلك الإله المخترع بنى مذبحًا حتى يبدأ الناس بالتضحية من أجله. حسنًا كان عليهم أن يعرفوا عاقبة العبث مع الرب بهذا الشك. ربما أنه كان في أعلى الجبل، ولكن بالرغم من ذلك فهو كليٌّ المعرفة ولم يُضعْ أي وقت في إعلام موسى بأنه المنفذ لأوامره. وموسى سارع بالنزول من الجبل حاملاً الألواح الحجرية التي كتب عليها الله الوصايا العشر. وعند وصوله رأى العجل الذهبي وغضب لدرجة أنه أوقع الألواح من يده وتحطمت (الله اعطاه الواحًا بديلة لاحقًا، وبذلك رجعت الأمور لناصبها).

أمسك موسى بالعجل الذهبي وأحرقه وحوله لبودرة وخلطها بالماء وأرغم الناس على ابتلاعه. ثم قال للجميع في عشيرة ليفي لأن يستلوا سيوفهم ويقلتوا اكثر عدد ممكن من الناس. ووصل العدد لحوالي ثلاثة آلاف، وربما يحق لنا أن نأمل بأن ذلك كاف لتخفيف زعل الإله الغيور. لكن لا، لم ينتهِ الله بعد. ففي الآية الأخيرة من هذا الفصل المرعب كانت الضربة الأخيرة بإرسال طاعون على من بقي من الناس «لأنهم صنعوا العجل، الذي صنعه هارون»

وكتاب سفر العدد يخبرنا كيف ألهمَ الناس موسى بأن يهاجم الميديانايت. كان على جيشه أن يذبح كل الرجال، ويحرق كل مدن الميديانايت، ولكنهم يقتلوا النساء والأطفال. وتلك الرحمة التي مارسها الجنود أغضبت موسى، وأعطى اوامره بقتل الصبيان جميعهم، وكذلك كل الأناث غير العذراوات. ولكن كل النساء الصغار اللاتي لم يعرفن رجلاً بعد بالنوم معه، أبقوهم على قيد الحياة لأنفسكم (سفر العدد 1:18).. لا.. لم يكن موسى مثالاً عظيمًا يُحتذى بالنسبة للأخلاق العصرية.

في الوقت الحاضر عندما يحاول المتدينون الكتابة عن الموضوع وإرفاق معنى رمزي أو مجازي فإن ذلك المعنى يأخذ الاتجاه الخاطئ. الميدياناتيون المساكين، بحسب ما نستطيع قوله من الإنجيل، كانوا ضحية مذبحة في عقر دارهم. وبالرغم من ذلك يعيش اسمهم في العلم المسيحي فقط في تلك الترنيمة المسيحية (الذي ما زال يستطيع ترنيمه بلحنين مختلفين بعد خمسين عامًا) والتي تدعو المؤمنين للهجوم الكامل.

يا مسيحيين انظروا

على الأرض المقدّسة

كيف يجول فرسان الميادينيين؟

يا مسيحيين قوموا واضربوهم

واجعلوا ربحهم خسارة

اضربوهم لاستحقاقهم

ليبقى إلى الأبد حكم الصليب المقدس

للأسف، الميايدينون، المُفترى عليهم والمذبوحون، يذكرون فقط كرمز شعري على الشر العالمي في أحد ترانيم النصر.

الإله المحلي بعل يبدو أنه كان دائم الإغراء للعباد الفالتين. وفي الأرقام، الفصل 25 أغرت امرأة الكثيرين من بني إسرائيل أن يضحّوا لبعل. وردة فعل الرب كانت تشخيصًا للغضب. أمر موسى «خذ رؤوس جميع الناس وعلقها للرب في الشمس، حتى يتوجه غضب الله الكبير في اتجاه آخر وليس في اتجاه أرض إسرائيل» ولا أحد يستطيع ألا أن يتعجب على وجهة النظر المتشدّدة نحو ذنب مغازلة أحد الإله المحليين. وبالنسبة لحسنا العصري بالقيم والعدالة تبدو تلك الأمور لنا أبسط كثيرًا من لنقل مثلاً تقديم ابنتك لاغتصابٍ جماعي. وهذا مثال آخر على عدم التواصل بين الكتاب المقدس والأخلاق العصرية (من المغري هن القول: الحضارية) وبالتأكيد ذلك يفهم بسهولة باستعمال نظرية الميمات، والمواضيع التي تحتاجها الآلهة لتستمر في الوجود في مجموعة الميمات.

إنَّ المهزلـة التراجيديـة لغيرة الإله المهووس مـن الآلهة الأخرى تتكرّر خـلال العهد القديم. إنها الدافع الأول للوصايا العشرة (التي كتبت على الألواح التي كسرها موسـى: الخروج، 20 التثنية 5) وتظهر بوضوح أكبر (وبشـكل مختلـف) بالوصايـا البديلة التـي قدمها الله لتحل محـل الألواح المكسـورة (الخـروج 34) ووفـاء بوعـده بطـرد العموريـين والكنعانيـين والحثيين والفرزّين والحويّين واليبوسـيين من الشعوب من أرضهم، يبدأ الله بشرح الأسباب: الألهة المنافسة!

«عليكـم تحطيـم مذابحهـم، وتكسـير صورهـم، وقطـع أشـجار بسـاتينهم؛ لأنَّ مـن الممنوع عبـادة إله آخر: لأنك لا تسـتجد لإله آخر لأنَّ الـرب اسـمه غيـورر، هو إله غيـور، احذر من أن تقطـعَ عهدًا مع سـكان الأرض التـي أنت أت فيزنـون وراء الهتهـم ويذبحون لإلهتهم فتدعـى وتأكل من ذبيحتهـم وتأخذ من بناتهم لبيك، فتزني بناتهم وراء الهتهن ويجعلن بنيك يزنون وراء آلهتهن. لا تضع لنفسـك إلهة مسبوكة (الخروج 13 – 17:34)».

آه. بالطبـع، بالطبـع لقـد تغير الزمن وليـس هناك من رؤسـاء رجال الدين (باسـتثناء ما شابه «طالبان» وأشـباههم من المسيحيين الأمريكان) من يفكر بنفس طريقة موسـى. ولكن تلك هي النقطة التي أريد أن أركّزَ عليهـا. كل مـا أريد أن أبنيـه هنا هو بـأن الأخلاقيات الحديثـة، مهما كان مصدرها، ليسـت من الكتب المقدسـة. لا يمكن للمتدينـين التملّص هنا بالادّعاء بأنَّ الدين يمدهم بالطريقة التي تجعلهم يتعرفون على ما هو جيد وما هو سيّئ كمصدر رفيع غير متوفر للملحدين. لا يستطيعون التملص ولن تفيدهم خدعهم المفضلة عن تفسـير الكتاب بشـكل «رمزي» عوضًا

عن حرفي. ما هي المعايير التي تجعلك تقرر ما هي العبارة الرمزية وما هي الحرفية؟

إنَّ تصفيةَ الشعوب التي بدأت في عهد موسى أثمرت دمويتها في كتاب يوشع، كتاب ملحوظ في مذابحه المتعطشة للدم والخوف من الغرباء الذين يتوجب ذبحهم. كما تقول الأغنية البهيجة، «يوشع وفي معركة أريحا، اهتزت الحيطان ووقعت، ليس هناك أحد مثل يوشع عند الإله، في معركة أريحا». يوشع الكبير لم يسترِحْ حتى دمّر أريحا بالكامل، رجالها ونساءها، المسن والطفل، الثور والنعجة والحمار، على حد سيفه» (يوشع 6:21)

ومرة أخرى يعترض رجال الدين ذلك لم يحدث، حسنًا، القصة تقول بأنَّ الجدران تهدمت من أصوات الرجال يزعقون وينفخون النفير، بالطبع لم يحدث ذلك، ولكن ليس ذلك ما هو مهم في الموضوع. النقطة هنا هي - إن صح - الكتاب المقدّس يُفرض علينا لأنه مصدر الأخلاق. وقصة يوشع وتدميره لأريحا، واحتلال أرض الميعاد بشكل عام، لا يمكن تمييزها عن غزو هتلر لبولونيا، أو مذبحة صدام حسين للأكراد والعرب. ربما يكون الكتاب المقدس عمل شاعري وخيالي، ولكنه ليس ذلك الكتاب الذي يجب أن تدرسه لأطفالك ليستقوا منه أخلاقياتهم وهنا أريد الذكر بأنَّ قصة يوشع كانت موضوع تجربة مثيرة للاهتمام في أخلاقيات الطفل، والتي سنناقشها لاحقًا في هذا الفصل.

وبالمناسبة، أرجو ألا تظن، بأنّ الشخصية الإلهية في تلك القصة كان لديها أي اعتراض على المذبح والتدمير اللذين رافقا احتلال الأرض الموعودة. على العكس، فأوامره على سبيل المثال في سفر الخروج كانت

مفصلة بعدم الرحمة. لقد أوضح الفروق بين الأناس الذين يعيشـون على الأرض الموعـودة، وأولئك الذين يعيشـون بعيدًا عنهـا، والذين يجب أن يستسـلموا بهدوء. وفي حال رفضهم، فيجب قتـل كل الرجال وأخذ كل النساء للإنجاب.

وعلـى العكس من ذلـك الحكم الذي يبدو بالمقارنة إنسـانيًا، لننظر لما ينتظـر أولئك المتوسّـعين بشـكل كافٍ ليكونوا سـكان الأرض الموعودة: ولكـن في تلـك المـدن التي يسـكنها هـؤلاء والتـي يورثكم الـرب إياها، يجـب عدم الحفاظ علـى أي شيء يتنفّس: بل يجب عليكم تدميره، الحثيين والأراميين والكنعانيين.. لأن الرب قد أمركم بذلك»

هل يعرف هؤلاء الذين يرشـحون الكتاب المقدّس كملهم للأخلاق، ما هو مكتوب فيه؟ التهم الآتية عقوبتها القتل، كما ورد في سفر اللاويين: سب الأهل، الزنا، ممارسة الجنس مع زوجة الأب أو الكنة، المثلية الجنسية، الـزواج من امرأة وابنتها، ممارسـة الجنس من البهائـم (وزيادة بالملح على الجرح، البهيمة المسـكينة يجب قتلها أيضًا). ويجب إعدامك أيضًا، بالطبع كعقوبة للعمل يوم السـبت: النقطة تؤكد نفسها مرة تلو أخرى من خلال العهد القديم. وفي كتاب موسـى الرابع يواجه بنو إسرائيل شخصًا بجمع الحطب في الغابة في البوم المجرم. أوقفوه وسألوا الله ما يفعلون به.

وكـما تبـين، لم يكن الله في مـزاج لتقبل إنصاف الحلـول في ذلك اليوم. وقال الإله لموسـى، يجب بالتأكيد قتل ذلـك الرجل: كل الجموع يجب أن ترجمـه بالحجارة وبدون حماية. وأتت به الجموع بدون شيء يحميه، ورموه بالحجارة ومات».

هل كان لدى جامع الحطب المسالم زوجة وأطفال ينعونه بحزن؟ هل نشج من الخوف عندما طارت أول حجرة، وهل صرخ من الألم عدما اصطدمت برأسه؟ ما يصدمني في يومنا هذا في قصص كهذه ليس أنها حدثت بالفعل. فربما لم تحدث. ما يجعلني فاغر الفم هو أن بعض الناس يظنون أن عليهم أن يبنوا حياتهم ويتمثلون يهوه كنموذج يحتذي بهديه والأسوأ من ذلك بأنَّ عليهم أن يحاولوا أن يفرضوا ذلك الشر الأخلاقي (بغض النظر عن كونه واقعي أم خيالي) على الآخرين منا.

إنَّ القوة السياسة للوصايات العشرة في أمريكا هي مما يؤسف له بشكل خاص في تلك الجمهورية العظيمة والتي سنت قوانينها قبل أي شيء آخر من قبل رجال متنوّرين وعلمانيين بشكل كامل. وإن أخذنا الوصايا العشر بشكلٍ جدّيٍّ، لاعتبرنا عبادة آلهة أخرى ونحْت صور لها كذنوب من الدرجة الأولى والثانية. وعوضًا عن استنكار عمل طالبان التخريبي، الذي فجر بالديناميت تمثال بوذا الباماياني في جبال افغانستان، يجب علينا أبدًا آيات التقدير لتقواهم المستقيمة وما نفكر بأنه عمل تخريبي كان بالتأكيد مدفوعًا من شعور ديني صادق الحماس. وما يؤكد لنا ذلك هو القصة الغريبة التي كانت قائدها لصحيفة «الأنديبنتدت» في لندن في عددها بتاريخ 6 اب. 2005 وعلى صحيفتها الأولى وبالخط العريض كان العنوان «تدمير مكة» وكتبتِ الأندبيندنت:

«مكة التاريخية، مهد الإسلام، أصبحت تحت هجوم لم يسبق له مثيل من قبل الأتقياء المتدينين. كل التاريخ الغني والمتعدد الأوجه لتلك المدينة المقدسة ذهب... والآن تواجه المدينة التي ولد بها النبي محمد الجرافات، وبالتغاضي التام من قبل الحكومة الدينية

في السعودية والتي يدفعها تفسيرها للإسلام لمحو كل الإرث التاريخي.. الدافع خلف ذلك الدمار هو خوف الوهابيين المتطرفين من أنَّ مكانًا بتلك المكانة التاريخية بإمكانه أن يكون سببًا في عبادة الأصنام والأشراك بالله. وعبادة آلهة متعددة ومتساوية وممارسة الشرك في السعودية لا يزال يعد جريمة عقوبتها قطع الرأس».

لا أظن بأنَّ هناك ملحدًا في العالم يمكن أن يفكر بأن يهدّمَ مكة بالجرافة أو شارتر يورك أو نوتردام أو تنين تشو أو معبد كيوتو وبالطبع أيضًا بوذا الباميانى. وكما قال العالم الأمريكي الحائز على جائزة نوبل ستيفن واينبرغ الدين إهانة لكرامة البشر، معه وبدونه، هناك طيبون يفعلون الخير وسيئون يفعلون الشر، ولكن لتجعل الطيبين يفعلون الشر فإنك تحتاج للدين. بليز باسكال (صاحب الرهان) قال شيئًا مشابهًا: «لا يقترف الإنسان عملاً شريرًا بسرور وبشكل كامل إلا إذا فعلها بسبب قناعة دينية».

هدفي الأساسي هنا ليس أن أعرض بأنه ليس علينا أن نأخذ أخلاقنا من الكتب المقدسة (رغم أن ذلك هو رأيي الشخصي). إنَّ هدفي هو توضيح الواقع بأننا (وهذا يتضمن الكثيرين من المتدينين) في الحقيقة لا نأخذ أخلاقنا من الكتب المقدسة. لو فعلنا، لحفظنا يوم السبت وفكرنا بأنه من المنطقي والعادي إعدام أي شخص لا يفعل ذلك. كنا رجمنا أي عروس لا تستطيع إثبات بأنها عذراء ليلة دخلتها، وذلك عندما يعلن الزوج عدم قناعته بذلك. لأعدمنا الأطفال العاقّين. ووو.. ولكن انتظر. ربما أنت لست عادلاً هنا. والمسيحيون اللطيفون سيعرضون على هذا الفصل: الجميع يعرف بأنَّ العهد القديم ليس لطيفًا. والعهد الجديد الذي نزل على المسيح أصلح الخطأ وجعل كل شيء على ما يرام.. أليس كذلك؟

هل العهد الجديد أفضل بأيّةِ حال من الأحوال؟

حسـنًا، لا يمكن أن ننفي أنـه من ناحية الأخلاق، يعد المسـيح تطورًا عظيـمًا بالنسـبة للغول القاسي مـن العهد القديـم. بالتأكيد، المسـيح على فـرض أنه وجـد (أو أيًا كان من كتـب العهد الجديد إذا لم يوجد المسـيح) كان بالتأكيـد أحـدًا أعظـم المبتكريـن الأخلاقيـين علـى مـدى العصور. الخطبـة مـن رأس الجبـل سـبقت عصرهـا بكثـير. و«إدارة الخد الآخر» سـبقت غاندي ومارتن لوثر كينغ بألفي عام وليس عبثًا أنني كتبت مقالاً بعنوان «ملحدون لنصرة المسـيح» (وبعـد ذلك قدم العنوان مطبوعًا على تي شيرت).

ولكـن تفـوق المسـيح الأخلاقي هو مـا يدهـم النقطة التـي أدعو لها. المسـيح لم يأخـذ أخلاقياتـه من الكتاب المقـدّس الذي تربّـى عليه. بل أنه ابتعد عنه كثيرًا. كمثال عندما أهمل موضوع السـبت. «السـبت صنع من أجل الإنسـان ولم يصنع الإنسـان من أجل السبت» تلك المقولة أصبحت مثـلاً متـداولاً وعندما تكون رسـالته الأساسـية هـي أنه علينـا ألا نأخذ أخلاقياتنـا مـن الكتاب المقـدس، أعتقد أنـه علينا أن نقلّـده ميدالية على تلك الرسالة.

أما بالنسـبة لموضـوع العلاقات العائلية فإنَّ علينـا أن نعترف بتقصيره حيالهـا، لدرجـة الفظاظة حتـى مع أمه ذاتها، وشـجع تلاميـذه أن يتركوا عائلاتهـم ويتبعـوه. «لـو أنَّ رجـلاً أتـى إليّ ولا يكـره أباه وأمـه وزوجته وأطفالـه وإخوتـه وأخواتـه، وحتـى حياتـه نفسـه، لا يمكنـه أن يكـون تلميـذي». الكوميديـة الأمريكيـة جوليا سـويني عبرت عـن حيرتها من

خلال عرضهـا المسرحي دعنا نترك الإله. أليس هذا ما يفعله الطائفيون؟ يجعلونك ترفض عائلتك ليغرسوا أفكارهم في رأسك؟

برغم قيمه العائلية الخداعة، كانت تعليمات المسـيح الأخلاقية على الأقل بالمقارنة مع الأخلاقيات الكارثية للعهد القديم مثيرة للإعجاب: ولكن هناك تعليمات أخرى في العهد الجديد وعلى الطيبين أن يتبعوها. وهنـا أنـوّه بالأخـص للفكـرة المركزيـة للمسـيحية «غفـران الخطيئـة الأصلية».

تلك التعليمات التي التي تشكل لبَّ العهد الجديد، تقارب بأخلاقياتها البغيضة قصة إبراهيم وقراره بشيّ ابنه إسـحاق، والتي تشابه وليس ذلك صدفـة، كما يوضـح غيـزا فيرميـس في كتابه الأوجـه المختلفة للمسـيح. الخطيئة الأصلية بحد ذاتها أتت من العهد القديم ومن أسطورة آدم وحواء وارتكابهـم الذنـب بأكلهـم مـن الفاكهة المحرّمة، تبدو بسـيطة لتسـتحق بعـض التوبيـخ. ولكـن الطبيعة الرمزيـة للفاكهة (المعرفـة للخير والشر، والتي أصبحت عالميًا المعرفة بأنهما كانا عاديين) كانت كافية لتحويل تلك السرقة الطائشـة لتصبح أمًا وأبًا لكل ذنب. هم وكل نسلهم حُرموا للأبد مـن جنات عدن، ومنعت عنهـم الحياة الأبدية، ولعنوا لأجيال من العمل الشاق، في الحقول وألم الولادة على التوالي.

كل ذلـك، كل التخريـب: هوالحـال في العهـد القديـم. العهد الجديد اضـاف ظلمًا آخر، وزاد عليه السادومازوشـية العنيفة التي لا تقارن حتى بالعهد القديم. إنَّ من المثير للتسـاؤل عندما تمعن التفكير، أنَّ الدين يتبنّى أداةً للتعذيب والإعدام كرمزٍ مقدّسٍ وتلبس غالبًا حول العنق.

ليني بروس لديه الحق في الاستهزاء عندما قال: «لو أعدم المسيح قبل عشرين عامًا، سلبس أطفال المدارس الكاثوليكية كراسي إعدام كهربائية صغيرة حول أعناقهم عوضًا عن الصليب». ولكن النظرية الدينية والعقابية التي بُنيتْ عليها كانت حتى أسوأ. ذنب آدم وحواء يبدو وكأنه ورث عبر سلالة الذكور، مرورًا عبر الحيوانات المنوية كما ورد عن القدّيس أغوستين.

ما تلك الفلسفة الأخلاقية التي تلعن كل طفل، حتى قبل أن يولد، ليرث ذنبَ سلف بعيد له؟ أغوستين، بالمناسبة الذي عدَّ نفسه نوعًا من السلطة في موضوع الذنوب، هو الذي أوجد التعبير «الخطيئة الأصلية» وقبل كانت معروفة بـ «خطيئة الأسلاف». التعديلات والنقاش يلخّصان بالنسبة لي من انشغال علماء الدين المسيحي المريض بمسألة الذنب. كان بوسعهم تكريس الصفحات للتسبيح للسماء المرصعة بالنجوم، أو الجبال بغاباتها الخضراء، البحار وجوقات المساء. تلك الأمور اشير إليها في المناسبات، ولكن المسيحية ركزت بشكل كبير على الذنب، الذنب، الذنب، الذنب. ما أتفه ذلك ليكون شغل حياتك الشاغل. سام هاريس عبر عن ذلك بشكل رائع في كتابه رسالة إلى وطن مسيحي: «شغلكم الشاغل هو القلق بسبب أنَّ خالق الكون لا يقرّ بالأشياء التي يؤديها الناس وهم عُراة. ذلك التزمّت هو مساهمتكم اليومية تجاه البؤس الإنساني».

ولكن الآن، الإله السادومازوشي. يتجلّى في هيأة إنسان، المسيح ليتعذب ويُعدم كتفكيرٍ عن خطيئة آدم المتوارثة. ومنذ أن نشر بولص تعاليمه البغيضة، بدأت عبادة المسيح كشفيع لكل خطايانا. وليس فقط

لخطيئة آدم في الماضي، وكذلك الخطايا المستقبلية، ولا يهم أنَّ كان سكان المستقبل سيفعلونها أم لا.

ومن جانب آخر، خطرت للبعض ومنهم روبرت غرافيس في قصته الملحمية الملك المسيح، بأنَّ المسكين يهوذا الأسخريوطي قد حصل على سمعة غير عادلة تاريخيًا، نظرًا لأنَّ «خيانته» كانت ضرورية للمخطط الكوني ويمكن قول نفس الشيء عن قتلة المسيح.

عندما يريد المسيح أن يخان ويعدم، لأجل أن يخلصنا جميعًا، فهل من العدل أن يحمل هؤلاء المخلصون البغضاء ليهوذا عبر التاريخ؟ لقد أشرت إلى اللائحة الطويلة عن الأناجيل الغير قانونية. واحدها يعد الإنجيل الضائع الذي كتبه يهوذا وقد ترجم حديثًا وبالتالي أصحبت له دعاية. أن ملابسات اكتشافه ما زالت قيد التحميص، ولكن على ما يبدو أنه ظهر في مصر في الستينات أو السبعينات. وهو مخطوط باللغة القبطية من 62 صفحة من ورق البردي وتاريخه الكربوني يعود لـــ300 ميلادية وربما كان أصله من مخطوطٍ أبكر باللغة اليونانية.

مهما كان الكاتب فإنَّ المخطوط هو وجهة نظر يهوذا الأسخريوطي ويدّعي بأنَّ المسيح قد طلب منه أن يلعب هذا الدور. كل شيء كان جزءًا من الخطّة لصلب المسيح حتى يستطيع تخليص الإنسانية. مهما كان ذلك التلقين بغضيًا فإنه يبدو أكثر كترتيب للكراهية التي حصل عليها يهوذا من ذلك الحين.

لقد وصفت التكفير عن الذنب، الذي هو لب المسيحية، كشر سادومازوشي وبغيض. وعلينا أن ننبذه كنباح مجنون، ولكن وجوده في

كل مكان والألفة التي صارت لنا معه قد بلدت موضوعيتنا. لو أراد الله أن يغفر ذنوبنا، لماذا لا يغفرهم وحسب، بدون أن يتعذّبَ ويعدم بالمقابل، وكنتيجة لتلك الحادثة يسبب اللعنة للأجيال القادمة من اليهود ليقاسوا المذابح المدبَّرة والاضطهاد لأنهم «قتلة المسيح» هل أنتقل الذنب خلال الحيوانات المنوية أيضًا؟

بولص، كما يوضح لنا العالم اليهودي غيزا فيرم، كان منقوعًا بالنظريات الدينية اليهودية القديمة ومبادئها عن أنه لا غفران بدون دم. بالتاكيد ففي رسالته للأحبار (9:22) قال ذلك. ودارس الأخلاق التقدميون في أيامنا يجدون صعوبة في الدفاع عناي من أنواع الإنتقام في نظرية العقاب، ناهيك عن نظرية كبش الفداء عن إعدام برئ للغفران للمذنب.

علـى أي حال (لا يملك المرء ألا أن يتساءل)، من ذا الذي أراد الله أن يثيرَ الانطباع لديه؟ ربما هو نفسه، الحاكم والمحكوم وضحية الإعدام والملخص، آدم، الخائن المفترض الذي اقترف الخطيئة الأصلية، لم يوجد على الإطلاق أو لا: حقيقة محيرة لم تكن معروفة لبولص ولكن المفترض أنها معروفة من الإله الكلي المعرفة (وللمسيح لو كنت تؤمن بأنه الإله؟) وذلك يهز بعمق كل أسس قصة التعذيب التافهة ونظريتها. أوه ولكن بالطبع، إنَّ قصة آدم وحواء رمزية فقط، أليست كذلك؟ رمزية؟ حسنًا. لأجل أن يثيرَ المسيح الانطباع المؤثّر في نفسه، فقد عذب وأعدم نفسه، في عقوبة مريعة لأجل ذنبٍ رمزي ارتكبه فرد لم يوجد أصلاً؟ وكما قلت نباح مجنون، وعنف رهيب.

قبل أن أتركَ الكتاب المقدّس، أحتاج لئن أنبّه تحديدًا لأحد الطرق غير المستساغة في تعليماته. من النادر أن ينتبه المسيحيون للقيم الأخلاقية

التي يروج لها العهدان القديم والجديد وأنها بالأصل مخصّصة للعمل في المجتمعات المغلقة. «أحبب جارك» لم تعنِ ما نظن أنها تعنيه اليوم. بل عنت «أحبب اليهودي الآخر». تلك النقطة ركز عليها بشكل دقيق الطبيب الأمريكي وعالم التطور الإنساني جون هارتونغ. لقد كتب مقالاً هاملاً عن التطور وتاريخ الكتاب المقدس في المجتمعات المغلقة، مركزًا بشدة على الطرف الآخر من الصورة، العنف تجاه الجماعات الخارجية.

حب قريبك:

إنَّ الكوميديا السوداء التي أتى بها جون هارتونغ واضحة من مطلعها، «عندما يحكي عن مبادرة مسيحي من جنوب الولايات المتحدة المعروفين بالميثوديون بتقدير عدد سكان الأباما الذين سيذهبون لجهنم. وكما روت صحيفة نيويورك تاميز ونيوزداي كان العدد النهائي 86 , 1 مليون، وذلك باستعمال معادلة سرية للاحتمالات وفيها سيخلص الجنوبيون الميثوديون بنسبة أكبر من الروم الكاثوليكيين، بينما أي شخص لا ينتمي لجمهور الكنيسة يحتسب من بين الضائعين». تلك الأفكار غير الطبيعية المتعجرفة نراها اليوم في عدد من صفحات الإنترنت الداعية لموضوع «القيامة»، حيث يعتبر الكاتب نفسه من بين الذين سيختبرون للجنة بشكل مؤكد عندما تأتي نهاية الأيام.

إليكم مثالاً نموذجيًا، من كاتب «جاهز للقيامة»، أحد أمثلة المنافقين المقرفين بذلك الصدد: «عندما تأتي القيامة وأختفي كنتيجةٍ لذلك، سيكون من الضروري أن يدعم قديسو المحنة صفحة الإنترنت هذه» (ربما لاتعرف معنى قديسو المحنة هنا... لا تزعجْ نفسك فلديك ما هو أهم من ذلك).

ما استلهمه هارتونغ من الأنجيل يقترح بأنه ليست هناك أي قواعد يمكن أن تؤدي لذلك التعجرف بين المسيحيين. المسيح حدد المجموعة التي سينوبها الخلاص لتكون من اليهود، وذلك باتّباع تقاليد العهد القديم، والذي كان كل ما يعرفه. يوضح هارتونغ بأن «لا تقتل» لم يقصد بها أبدًا ما نظن أنها تعنيه الآن. بل إنها عنت بخصوصية، لا تقتل اليهود. وكل تلك الوصايا التي تشير إلى «الجيران» مخصصة أيضًا.

«الجيران» تعني الرفاق اليهود. ابن ميمون، العالم المحترم من القرن الثاني عشر والطبيب والراباي، يشرح معنى لا تقتل كالآتي: «عندما يقتل أحدٌ ما إسرائيليًا، فهو يخالف الوصايا؛ لأنَّ الكتاب المقدس يقول، لا تقتل. وعندما تقتل أحد شخصًا بإرادته وبوجود شهود، فيجب إعدامه بالسيف. ولا نحتاج للقول بأننا لا نحتاج لإعدام من يقتل وثنيًا. «لانحتاج للقول.»..!

وينقل هارتونغ أقولاً من السانهدرين (المحكمة اليهودية العليا، المرؤوسة من قبل الكاهن الأعلى) وبدون جدوى أيضًا، لتبرئة رجل من المفترض أنه قتل إسرائيليًا بالخطأ بينما كان يحاول قتل حيوان أو وثني. ذلك اللغز الأخلاقي المحير يثير نقطة لطيفة. ماذا لو أننا رمينا أحجارًا على تسعة وثنيين وإسرائيليًا واحدًا ولسوء الحظ قتلنا الإسرائيلي؟.... همممممم.... صعبة! ولك الجواب الجاهز. «لا مسؤولية تجاه ذلك كون الغالبية كانت من الوثنيين».

يستعمل هارتونغ العديد من العبارات الإنجيلية كما فعلت أنا في هذا الفصل، عن احتلال الأرض الموعودة من قبل موسى، يوشع والحكماء. كنت حريصًا على الإيضاح بأنَّ المتدينين لم يعودوا يفكّرون بطريقةٍ

الكتابِ المقدس. وبالنسبة لي فإنَّ ذلك يبين بأنَّ أخلاقنا، بغض النظر عن كوننا متدينين أم لا، تأتي من مصدر آخر، بغض النظر عن التدين أو عدمه. ولكن هارتونغ يحكي لنا عن دراسة مرعبة قام بها عالم النفس الإسرائيلي جورج تامارين. لقد أعطى تامارين لأكثر من ألف طالب أعمارهم بين الثامنة والرابعة عشر من إسرائيل، نصًا عن معركة أريحا من كتاب من كتاب يوشع.

قال يوشع: اصرخوا؛ لأن الإله قد أعطانا تلك المدينة. وهي وكل من فيها يجب أن يكون مقدمًا للإله لتحطيمه... ولكن الفضة والذهب، وأواني البرونز والحديد، هي مقدسة للإله، ويجب أن تذهب لأملاكه» وبعدها دمروا المدينة بما فيها، رجالاً ونساء، صغارًا وكبارًا، ثيران، أغنام، حمير... بحد السيف وأحرقوا المدينة بالنار بكل ما فيها فقط الفضة والذهب وأواني البرونز والحديد وضعت في خزينة بيت الله.

تامارين سأل التلاميذ سؤالاً أخلاقيًا بسيطًا: «هل تقر أن يوشع والإسرائيليين تصرفوا بشكل صحيح أم لا؟ والخيارات التي كانت لديهم:

1 - إقرار بشكل كامل.

2 - إقرار جزئي.

3 - رفض بشكل كامل.

النتائج كانت واضحة 66 بالمئة إقرار بشكل كامل و26 نفي بشكل كامل و8 بالمئة إقرار جزئي. إليكم ثلاثة أمثلة من المقرين بشكل كامل:

برأيي أن يوشع وأبناء إسرائيل فعلوا الخير، وإليكم السبب، الله وعدهم بالأرض، وأعطاهم الإذن باحتلالها. ولو لم يفعلوا ما فعلوه ولم يقتلوا أحدًا، فلربما كان هناك خطر من احتمالِ بأن يتفرّق أبناء إسرائيل بين الغوييم.

برأيي أن يوشع على حق فيما فعل، السبب الأول هو أن الله امره بالقضاء على الآخرين حتى يستطيع بنو اسرائيل أن يندمجوا مع الآخرين ويتعلموا منهم العادات السيئة.

يوشع فعل شيئًا جيدًا لأن سكان تلك المنطقة من دين مختلف، وعندما قتلهم يوشع محى أديانهم من الأرض.

في كل حالة من تلك الحالات كان تبرير المذبحة دينيًا. حتى في حال الرفض بشكل كامل (ت) وفي بعض الحالات، لأمور متعلقة بالدين. أحد الفتيات مثلاً، رفضت احتلال يُوشع لأريحا بسبب أن احتلالها يستدعي دخولها:

«أظن أن ذلك سيئًا، لأنَّ العرب نجاسة وعندما يدخل أحد ما أرض نجسة سيصبح أيضًا نجس وملعون مثلهم؟»

واثنان آخرن من الذين رفضوا بشكل كامل، بسبب أن يوشع دمر كل شيء حتى الحيوانات والأملاك، بدلاً من أن يضعها في خدمة الإسرائيلين:

أظن أن يوشع لم يتصرف بشكل جيد، لأنهم كان باستطاعتهم أن يستخدموا الحيوانات.

أظن أن يوشع لم يتصرف بشكل جيد، لأنه كان يستطيع أن يترك أملاك أريحا بحالها: لو لم يدمرها لأصبحت للإسرائيليين.

ومـرة أخرى، ابن ميمون، الـذي غالبًا ما يستشـهد بحكمتة العلمية، نـرى موقفه بدون شـك في أمر كهذا: «إنها وصية إيجابية تدمير الشـعوب السـبعة، لأنه قال: عليكم تدميرهم بالكامل. ولو ترك أي منهم حيًا رغم اسـتطاعة قتله لكان ذلك مخالفة للوصية، لأنها تقول: «لا تتركوا أي شيء يتنفس على قيد الحياة».

وعلى عكس أبن ميمون، فإنَّ الأطفال في تجربة تاميران صغار وأبرياء وربما كانت وجهة النظر الوحشـية تلك من أهاليهم، أو الثقافة في الوسط المحيـط الـذي تربوا فيه. وعلى ما أظن فإنَّ الأطفال في فلسـطين قد تربّوا بطريقة مماثلة في البلد الذي تشـتته الحروب، وسـيعطون آراء مماثلة ولكن في الاتجـاه المعاكس. تلك الاعتبارات تملؤني باليأس. يبدو أنها تسـتعرض الطاقـة الهائلة للدين، وبالأخص التربية الدينية للأطفال، لتقسـيم الناس وبناء العداوات التاريخية والثأر الوراثي، لا أستطيع تجاهل أن 2 من أصل 3 ملاحظات في تجربة تاميران نوهت على الشر المصاحب للمخاطلة بينما الثلث الآخر ركز على أهمية قتل الناس لمحي دياناتهم.

تاميران أجرى تجربة مقارنة مثيرة. أعطى نفس النص لمجموعة أخرى مـن أطفـال إسرائيليين عددهـم 168 والذين حصلوا علـى نفسِ الآيات من كتاب يوشـع، ولكن استبدال اسم يوشع باسم الجنرال لين وإسرائيل اسـتبدلت بـــ مملكة الصـين قبل 3000 عام. وهنا أعطـت التجربة نتائج معاكسـة 7 بالمئة من الطلاب وافقوا علـى تصرف الجنرال لين، و75 بالمئة رفضـوه. وبتعبير آخـر؛ عندما سـحبنا ولاءهم لليهودية من الحسـابات، وافقـت الغالبيـة على المبـدأ الأخلاقي الـذي يتفق عليه معظـم البشر في الوقـت الحاضر. تصرف يوشـع كان مذبحة بربرية ولكـن كل شيء يبدو

مختلفًا عند النظر إليه من وجهة نظر الدين والفرق يبدأ في مراحل مبكرة من الحياة. الدين هو الفرق بين الأطفال الذين يلعنون المذبحة والذين يباركونها.

في فصل آخر من بحث هارتونغ ينتقل للعهد الجديد. ولإعطاء ملخّص عن البحث، المسيح كان مكرسًا لفكرة الجماعة الداخلية واخلاقياتها وما يتبعها من عنف تجاه الجماعات الخارجية التي كانت من الأمور البديهية في العهد القديم. المسيح كان يهوديًا مخلصًا. أن بولص هو مخترع فكرة اخذ الإله اليهودي للوثنيين. هارتونغ يقول بصراحة لا أجرؤ عليها. «سيتقلب المسيح في قبره لو علم بأنَّ بولص سيأخذ خطته ويعطيها للخنازير».

لقد حصل هارتونغ على بعض الفكاهة من كتاب الوحي، والذي هو بدون شك أحد أكثر الكتب حيرة في الإنجيل. من المفترض أنه مكتوب من قبل يوحنا. وكما يصفه دليل كين للكتاب المقدس بشكل طريف، لو نظرنا لرسالته على أنها يوحنا في الطنجرة فإنَّ كتاب الوحي يعد يوحنا على الحمض. هارتونغ يلفت انتباهنا لجملتين في كتاب الوحي حيث يكون عدد هؤلاء الذين يختمون (بعض الطوائف، مثل شهود يهوه، يفسرون تلك الكلمة ب يخلصون) محدودًا بـــ 144000 شخصًا. هارتونغ يركز على أن كلهم يجب أن يكونوا يهودًا 12000. من كل قبيلة من القبائل الأثني عشر. كين سميث يذهب لأبعد من ذلك، مشيرًا إلى أن الـــ 144000 لا يتضمّنون أيًا من النساء مما يعني ربما بأنه ليس هناك نساء في الموضوع وذلك شيء يجب أن نقبله.

هناك الكثير الكثير في دراسة هارتونغ المسلية ومرة أخرى أوصي بقراءتها وسألخّص بعضها في العبارات الآتية:

«الكتـاب المقـدّس مخطّـطٌ للأخلاقيـات في داخـل المجموعـة مع تعليمات لذبح واسـتعباد ما هـو خارجها، والسـيطرة على العالم. ولكن الكتاب المقدس ليس شريرًا بقيمه وأهدافه أو حتى تعظيمه للقتـل، والظلم والاغتصاب، العديد مـن الأعمال القديمة فيها ما يشـابه ذلك الإلياذة، القصص الإيسـلاندية، حكايات السـوريين القديمة ومخطوطات المايا القديمة، أمثلة لذلك».

ولكـن لا أحـد يدعو لأفكار الإلْياذة كأسـاس للأخـلاق وهنا تكمن المشـكلة. الكتاب المقـدس يباع ويشرى على أنه الطريقـة التي يجب على النـاس أن يعيشـوا حياتهم تبعًا لهـا. والكتاب على فكرة هـو أكثر الكتب مبيعًا عبر التاريخ.

وخشـية التفكير بأنَّ الخصوصية محصورة فقـط في اليهودية التقليدية، إليكم هذا المقطع من نشـيد كتبه إيزك وات: (1674 – 1748) الذي كتبه وفيه يشكر الله لأنه ولد مسيحيًا.

إلهي، إنها رحمتك

وليس الصدفة، كما يظن الآخرون..

ما جعلني أولد بعرق مسيحي

وليس وثنيًا أو يهوديًا

مـا يحيرني ليس خصوصية الموضوع ولكن منطقه. بما أنَّ العديد ولدوا لأديـانٍ أخرى ليسـت مسـيحية فكيـف قرّر الله مـن هم الذين سـيكونوا سـعداء المستقبل ليمنحوا تلك الـولادة المفضلة لديه؟ لمـاذا فضل إيزاك وات وهؤلاء الذين رآهم يغنّون النشيد؟ على أية حال، وقبل أن يخصبَ

وات في رحـم أمـه، مـاذا كان وضـع الفئـة المفضلـة؟ تلـك أمـور محيرة، لكن ربما ليسـت محـيرة كثيرًا للعقول التي تربت على الدين. نشـيد إيزاك وات يذكّرنـا بثـلاث صلوات يومية من قبل ذكور اليهود الأثودوكسـين والمحافظـين (وليـس المجدّدين) والتي تُتلى بالشـكل الآتي: «مبارك أنت لأنـك خلقتنـي غير وثني، مبـارك أنت لأنك لم تخلقني أنثـى، مبارك أنت لأنك لم تخلقني عبدًا».

الديـن قـوة للتفرقـة وبدون شـك، وذلـك أحد الأسـباب الرئيسـية التـي تؤخـذ عليه. ولكن يقال كثـيرًا وبحق بأنَّ الحـروب والعداءات بين الجماعات الدينية أو الطوائف، نادرًا ما يكون في الواقع لاختلافات دينية. وعندما يقتل يقتل بروتستانتي كاثوليكيًا، فهو لا يقول في نفسه «خذ، أيها البائـس اللقيط» بـل هو على الأغلـب ينتقم لموت بروتسـتانتي آخر قتل على يد كاثوليكي وربما في قصة ثأر عبر الأجيال. الدين هو لافتة للتمييز بـين داخل الجماعـة وخارجها، ليس بالضرورة أسـوأ مـن لافتات أخرى كلـون الجلد، اللغـة، أو فريق الكـرة المفضل، ولكنها بشـكل عام متوفرة عنها لا تتوفر اللافتات الأخرى.

نعـم، بالتأكيـد إن مشـاكل إيرلندا الشـمالية سياسـة. وهنـاك بالتأكيد ضغـوط اقتصاديـة وسياسـية مـن قبل فئـة تجاه الأخـرى وذلـك لقرون مضـت. هناك شـكاوي وظلم، وذلـك ليس له علاقة بالديـن. ما عدا أنَّ وذلـك مهم جدًا ولا أحد يبدو منتبهًا لذلك لو لم يكن هناك دينٌ لما كانت هنـاك لافتات تفرق وتحـدد من الذي يجب الضغط عليـه ومن هو الظالم. والمشـكلة الحقيقة في شـمال إيرلندا هي تلك اللافتـات التي توارثوها عبر الأجيال.

الكاثوليكيين، الذين ذهب آباؤهم وأجدادهم للمدارس الكاثوليكية يرسلون أبناءهم للمدارس الكاثوليكية. والبروتستانت يفعلون نفس الشيء الأثنان لهما نفس لون الجلد ويتكلمون نفس اللغة ويسرون بالأشياء نفسها ولكن بالإمكان اعتبارهم نوعًا مختلفًا من المخلوقات، عميقة جدًا لتلك الفروق التاريخية. وبدون الدين والمدارس المعزولة على أساس ديني، فلن يكون هناك تفرقة. بدأ من كوسوفو لفلسطين، من العراق للسودان، ومن أولستر حتى القارة الهندية، لننظر بدقة لأي منطقه من العالم حيث توجد مشاكل وعداءات بين الجماعات المختلفة. لا أستطيع ضمان أن يكون الدين هو اللافتة التي تحدد من هو ضمن المجموعة ومن هو خارجها ولكن الرهان على ذلك هو رهنا لا بأس به على الإطلاق.

في الهند وفي وقت التقسيم، قتل اكثر من مليون شخص بغارات دينية بين الهندوسيين والمسلمين (وتشرد أكثر من 15 مليون من منازلهم). لم يكن هناك أي فرق سوى الدين الذي حدد من الذي يجب قتله. وبالنتيجة لم يكن هناك ما يفرقهم سوى الدين. سلمان رشدي تأثير كثيرًا بنوبةٍ دينية قاتلة حديثة في الهند عندما كتب مقالاً بعنوان «الدين كما هو الحال دائمًا، هو السم في الدم الهندي». وإليكم المقطع النهائي منها:

«ما الذي يجب احترامه في ذلك، أو في أي من الجرائم الأخرى التي تحصل في العالم يوميًا تحت أسم الدين؟ ما أبرع الدين، في إنشاء الطواطم ونتائجها القاتلة، وما أكبر رغبتنا في أن نقتلَ من أجل ذلك! وعندما نفعل ذلك بشكل كافٍ فإنَّ نتائج الأفعال تلك لها تأثير يجعل عملها مرة أخرى أسهل. مشاكل الهند أصبحت مشاكل العالم. وما حدث فيها باسم الله. المشكلة اسمها الله».

لا أنكر بأنَّ ميولَ البشرية القوية نحو الولاء للجماعة والعداوة لمن هم خارج الجماعة موجود حتى في غياب الدين. إنَّ معجبي فريق كرة مثال صغير على تلك الظاهرة. وحتى معجبو الفرق المختلفة يمكن أن يقسموا بناء على الدين، كما هو الحال في غلاسكو رينجرز وغلاسكو سيلتيك. اللغة (كما هو حال البلجيكيين)، العرق والقبيلة (بالأخص في إفريقيا) يمكن أن تكون عوامل تقسيم. ولكن الدين يضخم ويقوي الأذى في تلك التقسيمات بثلاث طرق على الأقل:

- وصم الأطفال، الأطفال يوصفون بـ «طفل كاثوليكي» أو «طفل بروتستانتي»... إلخ. وذلك في عمر مبكر جدًا، وبالتأكيد مبكرٌ جدًا ليكونوا على دراية بالتبعية لأي دين أو حتى التفكير فيه (سأعود لذلك الموضوع في الفصل التاسع).

- فصل المدارس، يدرس الأطفال مرة أخرى من عمر مبكر جدًا، من قبل أعضاء من داخل المجموعة الدينية وبشكل منفصل عن الأطفال الآخرين التابعين لأهل ينتمون لدين آخر. وليس من المبالغة القول بأنَّ المشاكل في إيرلندا الشمالية ستختفي لو أُلغي التدريس المنفصل.

- تحريم «الزواج للخارج» يقوي من شكيمة الثأر المتوارث بمنع الاختلاط بين الجهات المتعادية ولو سمح بالزواج المختلط لخفت العداوات بشكل طبيعي.

قرية غلينام هي موطن إيرل انترم. وفي أحد الأيام التي لا تزال في الذاكرة، فعل إيرل ما لم يخطر على بال أحد: لقد تزوج بكاثوليكية. وفورًا أسدلت الستائر في كل منازل غلينام كنعوة. إنَّ رعب «الزواج للخارج»

منتشر أيضًا بشكل كبير بين اليهود المتدينيين. الكثيرون من أطفال إسرائيل الذين نوهت عنهم أعلاه نوهوا عن الإخطار المريعة الناتجة عن «الإندماج» في دفاعهم عن معركة يوشع في أريحا. وعندما يتزوّج أناس من أديان مختلفة، يشار إليهم كنذيرِ شؤم من الطرفين كون زواجهم «مختلطًا» وسيكون هناك معارك على كيفية تربية الأطفال من ناحية العقيدة. وعندما كنت طفلاً ولا أزال أحمل مشعل الكنيسة الإنجيلية، أذكر أني صعقت عندما علمت بأنه عندما يتزوج كاثوليكي وإنجيلي فإن الأطفال سيربون دائمًا على الكاثوليكية.

كان بإمكاني أن أفهمَ بسهولة لماذا يصر كاهن من أي طرف على تلك الشروط. وما لم أستطع فهمه وحتى الآن كان عدم التناظر. لماذا لم ينتقم الكهنة الأنجيليون بوضع نفس الشروط بالمقلوب؟ اعتقدت ببساطة أن القسّيس العجوز وأبينا «بيتجامان»: الطف وأقل عدوانية من الآخرين.

علماء الاجتماع عملوا استفتاءات عن التناغم الديني (الزواج من نفس الدين) والمتخالف (الزواج من دين آخر). نورفال د. غلين، من جامعة تكساس في أوسن، جمع عددًا من الدراسات حتى 1978 وأجرى تحليلاً عليها. واستنتج أنَّ هناك ميلاً عظيمًا للزواج من نفس الدين عند المسيحين (البروتستانت يتزوج بروتستانت والكاثوليك كاثوليك.. إلخ، وذلك يذهب لأبعد من أن يكونَ لسبب العادي لكونه ابن الجيران)، ولكن الظاهرة ملاحظة أكثر عند اليهود من أصل 6021 ممن أجابوا على الاستفتاء، كان هناك 140 ممن قالوا عن أنفسهم أنهم يهودو 7 , 85 بالمئة منهم متزوجون من يهود. وذلك أكبر بكثير من النسبة العشوائية التي نتوقعها في الزواج من نفس الدين. وبالطبع ليس بجديد على أحد كيف

يحاول اليهود منع «الزواج للخارج» وهذا الحرام يظهر نفسه في نكته يهودية عن أم تحذّر أبناءها من الشقراء التي تحاول الإيقاع بهم وإليكم تلك التعليقات من الحاخامات الأمريكيين:

- أنا أرفض تزويج مختلط الدين.

- أنا أزوجهما عندما يعلن الزوجان عزمهما على تربية الأطفال على اليهودية.

- أنا أزوجهما لو وافق الزوجان على الاستشارة قبل الزواج.

الحاخامات الذين يوافقون على التزويج بوجود قسيس نادرين جدًا، ومطلوبين جدًا. حتى لو لم يكن الدين مؤذيًا بأي شيءٍ آخر، فإنَّ ميله وتغذيته الحريصة على تفريق البشر وزرع وقيادة البشر للميل نحو ما هو «داخل مجموعة» وتجنب من هو خارجها سيكون كافيًا لجعله أداةً قوية للشر في العالم.

روح العصر الأخلاقية:

بدأ هذا الفصل بالعرض بأننا لا وحتى المتدينين منا نبني أخلاقنا على الكتب المقدسة، بغض النظر عن كيفية تخيلنا للموضوع. كيف نقرّر، إذن ما هو خطأ؟ بغض النظر هنا، إجابتنا على هذا السؤال، فهناك اتفاق على ما نعدّه بالواقع صح أو خطأ، اتفاق يفاجئنا بعموميته. ذاك الاتفاق ليس له صلة واضحة بالدين. ولكنه يمتد لمعظم المتدينين، وبغض النظر عمّا تفكيرهم بأن أخلاقهم أتت من الكتاب المقدس. باستثناء أمثال طالبان الأفغاني أو ما يساويهم من المسيحيين الأمريكان، فإنَّ الغالبية من البشر تصمت حيال ذاك الاتفاق الحر والعام عن مبدأ الأخلاق.

ومعظمنا لا يسبّب معاناة للآخرين بدون سبب. نؤمن بحرية الرأي حتى وإن كنا نعارض ما يقال: ندفع الضرائب، لا نغش، ولا نقتل، ولا نزني، ولا نتصرف حيال الآخرين بغير ما نريد أن يتصرّفوا حيالنا. بعض تلك المبادئ الحميدة موجودة بالكتب المقدسة، جنبًا إلى جنب مع الكثير مما لا يريد أي إنسان خير أن يتبعه، والكتاب المقدس لا يعطي أي قواعد لتمييز المبادئ الجيدة من السيّئة.

أحدى الطرق للتعبير عن التزامنا بالأخلاق هي «الوصايا العشر الجدد». العديد من الأفراد والمؤسسات حاولوا ذلك. ما هو مميز في هذا الموضوع هو أنَّ نتائجهم كانت متشابهة بشكل كبير، والنتائج لها مواصفات تتبع الزمن الذي كانوا يعشيون فيه. إليكم لائحة بـ «الوصايا العشر الجدد» من عصرنا، والتي وجدتها على إحدى صفحات الإنترنت للملحدين.

- لا تتصرف حيال الآخرين بالطريقة التي لا تريدهم أن يتصرّفوا بها تجاهك.

- في كل شيء اسعَ ألا تؤذي أحدًا.

- عامل رفاقك البشر، والأحياء الأخرى، والعالم بشكل عام، بحب وأمانة، وأخلاص واحترام.

- لا تتغاضى عن الشر أو تتراجع عن إقامة العدالة، ولكن كن مستعدًا دائمًا لغفران الإساءات التي ارتكبت بحرية ونالت الندم بصدق.

- عشْ حياتك بفرحٍ وإعجاب.

- اسعَ دائمًا للمعرفة المتجددة.

- اختبرْ وافحصْ كل شيء، قارنْ أفكارك مع الوقائع، كن مستعدًّا لترك حتى أهم ما تؤمن بها إذا لم يتطابق مع الوقائع.

- لا تسعى للكبت أو تبتعد عن المعارضة، احترم دائمًا رأي الآخرين في أي شيءٍ يعارضونك فيه.

- كون رأيك الخاص على أسس عقلانية ومن تجربتك الخاصة، لا تسمح لنفسك بأن تُقاد من الآخرين بشكلٍ أعمى.

- تساءل عن كل شيء.

ليست تلك المجموعة من أعمال حكيم عظيم أو نبي أو حتى أخلاقي محترف. بل مجرد كاتب إنترنت عادي، حاولْ تلخيصَ مبادئ الحياة الجيدة المعاصرة، بالمقارنة بالوصايا الإنجيلية العشر. إنها أول صفحة وجدتها عندما طبعت «الوصايا العشر الجديدة» في محرك للبحث، وقصدت ألا أبحثَ أبعد من ذلك. النقطة بكاملها هنا هي أنَّ لائحة كتلك يمكن لأي شخص أن يأتي بها في أيامنا.

لن يكتب الجميع نفس الوصايات بالضبط طبعًا. ربما يضع الفيلسوف جون راولز عبارة مشابهة لما يأتي: «لتكن قاعدتك بالقسمة بغض النظر عن كونك ستكون أول المتحاصصين أو آخرهم». تلك القاعدة مشتقة من نظام تقسيم الطعام لهي مثال جيد على مبدأ راولز: من يقسم الطعام يكون آخر من يحصل على حصته.

وفي ما يختص بوصاياي العشر، سأختار بعض ما سبق، وسأحاول إفساح المجال لأمور أخرى:

- تمتع بحياتك الجنسية (على شرط ألا تضر الآخرين) ودعِ الآخرين يفعلون الشيء نفسه فيما يتعلّق بذلك بغض النظر عما هم عليه والذي ليس من شأنك أبدًا.

- لا تقلل من شأن الآخرين ولا تظلمهم على أساس الجنس، العرق أو (على قدر الإمكان) على أساس أنهم مخلوقات أخرى.

- لا تلقن أطفالك، علمهم كيفية التفكير لأنفسهم، وكيفية فحص الأدلة وكيف يمكنهم معارضتك في الرأي.

- احسبْ حساب المستقبل بمقياس زمني أطول من حياتك.

ليست الفروقات والأولويات مهمة. النقطة هي أننا جميعًا تقريبًا قطعنا شوطًا كبيرًا، منذ زمن الكتب المقدسة، العبودية التي كانت تعتبر عادية في الكتاب المقدس وعبّر معظم التاريخ الزمني، اختفت في الدول المتحضرة في القرن التاسع عشر.

كل الأمم المتحضرة الآن تقبل ما كان محظورًا حوالي 1920 بأنَّ النساءَ تستطيع الاشتراك في الانتخابات، وأنّهنَّ مساويات للرجال. في أيامنا وفي المجتمعات المتنوّرة (وهذا الصنف لا يشمل مناطق مثل السعودية) لا تعد النساء كمُمْتلكات، كما كان عليه الحال أيام الكتاب المقدس. وأي نظام عصري سياقضي إبراهيم كمسيء للأطفال. ولو مضى في خطّته لقتل ابنه لكان سيُحاكم بتهمة القتل العمد. ورغم كل ذلك فإنَّ تصرفه الأخلاقي في زمنه كان موضوع أعجاب، طاعة أوامر الله، بدين أو بدون دين، فقد تغيّرنا بشكل كبير تجاه ما نعدّه صح أو خطأ. ما طبيعة ذلك التغيير؟ وما سببه؟

في أي مجتمع كان يوجد هناك اتفاقيات تتغير عبر العقود، وسنتستعير الكلمة (روح العصر) للتعبير عن ذلك. قلت قبل قليل بأنَّ حقَّ المرأة في التصويت موجود الآن في جميع الديموقراطيات في العالم ولكن هذا الإصلاح أتى في وقت متأخر جدًا لحد مدهش، إليكم بعض التواريخ التي سمح فيها النساء بالتصويت.

- نيوزيلاندا 1893
- أُستراليا 1902
- فنلندا 1906
- النرويج 1913
- أمريكا 1920
- فرنسا 1945
- سويسرا 1971
- الكويت 2006

تلك التواريخ الممتدة عبر القرن العشرين هي مقياس لإنزياح روح العصر. والمؤشّر الآخر هو تفكيرنا بالعرقية. في أوائل القرن العشرين، كانوا الجميع تقريبًا في بريطانيا ودول كثيرة أخرى سيحسبون كمييزين عنصريين بمقاييس اليوم الحالي. معظم البيض كانوا يؤمنون بأنَّ السود (فئة تتضمن الإفريقيين وما لا يقاربهم أبدًا من الهنود وسكان أستراليا الأصليين) هم فئة وضيعة بالنسبة للبيض فيما يتعلّق بكل شيء تقريبًا ما عد بتفضل متعالٍ إحساسهم بالإيقاع.

وجيمس بوند تلك الأيام كان البطل البشـوش دراموند بولدوغ. وفي إحـدى روايات عصبة السـود، يشـير إلـى اليهود الأغـراب وآخرين من الشعوب غير النظيفة. وفي رواية مرأة المخلوفات.

يتنكـر درامونـد بـزي بيـدرو، الخادم الأسـود للأمـير الوغـد. وعند الكشـف الدرامـي عن هويتـه للقارئ كما هـو الحال بالنسـبة للأمير، بأنَّ بيدرو هو دراموند نفسـه، كان يسـتطيع القول: «هل ظننت بأني بيدرو. لم تلاحظ أبدًا بأني عدوك اللدود دراموند، متنكر كأسـود». ولكنه بدلاً عن ذلـك قال ليسـت كل الذقون مسـتعارة، ولكن كل عبد لـه رائحة كريهة. ولذلـك ظننت بأنَّ هناك خطأ مـا في الأمر. قرأت تلك الرواية عام 1950 بعد كتابتها بثلاثة عقود، وكان من الممكن بعد لصبي أن يتأثّر بالدراما ولا يلاحظ العنصرية. في أيامنا هذه لا يمكن تخيّل ذلك.

كان توماس هنري هكسـلي، بمقاييس عصره، رجلا متسـنيرًا وتحرريًا متقدمًا ولكن زمانه ليس زماننا وفي 1871 كتب ما يأتي:

> «ليـس هنـاك رجل عقـلاني في الواقـع، ممـن يؤمن بـأنَّ الزنجي العـادي مسـاوٍ، أو متفوّقٌ، على الرجل الأبيـض. ولو كان ذلك صحيحًـا، فإنـه ببسـاطة من غـير المعقـول، بأنـه فيما لـو تغيّرت الظروف المسـببة لإعاقته، وحصل على حقله الخاص وبدون أي مسـاعدات، سيكون قابلاً لمقارعة نظيره الأكبر مخًا وأصغر حنكًا في أي مسـابقة تستدعي التفكير وليس العض. أنَّ الأماكن العليا في المجتمـع المتحـضر بالتأكيد لن تكـونَ من نصيـبِ أولاد عمّنا الداكنين».

من المتفق عليه بين المؤرّخين ألا يحكموا على أقوالٍ من الماضي بمقاييس الحاضر بالنسبة لهم. وإبراهام لينكولن، مثل هاكسلي كان سابقًا لعصره، ولكن آراءه بالنسبة للعرق تبدو متخلفة وعنصرية في أيامنا. وإليكم ما قاله في مناظرة مع ستيفن دوغلاس عام 1858:

> سأقول إذن بأنني لست ولم أكن أبدًا من مناصري أو مؤيدي موضوع المساواة بين البيض والسود فيما يتعلق بالأمور المجتمع والسياسة، أنا لست ولم أكن أبدًا مؤيّدًا لحقوقهم في أن يكونوا قضاة أو حتى مصوتين في الانتخابات، أو الاعتداد بهم كمؤهلين لتولي مناصب، أو يتزوجون من البيض: وسأقول بالإضافة لما قلت، بأنَّ هناك فروقًا فيزيائية بين البيض والسود والتي تجعلني أؤمن بتأييد منعهم من العيش جنبًا إلى جنب وعلى قدم المساواة فيما يتعلق بأمور المجتمع والسياسة، وستتطلب الحياة التي يعيشونها، بوجودهم مع بعض أن يكون هناك رئيس وتابع. وأنا كما هو الحال مع الجميع من مؤيدي أن تعطي المناصب الرئاسية للبيض.

لو كان هاكسلي ولينكولن ابناء عصرنا هذا لكانوا أول من يعتذر على مشاعر فيكتورية وأفكار متزلفة كتلك. لقد اقتبست منهم فقط لأبين كيف مضت روح العصر للأمام. وحتى هاكسلي، أحد اكبر العقول المتحررة في عصره، وحتى لينكولن، محرر العبيد قالوا أشياء كتلك، فكر فقط بطريقة تفكير الفرد العادة في العصر الفيكتوري. وبالعودة للقرن الثامن عشر، من المعروف أن جفرسون وواشنطون وآخرين من العصر المتنوّر كان لديهم عبيد. روح العصر مضت للأمام وبعناد لدرجة أننا نأخذها بشكل عادي اليوم وننسى بأنَّ التغيير هو ظاهرة حقيقية ولها حقّها الخاص.

هنـاك أمثـال كثيرة أخرى، عندما حـط البحـارة في الموريتيوس ورأوا طيـور الـدودو اللطيفـة. لم يخطـر ببالهـم سـوى ضربهـم بالعصـى حتـى يموتـوا. لم يكونـوا حتـى يفكـرون بأكلهم (حيـث أنهم وصفـوا بكونهم غـير مستسـاغين). من المفترض أنَّ ضرْبَ طيرٍ مسـالم لا يسـتطيع الدفاع عن نفسـه بالعصا على رأسـه كان فقط شـيئًا لتمضية الوقـت. وفي أيامنا يعد سـلوكًا كهذا ممـا لا يفكر فيه أحد، وانقراض حيـوان من أقرباء طائر الدودو، حتى لسـببٍ طبيعي وليس بسبب القتل العمد من قبل الإنسان، يعد من التراجيديا.

تراجيديا كتلك، بمقاييس عصرنـا وجوِّنا الثقافي، كانت عن انقراض ثيلسينوس، الذئب التسماني. كانت هناك جائزة لرأس ذاك المخلوق المرثي رمزيًـا حتى عام 1909 وفي روايـات العصر الفيكتوري الإفريقية «الفيل» «الأسـد» والأنثلـوب كانـوا لعبة وماذا تفعـل باللعبة، ترمّهـا بالرصاص بـدون أي تفكـير. ليس مـن أجـل الأكل. ليـس للدفاع عـن النفس، بل «للرياضة».

تغـيّرت روح العـصر الآن وللأمانة هناك من الأغنيـاء الرياضيين من لايـزال يرمـي حيوانًـا إفريقيًـا بالرصـاص من سـيارة لاند روفـر ويأخذ معـه الـرأس المحنط للبيـت. ولكنهم يدفعـون الغالي ليفعلـوا ذلك وهم مكروهـين بشـكل كبير لفعلهم هـذا. حفظ حياة الأدغـال والحفاظ على البيئة أصبحا أمرين مقبولين ويحافظ عليهما بنفس الدرجة من الأهمية التي كانت للحفاظ على يوم السبت وتجنب نحت الصور.

عرف عن السـتينات أسـطوريتها نحو التحرر العصري ولكن بداية ذلـك العقد كانت محكامة الأحكام خلال محكمة مجون عشـيق السـيدة

شـاترلي، كان بالإمكان سؤال المحكمين: «هل توافق على أن يقرأ ابنك أو ابنتـك اليافعـان؟ لأنَّ البنات قـادرات على القراءة كالشـباب (هل تصـدق أنـه قال ذلك؟) ذاك الكتـاب؟ هل هذا كتاب يـترك في متناول الجميـع في بيتـك؟ هـل تتمنى حتـى أن تقـرأ زوجتـك أو خدمك هذا الكتـاب؟ إنَّ بلاغة السـؤال الأخير تدلنا على السرعـة التي تغيّرت بها روح العصر.

احتـلال أمريـكا للعـراق ملعـون من قبـل الأغلبيـة بسـب الضحايا المدنيـين، ولكـن هؤلاء الضحايـات عدديًا أقل كثيرًا مـن ضحايا الحرب العالميـة الثانيـة، يبدو بأنَّ هناك انزياحا مسـتمرًّا في مقاييـس ما هو مقبول أخلاقيًا. دونالد رامسـفيلد، الذي يبدو لنا مقرفًا وقاسيًا في أيامنا، سيبدو كرحيم قلب حر لو قال نفس ما قاله خلال الحرب العالمية الثانية. شيء ما تغـير خلال العقود. انزاح فينـا جميعًا، وذاك الانزياح ليس متعلّقًا بالدين، بل إنه حدث بالرغم من الدين وليس بسببه.

بالإمـكان التعرّف على اتجاه ذلك الانزياح ومعظمنا يحكم بأنه تطور. حتـى أدولف هتلـر، والذي يعد بشـكل واسـع أحد الذين دفعـوا بالشر لخـارج الحـدود، لا يقـارن بـــــ غاليكـولا أو جينكيز خان. لا شـك بأنَّ هتلـر قتل عـددًا أكبر من الناس ولكنه امتلـك تكنولوجيا القرن العشرين لخدمتـه. هل حصل هتلر على متعته العظمى كما عرف عن جينكيز خان، من رؤية ضحاياه، «يغرقون في دموعهم»؟ نحكم على مستوى الشر عند هتلـر بمعايير اليوم، وروح العصر مضـت للأمام منذ عهد غاليكولا، كما فعلـت التكنولوجيا، هتلر يبـدو أكثر شرًا فقط لأنذَ معاييرنا عن الموضوع في هذا العصر أكثر رحمة.

خلال فترة حياتي، نقص تداول بعض الكلمات الانتقاصية فيما يتعلق بالذم والأفكار الوطنية الشائعة: ضفدع، كلب، ديك..إلخ. لن أزعمَ بأن تلك الكلمات اختفت، ولكنها مستهجنة بشكل واسع في الأوساط المؤدبة. كلمة «نيغرو - عبد»، على الرغم أنه لم يقصد بها الإهانة يمكن استخدامها لتأريخ النثر الأنكليزى. وفي الحقيقة فإنَّ الأجحاف يكشف لنا شيئًا من تاريخ قطعة من الأدب.

عالم الدين المحترم من كامبريدج أي سي بوكيت، في وقته كان قادرًا على أن يبدأ فصلاً في كتابته عن الإسلام في كتابه مقارنة الديانات بالكلمات التالية: «السامي ليس متدينًا بديانة توحيدة طبيعية، كما اعتبرت في منتصف القرن التاسع عشر. بل هو روحاني». أن الهوس بالعرقية بدلاً من الثقافة واستعمال صيغة المفرد «السامي الروحاني» يكشف لنا محاولة لتصغير شعب كامل إلى فرد بمواصفات ليس متداولاً بأي من مقاييس أيامنا الحالية. ولن يستعمل أي عالم سواء ديني أو في أي مجال آخر، كلمات كتلك. تلميحات كتلك لم تعد موجودة في الكتابات منذ منتصف القرن العشرين ولكنها كانت واقعًا عام 1941.

لو عدنا أربعة عقود إلى الوراء لتوضح تغيير المعايير بدون أي شك. في أحد كتبي السابقة اقتبست من اتش جي ويللز، الجمهورية الجديدة، وسأفعل ذلك الآن مجددًا لأن في ذلك توضيح صاعق للنطقة التي أريد التأكيد عليها:

«وكيف ستعمل الجمهورية الجديدة الأعراق الأقل شأنًا؟ كيف ستعامل السود؟.. الصفر؟ اليهود؟ تلك الجماهير من السود، البنين، والبيض المشوبين، والصفر والذين لم يصلوا بعد للفعالية

المطلوبة؟ حسنًا العالم هو العالم، وليس منظمة إحسان، واعتقد أنَّ عليه أن يذهبوا.. والنظام الأخلاقي في الجمهورية الجديدة، النظام الأخلاقي الذي سيسود العالم، سيصاغ بالدرجة الأولى لدعم كل ما هو إبداعي وعملي وجميل في الإنسانية. أجسام جميلة وقوية، وعقول نيرة وقادرة والطريقة التي اتبعتها الطبيعة في صياغة العالم، حيث منع الضعيف من نشر الضعف هي الموت.. أن البشر في الجمهورية الجديدة.. سيكون لديهم من المثالية ما يجعل القتل مبررًا».

كتب ذلك عام،1902 وكان ويللز يعد من المتطورين في عصره. وفي 1902 وعلى الرغم من أنَّ شعورًا كهذا لم يكن مقبولاً بشكل واسع، إنه كان من الممكن مناقشة فكرة كتلك خلال حفل عشاء وعلى العكس من ذلك، فإنَّ قرّاء العصر سيشهقون برعب عند رؤيتهم لعبارات كهذه. نحن مجبرون على اعتبار أن هتلر، على الرغم مما كان عليه، لم يكن بعيدًا عن دائرة روح العصر في زمانه كما يبدو لنا من خلال نظرتنا العصرية المتفتحة. كم تغيرت روح العصر بسرعة وتتغير بالموازاة مع الأفكار في العالم المثقف.

ما هو، إذن مصدر تلك التغييرات الثابتة الاتجاه في الوعي الإجتماعي؟ ليست الإجابة من مسؤوليتي. لأنَّ هدفي يتحقق عندما ابرهن بأنها لم تأتِ من الدين بأي شكل. ولو أجبرت على أن أحقّقَ في تلك النظرية، فإنني سأبدأ بما يأتي: نحتاج لشرح التالي، لماذا تعد التغيرات في روح العصر متواقتة بشكل واسع وفي عدد كبير من البشر، وعلينا أيضًا أن نشرح سبب كونها في اتجاه موحد ومحدد.

أولاً، لماذا تتواقت عبر العديد من الناس؟ تنتشر من نفس لنفس من خلال المحادثات في البارات وحفلات العشاء، من خلال الكتب والمراجعات، من خلال الجرائد والبرامج المبثوثة. وفي أيامنا من خلال الإنترنت.

تغييرات الطقوس الأخلاقية يشار إليها في المقالات، الراديو، البرامج الجدلية، الخطابات السياسية، في الكوميديا وفي مسلسلات التلفزيون، في انتخابات البرلمانات التي تجعل القوانين تعبّر عنها. ويمكن أن يعبّر عنها يتغير الميمة المتكرر في مجموعة الميمات، ولن أخوض بالموضوع أكثر من ذلك.

بعضنا يتخلف عن موجة التغيير الأخلاقية لروح العصر وبعض الآخر يتقدم عليها بشكل بسيط، ولكن الغالبية منا في القرن الواحد والعشرين متقاربة ومتقدمة عن اسلافنا في العصور الوسطى، أو زمن ابراهيم، أو حتى الأزمنة الحديثة نسبيًا في العشرينات من القرن الماضي.

الموجة تتحرك بإستمرار وسيجد السابقون في قرن مضى (مثل تي أتش هاكسلي) أنفسهم متخلفين عن السواد الأعظم في قرن لاحق. بالطبع ذلك التطور لم يكن سلسًا في صعودِهِ، بل كان متعرّجًا كأسنان المنشار. كان هناك عقبات محلية ووقتية كما كان الحال في معاناة أمريكا من حكومتها في مطلع الألف الثاني. ولكن بمقياس الزمن الطويل فإن التطور لا يزال يمشي بنفس الاتجاه وبدون أي شك.

ما الذي يدفع روح العصر بذلك الاتجاه؟ لا نستطيع إنكار دور القادة والذين كانوا سابقين لعصرهم، لقد نهضوا وأقنعوا الآخرين بأنَّ يسيروا

معهم. في أمريكا، دفعت الفكرة المثالية عن مساواة الأعراق من قبل قادة مثل مارتن لوثر كينغ، ومن قبل الكوميدين ورجال الرياضة وآخرين من الشخصيات المشهورة شعبيًا مثل باول روبنسون، سيندي بواتييه، جيسسي أوينز. وكذلك اعتاق العبيد والنساء فإنه يدين إلى شخصيات من القادة اللامعين. بعضهم كان متدينًا والبعض الآخر لم يكن كذلك. بعض المتديني فعلوا ذلك لأنهم متدينون، ولكن بالنسبة للبعض الآخر كان الدين مجرد مصادفة. وعلى الرغم من أن مارتن لوثر كينغ كان مسيحيًا فإنه استقى فلسفته عن اللاعنف من غاندي الذي لم يكن كذلك.

كذلك لدينا تطور الثقافة وبالأخص تزايد فهمنا بأنَّ كل منا يشترك مع الآخرين بالإنسانية مع أشخاص من عرق آخر أو جنس آخر، فكرتان مضادتان بصراحة لمحتوى الكتاب المقدس ومصدرهما علم البيولوجيا، وخصوصًا التطوّر. أن أحد أسباب معاملة السود والنساء واليهود والغجر في أيام ألمانيا النازية كان اعتبارهم بشرًا ناقصين في بشريتهم.

الفيلسوف بيتر سينغر، في كتابه تحرير الحيوانات، هو أبلغ مثال للمحاماة عن وجهة النظر بأنَّ علينا أن نخصّصَ معاملات للكائنات الأخرى بها يضمن سعادتها بقدر ما يسمح لها مخها الخاص لقدير ذلك. وربما هذا تنويه عن الاتجاه الذي ستتحرك به روح العصر في القرون القادمة. سيكون ذلك استنباطًا طبيعيًا للإصلاحات السالفة مثل تحرير العبيد وانعتاق المرأة.

أن مؤهلاتي كهاو في علم الإجتماع وعلم النفس لا تؤهلني لشرح سبب التناسق الواسع في تغيرات روح العصر. ويكفي لشرح الغرض الذي أقصده بإنها تتغير، وأنها غير مدفوعة من الدين وبالتأكيد ليس

بسبب الكتب المقدسة. ربما إنها ليست قوة وحيدة كالجاذبية ولكن عدة قوى تتلاعب فيما بينها مثل قوانين مور، والتي تشرح سبب التصاعد في قوة الكومبيوتر بشكل أُسي. ومهما كان السبب، فإنّ التعاقب المستمر لمظاهر روح العصر هو أكثر من كافٍ لنقض الزعم بأننا بحاجة للإله من أن نكون جيدين، أو حتى لتحديد ما هو جيد.

ماذا عن هتلر وستالين؟ أليسا ملحدين؟

ربما إنّ روح العصر تسير قدمًا، وبشكل عام للأمام ولكن كما قلت فإنّ مسيرها كأسنان المنشار وليست بطريق ممهدة، ووجد العديد من العقبات المروعة، عقبات عظيمة، عميقة ومرعبة، سببها ديكتاوريو القرن العشرين. من المهم أن نفرق بين النوايا الشريرة لرجال مثل هتلر وستالين عن القوة العظيمة التي مكنتهم من تحقيق تلك الشرور. لقد استعرضت موضوع أن الأفكار الشريرة لهتلر ليس اكثر من اللاتي كانت عند كاليفولا أو حتى عند سلاطين الأتراك، والذين وصف نويل باربر في كتابه سادة القرن الذهبي مفاخرهم المدهشة في قذارتها. لكن هتلر توفرت له اسلحة القرن العشرين وتكنولوجيا الإتصالات. وبالرغم من ذلك يُعدّ هتلر وستالين اشرارًا بمقاييس كل العصور وبشكل مريع.

«هتلر وستالين كانا ملحدين، ماذا تقول عن ذلك؟» يطرح ذلك السؤال في كل محاضرة عامة القيتها عن موضوع الدين، وفي كل مقابلات الراديو أيضًا. وتطرح الأسئلة بشكل مشاكس ومشحون بالسخط مع فرضيتين. أولاً: هتلر وستالين كانا ملحدين. وثانيًا: لقد فعلا ما فعلاه لأنهما كانا ملحدين».

الفرض الأول صحيح في حالة ستالين ومشكوك به في حالة هتلر.

الفرضية الثانية لا أهمية لها؛ لأنها خاطئة ومن غير المنطقي أن نتستنجها من الفرضية الأولى. حتى ولو قبلنا بأنّ هتلر وستالين تقاسما صفة الإلحاد المشتركة، كلاهما كان له شاربٌ أيضًا كما كان لصدام حسين وماذا إذن؟ السؤال المثير ليس عما إذا كان الشرير أو الطيب ملحدًا أو متدينًا. لسنا بصدد عدد الرؤوس واستخلاص لائحتين من المتنافسة. الواقع أن احزمة النازيين منقوش عليها «الله معنا» لايبرهن على أي شيء على الأقل ليس بدون مناقشات مطولة. ما يهم هنا ليس موضوع كون هتلر وستالين ملحدين، ولكن موضوع إذا ما كان الإلحاد يؤثر على الناس بشكل منتظم لعمل الأشياء الشريرة. ليس هناك أي دليل ولو صغير على ذلك.

ليس هناك شك بأن ستالين كان ملحدًا، بالواقع إنه تلقى تعليمه في دير أوثودوكسي، ولم تخفِ أمه خيبة أملها في أنه لم يلتحق بالرهبنة كما أرادت له وبناء على رأي الآن بولاك، فإنَّ ذلك كان يسبب العجب لستالين. ربما لكون ثقافة ستالين الكنيسة الأروثودوكسية، أراد ستالين الناضج إيذاء الكنيسة الأورثودوكسية الروسية وكذلك المسيحية والتديّن بشكل عام. ولكن ليس هناك أي أدلة عن إنَّ الحاده دفعه للظلم العنيف. وربما لم يكن هناك علاقة لذلك مع تربيته الدينية المبكرة، إلا عبر تلقينها له أن يوقرَ الإيمان المطلق، والسيطرة القوية والإيمان بأنَّ الغاية تبرر الوسيلة.

الأسطورة بأنَّ هتلر كان ملحدًا طورت بعناية فائقة لدرجة أن العديدين من الناس يصدقونها بدون سؤال، وتطرح تلك الفكرة بشكل دائم عن محبيها الدافعين عن الدين. إلا أنَّ الواقع بعيد عن أن يكون

واضحًا. هتلر ولـد لعائلة كاثوليكية، ودرس في مدرسـة كاثوليكية وزار الكنائس الكاثوليكيـة في طفولتـه. طبعًا لا يمكن اعتـداد ذلك ذو قيمة: لأنه من الممكن بدون شـك أن يكون قد تخلى عن التدين لاحقًا، كما فعل سـتالين عندما تخلى عن كنيسـة الروس الأرثودوكسـية بعد أن ترك الدير في تبيليسي. ولكن هتلر لم يعلن تخليه عن معتقده الكاثوليكي علنًا وهناك بعـض الدلائـل من خلال حياته تنبنـا عن إنَّ أنه بقـي متدينًا. وحتى لو لم يبقَ معتقده كاثوليكيًا فإنه على الأغلب ظل مؤمنًا بوجود سلطة مقدسة. كمثـال أعلن في كتابه كفاحي بأنه عندما سـمع خبر إعلان الحرب العالمية الأولى «جثوت على ركبتي وشكرت السماء من كل قلبي والتي جعلتني أعيـش في الزمـان الذي حصل فيه ما يحصـل الآن». ذلك كان عام 1914 عندما كان في عمر الخامسة والعشرين ربما تغير بعد ذلك؟

في 1920 عندمـا كان هتلر في الحادية والثلاثـين كتب أخلص معاوينه وردولـف هيس، والـذي أصبح فيها بعد نائبه، رسـالة إلـى رئيس وزراء بالفاريـاو «أعـرف هتلـر شـخصيًا معرفـة جيدة وأنـا قريب جدًا لـه. إنه شخصية شريفة بشكل غير عادي، مليئة باللطف، هو متدين، وكاثوليكي جيـد». وبالتأكيـد بـها أنَّ هـس أخطـأ تمامًـا وبشـكل فاضـح في موضوع شخصية شريفة ومليئة باللطف».

فربما أخطـأ أيضًا في موضوع «الكاثوليكژ الجيد» ليس هناك ما يمكننا مـن أن نصف هتلر بـــــ «الجيد» في أي مجال، وهذا يذكرني بحجة جريئة بشـكل هزلي كنت قد سـمعتها على الاقتراح بوجوب كون هتلر ملحدًا. هتلـر كان إنسـانًا سـيئًا، المسـيحية تعلمنا ما هـو جيد، ولذلـك فإنه ليس بإمكان هتلر أن يكون مسيحيًا!.

تلك مقولة لـــ غورينغ عن هتلر «فقط إنسان كاثوليكي هو نستطيع توحيد ألمانيا». أنا أفترض أن ذلك يعني شخصًا تربى على الكاثوليكية وليس شخصًا مؤمنًا بها.

في خطابه عام 1933 في برلين قال هتلر «اقتننا بأنَّ الناس يحتاجون ويريدون الإيمان. ولذلك فإننا أخذنا على عاتقنا أن نحارب الحركات الإلحادية وليس بشكل إعلانات نظرية فقط، بل إننا وقعنا القرار».

ربما يشير ذلك بأن هتلر، كما هو الحال مع الكثيرين، يؤمن بالإيمان، ولكنه في 1941 قال لمساعده الجنرال غيرهارد انحل، «سأبقى كاثوليكيًا للأبد» حتى ولو لم يبق هتلر مسيحيًا صادقًا فإنه من غير العادي بالتأكيد ألا يكون متأثرًا بالأفكار المسيحية التقليدية الأزلية التي تلوم اليهود كقتلة المسيح.

في خطابه عام 1923 في ميونيخ قال: «أول ما يجب أن نفعله هو أن ننقذ ألمانيا من اليهود الذين يخربون بلادنا... علينا أن نحمي بلادنا من المعاناة التي عاناها الذي مات على الصليب». وفي كتاب أدولف هتلر: سيرة الحياة الاكيدة، كتب جون تولاند عن موقف هتلر الديني أوقات «الحل الأخير»:

> لا زال عضوًا مميزًا في كنيسة الروم الكاثوليك، وعلى الرغم من كرهه للقائمين عليها، فإنه لا يزال يحمل تعاليمها عن أن اليهود هم قتلة الإله. ولذلك كان القضاء عليهم ممكنًا بدون أي تفكير ضميري، ومن مبدأ كونه اليد التي تنتقم لله وبذلك يتم الموضوع كما لو أنه ليس شخصيًا وليس فيه أي ظلم.

إنَّ الكرهَ المسيحي لليهود ليس فقط تقليدًا كاثوليكيًا. مارتن لوثر كان معاديًا للسامية. وكتب في حمية الديدان بأنّ «يجب طرد جميع اليهود من ألمانيا» وكتب كتابًا كاملاً عن اليهود وأكاذيبهم، والذي ربما كان له تأثير على هتلر. لوثر وصف اليهود بـــ «ذرية الأفاعي» ونفس العبارة استخدمت من قبل هتلر في خطابه المشهور عام 1922 الذي كرر فيه مرارًا بأنه مسيحي:

شعوري كمسيحي يوجهني نحو إلهي ومخلصي كمحارب. يوجهني نحو الرجل الذي في وحدته، محاطًا بقليلٍ من الأتْباع، عرف حقيقة هؤلاء اليهود ودعى الرجال ليحاربوهم والحقيقة الإلهية. إنه كمحارب أعظم منه كمعاني، وبحبٍّ لا متناهٍ كمسيحي وكرجلٍ أقرأ عبر العبارات التي تقول لنا كيف انتصب الإله في قدرته أخيرًا وأخذ السوط بيده لطرة ذرية الأفاعي من المعبد.

كانت حربه مثالاً مثاليًا للعالم ضد السم اليهودي واليوم بعد ألفي عام، وبأعمق العواطف، أعرف بثقة لم أعرفها قبلاً بأنه من أجل ذلك قد بذل دمائه على الصليب وكمسيحي لا يتوجب علي لأسمح لأحد بخداعي، ولكن يتوجب على أن أكون محاربًا للحق والعدالة.. وليس أوضح دليلاً على أننا نتصرف التصرفات الصحيحة من الضيّق الذي نعانيه وكمسيحي فإنَّ لدي واجبًا تجاه شعبي أيضًا.

من الصعب معرفة إذا ما كان هتلر قد انتفى عبارة «ذرية الأفاعي» من لوثر. أو أخذها مباشرة من أنجيل متى (7 , 3) كما نفترض أن لوثر قد فعل. ولكن بالنسبة لموضوع مقاضاة اليهود كرغبة من الإله فإنَّ هتلر عاد إليها في كتابهِ كفاحي:

«ولذلـك اؤمـن اليـوم بأنني أتـصرف وفقًا لرغبـة الخالق الأعظم وبالدفاع عن نفسي ضد اليهود فإنني أقاتل من أجل الإله».

ذلك كان عام 1925 وقد كرر ذلك ثانية في خطابه في الرايخشتايغ عام 1938 وقال أشـياء مشـابهة على الدوام خلال حياته المهنية. إنَّ تساؤلات كهذه لها ما يساويها من تساؤلات تطرح من خلال مناقشاته على الطاولة والتي عبر فيها عن آراء معادية بصراحة للمسـيحية ورؤيتها كما سـجلت من قبل سكرتيره الخاص وما يأتي حدث عام 1941:

«إنَّ الضربـة الأقـوى التـي أصابت الإنسـانية هي قيام المسـيحية. المسـيحية هـي الطفل غير الشرعي للبلشـفية. وكلاهما من اختراعِ اليهود. إنَّ الكذبة المدبرة فيما يختص بالدين هي ما قدمته المسـيحية للعالم..

إنّ السـبب الحقيقي في كون العالم القديم نقيًّا وصادقًا ومضيئًا هي أنهم لم يعرفوا السوطين الرئيسين.. الطاعون والمسيحية..

بعـد كل مـا قيـل، لا أحـد سـببًا لأتمنـى للإيطاليين والإسـبان أن يتخلصـون مـن مخدر المسـيحية، دعونا نكـون التوحيديّـين الذين لديهم مناعة ضد ذلك المرض».

إنَّ كلام هتلـر على الطاولة يحوي الكثير من تلك الاقتباسـات، غالبًا ما يقارن المسـيحية بالبلشـفية، وبعض الأحيان يقـارن ماركس بالقديس بولص ولا ينسـى أبدًا إنَّ كليهما كان يهوديًا (بالرغم من أن هتلر، للغرابة كان مُصرًا دائمًا على أن المسـيح لم يكن يهوديًا). من الممكن أن يكون هتلر قد مر بتجارب حتى عام 1941 من النوع الذي كشـف له زيف المسيحية.

أو إنه كان بالنتيجة فقط كاذبًا نهازًا للفرص ممن لا يمكن أن نثقَ بكلامهم في كلتا الجهتين؟

وبالإمكان المحاججة بأنَّ هتلر برغم كلماته وكلمات مساعديه عنه، بأنه كان محتالاً يستخدم ويستغل تدين مستعمية. ربما أنه يوافق نابليون الذي قال: «الدين شيء ممتاز لإبقاء العامة من الناس هادئين». وأيضًا مع سينيكا الشاب: «الدين من قبل العامة يعتبر حقيقيًا، ومن قبل الحكماء كاذبًا، ومن قبل الحكام مفيدًا».

لا أحد يمكنه أن ينفي بأن هتلر كان قادرًا على عدم الإمانه تلك. ولو كان هذا هو دافعه لئن يبدو متدينًا، فعلينا أن نذكر أيضًا بأنَّ هتلر لم يرتكب ما ارتكبه من ظلم وحده. ولكن الأفعال ذاتها ارتكبت من قبل العديد من الجنود وضباطهم، وغالبيتهم كانوا مسيحين، وبالتأكيد فإنَّ المسيحيين الألمان وراء النظرية التي نناقشها نفسها، الفرضية التي تشرح لنا عدم صدق هتلر الديني واستغلاله! أو ربما يكون الأمر بأنَّ هتلر فقط أراد أن يبدي بعض التعاطف مع المسيحية، وإلا فلن يحظي نظامه بالدعم الذي حصل عليه من الكنيسة. وذلك الدهم نستطيع استعراضه بطرق متنوعة ويتضمن ذلك البابا بيوس الثاني عشر وإصراره على ألا يتخذ موقفًا معاديًا للنازية وهذا موضوع يسبب الأرباك للكنيسة الحديثة. إما أن يكون هتلر صادقًا في مسيحيته، أو أنه كذب فيما يتعلق بذلك ليربح، بنجاح، تعاون المسيحيين الألمان والكنيسة الكاثوليكية. وفي كلتا الحالتين فإنَّ شر الظالم الهتلري لا يمكن الاعتداد بواسطه نتيجةً للإلحاد.

حتى عند تجريحه بالمسيحية لم يتوقف هتلر عن استخدامه الرموز الدينية عن ذلك العنصر الغامض، الذي اختاره من بين الجميع في مهمة

مقدسة لقيادة ألمانيا، كان يدعو ذلك العنصر بالقدوس، وفي أحيان أخرى بالرب. وبعد «الوصول» وعندما عاد هتلر ظافرًا من فيينا عام 1938 ذكر الله في خطابه المبتهج والبسه شخصية المحظوظ: «أؤمن بأنها إرادة الله بأن يرسل صبيًا إلى الرايخ، ويتركه ليكبر ويرفعه ليكون قائد الأمة ليتمكن من إعادة أرض الوطن إلى الرايخ».

وعندما نجا بأعجوبة من حادثة الاغتيال في ميونيخ في نومبر 1939 عزا هتلر نجاته لتدخّلٍ مقدّس لإنقاذه بأنْ سبّبَ تغييرًا في برنامجه: «أنا الآن مسرورٌ تمامًا. إنَّ تَرْكي للبرغربانكيلير أبكرُ من المعتاد كان تعزيزًا لرغبة القدوس لأصل لهدفي». وبعد فشل الاغتيال، فإنَّ البيشوب الرئيسي لميونيخ، الكاردينال ميشال فاوللبابر، أمر بأن تتلى (تي ديوم) في كاتدرائية، «لشكر القدوس باسم الإرشيدوقية لنجاة الفوهرر المسرة». وبعض اتباع هتلر، وبدعم من غوبلز، لم يخفوا الرغبة في أن يؤسّسوا دينًا مستقلاً مبني على الفكرة النازية. والنص التالي، مكتوب من قبل رئيس نقابة التجار، يعطي شعورًا بأنه نص دعاء وصلوات حتى أن خاتمته تذكر الإله المسيحي (أبانا):

«أدولف هتلر! نحن متعاضدون معك وحدك! نريد أن نجدّدَ عهدنا الآن: في هذه الأرض نؤمن فقط بأدولف هتلر. نؤمن بأنَّ المجتمع الوطني هو الذي سيحفظ شعبنا. نؤمن بأنَّ الله في السموات هو الذي خلقنا، الذي قادنا، وجهنا وباركنا، ونؤمن بأنَّ هذا الإله أرسل أدولف هتلر لنا. وذلك حتى تصبح ألمانيا القاعدة المتينة حتى الأبد».

ستالين كان ملحدًا وربما لم يكن هتلر كذلك. ولكن حتى لو كان، فإنَّ المهم في فمناقشتنا حول ستالين وهتلر هو نقطة بسيطة. سيفعل بعض الملحدين الشرور ولكنهم لن يفعلونا باسم الإلحاد. ستالين وهتلر فعلوا العظيم من الشرور، باسم العقيدة والتقلين الماركسي، وباسم نظرية لا علمية محبوكة بهذيانات فاغنرية. ولكن الحروب الدينية حصلت بسبب الدين، وتكررت كثيرًا عبر التاريخ. ولا أذكر أي حرب حصلت تحت أسم الإلحاد. ولماذا تحصل؟ ربما يكون الدافع للحرب طمعًا اقتصاديًا، أو طموح سياسي، تعصّب عرفي أو عنصري، انتقام أو شكوى، أو بدالع من الإيمان الوطني بحق الأمة. والقناعة التي لا تتزعزع بأنَّ الدين الذي يؤمن به البعض هو الدين الوحيد الصحيح، وبدعم من كتاب مقدّس يُكرّس اللعنة بوضوح كل المنافقين وأتباعهم من ديانات منافسة حتى الموت، وبعد المقاتلين في سبيل الله بجنة الشهداء، سام هاريس، كالعادة، يصيب كبد الهدف، في كتابه نهاية الإيمان:

«إنَّ خطر الدين هو في أنه يجعل من إنسان عادي وطبيعي على جنى ثمار الجنون واعتبار المقدسات. لأنَّ كل جيل جديد من الأطفال يلقن بأنَّ ما يطرحه الدين لا يحتاج لأي نقاش لإثباته كما هو الأمر في الطروحات الأخرى، المدينة لا تزال مهددة بجيوش اللامعقولية. نحن وحتى الآن نقتل أنفسنا من أجل كتابات قديمة. من كان يعتقد أن شيئًا تراجيديا كهذا يمكن أن يحصل؟»

ومن الجهة الأخرى، لماذا يجب على أي كان أن يخوض حربًا بسبب عدم الإيمان بشيء ما؟

الفصل الثامن

ما هي مشكلةُ الدين؟

ما سببُ كلِّ هذه العدوانية؟

«الدين أقنعَ الناسَ فعلاً بأنَّ هناك شخصًا خفيًّا يعيش في السماء ويراقب كل ما تفعل في كل لحظة من كل يوم. وهذا الشخص الخفيُّ لديه لائحة بعشرة أشياء لا يريدك أن تفعلها. وإن فعلت أيًّا منها، فإنَّ لديه مكانًا خاصًا، مليئًا بالنار والدخان والحريق والتعذيب والألم، وسيرسلك هناك حيث تعيش وتعاني وتحترق وتختنق وتصيح وتصرخ إلى أبد الآبدين وإلى نهاية الزمن ولكنه يحبك..»..

- جورج كارلتن

بطبعي لا أرغب في المواجهة. ولا أظن أنَّ المعاداة طريقة مناسبة للوصول للحقيقة وأرفض بشكل مستمر الدعوات لئن أشارك في مناقشات. دُعيتُ مرّة لنقاشٍ مع مطران منطقة يورك، في أدنبره. تشرّفت بتلك الدعوة. وتقبّلتها وبعد النقاش كتب الفيزيائي المتدين راسل ستانارد رسالة أدرجها في كتابه التخلّص من الله؟ ووجّهها لصحيفة الأوبزرفر:

«سيدي تحت العنوان اللامع» الله يأتي في المرتبة الثانية بتواضع أمام عظمة العلم» كتب مراسلكم لشؤون العلم (يوم الأحد الموافق لعيد الفصح دونا عن باقي الأيام) كيف أن ريتشارد دوكنز «وجه إصابات بالغة فيما يتعلّق بالفكر» لمطران منطقة يورك في نقاشهما عن العلم والدين.

وصلتنا أنباء عن «ملحدون مبتسمون بتعجرف» و«مسيحيين يستأسدون باللاشيء».

ومضى ستانارد بتوبيخه لصحيفة الأوبزرفر لفشلها في نشر خبر عن لقاء لاحق بيننا نحن الاثنين مع البيشوب من برمنجهام وعالم الكونيات السير هيرمان بوندي، في الأكاديمية الملكة للعلوم. والذي لم تخصص له دعاية كافية، والذي كان بناء أكثر بكثير بالنتيجة. أستطيع الموافقة فقط على ما يبديه من سخط تجاه شكلية الدعاية للنقاش وخصوصًا لأسباب شرحتها في كتابي القديس الشيطاني، أنا لم أكن طرفًا أبدًا في نقاشٍ مع الخلوقيين.

بالرغم من عدم محبتي للصراعات يبدو لي بأني اكتسبت شهرة كمحب للقتال ضد الدين. الأصدقاء الذين يوافقون معي بأنه ليس هناك إله،

والذين يوافقون بأننا لانحتاج للدين لنكون صالحين، ويوافقون على أننا قادرون على شرح أسباب التدين والأخلاق بتعابير غير دينية، هؤلاء أتو إليّ بسؤالٍ محير. لماذا أنت بهذا العداء؟ ما هو الخطأ في الدين؟ هل يسبب الأذى فعلاً لدرجة أنه يجب علينا فعلاً أن نناضل ضده؟ لماذا لا نعيش ونترك الآخرين يعيشون، كما نفعل في حالة برج الثور والعقرب والطاقة من خطوط الأرض؟ أليس كل ما سبق هُراء لا يؤذي؟

ربما أرد سريعًا بأن العداء الذي أمارسه أو يمارسه بعض الملحدين الآخرين تجاه الدين لايتعدى الكلمات. أنا لن أفجر أحدًا، أو أقطع رأسه أو أرجمه أو أحرقه على السيخ أو اصلبه، أو أصدم طائرة بناطحات السحاب التابعة له، فقط لأنني لا اتفق مع فكره الديني، ولكن الحديث لايتوقف عند ذلك عادة. ربما يقول شيئًا مثل: «ألا يجعلك كلامك بهذا الشكل تبدوا وكأنك ملحد متطرف، متطرف بطريقتك الخاصة كما هو الحال بالذين تصفهم بالتطرف من أهل الحزام الإنجيلي؟» وهنا أريد أن أفند تلك الإتهامات بالتطرف، لأنها مطروقة بشكل مؤلم.

التطرف وفتنة العلم:

المتطرفون يعلمون بأنهم على حق لأنهم قرأوا الحقيقة في الكتاب المقدس ويعرفون مقدمًا بأن لا شئ يمكن أن يحرفهم عن إيمانهم. حقيقة الكتاب المقدس من البديهيات. وليست نتيجة لعملية عقلانية. الكتاب الصحيح وعندما تبدوا الأدلة وكأنها تناقضة، فعندها يجب رمي الأدلة خارجًا، وليس الكتاب. وعلى العكس من ذلك، ما أؤمن به كمشتغل بالعلم (وكمثال:نظرية التطور)، فإنما أؤمن به ليس لأنني قرأت كتابًا مقدسًا بل لأنني درست الأدلة.

وهـذا موضوع مختلف تمامًا. إن الإيمان بكتب التطور لا يأتي من كونها مقدسـة. بل لأنها تقدم أدلة دامغة كثيرة ومسـندة بشكل متبادل. وكمبدأ فإنَّ أي قارئ يسـتطيع أن يفحصَ الأدلة وعندمـا يخطئ كتاب علمي ما، فإن شخص ما سيكتضف الخطأ وستصحح في كتاب يليه. ومن الواضح أن ذلك لا يحصل مع الكتب المقدسة.

الفلاسفة وخصوصًا الهواة منهم بمعرفة قليلة عن الفلسفة وبالأخص هؤلاء المصابين بما يسـمى «الثقافة النسـبية»، يبدأون بشـكوك منهكة عند تلك النقطة. أن إيمان المشتغلين بالعلوم بـــــــ «الأدلة» هو بحد ذاته ايمان متطرف. لقد عالجت تلك الفكرة في مكان آخر، وسـأعيد الفكرة بشـكل مختـصر هنا. كلنا نؤمن بالأدلة خلال حياتنا، مهما صرحنا وتفلسـفنا. ولو كنـتُ مهتمًا بجريمة قتل، وسـألني المدعي العام عمّا إذا كنت في شـيكاغو ليلة الجريمة، فلن أسـتطيع التملّص بالمراوغة الفلسفية: «هذا يعتمد على ما تعنيـه بكلمة (الحقيقة)». ولا بالتماس أنثروبولوجي نسـبي: «إنها فقط بمفهومك الغربي عن كلمة «في» والتي تعني إنني كنت في شكاغو. ولكن البونغـول لديهـم معنـى مختلف تمامًـا لـــــ «في» ويسـتعمل هـذا التعبير ويكون صحيحًا فقط عندما تكون مؤهلاً لئن تأخذ شيئًا من كيس الصفن المجفف لكبش».

ربـما أن العلماء متطرفـون عندما يتعلق الموضوع بمعـاني تجريدية لكلمة «الحقيقـة». ولكن ذلك ينطبق على كل الناس. أنا لن أكونَ متطرّفًا عندما أقـول بـأنَّ التطـوّر حقيقـي أكثر من قـولي بـأنَّ نيوزيلاندا تقع في القسـم الجنوبي من الكرة الأرضية.

نؤمن بالتطور؛ لأنَّ الأدلة تدعمها. وسنهملها بين عشية وضواحيها عندما تظهر أدلة تنفيها. المتطرف الحقيقي لن يقولَ شيئًا كهذا أبدًا.

من السهل جدًا الخلط بين التطرّف والعاطفة. ولربما أبدو عاطفيًا عندما أدافع عن التطوّر أمام المتطرفين الخلوقيين، ولكن ذلك لا يأتي من تنافس متطرف من جهتي. بل إنَّ ذلك بسبب أن الأدلة الداعمة للتطور قوية بشكل هائل ورفض خصمي لرؤيتها وغالبًا رفضه للالتفات إليها لأنها تعارض الكتاب المقدس، يصيبني بالكآبة. وعواطفي تتأجج أكثر عندما أفكر بما يفتقده هؤلاء المتطرفين المساكين وكل من يتأثر بهم، حقيقة التطور، والحقائق العلمية العديدة الأخرى، ساحرة بشكل رائع، وجميلة جدًا. ومن التراجيديا أنَّ يموت المرء دون أن يدرك ذلك! وبالطبع فإن ذلك يجعلني عاطفيًا، وكيف لا؟ ولكن إيماني بالتطور ليس تطرفًا وليس إيمانًا دينيًا لأنني أعرف تمامًا ما يمكن أن يغير تفكيري، وسأغيره بامتنان عندما تظهر الأدلّة الكافية على ذلك.

ذلك يحدث. لقد ذكرت قصة عجوزٍ محترم في قسم دراسة سلوك الحيوانات في أكسفورد عندما كنت طالبًا في الجامعة. ولسنوات عديدة كان يؤمن بحماس، ويدرس بحماس مماثل، بأنَّ جهاز غولجي (قسم من الخلية) لم يكن له وظيفة حقيقًا. مظهر فقط نوع من الوهم. وبعد ظهيرة كل يوم اثنين كانت العادة أن نستمع لمحاضرة من أستاذ ضيف على الجامعة. وفي أحد تلك الأيام كان الأستاذ الزائر أمريكيا اختصاصيًا في بيولوجيا الخلايا وكانت لديه أدلة قاطعة على أنَّ جهاز غولجي كان حقيقيًا. وفي نهاية المحاضرة تقدم الإنسان العجوز من المنصة، وصافح الأستاذ الأمريكي بحرارة قائلاً بحماس «يا زميلي

العزيز، أريد أن أعبر عن شكري لك، لقد كنت مخطئًا لخمسة عشرة سنة خلت».

صفقنا حتى احمرّت أيدينا. ليس هناك من متطرف يقول ذلك عمليًا. ولا يفعل ذلك كل المشتغلين بالعلم. ولكن الجميع يصمتون حيال ذلك ولا يفعلون الشيء نفسه حيال السياسيين مثلاً والذين يصابون باللعنات عندما يخطئون. إنَّ ذكريات تلك الحادثة لا تزال تصيبني بالغصة.

كرجل علم، أحمل العداء للتطرف الديني لأنه يتّهم الهيآت العلمية بالفسوق. أنه يعلمنا ألا نغيّر رأينا، ولا نريد لنا نتعلم المعلومات المثيرة المتوفرة للمعرفة. أنه يخرّب العلم ويستنزف الفكر. وأكثر الأمثلة إثارةً للحزن مما أعرف هو الباحث الأمريكي كيرت وايز، والذي يدير مركز الأبحاث عن الأصل في كلية بريان في دايتون بولاية تنيسي. وليس من الصدفة أنْ كلية بريان سميت على اسم ويليام جينيكس بريان، المدعي العام الذي قاضى أستاذ العلوم الطبيعية جون سكوبس فميا يمسى «محاكمة القرد» عام 1825 في دايتون. كان بإمكان وايز أن يحقق حلم صباه في أن يكون استاذًا للجولوجيا في جامعة عادية، جامعة من أهدافها الحث على «التفكير النقدي» بدلاً عن التفكير البليد المتجلي بوضوع في موقع كلية بريان على الإنترنت: «فكر بشكل ناقد وإنجيلي».

بالتأكيد لقد حصل على شهادتِهِ الجامعية من جامعة شيكاغو، وحصل على درجة الدكتوراه في الجولوجيا وعلم الإحاثة من هارفارد (ليس أقل من ذلك) حيث درس تحت إشراف سيفن جاي غولد (لا أقل ذلك). كان مؤهلاً وواعدًا بمستقبل علمي كباحث شاب، وعلى الطريق الصحيح ليحقق حلمه بالتدريس وإجراء الأبحاث في جامعة محترمة.

ولكـن شـيئًا تراجيديا اعـترض طريقه. لم يأتِ من الخـارج ولكنه أتى مـن داخل عقله. عقل أضعفته وخربته نشـأة دينية متطرفة تطلبت منه أن يصدق بأنَّ الأرض، موضوع دراسـته الجيولوجية في شيكاغو وهارفارد، عمرهـا أقـل من عـشرة الآف عام. لقـد كان أكثر معرفة مـن أن يتجاهل التناقض بين دينه وعلمه، وهذا التناحر في عقله لم يكن سهلاً.

وفي أحـد الأيـام، أتى بمقـصٍّ. وأخذ الكتـاب المقدّس وبـدأ بقراءته مـن الأول وهـو يقص ويرمي كل جملـة يتوجب رميها فيما لـو كان العلم صحيحًا. وفي نهاية تلك المحاولة الأمينة بشكل هائل والمتطلبة لجهد كبير لم يتبق الكثير من كتابه المقدس بحيث أنه كتب:

«بعـد التجربة، حتى بوجـود الهوامش السـليمة على الصفحات، وجـدت أنـه مـن المسـتحيل أن ألتقـط الكتـاب المقـدّس دون أن ينفـرط. وعلـى أن أقـرّرَ بـين التطـوّر والكتـاب المقـدس. أما أن الكتـاب المقـدس صحيـح والتطوّر خطـأ. أو أن التطـور صحيح وعليّ أن أهمل الكتاب المقدس.. وفي ذلك الوقت قرّرتُ أن أتقبّلَ كلام الله وأرفـض كل ما يتعـارض معها، متضمنًا التطور. وبذلك وبحزن شديد، رميت العلم وآمالي العلمية كلها في النار».

أجـد ذلك حزينًا بشـكل مـؤلم. وبينما تحرك قصة جهـاز غولجي تجعل الدموع تغرغر في عيني، أجد قصة كيرت وايز مأساة تثير الشفقة. الشفقة لوضاعتها، الجرح لمستقبله المهني وسعادته في الحياة هو من عمل يديه، لم يكن له ضرورة من السـهل تفاديه. كل ما كان عليه أن يفعله هو أن يرمي الكتاب المقدس، أو تفسـيره بشـكل رمـزي، أو مجازي، كـما يفعل رجال الديـن. بدلاً عن ذلـك، فعل ما يفعلـه المتطرفون ورمـي بالعلم، والأدلة

والعقلانية للخارج ومعها كل أحلامه ربما تكون حالة فريدة في التطرف، حالة كورت وايز الأمين، أميو بشكل مؤلم، أمانة تصيبك بالصدمة. اعطه جائزة تمبلتون: ربما يكون متلقيها الأمين الوحيد، وايز يكشف لنا ما يجري في الخفاء، في عقول المتطرفين بشكل عام، عندما تعترض الأدلة العلمية على إيمانهم، لنستمع لخطبته المنقمة:

«على الرغم من وجود أسباب علمية لتقبل الأرض الشابة، فأنا من المؤمنين بصغر عمرها لأنَّ ذلك ما أفهمه من الكتاب المقدس. وكما قلت لأساتذتي في الجامعة سابقًا، لو كل أدلة العالم كانت مضادة لنظرية الخلق، فساكون أول من يعترف بها، ولكنني سأظل خلوقيًا لأن ذلك ما يشير إليه كلام الله وهذا هو موقفي».

يبدو أنه يقتبس من لوثر الذي ثبت أطروحته لعلم الدين بمسمار على باب الكنيسة في ويتنبرغ ولكن المسكين كورت يذكرني اكثر بـــ ونستون سميث في قصة 1984 (جورج أورويل) والذي يسعى ويعاني لتصديق أنَّ اثنين زائد اثنين نتيجتها خمسة، إذا قال الأخ الكبير ذلك. ولكن ونستون كان تحت التعذيب. والتفكير المزدوج لـــ وايز لم يأت من أوامر تحت التعذيب ولكن من أوامر تبدوا غير قابلة للنفي من قبل البعض مصدرها الإيمان الديني: يمكن إعتبارها كتعذيب عقلي. أنا أعادي الدين لما فعله بـــ كورت وايز. وعندما يكون الدين قادرًا على فعل ذلك مع جيولوجي من هارفارد، فكر فقط بما يمكن أن يفعله بأخرين أقل قدرة على التفكير وأقل قابلية على التعقل.

التطرف الديني نزعة جحيمية لتخريب الثقافة العلمية للآلاف مما لا يحصى من الأبرياء، ذوو النوايا الطيبة، والعقول الشابة المندفعة والاعتدال

اللاتطرف ربما لا يفعل ذلك. ولكنه يجعل الطريق ممندًا للمتطرفين عندما يـدرس الأطفـال، منذ أعوامهم الأولـى بأنَّ الإيمان بدون سـؤال فيه قيم عليا.

الوجه المظلم للأحكام المطلقة:

في الفصـل السـابق، عندما حاولـت شرح الانزيـاح الأخلاقي لروح العـصر، أدرجـت المضامني الواسـعة المتفق عليها بين الأجـرار المتنورين والشرفاء من الناس. ورسمت صورة وردية بالافتراض بأننا جميعًا نوافق علـى تلك الاتفاقيـات والبعض منا يتفق أكثر مـن الآخرين ووضعت في اعتبـاري أغلب من سـيقرأ هذا الكتاب، بغض النظـر عن كونهم متدينين أو ليسوا كذلك.

ولكـن بالطبع، ليس الجميـع على اتفاق (ولن يكـون للجميع الرغبة في قـراءة الكتـاب). يجب الاعـتراف بأنَّ الأحكام المطلقـة بعيدة جدًا عن كونها ميتة. بالطبع، فإنها تتحكم بعقول الكثيرين من البشر في العالم اليوم. والخطورة في معظمها هنا في العالم الإسـلامي والحكومة الدينية الأمريكية (أنظـر كتـاب كيفـن فيليبس بهـذا العنـوان). المطلقين كهـؤلاء في أغلب الأحيـان هم نتيجة إيمان ديني قوي، وتشـكل سـببًا رئيسـيًا للأقتراح بأنَّ الدينَ يمكنِ أن يكون قوة شريرة في العالم.

إنَّ أحـدَ أعنـف العقوبـات التي في العهـد القديم هي التـي تنفذ بحق الكافـر. ولا تـزال تطبـقَ في بعض الـدول. القانون رقـم 295 في القانون الباكسـتاني يفـرض عقوبة الموت لتلك الجريمـة. في 18 آب، 2001 حكم علـى الطبيـب المحاضر يونس شـيخ بالموت لكفره. وجريمتـه كانت بأنه

قال لطلابه بأن محمد لم يكن مسلمًا قبل يخترع ذلك الدين في الأربعين من عمره. أحد عشر طالبًا من طلابه كتبوا به تقريرًا للسلطات عن «تهجه». قانون الكفر في الباكستان يطبق بشكل خاص ضد المسيحين، مثل أوغستين عاشق «كنغري» مسيح، والذي حكم عليه بالموت في فيصل أباد عام 2000.

أوغستين مسيح، كمسيحي لم يكن مسموحًا له بالزواج من حبيبة قلبه لأنها كانت مسلمة وبشكل لا يصدق لا يسمح القانون الباكستاني والإسلامي بزواج المسلمة ممن هو غير مسلم. وبالتالي حاول أن يعتنق الإسلام وعندها أتهم بأنه يفعل ذلك لدوافع أخرى.

ليس من الواضح في التقرير الذي قرأته بأن تلك كان هي الجريمة الرئيسية أو أنها كانت بسبب الزعم بأنه قال شيئًا سيئًا عن أخلاق النبي. وفي كلتا الحالتين فإنّ الأمر بالتأكيد لا يستدعي عقوبة الموت في أي بلد لديها قانون مستقل عن التعصب الديني.

في 2006 وفي أفغانستان حكم على عبد الرحمن بالموت لأنه أعتنق المسيحية. هل قتل أحدًا؟ هل آذى أحدًا؟ سرق شيئًا؟ تسبب بالضرر لأحد؟ لا. كل ما فعله هو أنه غير معتقده. بشكل شخصي وداخلي، أصبح تفكيره مختلفًا عن التفكير الذي يروق للحزب الحاكم في بلدة. ولنتذكر بأن ذلك لم يحدث في فترة طالبان بل في فترة «الحرية» الأفغانية تحت سلطة حامد كرزاي، الذي تسلم السلطة من الحلفاء الذين قادتهم امريكا. السيد رحمن تخلص من الإعدام، بعد كل ذلك ولكن فقط بإدعائه الجنون، وبعد الكثير من الضغط العالمي، وهو الآن لاجىء في ايطاليا، ليتفادي القتل من قبل المتطرفين المتحمسين لأداء واجباتهم الإسلامية.

لا يـزال ذلك القانون نافذًا في أفغانسـتان «المحررة» بـأن عقوبة الردة هي الموت. ولنتذكر هنا بأنَّ الرِّدة لا تعني أي ضرر يلحق بشخص أو أي شيء آخـر. أنها فقد جريمة فكريـة، كما وصفها جورج أورويل في كتابه، 1984 والعقوبة الرسـمية في القانون الإسلامي هي الموت. في 3 ايليو عام 1992 وكمثال على تنفيذ ذلك الحكم، قطع رأس صديق عبدالكريم ملاله أمام الجموع في السعودية لأنه أتهم رسميًا بالكفر والارتداد.

التقيـت مـرة في برنامـج تلفزيـوني مع السـير أقبال سـاكراني، والذي نوهـت عنـه في الفصل الأول كونه القائد للإسـلام «المعتـدل» في إنكترا، وتحديتـه عـن منطقية عقوبـة القتل لجريمة الـردة. حاول التلـوي في الرد ولكنـه لم يسـتطع نفيهـا أو الانتقـاص منها. ظـل يحاول تغيـير الموضوع، قائلاً بأنها تفاصيل غير مهمة. هذا الرجل أُعطي لقب فارس من الحكومة البريطانية لبناء علاقات جيدة «بين المعتقدات».

ولكن دعونا لا نعبر عن الرضي في المملكة المسـيحية. ففي عام 1922 وفي بريطانيـا، حكـم علـى جـون ويليامز غوت بالسـجن لتسـعة أشـهر مع الأشـغال الشـاقة لكفره، لقد شـبه المسـيح بالمهرج. وبشـكل يكاد لا يصدق، لا تزال العقوبة قائمة في كتب القانون في بريطانيا. وفي عام 2005 حاولـت جماعة مقاضـاة محطة البـي بي سي بتهمة الكفـر لعرضها برنامج جيري سـبرينغفيلد الأوبرا في الولايـات المتحدة الحديثة، طرحت العبارة «الطالبـان الأمريكيـين»، وببحـث سريع في غوغـل نجد أكثر مـن دزينة مواقع قد طرحتها. المختارات التي جمعوها، من القادة المتدينين الأمريكان والسياسـيين ذوي القواعد الدينية، تصيب بالقشعريرة لتعصبها، وعنفها

الخالي من الرحمة والدناءة المشابهة لحركة طالبان الأفغانية وآية الله الخميني والسلطة الوهابية في السعودية.

الموقع المدعو «الطالبان الأمريكيين» مصدر غني بشكل خاص بتلك العبارات البغضية وأولها من شخصية تدعى أن كولتير والتي، كما قال لي زملاء أمريكيون، ليست ساخرة بأقولها. قالت في مجلة الأريون: «يجب أن نحتلَّ بلادهم ونقتل زعماءهم ونحوّلهم للمسيحية». آخرون من بينهم عضو الكونغرس بوب دورنان قال «لاتستعمل الكلمة «غيي (كلمة تطلق على الشواذ جنسيًا) إلا في حالة كونها في جملة مثل ليساعد الله....؟

الجنرال وليام جي بويكين قال «جورج بوش لم ينتخب من أغلبية المصوتين في أمريكا، ولكنه تعين في منصبه من الله». وعبارة أخرى في معرض الحديث عن قوانين الحفاظ على البيئة من قبل نائب رونالد ريغان للشؤو الداخلية «لا يجب علينا حماية البيئة لأن القدوم الثاني للمخلص في أيدينا».

الطالبان الأفغانيون والأمريكيون مثال جيد على ما يحدث عندما يأخذ الناس كتابهم المقدس بشكل حرفي وجدي. أنهم يقدمون لنا مثالاً عصريًا عما سيؤول إليه الحال تحت السلطة الدينية القديم. كتاب كيمبرلي بلاكر: أسس التطرف: المسيحية في قلب أمريكا. هو كتاب مكرّس لفضح الخبث في المسيحية الطالبانية (لا يذكر اسم الكتاب).

الإيمان والمثلية الجنسية:

في أفغانستان وتحت حكم طالبان، كانت العقوبة الرسمية للمثلية الجنسية هي الأعدام، وذلك بدفن الشخص حيًا تحت جدار يُضغط

فوق الضحية. كون «الجريمة» موضوع يتم بشكل شخصي وبعيد عن الآخرين وتمارس بين بالغين راشدين لا يقصدون الأذى لأي كان، وهنا ثانية لدينا علامة فارقة فيما يتعلق بالأحكام المطلقة. وبلدي أنا ليس له الحق في التعجرف. المثلية الخصوصية كانت تعد جريمة حتى عام 1967 في عام 1954 انتحر الرياضي البريطاني ألان تورينغ، والذي كان مؤهلاً إلى جانب جون فون نيومان للقب مخترع الكومبيوتر بعد أن اتّهم بجريمة المثلية الجنسية. واعترف بأن تورينغ لم يدفن حيًا بهدم حائط على رأسه بواسطة دبابة. بل أُعطي الخيار بين عامين في السجن (تستطيع تخيل معاملة بقية السجناء له) وبين معالجة هرمونية والتي كان يُمكن أن تؤدّي به لكارثة كيماوية، وسينمو له صدر، وخياره كان تفاحة حقنها بالسيانيد.

وكفكر محوري في تحطيم الشيفرة الإلمانية الغامضة، من الممكن أن نعدَّ مساهمة تورنينغ في هزيمة الإلمان أكبر من تلك التي لآيزنهاور وتشرشل. وبفضل توزينغ وزملائه اللاعبين في باتشلي بارك. كان القادة من الجنرالات في الجبهة يحصلون على كل المعلومات عن التحركات الألمانية وبشكل مستمر خلال الحرب قبل أن يتمكن الضباط الألمان من تنفيذها. وبعد الحرب عندما لم يعد دور تورينغ سريا جدًا، كان يجب تقليده رتبة فارس واعتباره أحد منقذي امته.

عوضًا عن ذلك، فإن ذلك العبقري اللطيف والغريب الأطوار دمّر تمامًا، لـــ «جريمة» ارتكبت بمعزل عن الجميع ولم تؤذ أحدًا أبدًا. مرة أخرى نرى العلامة الواضحة بأن الأخلاقي الإيماني يجب أن يهتم بما يفعله الآخرون (حتى ما يفكرون) في عزلتهم.

إنَّ موقف «طالبان» و«الأمريكيين» نحو المثلية يُلخّص أحكام تدينهم المُطْلقة. لتستمع للموقر جيري فالويل، مؤسس جامعة الحرية: «الأيدز ليس فقط عقوبة الله للمثليين الجنيسيين: بل أنه عقوبة الله للمجتمع الذي يتحمل المثليين». الشيء الذي لاحظته في أولئك الناس هو كرمهم المسيحي الرائع. من ذا الذي يصوّت مرة بعد أخرى لرجل قليل الاطّلاع متعصب مثل السيناتور جيسي هيلم، الجمهوري في كارولينا الشمالية؟

رجل يحقر قائلاً: «صحيفة النيويورك تايمز والواشنطن بوست متخمتان بالمثليين. وتقريبًا كل شخص هناك مثلي جنسي: الجواب، أفترض أنا، هو أولئك المصوتون الذين يرون الأخلاقيات من منظارها الديني الضيق ويشعرون بالتهديد من أي شخص لا يشاركهم إيمانهم المطلق.

«لقد اقتبست عن بات روبرتسون سابقًا، مؤسس التحالف المسيحي. كان مرة مرشحًا قويًا لرئاسة أمريكا من قبل الحزب الجمهوري في 1988 وحصل على أكثر من ثلاثة ملايين متبرع للعمل في حملته الإنتخابية، إضافة إلى مثل ذلك العدد من الدولارات: دعم يدفع للصمت، مع العلم بأنَّ العبارات الآتية هي نموذج ما خطابه: «المثليون يريدون أن يأتوا للكنيسة ويعرقلوا القداس ويرشون الدم حولهم محاولين إصابة الناس بالإيدز ويبصقون في وجه الكاهن». (صحيفة بلاند بارنتهود) تعلم الأطفال على الزنا وتعلم الناس بأن يرتكبوا الفاحشة وكل أنواع البهيمية، اللواط، السحاق، كل ما يلعنه الكتاب المقدس».

مواقف روبرتسون نجو المرأة، تُدفّئ القلوب السود لحركة طالبان: «أعرف بأنه من المؤلم لامرأةٍ أن تسمعَ ما أقول، ولكنك حينما تتزوجين،

فأنتِ قد قبلت رئاسة الرجل. زوجك، المسيح هو رأس الكنيسة والزوج هو رأس الزوجة، وذلك هو الطريق الصحيح، نقطة انتهى».

غاري بوتر، رئيس الحركة السياسة الكاثوليكية للمسيحين: «قال عندما تتسلم الأغلبية المسيحية قيادة هذا البلد، لن يبقى هناك كنائس شيطانية ولا توزيع مجاني لأفلام الإباحة، ولا كلام عن حقوق المثليين. بعد أن تستلم الأغلبية المسيحية زمام الأمور، ستصبح التعددية غير أخلاقية وشريرة ولن تسمح الدولة لأي كان بارتكاب الشر». الشر كما هو واضح من العبارة لا تعني عمل أشياء قد يكون لها عواقب على الناس. بل تعني الأفكار والأعمال بمعزل عن الآخرين والتي لا تروق لـــــ «الأغلبية المسيحية».

القسيس فريد فيلبه، من كنيسة وستبورو، هو خطيب قوي آخر مع كره شديد للمثلية. وعندما ماتت أرملة مارتن لوثر كينغ، رتب القسّيس فريد خطبة في جنازتها وأعلن: «الله يكره اللوطيين ومشجعي اللواطة، ولهذا فإنَّ الله يكره كوريتا سكوت كينغ وهو الآن يعذبها بالنار والكبريت حيث لا تموت الديدان أبدًا ولا تخبو النار، ودخان عذابها يصعد عاليًا لأبدِ الأبدين».

من السهل أن نأخذَ فريد فيلبس على أنه مجنون، ولكن لديه عددٌ هائلٌ من الأتباع وأموالهم. وبناء على موقعه في الإنترنت، فلبس قد رتب 22000 مظاهرة مضدة للمثلية منذ عام 1991 (بمعدل مظاهرة كل اربعة أيام). في أمريكا وكندا، الأردن والعراق، وعرض المتظاهرون شعاراتٍ مثل «نشكر الله على الأيدز». ومن الأمور الجذابة في موقعه بشكل خاص حسابات آلية عن عدد الأيام في الجحيم لبعض الشخصيات المثلية المتوفية.

المواقف نحو المثليين ترينا الكثير عن نوع الأخلاقيات التي تستوحي من الدين. أمثلة مشابه نتعلم منها بشكل مشابه هي عن الأجهاض وقداسة الحياة الإنسانية.

الإيمان وقدسية الحياة الإنسانية:

البويضات الإنسانية أمثلة على الحياة الإنسانية. ولذلك وفي ضوء التدين والقيم المطلقة، فإنَّ الإجهاض ببساطة خطأ بالتمام. لا أعرف بماذا أحكم عن ملاحظتي الظريفة عن أن العديدين مما يعارضون أخذ بويضة يتحمسون بشكل عام أكثر من المعتاد لأهلاك حياة شخص بالغ. وللإنصاف، فإنَّ ذلك لا ينطبق، كقاعدة على الروم الكاثوليكيين والذين هم من ألدِّ أعداء الإجهاض.

إلا أن المولود ثانية (جورج بوش)، هو نموذج للتصاعد الديني. هو وهم من أنصار المدافعين عن الحياة الإنسانية، طالما أنها في مرحلة البويضة (أو مريضة بمرض مميت) لدرجة منع أبحاث طبية كانت لتنقذ حياة الكثيرين.

إنَّ السبب الرئيسي لرفض عقوبة الإعدام هو احترام حياة الإنسان. ومنذ 1976 حين أقرّت المحكمة العليا عقوبة الأعدام، أصبحت تكساس مسؤولة عن حوالي ثلث الإعدامات التي جرت في كل الولايات والرئيس بوش ترأس إعدامات عندما كان حاكمًا للولاية أكثر من أي حاكم آخر في تاريخ الولاية، بمعدل إعدام كل أربعة أيام. ربما كن ببساطة ينفذ القانون. لكن، عندئذ ماذا تقول عن التقرير الشهير لـــــــسي أن، أنَّ للمحرّر تاكر كارلسون؟.

كارلسون، الذي يصادق على عقوبة الإعدام، صعق عند مشاهدته بوش يقلد «بمسخرة» سجينة تنتظر الإعدام، وتلتمس من الحاكم أن لا تعدم: «أرجوك»، ينشج بوش، ويزم شفتيه بيأس وهمي، «لا تقتلني». ربما لقيت تلك المرأة تعاطفًا أكبر لو أنها أشارت إلى كونها بويضة في يوم ما. إنَّ النظر لموضوع البويضة يبدو وكان له أكبر الأثر على كثير من المؤمنين.

الأم تيريزا قالت فعلاً، في خطابها عند حيازتها على جائزة نوبل: «إنَّ أكبر مدمّر للبشرية هو الإجهاض»، ماذا؟ كيف يمكن لامرأة تمتلك رأيًا كهذا أن تُؤخذ بجدّيّة في أي موضوع جدي. ناهيك عن كون الفكرة جدية لتستحق جائزة نوبل؟ وأي شخص يود أن يعرف أكثر عن نفاقها وتظاهرها بالتقوى عليه أن يقرأ كتاب كريستوفر هيتشينز الوضعية التبشيرية: الأم تيريزا بين النظرية والواقع.

«وعودة لطالبان الأمريكيين، لنستمع إلى راندال تيري، مؤسس (حركة الإنقاذ)، وهي مؤسسة مضادة لأطباء الأجهاض».

عندما أكون، أو أحد مثلي، حاكما للبلد، من الأفضل أن تهربوا، لأننا سنجدكم، سنحاكمكم، وسنعدمكم. وأعني كل كلمة قلتها. سأجعل ذلك جزءًا من مهمتي بأن تحاكموا جميعكم وتعدموا «تيري يقصد الأطباء الذين يعملون عمليات الإجهاض، وإلهامه المسيحي يرى في تعليق آخر:

«أريد منكم أن تشكلوا موجة من المضايقات. أريد أن تتركوا موجة من الكره تجتاحكم. نعم الكره جيد.. هدفنا هو دولة مسيحية. لدينا واجبات إنجيلية، والله نادانا، لأخذ البلد غصبًا. لا نريد مساواة، لا نريد

تعدديه، هدفنا يجب أن يكون بسيطًا. علينا أن نكون دولة مسيحية مبنية على قوانين الله، على الوصايا العشرة، ولا حرج».

إنَّ الطموح لإنجاز دولة فاشية مسيحية نموذجي جدًا في حالة الطالبان الأمريكان. وكأنها انعكاس لصورةِ الحماس لإقامة الدولة الإسلامية الفاشية في أركان أخرى من العالم. راندل تيري لايمتلك بعد قوة سياسية. ولكن ليس هناك من مراقب للمسرح السياسي الأمريكي في وقت كتابة هذا الكتاب (2006) بإمكانه احتمال حدوث ذلك.

إنَّ النصير للمذهب النفعي أو النتائجي سيقارب السؤال عن الإجهاض بطريقة مختلفة، وذلك بأنَّ يقارن المعاناة. هي تعاني البويضة؟ (المفترض أنَّ الجواب لا. إذا أجهضت قبل امتلاكها لجهاز عصبي، وحتى لو كانت من السن بحيث أن لديها جهاز عصبي فإنها بالتأكيد تعاني أقل، ولنقُلْ كمثال: بقرة بالغة في المسلخ. هل تعاني المرأة الحامل أو عائلتها لو لم تجهض؟ ممكن جدًا: وعلى أية حال، وبما أنَّ البويضة لا تمتلك جهازًا عصبيًا، ألا يجب على الأم ذات الجهاز العصبي المكتمل أن يكون لها رأي؟ لن أعارض في أنه من الممكن أن تكون هناك أسباب للنتائجيين لمعارضة الإجهاض.

حجة «المنحدر الزلق» يمكن أن يكونها النتائجيون (ولن أفعل هذا في هذه الحالة). ربما لا تعاني البويضة ولكن في مجتمع يسمح فيه بإزهاق الحياة البشرية يكمن خطره في الذهاب لأبعد من الحد: أين يقع خط النهاية؟ الوأد؟ إنَّ لحظة الولادة تعطينا مؤشرًا طبيعيًا لتعريف القواعد، وبالمستطاع الجدل بأنه من الصعب إيجاد لحظة أبكر من خلال تطور البويضة.

إنَّ حجـة المنحدر الزلق يمكن أن تجعلنا نعطي للحظة الولادة مميزات أكبر مما يريد التنائجيّون باستنتاجاتهم الضيقة الأفق.

والجدليـة حول مـوت الرحمة أيضًا، يمكن أن توضـع في أطار المنحدر الزلـق. لنتخيل عبارة من فيلسـوف أخلاقي: «عندما تسـمح للإطباء بأن يضعـوا حدًا لمعاناة المختصر، فسـيضرب كل واحـد جدته لحد الاحتضار للحصول على أموالها. نحن الفلاسـفة ربما ترفعنـا عن الأحكام المطلقة، ولكن عامة الشعب يجب أن تلتزم بقوانين مطلقة مثل «لا تقبل» وإلا فإنها لن تعرف حدودهـا. تحت طائلة بعض الظروف، يمكن للأحكام المطلقة أحيانًا ولأسباب خاطئة في مجتمع غير مثالي، أن يكون لها نتائج أفضل من التنائجية السـاذجة، نحن الفلاسـفة ربما نجد صعوبة في منع اكل الإنسان الميت وغير المندوب مثل صعلوك مقتول بسـب حادث على حافة طريق، ولكن ولأسـباب تتعلّق بالمنحـدر الزلق، فإنَّ الحكم المطلـق بتحريم أكلِ البشر لا يمكن أن نخاطر بخسارته».

ربما تعد حجة المنحدر الزلق طريقة تمكن التنائجيين من إدخال شـكل من الحكم المطلق بشـكل غير مباشر، ولكـن خصومة الأديان للإجهاض لا تزعج نفسـها بالمنحدرات الزلقة. بالنسـبة لهم، الموضوع أبسـط بكثير. البويضة «طفل»، قتلها هو جريمة قتل، وهذا كل شيء أنتهى الحوار.

يتبـع ذلك الكثير من المواقف المطلقـة. وكبداية أن أبحاث البويضات المتعلقـة بخلايا المنشـأ يجب أن تتوقـف، برغم توقع الفوائـد الضخمة في علـوم الطب، لهـذا تتطلب مـوت بويضـات. والتضارب واضـح عندما تفكر بمجتمع يتقبل التخصيب خارج الجسم، والذي يحرض فيه الأطباء جسم المرأة باستمرار لإنتاج عددٍ إضافيٍّ من البويضات، لإخصابها خارج

الجسم. ربما يصل العدد لدزينة ومنها اثنتان أو ثلاث تزرع في الرحم. والتوقع هنا بأنَّ واحدة أو اثنتين على الأكثر تكمل الحمل. وبالتالي فإنَّ الإخصاب الخارجي يقتل في مرحلتين من مراحله، والمجتمع بشكلٍ عام ليس لديه أي اعتراض على ذلك. ولخمسة وعشرين عامًا يظل الإخصاب الخارجي إجراءً نموذجيًا لجلب البهجة لحياة الأزواج غير المنجبين.

ربما يكون للمتدينين المطلقين مشكلة مع الإخصاب الخارجي. صحيفة الغارديان في 3 حزيران 2005 كتبت قصة محيرة تحت عنوان «استجابة زوج وزوجة مسيحيان لنداء من أجل إنقاذ بويضة زائدة من عملية إخصاب خارجي».

القصة عن مؤسّس تسمى ندف الثلج والتي تهتم بإنقاذ البويضات الزائدة من عيادات الإخصاب الخارجي. «لقد شعرنا حقيقة بأن الإله يدعونا لمحاولة إعطاء إحدى هذه البويضات، الأطفال، فرصة للحياة».

قالتها امرأة من ولاية واشنطن، والتي كان طفلها الرابع نتيجة ذلك «التحالف غير المتوقع للمسيحين المتحفّظين مع عالم أطفال الأنابيب».

ولقلقها من هذا التحالف، فقد قام زوجها بسؤال الكاهن في الكنيسة، والذي أجابه»، لو أردت تحرير عبد، فعليك في بعض الأوقات أن تتعاقد مع تاجر العبيد». أعجب عما سيقوله هؤلاء لو عرفوا بأنَّ غالبية البويضات الملقحة تجهض في الحالة العامة. ربما يعتبرونها نوعًا من «التحكم بالنوعية».

بعض المتدينين لا يستطيعون التمييز بين قتل بضعة خلايا ميكروسكوبية من ناحية وبين قتل طبيب مكتمل النمو من الناحية الأخرى. لقد اقتبست

مـن راندال تيري مسـبقًا وحزبه «عملية الإنقاذ». مارك يورغينسـماير، في كتابه الذي يصيب بالقشـعريرة الإرهاب في عقل الإله، عرض فيه صورة الموقـر مايكل باري مع صديقـه الموقر باول هيل، يمسـكان بلافتة تقول: «هل من الخطأ منع قتل الأطفال الأبرياء؟. الاثنان يبدوان لطيفين، شابان يافعان، يبتسمان بود، بملابس أنيقة، صورة معاكسة تمامًا لمجانين بعيونهم المشخِّصة».

رغـم ذلـك وبمشـاركة زميلهـا الثالث من جيـش الإله، فقـد جعلوا مهتهـم إحـراق عيادات الإجهـاض، ولم يترددوا في البـوح برغبتهم بقتل الأطبـاء. وفي 29 تموز 1994 قتـل باول هيل الدكتور جون بريتون ببندقية صيـد مع مرافقـة جيمس باريت خارج عيادة بريتون في بنسـاكولا بولاية فلوريدا. وبعدها سلم نفسه للشرطة، قائلاً بأنه قتل الطبيب ليمنع أي قتل مستقبلي بحق «الأطفال الأبرياء».

مايـكل براي دافع عـن ذاك التـصرف في كل مقابلة أجراهـا تتمحْور حـول الأخلاق، كما اكتشـفت عندما اجريت معه مقابلـة في حديقة عامة في كولورادو سبرينغ، وذلك من أجل البرنامج الوثائقي عن الدين. وقبل أن نـأتي إلـى موضوع الإجهـاض، فحصـت معايير براي عـن الأخلاق المبينة على الكتاب المقدس بسـؤاله بعض الأسـئلة التمهيدية. أشرت إلى أنَّ القانون الإنجيلي يحكم على الزاني بالموت رجمًا. وتوقعت أن ينكرَ هذا المثال الخصوصي لوضوح كونه خارج حدود المعقول، ولكنه فاجأني.

لقـد أبـدى سـعادته بالموافقـة علـى أن يعدم الـزاني بعـد الإجراءات القانونيـة. بعـد ذلـك أشرت إلـى أن بـاول هيل، مـع كل دعم بـراي، لم يتبـع الإجراءات بل تصرف وكأنَّ القانون بيـده وقتل الطبيب. براي دفع

عـن تصرّف صديقـه الكاهـن، بنفس الطريقـة التي اتبعهـا عندما أجرى يورغينسـماير المقابلـة معه، بـأنَّ فرقًا بـين القتل الجزائي، مثـل قتل طبيب متقاعـد، وقتـل طبيـب لا يـزال يعمل وذلـك لمنعهِ مـن ارتـكاب «القتل المتواصلة» للأطفال.

عندما وضعته في الصورة التالية، بفرض أن اعتقاد باول هيل لايشـك في أمانتها، ولكن المجتمع سـينحط لفوضويـة مرعبة عندما يعتبر كل فرد فيه أن قناعاته هي القانون ويتصرف على أساسـها، بدلاً عن طاعة قانون البلد.

أليـس مـن الصحيـح محاولـة تغيـير القانـون ديموقراطيًـا؟ أجـاب بـراي: «تلـك هي المشـكلة عندما لا يكـون لدينا قانون مبـين على قانون أصـلي: عندمـا تكـون قوانينًا موضوعة مـن قبل بشر نزويين، كـما رأينا في حالـة القانـون المدعو قانون حقـوق الأجهاض، لقد فرض هـذا القانون علـى الناس مـن قبل الحكام».. بعدهـا وصلنا إلى جدل حول الدسـتور الإمريكي ومن أين أتت القوانين.

وموقف براي من ذلك ظهر مشابهًا جدًا لمواقف العسكريين الإسلاميين الذين يعيشون في بريطانيا والذين يعلنون عن أنهم مرتبطون بقانون الإسلام فقط، وليس بالقانون الديموقراطي المطبق في الدولة التي تبنتهم.

في 2003 أعـدم باول هيـل لقتلهِ الدكتور بريتون ومرافقه الشـخصي، قائـلاً بأنه لو اسـتطاع لفعلها ثانية لإنقاذ الأجنـة. وبينما يترقب أن يموتَ مـن أجل فكرته، قال في مؤتمر صحفـي: أؤمن بأنَّ إعدامة من قبل الدولة سيجعل مني شهيدًا».

يمينيـون مـن المناهضـين لقانـون الإجهـاض تظاهروا ضـد الإعدام وانضـم إليهـم يسـاريون مـن المناهضين لحكـم الإعدام والتـي حرضت حاكـم فلوريدا جاب بـوش (الأخ الأصغر لجورج بـوش)؛ لأنَّ «يوقف استشهاد باول هيل». ومعقولية الجدال كانت عن أن القتل القانوني لباول هيل ربما يشجع على حدوث جرائم قتل مماثلة، وهذا مضاد تمامًا للهدف من عقوبة الإعدام.

هيـل كان مبتسـمًا طـوال الطريـق إلى غرفـة الإعـدام قائـلاً: «أتوقع جـزاء عظيمًا في السـماء.. وانتظر الظفر العظيم بفـارغ الصبر» واقترح بأنَّ علـى الآخريـن أن يحذو حـذوه بذلـك العنـف. ولتوقع هجـوم انتقامي «لإستشـهاد» باول هيل، صعد البوليس مسـتوى الإنذار لأعلى مستوى بينـما كان هيل يعـدم، والعديدون ممن لهم علاقات بالقضية تلقوا رسـائل تهديد بداخلها رصاصات مسدس.

كل ذلـك الرعـب أصله مـن اختلاف بسـيط في المعايـير، هناك من النـاس، وبسـبب قناعاتهـم الدينيـة، مـن يظنـون بـأنَّ الإجهـاض قتل ومسـتعدون للقتل دفاعًـا عن البويضـات، والتي يسـمونها «أطفالاً». ومن جهة أخرى من هم صادقون بشـكل مماثل ومؤيدون للإجهاض، ومنهـم من لديه قناعات دينيـة مختلفة، أو بدون دين، مـع أخلاق مبنيّة على النتائجية. هؤلاء يرون أنفسـهم أيضًا، كمثاليين، يؤمنون خدمات طبيـة للمرضـى للمحتاجين، والذين كانوا سـيؤولون لوضع أنفسـهم تحـت رحمـة دجالين عاجزين في شـارع خلفي. كل طـرف يرى الطرف الآخـر قاتلاً أو داعيًا للقتل. الطرفان، بإلقاء الضوء عليهم، متسـاويان في الصدق.

إحـدى المتحدثات بإسـم عيادة إجهـاض أخرى وصفـت باول هيل كمجنـون خطـر. ولكن من هم مثله لا يفكرون بأنهـم مجانين خطرين، بل يفكرون بأنهم طيبين، أخلاقيين، موجهين من قبل الإله. بالتاكيد، لا أظن أن باول هيل كان مضطرب العقل، ولكنه فقط متدين، خطر؟

نعم، ولكن ليس مضطرب العقل. متدين بشكل خطر. ومن جهة نظر إيمانه الديني، فإن هيل كان محقًا واخلاقيًا تمامًا عندما رمى الدكتور بريتون بالرصاص. ما هو خاطئ في هيل هو إيمانه الديني بحد ذاته. مايكل براي، أيضًا عندما قابلته، لم يعطني انطباعًا عن أنه مضطرب عقليًا.

بل إنه حتى أعجبني. فكرت بأنه إنسـان أمـين ومخلص، يتكلم بهدوء وبعد تفكير، ولكن عقله للأسف كان غارقًا في ترهات دينية مسمومة.

إنَّ معظـم معـارضي الإجهـاض بقـوة هـم مـن المتدينـين العميقـين، ومؤيـدي الإجهاض الصادقين، بغض النظر عن كونهم متدينين شـخصًا أم لا، يلحقـون غالبًا بغير المتدينين. فلاسـفة الأخـلاق النتائجيون، غالبًا يستعملون سؤال جيرمي بويثام» هل يستطيعون المعاناة».

باويـل هيل ومايكل براي لم يروا فرقًا أخلاقيًا بين قتل بويضة وطبيب غـير أنَّ البويضـة بالنسـبة لهـم «طفـلاً» بريئًـا لإيـلام. النتائجيـون يرون الموضوع من عالم مختلف. إنَّ بويضة مبكرة ليس لها مظهر، أو شـبها حتى للدعموص.

الطبيـب بالـغ يأمل ويحب ولـع تطلعات ومخاوف، مخزن إنسـاني ملئ بالمعرفة، والقدرة على الشعور العميق، ومن المرجح أن هناك ارملة يائسة ويتأمى وربما أهل كبار في السن مخرفين يعتمدون عليه.

باول هيل سبب معاناة عميقة وحقيقة لكائنات لديها اجهزة عصبية قادرة على المعاناة. بينما ضحيته الطبيب لم يفعل شيئًا كهذا. البويضات المبكرة ليس لها جهاز عصبي وبالتأكيد لا تعاني. ولو أن البويضة المجهضة المتأخرى مع جهاز عصبي تعاني، برغم أن كل معاناة محزنة فالمعاني ليس إنسانًا.

ليس هناك أسباب عامة لافتراض بأنَّ البويضة الإنسانية في أي عمر تعانياًاكثر من بويضة بقرة أو خروف في نفس مرحلة التطور. وهناك كل الأسباب لافتراض بأنَّ البويضات كلها، إنسانية أو غيرها، تعاني أقل بكثير من البقرة البالغة أو الخروف البالغ في المسلخ، خصوصًا في المسالح حيث، ولأسباب دينية، يجب أن يكونوا في كامل وعيهم عند قطع جناجرهم بشكلٍ احتفالي.

من الصعب قياس المعاناة والتفاصيل ربما تناقش. ولكن ذلك لا يؤثر على نقطي الرئيسية، والتي تركز على الفرق بين النتائجيين العلمانيين والمطلقين المتدينين من ناحية الفلسفة الأخلاقية. إحدى مدارس الفكر يهمّها إذا ما كانت البويضات تعاني. والأخرى يهمّها كونها بشرًا. أخلاقيو الدين يسمعون وهم يناقشون أسئلة من قبيل، «متى تصبح البويضة المتطوّرة شخصًا، إنسانًا؟.

إنَّ الأخلاقيين العلمانيين سيسألون، «ليس من المهم كونها إنسانًا لا (هل يعني ذلك أي شيء لمجموعة من الخلايا؟): في أي عمر تصبح بويضة متطورة، لأي كائن كان، قادرة على المعاناة».

حجة بيتهوفن الكاذبة:

الحركة التالية التي يأتي بها إعداء الإجهاض عادة في المناظرات تجري بالشكل التالي. إن النقطة ليست في أنَّ البويضة تستطيع المعاناة أم لا في

الوقـت الحاضر. النقطة تتركز حـول (إمكانياتها). الإجهـاض منعها من أن تكون إنسـانًا مكتملاً في المسـتقبل. هذه الفكرة تُلخّص بحجة بلاغية، غباؤها الشديد هو الدفاع الوحيد عن التهمة بكذبها الجدّي.

وأنـا أتحدث عن كذبة بيتهوفن الكبرى. والتي تتواجد بأشـكال عدة. بيتر وجان ميدو، في كتاب علم الحياة، يعزيان الوجه التالي للقسة لنورمان سـانت جون سـتيفاس (والذي هو الآن اللورد جـون). عضو في البرلمان البريطـاني وينتمـي للـروم الكاثوليـك غـير المتخصصـين. وبـدوره اخذ القصـة من مرويس بارينـغ، (1874 - 1945) أحد معتنقي مذهب الروم الكاثوليـك واحد رفاق خادميها ج. ك. تشيسـتيرتون وهيلاري بيلاوك. يعطي التالية بين طبيبين كفرضية.

«مـاذا عن إنهاء الحمل، أريـد رأيك. الأب مصاب بالسـفلس، والأم مصابـة بالتهـاب الرئة. من أطفالهـم الأربعة، الأول أعمـى والثنى مات، والثالـث أطـرش ومتخلـف، والرابع مصـاب بإلتهاب الرئـة. ماذا كنت لتفعل؟

«كنت لأنهي الحمل»

«لقد قتلت بيتهوفين للتو».

الإنترنت مليئة بمواقع تلقب نفسها بـــأنصار الحياة ممن يعيدون هذه القصة السـخيفة ويغيرون فيها بحيوية طائشـة. إليكـم وجهًا آخر للقصة «لـو علمـت بأن امـرأة حامـل، كان لديهـا 8 أولاد، ثلاثة طرشـان، اثنان عميان، واحد متخلف (كل ذلك لأنها مصابة بالسـفلس، «هل تفضل أن تجهـض؟ لكنـت قتلت بيتهوفـن إذن». تلك الإعادة تخفـض رتبة المؤلف

العظيم من خمسة إلى تسعة في ترتيب الولادة، وترفع عدد الأعضاء المولودين طرشانًا إلى ثلاثة والعميان إلى أثنان، وتعطي السفلس للأم بدلاً عن الأب. وأغلب المواقع الثلاثة والأربعين التي وجدتها عند بحثي عن أوجه للقصة، لاتعزيها لموريس بارينغ وإنما لبروفيسور يسمى ل. ر. أغنيو من جامعة كاليفورنيا للطب، والذي وضع الحزورة لطلابه وقال لهم «تهانينا، لقد قتلتم بيتهوفن للتو». ربما نعطي عذرًا هنا بالشك بعدم وجود ل. ر. أغنيوا من المدهش كيف تنتشر تلك الشائعات. لا أستطيع معرفة فيما لو إذا كان بارينغ هو من أسس الأسطورة، أم أنها اخترعت قبلاً.

أما عن كونها مخترعة فهذا اكيد. أنها كاذبة بكاملها. الحقيقة أن لودفيغ فاي بيتهوفن لم يكن الطفل التاسع أو الخامس. أنها هو البكر، بالتحديد رقم اثنين ولكن أخوه الأول مات في مهده،

وكان ذلك شائعًا أيامها، ولم يكن على حد العلم، أعمى أو أطرش أو متخلف أو غبي. ليس هناك أي أدلة على أن أيًا من أبويه مريض بالسفلس، مع العلم أن أمّه ماتت بألتهاب، الرئة، وكان ذلك شائعًا أيامها.

هذه في الواقع، قسة كاذبة بالكامل، مفبركة ومحاكة وبشكل مدروس من قبل أناس مهتمين بنشرها. ولكن الواقع بأنها كذب، على أية حال، ليس متعلقًا بالنقطة التي أناقشها. وحتى لو لم تكن كاذبة، فإنَّ الحجة المستقاة منها سيئة للغاية، بيتر وجين ميداوار لم يحتاجًا للشك بالقصة ليثبتا كذب الحجة: «العقلانية خلف تلك الحجة الصغيرة كاذب بشكل يقطع الأنفاس. على الأقل الافتراض بأنَّ هناك علاقة ما بين الأم المصابة

بالتهـاب الرئة والأب المصاب بالسـفلس يؤدي لولادة عبقري موسـيقي مثل بيتهوفن وإن العالم كان ليحرم منه بواسـطة الإجهاض باحتمالية أكبر من حرمانه منه بعدم الاتصال الجنسي».

إنَّ نقض الحجة من ميداوار بشـكل مشين ليس له إجابة (واستعير هنا إحـدى قصص روالد داهل القصيرة، إنَّ القـرار برفض للإجهاض مماثل عام 1888 أنجب أدولف هتلر). ولكنك لسـت بحاجة لكثير من المعرفة ولا حتى حرية من نوع معين من التربية الدينية لتعرف القصد.

من المواقع الثلاثة والأربعين لـــأنصار الحياة يعرضون أوجها مختلفة لقصـة بيتهوفـن الأسـطورية والتي أتاني بهـا غوغل بينما كنـت اكتب هذا المقطـع، لم تنتبـه أيًا منها إلا لامنطقيـة الحجة. بل كلهـا (وكلها صفحات دينية) وقعت ضحية الكذبة، بالصنارة. واحدة منها قالت بأنَّ المصدر هو ميداوار. متحمسـين جدًا أولئك الذين سـارعوا لتصديق كذبة متجانسـة مـع دينهم، لدرجة أنهم لم يلاحظوا حتى بـأن ميداوار كتب حجته ليفجر الكذبة في الماء.

إنَّ ميـداوار على حق تمامًا عندما أشـار إلى الإسـتنتاج المنطقي لحجة «الإمكانية الإنسـانية» بأننا نمنع أنسانًا من إمكانية أن يكون موجودًا كلما فشـلنا بأنتهاز الفرصة للمارسـة الجنس. كل رفـض لأي عرض للاتصال بين شـخصين خصبين هو، في ذلك الصدد (نصرة الحياة) المنطقي، مسـاو منطقيًا لقتل إمكانية ولادة طفل! حتى رفض الاغتصاب يمكن أن يعرف علـى أنه قتل إمكانية ولادة طفل (وعلى فكرة هناك الكثيرين من «أنصار الحياة» من الذين يرفضون الإجهاض حتى للمرأة التي اغتصبت بعنف). نرى بوضوح سوء المنطق للحجة الخاصة بيتهوفن.

إنها غباء غير طبيعي يعبّر عنه بالأغنية اللامعة «كل نطفة مقدسة» والتي يغنيها مايكل بالين، مع كورس من مئات الأطفال، في فلم مونتي بايتون معنى الحياة (شاهده من فضلك إذا لم تفعل بعد). أن كذبة بيتهوفن الكبرى هي مثال نموذجي عن نوع الفوضى المنطقية التي نقع فيها عندما نخدع بالأحكام المطلقة المستوحاة من الدين.

لاحظ بأنَّ «نصرة الحياة» لا تعني بالضبط نصرة الحياة بكل أشكالها على الأطلاق. بل أنها تعني نصرة الحياة الإنسانية فقط. إن المطالبة بضمان لحقوق خاصة فريدة من نوعها لخلايا النوع (هومو سابيان) يصعب أن يلتقي مع واقع التطور، ولنتعرف بأنَّ ذلك لن يقلق أعداء الإجهاض والذين لا يفهمون بأنَّ التطور واقع! ولكن دعونا نوضح الحجة من أجل أعداء الإجهاض الأقل جهلاً بالعلم.

إنَّ وجهة نظر التطور بسيطة جدًا. إنَّ أنسانية البويضة لا يمكنها أن تمنح وضعًا أخلاقيًا غير متصل. لا يمكن ذلك بسبب التطور المستمر مع الشمبانزي وبشكل أبعد، مع كل كائن حي على الكوكب. لنرى ذلك، تخيل بأن كائنًا متوسطًا، لنقل أوسترابيثيسوس أورانسيس، أعطى الفرصة للبقاء واكتشف في منطقة نائية في أفريقيا.

هل يُعد هذا الكائن إنسانًا أم لا؟ بالنسبة لشخص نتائجي مثلي، السؤال لا يستحق حتى إجابة، لأنَّ ذلك لن يضيف شيئًا. من الكافي أن نحصل على السحر والشرف بلقاء «لوسي» جديدة.

مؤيد الأحكام المطلقة، من الجهة الأخرى، عليه أن يجيب على السؤال، ليستطيع أن يطبق مبادئ الأخلاق الخاصة عن ضمان المميزات الخاصة

والفريـدة للبشر لأنهم بشر. وعندما يصل الأمر للنزاع، فأنا أفترض بأنهم سيحتاجون لإنشـاء محاكم، كما حال التفرقة العنصرية في جنوب أفريقيا، لتحديد لو أن كائنًا ما يُعد إنسانًا.

وحتـى لو كان هناك جوابًـا واضحًا في حالة الأوسـترالوبثوكوس، فإنَّ الاسـتمرار المتـدرج الـذي لا مهرب منـه للتطـور البيولوجي يقـول لنا بأنه يجـب أن يكون هنالك «متوسـط مـا» قريب جدًا «لخط الحـدود» ويمكن أن يعشي المبادئ الأخلاقية ويدمر اطلاقيتها. الطريقة الأفضل هنا هو أن نقول بأنـه ليـس هناك حدود في التطور. وأن وهم الخط الجدودي خلق بسـبب أن «المتوسطون» في تاريخ التطور قد انقرضوا. بالطبع، من الممكن الجدال في أنَّ الإنسـان لديه القدرة على المعناة أكثر مـن كائن آخر. ويمكن أن يكون ذلك حقيقيًا حقًا، وبالتالي يمكن أن نُعطي الإنسـان بشـكل قانـوني وضعًا خاصًا بسـبب تلك القيمة. ولكن استمرار التطور يرينا بأنه ليس هناك فرق مطلق. وإن التطور يهدم بشكل صارخ التمييز الذي تمارسه الأحكام المطلقة.

إنَّ الإدراك لتلـك الحقيقـة ليـس هينًـا وربـما بالتأكيـد يكـون خلـف الدافـع الرئيـسي للخلوقيين ليعارضـوا التطور: لأنهم يخافـون ما يؤمنون بإنه سـيكون نتيجـة أخلاقية لها. إنهم مخطئون بذلـك، لكن فيما يتعلق بي، مـن المؤكد إنه مـن المحير أن نظن بأن حقيقة العـالم يمكن أن تعكس فقط لاعتبارات أخلاقية.

كيف يعطي الإعتدال الديني الحاجة للتطرّف:

بإلقـاء الضـوء علـى الجانـب المظلـم للأحـكام المطلقـة، أشرت إلى مسـيحيي أمريـكا الذيـن يفجـرون عيـادات الأجهـاض، والطالبـان في

أفغانستان، والذين أجدا أن لائحة قسوتهم، وخصوصًا نحو النساء، أكثر إيلامًا من أن تحصي.

وكنت أستطيع أن أمتدّ لإيران تحت حكم آيات الله، أو السعوديين تحت حكم أمراء آل سعود، حيث لا تستطيع النساء قيادة السيارة، ويقعون بمشاكل لمجرد خروجهم من المنزل بدون مرافقة ذكر من الأقارب (والذي قد يكون كمثال لكرم الأخلاق، طفلاً صغيرًا).

اقرأ جان غوديون ثمن الرعب الذي يفضح المعاملة المدمرة للمرأة في العربية السعودية وفي أمكنةٍ أخرى تحت الحكم الديني. جوهان هاري، أحد أظرف الكتاب في صحيفة الأندبندنت في لندن، كتب مقالاً عنوانه يشرح عن نفسه: «أفضل طريقة لتقويض الجهاديين تكون بدفع المرأة المسلمة للثورة».

لنعد للمسيحية.. أستطيع الإستشهاد بأنَّ أولئك المسيحيين الأمريكيين «المنتشين» لديهم نفوذ هائل على السياسة تجاه الشرق الأوسط ومحكومة باعتقاداتهم الإنجيلية بأنَّ إسرائيل لديها حق إلهي لكل الأرض في فلسطين. بعض هؤلاء المنتشين يذهب لأبعد من ذلك أملاً في حرب نووية لأنهم يفسّروها على أنها «الدينونة» والتي وبناء على تفسيرهم الغريب والمنتشر لدرجة مقلقة لكتاب الوحي، سوف تجعل قدوم الملخص الثاني، ولا أستطيع أن أكتب ملاحظات أفضل من التي كتبها سام هاريس في رسالة إلى وطن مسيحي:

«ولهذا السبب، فليس من المبالغة القول بأن نسبة لا بأس بها من الأمريكيين سينظرون البطانة الفضية في غيمة عش الغراب النووية إذا

تحولت نيويورك مثلاً إلى كرة من النار لأن هذا وحسب معتقدهم بأنَّ أفضل ما يمكن أن يحصل هو على وشك الحصول: عودة المسيح ويجب أن يكون واضح حتى للأعمى بأن إيمانًا بهذا الشكل لن يشكل مساعدة تذكر لخلق مستقبل صلب لنا، خصوصًا بما يتعلق بالاقتصاد والبيئة أو الجغرافية السياسية».

تخيل العواقب لو أن أي فئة من حكومة أمريكا تؤمن فعلاً بأن العالم على وشك الزوال وأن نهايته ستكون رائعة. أن الواقع بأن حوالي نصف الأمريكيين يبدو وكأنهم يؤمنون بذلك، وفقط لأسباب دينية يجب أن يعتبر كحالة طوارئ خطرة فيما يتعلق بالأخلاق والمعرفة.

إذن، هناك أناس ممن يأخذهم معتقدهم الديني مباشرة خارج حدود «روح العصر» الأخلاقية ويمثّلون ما سميته الجانب المظلم من الأحكام المطلقة الدينية، وغالبًا ما يطلق عليهم لقب المتطرّفين. ولكن نقطتي في هذا الفصل هي في أن المتدينين، وحتى المعتدلين واللطيفين، يساعدون في خلق جو الإيمان الديني والذي يزدهر فيه التطرف.

في عام 2005 صارت لندن ضحيةً لهجومٍ انتحاري: ثلاث قنابل في نفق المواصلات وواحدة في باص. لم يكن بسوءِ الهجوم على مبنيي التجارة العالمين في 2001 وبالتأكيد أكثر توقعًا بالحدوث (بالتأكيد، فلندن أصبحت مهددة بحادثة كتلك منذ اليوم الذي تبرع فيه طوني بلير بنا كرفسات إضافية غي مرغوب فيها في احتلال بوش للعراق).

رغم ذلك فقد روح الحادث إنكلترا، وامتلأت الصحف بتحليلات غير مُجدية عن ما الذي يدفع أربعة شباب لتفجير أنفسهم وقتل الكثيرين

من الأبرياء معهم. القتلة كانوا مواطنين بريطانيين عاديين، يلعبون الكريكيت، يتصرّفون بلطف، من الذين كنت لتستمع بصحبتهم.

لماذا فعل أولئك الشباب محبي الكريكيت ما فعلوا؟ بعكس نظائرهم الفلسطينيين، أو أنظارهم الكاميكاز اليابانيين، أو نمور التأميل في سريلانكا، فإن تلك القنابل البشرية لم يكن لهم توقعات بأنَّ عائلاتهم سيحتفي بها أو أنَّ أحدًا سيدفع لهم «تقاعد الشهيد» على العكس فبعض اقاربهم كان عليهم الهروب والإختباء. أحدهم ترك خلفه أرملة حامل ورضيع يتيم. أن تصرفهم لا يمكن أن يوصف بأقل من أنه كارثي وليس فقط لهم ولضحاياهم، بل لعائلاتهم ولكل الجالية المسلمة في انكلترا، والتي تواجه الآن ردة الفعل. الإيمان الديني فقط هو من القوة ليكون دافعًا لجنون مطلق في شخص سيكون عاديًا وطبيعيًا فيما عدا ذلك.

ومرة أخرى، سام هاريس يوضح النقطة بكلال مدرك، بأخذه اسامة بن لادن قائد منظمة من فيه؟ أن وصف بن لادن بالشرير هو محاولة للهروب من الإجابة الأمينة لهذا السؤال المهم.

«إن الإجابة على هذا السؤال واضحة ولو أنها وضعت من قبل بن لادن نفسه بحماس يدعو للغثيان. الإجابة هي في أن رجال أمثال بن لادن يؤمنون فعلاً بما يقولون بأنهم يؤمنون به. أنهم يؤمنون بحقيقة القرآن حرفيًا. لماذا بدل تسعة عشر شخصًا دارسًا ومن عائلات متوسطة حياتهم لأجل منفعة قتل الآلاف من جيراننا؟ لأنهم يؤمنون بأنهم سيذهبون للجنة مباشرة بعملهم ذلك. من النادر وجود سلوك إنساني يمكن تفسيره بشكل مرضي وكامل. لماذا نتردد في قبول تفسير كهذا؟».

المحـرر المحـترم موريـل غـراي، الـذي يكتـب في صحيفـة هيرالد في غلاسـكو، كتب في 25 تموز 2005 شـيئًا مشـابهًا وفي حالتـه كان الحديث عم حادثة لندن.

«لقد القي اللوم على الجميع، بدأ بثنائي الشر جورج بوش وتوني بلير، إلى تكاسـل «الجالية» الإسلامية. ولكن الموضوع لم يكن أكثر وضوحًا مما هـو الآن بـأن هنـاك مكانًا واحدًا لتلقـي اللوم عليه والأمر بهذا الشـكل. أن سـبب هذا البـؤس والفوضى والعنف والإرهـاب والجهل هو بالطبع الديـن نفسـه، وحتـى لو بدا لنـا بأنه من السـخف أن نوضح شـيئًا بديهيًا كتلـك الحقيقة، فإنَّ الواقع هو أن الحكومة والإعـلان يؤدون عملاً جيدًا بالتظاهر بأن الأمر ليس كذلك».

سياسيونا الغربيون يتفادون الإشارة للدين وبدلاً عنه يصفون حربهم ضـد «الإرهـاب». كما لو أن الأرهاب هو روح أو قـوة، وله أفكار وعقل خاص. أو أنهم يصفون الإرهابيين كما لو أنهم مدفوعون من قبل «الشر». ولكنهـم ليسـوا مدفوعين من قبل الـشر. ومهما كنا نظـن بأننا مخدوعون، فإنهـم مدفوعون، كما هو الحال في حال المسـيحيين قتلة أطباء الإجهاض، بـما يظنـون بأنه الحق، ويتبعـون بصدق ما يقوله دينهم. ليسـوا مجانين: بل أنهم مثاليين دينيين، ومن وجهة نظرهم، عقلانيين.

يأخـذون تصرفاتهـم علـى أنها جيدة وليس بسـبب خاصية شـخصية مشوهة، وليس بسـبب أنهم متلبسون من قبل الشيطان بل لأنهم قد تربوا من المهد؛ لأنَّ يكون لديهم إيمان ديني كامل لا يقبل النقاش.

سـام هاريس يقتبس من الفلسطيني الذي فشل بتفجير نفسه قوله بأن مـا دفعه لقتل الإسرائيليـين هو حبه للشـهادة... لم أرد الانتقام لأي شيء فقط أردت أن أصبح شهيدًا.

في 19 تشريـن الثـاني عام 2001 نـشرت صحيفة النيويوركـر.. مقابلة أجراهـا حسـان نصرا، انتحاري آخر فشـل في محاولته، شـاب فلسـطيني مؤدب عمره 27سنة رمز له «س».

إنَّ بلاغـة سـحر الجنـة وشـاعرية وصفها مـن قبل الزعـماء والمعلمين الدينيين المعتدلين جعلني أفكر بأنَّ أعطيها هنا مع بعض التفصيل:

سألته «ما هي الجاذبية للشهادة»؟

أجاب ؟قوة الروح ترفعنا للأعلى، بينما القوة المادية تجرنا للأسفل»

و أسترسـل قائلاً «أن المصمم على الشـهادة يصبح منيعًا ضد الأغراء المـادي. ومخطـط العملية سـألنا (ماذا لـو فشـلت العملية؟ فقلنـا له مهما حصـل فأننـا اليوم سـنقابل النبي والصحابة إن شـاء الله» ثـم اكمل «لقد كنا نسـبح في المشـاعر بأننا سـندخل الأبدية حالاً. لم يكن لدينا أي شـك، أقسـمنا على القرآن، وأمام الله قسـمًا لا رجوع عنه. هذا الالتزام الجهادي يدعـي بيـت الرضوان، وسُـمّي على أسـم الحديقة في الجنـة والمخصصة للنبي والشـهداء، أعرف بأن هناك طرقًا أخرى للجهاد ولكن هذه أحلى واحدة. كل العمليات الاستشـهادية عندما تؤدي في سـبيل الله، ألمها أقل من عضة بعوضة».

عـرض عليّ فيديو وثائقيًا عن المخطّطـات النهائية للعملية. ورأيته مع اثنين آخرين يتحاورون بأسئلة وأجوبة عن الظفر بالشهادة.

بعد ذلك ركع الشباب ومعهم راسم المخطط للعملية ووضعوا يدهم اليمنى على القرآن. وقال المخطط: «هل أنتم جاهزون؟ غدًا ستكونون في الجنة؟»

لو كنا أنا «س»، فستعتريني الرغبة بأن أقول المخطط، حسنًا، في هذه الحالة، لماذا لا تضع نفسك عند كلامك؟ لماذا لاتؤدي العملية الإنتحارية وتأخذ الطريق السريع للجنة؟ ما هو عصي على فهمنا هو وأكرّر النقطة لأنها مهمة جدًا، إنَّ هؤلاء يؤمنون فعلاً بما يقولون إنهم يؤمنون به. والعبارة يجب أن تبقى معنا هي بأنَّ علينا أن نلوم الدين نفسه.

وليس التطرّف الديني كما لو أنه صنف مرعب من النشوز عن الدين المحترم. لقد أصاب فولتير من زمن بعيد: «هؤلاء الذين باستطاعتهم أن يجعلوك تصدق اللامعقول يستطيعون دفعك لارتكاب المظالم» وأيضًا برتراند راسل: الكثيرون يموتون قبل أن يفكروا، أنهم يفعلون ذلك بالواقع».

ما دام إننا نقبل أن نحترم الإيمان الديني فقط لأنه إيمان ديني، سيكون من الصعب أن نسحب الاحترام من إيمان أسامة بن لادن والانتحاريين. البديل، بشفافية لا تحتاج لأي توضيح، أو إهمال مبدأ الاحترام الأوتوماتيكي للإيمان الديني. وهذا سبب من الأسباب التي تجعلني أفعل كل ما بوسعي لأنبّه الناس ضد الإيمان الديني بحد ذاته، وليس فقط ضد ما يسمى الإيمان المتطرّف». إنَّ نشر تعاليم «الدين المعتدل»، برغم أنها ليست متطرفة بحد ذاتها، هي دعوة مفتوحة للتطرف.

ربما يقال بأنه ليس هناك أي خصوصية للإيمان الديني هنا. الوطنية وحب الوطن أو الجماعة العرقية يمكن أن تكون مهدًا حاميًا لنوعها

الخاص من التطرّف، أليس كذلك؟ نعم، يمكنها ذلك، كما حصل من الكاميكاز اليابانيين ونمور التأميل السريلانكيين ولكن الأمان – الدين، هو كاتمٌ فعّال خصوصًا للحسابات العقلانية. والتي عادة تتفوق على كل العوامل الأخرى وذلك غالبًا كما أظن بسبب الوعود البسيطة والخادعة بأن الموت ليس هو النهاية، وأن هناك جنة شهداء خاصة وعظيمة وأيضًا لأنَّ التدين يثبط من التساؤل وذلك بطبيعته الذاتية.

المسيحية، تمامًا كالإسلام، تعلم الأطفال بأنَّ عدم التساؤل في الإيمان هو شيء قيم. لا يجب عليك أن تتحقق مما تؤمن به. وعندما يعلن أحد ما بأن شيئًا ما هو جزء من إيمانه، فإنَّ بقية المجتمع، سواء كانت مؤمنة بأنفس الشيء، أو بشيء مختلف، أو بلا شيء، مجبرة، وبشكل تقليدي مرروعة، أن «تحترم» ذلك بدون أي سؤال: احترام يمتد حتى الوقت التي يكشف الإيمان فيه عن نفسه بمجزرة مرعبة كما في تدمير ابراج التجارة أو حادثة لندن أو مديد. وعندئذٍ سيكون هناك جوقة عظيمة من الملتحقين، كرجال الدين و«قواد الجاليات» (بالمناسبة؟ من الذي انتخبهم؟) يصطفون لشرح أن هذا التطرف هو نشوز عن الإيمان «الحقيقي». ولكن كيف يمكن أن يكون هناك نشوز عن الإيمان، بينما الإيمان نفسه منقوص البرهان، ولا يعرض أسسًا لمعرفة النشوز؟

منذ غشر سنين، ابن وراق في كتابه الممتاز لماذا لست مسلمًا، عرض نقطة مشابهة من وجهة نظر لدارس عليم بعمق للإسلام والبديل الجيد لعنوان الكتاب ربما يكون أسطورة الإسلام، والذي هو عنوان مقال أحدث في مجلة سبكتاتور في لندن عدد 30 تموز 2005 كتبه دارس آخر هو باتريك سوكديو، مدير كلية الدراسات الإسلامية والمسيحية». مع أنَّ

غالبيةَ المسلمين يعيشون حياتهم اليوم بدون اللجوء للعنف، مع أن القرآن خليط من المختارات، لو أردت السلام، فهناك آيات سلمية، وإن أردت الحرب، فستجد آيات عدوانية».

سوكديو يمضي بشرح كيف طور علماء الإسلام، ليدوروا حول التناقضات العديدة في القرآن، مبدأ الناسخ والمنسوخ، حيث أن النصوص المتأخرة تلغي النصوص المبكرة، إنَّ الآيات السلمية في القرآن معظمها، مبكر وتاريخها يعود إلى الوقت الذي كان فيه محمد في مكة وآيات المحارب تاريخها متأخر، بعد أن طار إلى المدينة والنتيجة:

«إن الكلمة السحرية «الإسلام سلام» بطلت منذ حوالي 1400 سنة. وفقط لمدة 13 عامًا كان الإسلام سلامًا ولا شيء غير السلام. ولكن بالنسبة للمسلمين المتعصبين كما هو الحال عند حكام القرون الوسطى والذين طوروا الإسلام التقليدي فإنه من الأصح أن يقال «الإسلام هو الحرب». واحد الأحزاب الإسلامية الاكثر تعصبًا في إنكلترا «الغرباء» صرح في الصحوة بعد تفجيرات لندن «أي مسلم لايعترف بأن الإرهاب هو جزء من الإسلام يعتبر كافرًا» والكافر يعني غير المسلم هي كلمة تعد إهانة كبيرة للمسلم طبعًا».

قد يفكر البعض بأن يكون هؤلاء الذين نفذوا العمليات الإنتحارية ليسوا جزءًا من المجتمع الإسلامي في بريطانيا، ويتبعون التفسير المتعصب للإسلام، ولكنهم حقيقة كانوا جزء من صميم المجتمع الإسلامي ومدفوعين من التفسيرات الشائعة للإسلام؟»

وبشـكل عـام (و هـذا ينطبق علـى المسـيحية تمامًـا كما هو الحـال مع الإسـلام)، فالخطر الحقيقي في الموضوع يكمن في أن الأطفال يتم تلقينهم بأنَّ المعتقد بحد ذاته هو ميزة جيدة. أن المعتقد شر بحد ذاته لأنه لا يتطلب أي تبريـرات أو أدلـة. أن تدريـس الأطفال بأن الإيمان بدون سـؤال ميزة بحـد ذاته يوفّـر أرض خصبة وبوجـود عناصر أخرى ليـس من الصعب توفيرهـا كـي يصبحـوا أدوات قتـل جاهـزة للجهاديـين أو الصليبيين في المسـتقبل. أن المناعة ضد الخوف بسـبب الوعود بجنة الشـهداء تجعل من الإيمان الديني يستحق عالية في تاريخ السلام، جنبًا إلى جنب مع القوس، والخيـل والدبابة والقنبلة العنقودية. لو درس الأطفال بأن يتسـاءلوا وأن يفكروا حـول منطقية إيمانهم، بدلاً من تعليمهم بأن القيمة العالية للإيمان هـي الإيـمان بـدون سـؤال، فالرهان سـيكون جيـدًا بأنه لن يكـون هناك انتحاريـون. الإنتحاريـون يفعلـون مـا يفعلـوه لأنهم يؤمنـون بصدق ما درسـوه في مدرسـة الدين: بـأنَّ واجباتهم تجـاه الله تسـبق كل الأولويات الأخرى، وإن الشـهادة سـتكافأ في جنان الجنة. وليـس من الضروري أن يكـون قد درسـوا هذا على يدي متطرف متعصـب، بل ربما تحت إشراف رجل محترم، لطيف، مدرس دين عادي، يصفهم في المدرسـة جالسـين في الصفـوف يهزون رؤوسـهم البريئة بشـكل ايقاعي بينـما يتعلون كل كلمة من الكتاب كالببغاوات. الإيمان يمكن أن يكون خطرًا جدًا جدًا، وزرعه بشـكل مدروس في العقول البريئة السـهلة المنال للأطفـال خطأ كبير. بل أنه خطأ بحق الطفولة نفسـها، وننتقل انتهاك حقوق الطفولة إلى الفصل الآتي.

الفصل التاسع

الطفولة

الاعتداء والهروب من الدين

«في كل قرية توجد شعلة - المعلم
ويوجد من يطفأها - رجل الدين».

- فيكتور هوغو

سأبدأ بقصة قصيرة من القرن التاسع عشر في إيطاليا. لا أقصد هنا بأنَّ قصة مرعبة كهذه يمكن أن تحصل اليوم. ولكن الموقف العقلي الذي تنئنا عنه لا يزال متداولاً وللأسف، حتى وإن كانت التفاصيل العملية ليست كذلك. إنَّ تلك المأساة الإنسانية من القرن التاسع عشر تلقي الضوء وبدون رحمة على المواقف الدينية الحالية للدين حيال الأطفال.

عام 1858 أخذ إدغاردو، طفل في السادسة من العمر لأبوين يهوديين، عنوة بالقانون من البوليس البابوي بأمر من المحققين. إدغاردو أخذ بالقوة من أمه التي تشهق بالبكاء ووالده المذهول إلى الكاتشومين (البيت المخصّص لتحويل المسلمين واليهود للمسيحية) في روما، ومن وقتها تربّى على مذهب الروم الكاثوليك. وعدا من بضعة زيارات مراقبة بشدة من قبل الرهبان، لم يستطع أهله رؤيته، القصة رواها دافيد كرويتزر في كتابه المميز، اختطاف إدغاردو مورتارا.

قصة إدغاردو لم تكن بشكل من الأشكال غير عادية في إيطاليا في ذلك الوقت، والسبب في ذلك الاختطاف الرهباني كان هو نفسه دائمًا. وفي كل حالة، كان الطفل يعمد بشكلٍ سرّي في يوم سابق، وعادة من قبل مربة كاثوليكية، ويسمع المحققون بموضوع العماد. وكان من أحد الأمور المركزية في النموذج الإيماني وقتها، بأنه بمجرد تعميد الطفل، وكيفما تم الموضوع بشكل غير رسمي أو سري فإن الطفل قد تحول بلا رجعة إلى مسيحي.

وفي عالمهم العقلي فإن السماح لـــــ «طفل مسيحي» بالبقاء مع أبوين يهوديين لم يكن خيارًا واستمروا في تلك المواقف الغريبة والقاسية بصمود، وبكل إخلاص في وجه كل الاعتراضات الهائجة في العالم. وذلك الهيجان،

على فكرة قد نفته الصحيفة الكاثوليكية سيفيلتا كاتوليكا وعزته لسلطة اليهود الأغنياء، يبدو مألوفًا أليس كذلك؟ وبغض النظر عن الدعاية أتى نشأت، فإنَّ قصة إدغاردو مورتارا برمتها قصة نموذجية وأمثالها كثيرات. مرة تولّت رعايته أننا موريسي، فتاة جاهلة كاثوليكية كانت في الرابعة عشر من عمرها انذاك. ومرض الطفل وارتبكت الفتاة لخوفها من أن يموت. وربما أنها تربت على الفكرة بأنَّ الطفل الذي يموت بغير عماد سيعاني في جهنم للأبد، فقد سألت النصيحة من جار كاثوليكي والذي علمها كيفية اجراء العماد. فعادت إلى المنزل ورشت بعض الماء من سطل على رأس الطفل ادغاردو وقالت: أعمدك باسم الأب والابن والروح القدس». وهذا كان كل شيء ومنذ تلك اللحظة أصبح إدعاردو مسيحيًا رسميًا وعندما سمع خوارنة التحقيق بالحادثة بعد أعوام، تصرفوا فورًا وبشكل حاسم، ولم يعطوا أي تفكير للنتائج المأساوية لتصرفهم.

ومن المدهش بأنَّ طقسًا كهذا يمكن أن يؤثر بشكل عظيم على كل العائلة، وأنَّ الكنيسة الكاثوليكية تسمح (ولا تزال تسمح) بأن يعمد أي شخص من قبل أي شخص آخر. المعمدان لا يجب أن يكون قسيسًا. ولا يحتاج الأمر لموافقة من الطفل أو من أي من أفراد عائلته أو أي أحد آخر. لا شيء للتوقيع. ولا يحتاج الأمر لأي شهود. كل ما هو ضروري هو رشة من الماء وبعض الكلمات وطفل لاحيلة له، ومربية مغسولة الدماغ بالغيبيات.

الواقع، أن تلك الأخيرة هي الوحيدة الضرورية الوجود، بفرض أن الطفل صغير جدًا ليشهد، فمن سيدري؟ أحدى الزميلات الأمريكانيات التي تربت على الكاثوليكية كتبت لي ما يأتي: «كنا نعمد العابنا، ولا أذكر

أحدًا منا عمد أحد اصدقائنا البروتستانتيين ولكني متاكيد من أن ذلك قد حصل ويحصل اليوم. لقد جعلنا من العابنا كاثوليكيين صغارًا، أخذناهم للكنيسة وعملنا لهم أول مناولة. لقد كان دماغنا مغسولاً لنصبح أمهات كاثوليكيات جيدات في وقت مبكر جدًا».

لـو أن فتايات القرن التاسـع عشرًا كان مثل زميلتـي، فإنه من المفاجئ بأنَّ قضايا مثل إدواردو مورتارا لم تكون شـائعة أكثر مما كانت فعلاً. وكما كان الوضـع، فـإنَّ قصصًا كتلك كانت شـائعة بشـكل مزعـج في إيطاليا القرن التاسع عشر، والتي تتركنا مع السؤال البديهي. لماذا استخدم اليهود في دولة البابوية بنات كاثوليكيات كخادمات، مع العلم بالمخاطرة الناتجة عن الموضوع؟ لماذا لم يحرصوا على توظيف مسـتخدمة يهودية؟ الجواب، مرة أخرى، ليس له علاقة بالمنطق بل متعلق بالدين كليًا. اليهود احتاجوا الخادمـات ممـن لا يمنعهـم دينهم من العمل يوم السـبت. مـن المؤكّد أنه يمكن الثقة بأن المسـتخدمة اليهودية لن تعمد الطفل وتجعله يتيم روحي. ولكنها لن تشعل نارًا أو تنظف بيتًا يوم السبت ولهذا السبب فإن العائلات اليهودية التي تستطيع تأمين خادمة في بولون، اختاروا الكاثوليكيات لهذا العمل.

وفي هـذا الكتـاب تراجعت عامدًا عـن تفصيل الرعب الـذي ارتكبه الصليبيون، ومحاكم التفتيش الإسـبانية بالإمكان وجود أشرار وقساوسة في كل بلد وفي كل فرصة. ولكن هذه القصة عن المحاكم الإيطالية وموقفها حيال الأطفال مثال علمي يكشـف لنا العقل الديني، والشر الذي يحصل بشـكل خاص بسـبب الأديان. أولاً الاعتبار الديني الغريب بأن رشة ماء وبعض جمل الشفوية يمكن أن تغير بشكل حياة الطفل بشكل كلي، ويأخذ

أولوية على موافقة الأهل، وحتى موافقة الطفل نفسه، وسعادته وصحته العقلية... بل على كل شيء يميله المنطق العادي الشائع وما يراه الشعور الإنساني كشيء ضروري.

الكاردينال انتونيللي قالها علنًا وقتها في رسالة إلى ليونيل روتشيل، أول عضو برلمان يهودي في بريطانيا، والذي كتب محتجًا على قضية اختطاف ادواردو. أجاب الكاردينال بأنه لم يستطع التدخل، وأضاف «ربما تلك فرصة للملاحظة، لو أن صوت الطبيعة قوي فإن صوت الواجبات الدينية المقدسة أقوى». حسنًا، تلك المقولة هي كل شيء تقريبًا، أليس كذلك؟

ثانيًا فإن الواقع الغير عادي بأن القساوسة، والكاردينالات والبابا يبدون وكأنهم لا يفهمون بشكل عام الرعب الذي يحدثونه لأدواردو مورتارا يأتي ثانيًا. ذلك يتجاوز كل الأحاسيس المفهومة، ولكنهم يؤمنون بصدق بأنهم يفعلون الخير له بأخذه من أهله، وإعطائه تربية مسيحية. يشعرون بواجب الحماية!

إحدى الصحف الإمريكية دافعت عن موقف البابا في قضية موربارا، وحجتها كانت بأنه من غير المعقول لحكومة أن «تترك طفلاً مسيحيًا ليربيه اليهود» ويستخدمون هنا مبدأ الحرية الدينية أن حرية الطفل في أي يكون مسيحيًا ولا يجب الزامه بأن يكون يهوديًا.. حماية الأب المقدس للطفل، في وجه كل شراسة التطرف للكفار والمعصبين، هو الإستعراض الاكبر للأخلاقيات التي رأها العالم منذ أجيال». هل يوجد تضليل صارخ لاستعمال كلمات مثل «الزام»، «إجبار»، «شرس»، «متطرف» و«متعصب» اكثر من ذلك؟ رغم ذلك فكل المؤشرات تشير لأن الملتزمين

الكاثوليكيين، من البابا وهلمَّ جرّا، يؤمنون بصدق بأنه ما كانوا يفعلونه صحيح: صحيح بشكل مطلق فيما يتعلق بالأخلاق، بالإضافة إلى ما يتعلق بسلامة الطفل. تلك هي قوة (الأغلبية، المعتدلة* الدين التي تضعي على الحكم المنطقي وتسبب نشاز الأمانة الإنسانية. أن صحيفة الكاتوليكو صرحت بحيرتها حول السبب الذي يجعل الغالبية تفشل في رؤية حجم المعروف الذي ادته الكنيسة لإدواردو مورتارا عندما انقذته من عائلته اليهودية:

«لو أن أيًا منا فكر بهذا الأمر بجدية للحظة، وقارن ظروف اليهود بدون كنيسة حقيقة بدون ملك وبدون وطن، متفرقين ويعتبرون غرباء أينما كانوا على وجه الأرض، بل أكثر من ذلك، مكروهين أيضًا للوصمة البشعة التي قتلوا بها المسيح... سيفهم فورًا الميزة الكبية التي من بها البابا على مورتارا الصبي».

ثالثًا يأتينا هنا القناعة الدينية للناس بمعرفتهم، وبدون أي دليل، بأنَّ الإيمان الذي ولدوا عليه هو الإيمان الصحيح، وكل شيء آخر هو انحراف أو خطأ بالتاكيد. إنَّ الاقتباس أعلاه يعطينا مثالاً حيًا عن موقف الطرف المسيحي. وربما يبدو من الجور أن نساوي بين الطرفين في هذه القضية، ولكنه الوقت المناسب لنلاحظ بأنَّ عائلة مورتورا كانت لتستطيع استرداد إدواردو بلحظة، لو أنهم قبلوا بعرضِ القسس ووافقوا على أن يعمدوا شخصيًا. لقد سرق إدواردو بسبب رشّة ماء ودزينة من الكلمات عديمة المعنى. تلك هي حماية العقول الملقنة بالدين، رشتان من الماء هما كل شيء يحتاج المرء لعكس الحكم. بالنسبة لبعضهم رفْض الآباء يشير إلى العناد الطائش وللآخرين يبدو بأنَّ

المبدأ يدخل في لائحة طويلة من الاستشهاديين من أجلِ الأديان عبر الأجيال.

«لتكن مطمئنًا سيد ريدلي كن رجلاً: بإذن الله سنشعل شمعة بيومنا هذا في إنكلترا، وأثق بأنه لن تطفأ أبدًا». لا شك بأن هناك أسبابًا تجعل الموت في سبيلها نبلا. ولكن كيف يمكن للشهداء ريدلي، لاتيمر وكرامر أن يتركوا أنفسهم يحرقون بدلاً عن ترك التزامهم بالأقلية البوتستانتية لمصلحة الأكثرية هل يهم من أي طرف تفتح البيضة المسلوقة؟ هذا هو العناد أو الإعجاب إذا كانت تلك وجهة نظرك العقلي للقناعة الدينية، لدرجة أنَّ الشهداء لم يستطيعوا أن يستغلّوا الفرصة المعروضة عليهم للتعميد.

ألم يكن باستطاعتهم الضغط على أنفسهم والهمس بكلمة «لا» أثناء تعميدهم؟ لا، ذلك لأنهم تربوا في وسط متدين (معتدل) وأخذوا الأحجية السخيفة بشكل جدي. بالنسبة لي أعتقد بأن المسكين إدواردو الصغير ولد بدون رغبته في عالم يسيطر عليه العقل الديني، منحوس في تقاطع نيران، أو أي شيء آخر غير أنه تيتم بفعل حصل بنية طيبة، ولكن بالنسبة للطفل، فتلك قساوة مدمرة.

رابعًا، ولمتابعة نفس الفكرة، الافتراض بأنَّ طفلاً في السادسة يمكن أن يقال عنه بأن له دين، سواء كان يهوديًا أو مسيحيًا أو أي شيء آخر، ولنضع الفكرة بشكل آخر، إنَّ الفكرة من التعميد لطفل بدون علمه أو فهمه للموضوع يستطيع تغييره من دين لآخر في لحظة، يبدو سخيفًا. ولكن ليست أسخف من وصمِ طفل بتبعية لأيٍّ من الأديان في المقام الأول.

ما كان مهمًا في حالة إدواردو لم يكن «دينه» (لأنه كان صغيرًا جدًا على امتلاك رأيه الديني الخاص) ولكنه العطف والاهتمام من عائلته وأصبح محرومًا منه بسبب قسيسين عزاب لا يتفوق على وحشيتهم المشوهة إلا بلادتهم وعدم حساسيتهم لشعور الإنسان الطبيعي، عدم الحساسية ذاك يأتي بسهولة لعقول اختطفها الإيمان الديني.

وحتى بدون الإختطاف الجسدي، أليس نوعًا من إيذاء الطفولة أن نصم الأطفال بأن لديهم أيمانًا هم في الحقيقة أصغر من أي يفكروا به؟ رغم ذلك فإنَّ تلك الممارسة تستمر حتى يومنا هذا، وتقريبًا بدون أي تساؤلات والتساؤل عن هذا الموضوع بالذات هو هدفي الأساسي في هذا الفصل.

الاعتداء الجسدي والنفسي:

عندما نتحدث عن اعتداء الكَهَنَة على الأطفال يتصوّر الكثيرون في أيامنا هذه بأننا نتحدث عن اعتداء جنسي النوع، وأشعر بأني مجبر من البداية على أن أضع موضوع الاعتداء الجنسي في مكانه وخارج الطريق. آخرون لاحظوا بأننا نعيش في زمن هيستيري فيما يتعلق بالشذوذ نحو الأطفال، (الغلمانية) هذه الهستريا الجماعية تذكرنا بشكل أو بآخر بظاهرة مطاردة الساحرات في أوروبا العصر الوسطى.

في مدينة سالم عام في تموز عام 2000 نظمت صحيفة أخبار العالم، التي تعد برغم المنافسة، الصحيفة الإكليزية الأكثر إثارة للقرف، مسابقة أسمها «اسم وعار»، والتي قامت بها يشبه تحريض الناس على الهجوم على الشاذين جنسيًا. وهُوجم مستشفى الأطفال من قبل متطرفين لا

يعرفون الفرق بين طبيب الأطفال والشاذ تجاه الأطفال (كلمتان فيهما بعض التشابه بالإنكليزية، المترجم). الغوغاء الهستيرية نحو الشاذين جنسيًا وصلت لأبعاد وبائية والأهالي شعروا بالرعب. إنَّ الأطفال اليوم ممنوعين من حرية التجول بحرية كالتي كانت من متع الطفولة في الماضي (عندما كان خطر التحرش الفعلي، ربما ليس أقل من الخطر المحسوس حاليًا).

للإنصاف فإنَّ أخبار العالم في الوقت الذي طرحت فيه تلك الحملة، كانت المشاعر متأججة بسبب جريمة مروعة، وبدافع جنسي، ارتكبت بحق طفلة في الثامنة حيث اختطفت في مقاطعة سوسكس. وبالرغم من ذلك فإنه من الخطأ الواضح بأن الجور بحق الشاذين جميعهم من القلة الذين هم قتلة إضافة لشذوذهم. المدارس الثلاث التي درست فيها الابتدائية كانوا يوظفون أساتذة بمودة للصغار تتعدى حدود صلاحياتهم. وهذا في الحقيقة يجب أن يكون داعيًا للتعنيف. رغم ذلك لو أنهم، وبعد خمسون عامًا، هوجموا من قبل أشرار أو محامون بشكل ليس أفضل من قتلة الأطفال، ساكون مجبرًا لأن ادافع عنهم، حتى ولو كنت ضحية أحدهم في وقت ما (موضوع محرج وفيما عدا ذلك كان تجربة عديمة الأذى).

لقد حملت الكنيسة الكاثوليكية حملاً ثقيلاً من العار ذي الأثر الرجعي. ولأسباب عديدة فأنا لا أحب الكنيسة الكاثوليكية. ولكني لا أحب الظلم بدرجة أكبر. ولا أستطيع إلا التساؤل عمّا إذا كانت تلك المنظمة قد تحملت سوء السمعة بشكل غير عادل فيما يتعلق بهذه القضية، وخصوصًا في أمريكا. إنَّ الاستياء من الكهنة المنافقين والذين مهمتهم في

الحياة تتخلص في تعظيم الشعور بالذنب من أجل «الخطايا». وبعد ذلك تـأتي الخيانـة للثقة من قبل شـخص ذو مركز، والذي تـدرب الطفل على توقيره من نعومة أظفاره. إنه اسـتياء إضافيًا يجب أن يجعلنا أكثر حذرًا من أن نسـارع في حكمنا. وعلينا أن ندرك قدرة العقل على إعداد الذكريات السيئة خصوصًا عندما يكـون هناك معالجون عديمـي الضمير ومحامون جشـعون. إنَّ العالمة النفسـية أليزابيت لوفتوس بدت شجاعة عظيمة، في وجه 1996 المصالح الشخصية الحقودة، عندما شرحت كم هو من السهل علـى النـاس أن يعدوا ذكريات كاذبـة تمامًا ولكن تبدو بالنسـبة للضحية وكأنها صحيحة تمامًا كما لو كانت في ذاكرته.

هذا مضاد للحدس الذي تهتز له هيئة المحكمين بسـهولة وصدق بينما هو تلفيقة مزورة من الشـاهد. في تلك الحالة الخاصة في إيرلندا، وحتى لو لم يكـن هناك إيذاء جنسي، فإنَّ عنف الأخوة المسيحيين، المسـؤولين عن تعليم قسـم كبير من ذكور البلد، أسـطوري ونفس الشيء يمكن أن يُقال عـن الراهبات السـاديات اللاتي يدرْنَ العديد من مـدارس البنات. ملجأ ماجدالـين، كريه السـمعة، الـذي كان موضوع فيلم بيتر مـولان أخوات ماجدالينا، استمر حتى عام.

لمدة أربعـين عامًا من الأصعب أن تأخذ تعويضًا عن الجَلْدِ عن أَخْذِك تعويضًا عن الأذية الجنسـية، وليس هناك نقص بعدد المحامين الناشـطين بالالتماسـات من الضحايـا الذين ما كانوا ليأبهون بالمـاضي البعيد. ففيهم يوجد ذهب يسـتطيعون تحسسـه، بالتأكيد، لكن ذلك يأخـذ وقتًا لدرجة أن المدعي يمكن أن يموت بدون إمكانية أن يصل حتى لأن يحكي القصة من وجهة نظره. الكنيسـة الكاثوليكية دفعـت أكثر من مليار دولار حول

العامل كتعويضات. ربما أنك تتعاطف معهم حتى الوقت الذي تتذكر فيه مصدر تلك الأموال في المقام الأول.

مرة بعد محاضرة في دبلن ووقت طرح الأسئلة، سئلت عن رأيي في الإنتشار الشعبي لقضايا الإيذاء الجنسي من قبل القسس الكاثوليكيين في إيرلند. أجبت بالرغم من عدم الشك في رعب الأذى الجنسي، فإنَّ الأذى الذي ألحقه ربما أقل من الأذى النفسي وعلى المدى الطويل والذي يحدث جراء التربية الكاثوليكية في المقام الأول، كانت عبارة آنية خرجت في حرارة اللحظة، وفوجئت بالحقيقة بأنها استقبلت بالتصفيق الحماسي من الجمهور الإيرلندي (واعترف، إنه كان مؤلفًا من نخبة معرفية في دبلن ولا يمكن اعتبارهم ممثلين للبلد بشكل عام). وقد ذكرت بتلك الحادثة لاحقًا عندما وصلتني رسالة من امرأة أمريكية في الأربعينات تربّتْ بطريقة الروم الكاثوليك.

قالت بأنها عندما كانت في السابعة من عمرها، مرّتْ بحادثتين غيرِ سعيدتين، تلقّتِ الأذى الجنسي على يدى القسيس في سيارته و.. تقريبًا في الفترة ذاتها، ماتت فتاة صغيرة صديقة لها في المدرسة وذهبت لجهنم لأنها كانت بروتستانتية. أو أن كاتبة الرسالة دفعت لتصديق ذلك من قبل التلقين الرسمي للكنيسة التي تنتمي عائلتها إليها. نظرتها كبالغة كانت، بأنه بمقارنة الأذى الذي ألحقته الحادثتان بها، الأول الجسدي ولا آخر المعنوي، كان الثاني يفوق الأول بكثير، فقد كتبت:

«كوني تأذيت من القسيس ترك في الإطباع (بالنسبة لفتاة بسبعة سنين) يشبه «القرف» ولكن ذكرى صديقتي تذهب للجحيم كان شعورًا باردًا، مع خوف لا يقاس. لم أتأرق ليلة واحدة بسبب حادثة القسيس، ولكني

قضيت ليال من الرعب أفكر بأنَّ أنـاس أجدهم يذهبون للجحيم. كنت أرى كوابيسًا».

يجب الاعتراف، بأنَّ الملاطف الجنسية التي عانتها في سيارة القس كانت خفيفـة بالمقارنة مع، مثـلاً الألم والقرف لطفل مغتصب. وفي أيامنا هذه لا تتكلـم الكنيسـة الكاثوليكية عن الجحيـم بكثرة كما فعلت سـابقًا. ولكن المثال يرينا بأن الأذى النفسي يمكن أن يتجاوزَ الإيذاء الجسدي. يقال بأن الفريد هتشكوك، المخرج العظيم المتخصص في فن تخويف الناس، كانت مرة يقود سـيارته عبر سويسرا عندما أشار فجأة عبر زجاج السيارة قائلاً: هذا هو أكثر المشاهد رعبًا مما شاهدت حتى الآن». كان عبارة عن قسيس يتكلم مع طفل صغير. ويده على كتف الصبي. هيتشـكوك أخرج رأسـه من نافذة السيارة وصرخ: «اركض أيها الولد، انجُ بحياتك».

«العصى والحجارة يمكن أن تكسر عظامي، ولكن الكلمات لا يمكن أن تؤذيني». هذا المثل صحيح ما دام أنك لا تؤمن بصحة الكلمات. ولكن حـال أن تربيتـك كلها، وكل ما قيل لك من الأهل، والأسـاتذة والكهنة، جعلتك تؤمن وبشـكل حقيقي وكامل بأن المذنبين يحرقون في الجحيم (أو أي شيء آخـر متزمّـت من التلقين مثل كون المرأة ملـك لزوجها، فإنه من الممكـن تمامًـا أن يكـون للكلمات أثر مسـتمر ومؤذ اكثر مـن الأفعال. أنا مقتنع بأن العبارة «ايداء الطفولة» ليس فيها مبالغة عندما تكون في وصف ما يفعله المعلمون والكهنة بالأطفال وتشجيهم على الإيمان بشيء مثل أن عقوبة عدم الاعتراف بالذنوب هي الجحيم الأبدي.

في المسلسـل الوثائقي جذرة الشر؟ والذي نوهت عنه سـابقًا، أجريت مقابـلات عـدة مع زعـماء للتديـن وقوبلـت بالنقـد لأنني اخـترت أحد

الأمريكيين المتطرفين وليس أجد العموم من القادة المحترمين مثل رؤساء الأساقفة. يبدو وكأنه نقد في محله باستثناء أنه في بداية القرن الواحد والعشرين في أمريكا، ما يبدو متطرفًا للعالم الخارجي، هو الشائع فعليًا. أحد من أجريت معهم مقابلة والذي روع جمهور بريطانيا، كمثال كان الباستور تيد هاغارد من كولورادو سبرينغ. ولكن بعيدًا عن كونه متطرفًا في أمريكا وقت بوش. «الباستور تيد» هو رئيس الهيئة الكنيسة الوطنية للإنجيليين التي لها ثلاثين مليون تابعًا. ويزعم بأنه حظي بمشاورة تلفونية مع الرئيس بوش كل يوم اثنين. ولو أردت أن أجري مقابلة مع متطرف حقيقي بمعايير أمريكا العصرية، لكان على أن أقابل أحد هؤلاء الذين يدعون للسلطة الدينية بشكل علني، كما إنَّ زميلاً أمريكيًا قلقا كتب لي:

«الأوروبيون يحتاجون لمعرفة بأن هناك عرض متنقل انزويين بالدين والذين فعلاً يدعون لإعادة قانون العهد القديم للعالم قتل الشاذين جنسيًا إلخ.. وأن الحق في مكاتب الدولة وحتى حق الانتخاب، يجب أن يكون للمسيحيين وحدهم. إنَّ الطبقة المتوسطة تفرح بتلك الخطابات، وبدون أن يتيقظ العلمانيون، سيكون هؤلاء المنادون بالسيادة وإعادة البناء هم الطرف الغالب في دولة أميركا الدينية».

شخص آخر كان ممن أجريت معهم مقابلة في البرنامج كان الباستور كينان روبرتس، من ولاية كولورادو مثل الباستور تيد. باستور روبرتس له نوعه الخاص من الجنون الذي هو عبارة عما يسميه بيت الجحيم.

بيت الجحيم هو مكان يأتي الأطفال إليه مصحوبين من أهاليهم أو مدارسهم المسيحية، ليتم تخويفهم بشكل غبي مما يمكن أن يحدث لهم بعد أن يموتوا.

ممثلـون يلعبـون أدوارًا ولوحـات عـن بعـض أنـواع «الخطايـا» مثـل الإجهـاض والمثليـة الجنسـية، مع شـيطان يرتدي القرمزي يحظي بشـهاتة الحضور. تلك مقدمة لـــــــ (مقطوعة المقاومة).

أمـا الجحيم، مصحوبة برائحة الكبريت وصيـاح المعاناة من الملعونين للأبد.

بعد أنّ شاهدت العرض، والذي بدا فيه الشيطان بشكل شرير في زي أشـبه ما يكـون بوغد في مسرحية درامية من العـصر الفيكتوري. أجريت مقابلـة متع الباسـتور روبرترس بوجـود المثليين. قال لي بـأنّ العمر المثالي للأطفال من زوار بيت الجحيم هو أثنى عشر عامًا. صدمني ذلك لوهلة، وسـألته عـما إذا كان يقلقه أن يعاني طفـل في الثانية عشرة من كوابيس بعد رؤيته للإستعراض وجوابه كان أمينًا كما افترض:

«أفضل أن يفهموا بأنَّ الجحيم هو المكان الذي لا يريدون الذهاب إليه اطلاقًا والأفضل أن أصل إليهم برسـالتي وهم في الثانية عشر عن إلا تصل لهم وأتركهم يعيشون حياة الخطايا وأضاعتهم للرب المسـيح. وإنْ سـبَّب ذلك لهم الكوابيس، كنتيجـة لتجربتهم هذه، فأعتقد بأنهم هناك سـوف يحصلون على ما هو أكبر بكثير من مجرد كوابيس بسيطة».

افترض هنا، بأنك لو كنت فعلاً تؤمن بما يقول الباسـتور روبرتس أنه يؤمن به، فأنت أيضًا ستجد أنه من الصحيح أن تخيف الأطفال.

لا يمكننا شـطب الباسـتور روبرتـس واعتداده متطرفًـا مجنون، ومثل تيد هاغارد، فهو ينتمي لاتجاه العام في أمريكا اليوم. حتى أنهم سـيؤيدون

الفكرة الإيمانية لبعض اقرانهم في الدين والذين يصغون الصوت الملعونين عندما يصغون لإنفجار بركان، وإنَّ الدودة الأنبوبية العملاقة في قاع المحيط الحار هي من النبوءات في إنجيل مرقص 9:43:4 وإذا أعثرتك يدك فأقطعها خير لك أن تدخل الحياة أعرج من أن تكون لك رجلان وتطرف في جهنم في النار التي لا تطفأ حيث الدود لا يموت والنار لا تطفأ». ومهما كان اعتقادهم عن الجحيم فإنَّ هؤلاء المؤمنين بها يبدون وكأنهم يشتركون في الشماتة بالخاسرين والرضا عن من يعرفون بأنهم من بين الناجين، أول من قال بذلك من علماء الدين، سانت توماس اكويناس، في كتابه «سوما تيولوجيكا»: القديسون سينعمون بالحياة السعيدة وبركة الإله الوافرة وسيسمح لهم برؤية العقوبة للملعونين في جهنم، لطيف جدًا هذا الرجل.

الخوف من نار الجحيم يمكن أن تكون حقيقة، حتى بين الذين يكونون عقلانيين في أمور أخرى. بعد برنامج التلفزيون الوثائقي عن الدين، ومن بين الرسائل العديدة التي تلقيتها، كانت الرسالة التالية من سيدة تبدو ذكية وأمينة:

> «كنت في مدرسة كاثوليكية منذ الخامسة من عمري ولقنت من قبل الراهبات اللواتي استخدمن العسي والأشرطة والعكازات. وخلال سن المراهقة قرأت داروين، وما قاله عن التطور حمل الكثير من المعنى في القسم المنطقي من عقلي. ولكن مهما كان، فإنني مررت خلال حياتي بمعاناة وتضاربات وخوف عميق من الجحيم ونارها وذلك يتنابى بصورة متكررة».

خضعت للمعالجة النفسية وذلك أهّلني لأن أستطيع الخوض في معالجة بعض المشاكل ولكنني لا أشعر بأن قادرة على التغلب على هذا

الخوف العميق. والسبب الذي أكتب لك من أجله هو أني أرجو منك إرسال اسم وعنوان المعالجة النفسية التي أجريت معها مقابلة في حلقة هذا الأسبوع والتي تعالج هذا النوع من الخوف».

هزتني رسالتها، ومحاولاً كبت الأسف الدنيء ليس هناك جحيم لتذهب تلك الراهبات إليه أجبتها بأنَّ عليها أن تثق بعقلانيتها كهبة عظيمة والتي على عكس البعض الآخر الأقل حظًا، تمتلكها في الواقع.

اقترحت بأنَّ الرعب المتطرف من الجحيم، كما هو موصوف من قبل الكهنة والراهبات، يعظم كثيرًا ليعوض ذلك عن عدم مصداقيته، ولو كان الجحيم شيئًا يستحق التصديق، لكان من الكافي يكون مزعجًا بشكل عادي لكي يردعنا. وبإعتبار أنه من غير المتوقع بشكل كبير أن يكون ذلك صحيحًا، فيجب أن يعبّر عنه بشكل مرعب جدًا جدًا بالتأكيد، وذلك ليعدل من عدم مصداقيته وليقتي على بعض القيمة الرادعة. ووضعتها على صلة بالمعالجة النفسية التي نوهت عنها، جيل ميتون، امرأة لطيفة وصادقة بعمق وقد أجريت معها مقابلة أمام الكاميرا. جيل نفسها تربت في كنف طائفة أكثر من مقرفة تسمى الأخوة الخاصة: مزعجة لدرجة أن هنك موقع انترنت مخصص كليًا لرعاية الذين استطاعوا الهرب منه.[1]

جيل ميتون نفسها ذكرت موضوع رعبها من الجحيم، لقد هربت من المسيحية في سن الرشد، والآن تساعد وترشد المصدومين في طفولتهم بشكلٍ مشابه: «عندما أرجع بذاكرتي للطفولة، أرى الخوف هو المسيطر عليها. والخوف كان من الرفض في الحاضر، ولكن أيضًا من اللعنة

(1) www.peegs.net

الأبديـة وبالنسـبة لطفل، فـإن صور نـار الجحيم وصرير الأسـنان تكون حقيقية جدًا. إنها ليست مجازية على الإطلاق».

بعد ذلك سألتها أن تقص ما قيل لها عن الجحيم في طفولتها، وأجابتها كانت مثيرة للعواطف تمامًا كما تعابير وجهها لفترة التردّد الطويلة قبل أن تجيب: «إنه لغريبٌ جدًا.. أليس كذلك؟ بعد كل هذا الوقت يبدو وكأنه لا تزال القدرة والـتأثير على.. عندما.. عندما تسألني هذا السؤال. الجحيم هو مكان مخيف. إنه الرفض الكامل من الله، إنه حكمه الكامل، هناك نار حقيقية. هناك عذاب حقيقي ويستمر للأبد وليس هناك تأجيل».

ثم استطردت تخبرني عن مجموعة الدعم التي تقودها لمساعدة الهاربين مـن طفولـة مشـابهة لطفولتهـا، وأخبرتني عـن صعوبة الهروب بالنسـبة للبعـض: «إن إجـراءات الترك صعبة بشـكل غير عـادي. آه، لأنك تترك ورائـك مجموعـة اجتماعية كبـيرة من العلاقـات، ونظام كامـل قد تربيت عليه عمليًا، تترك وراءك نظام من الإيمان كنت قد تمسـكت به لسـنوات، وغالبًا تـترك عائلتك وأصدقائك.. وبالواقع تصبح غير موجودٍ بالنسـبة لهـم». وقد تكلمت عـن معرفتي الخاصـة بالموضوع من خلال الرسـائل التي وصلتني من العديد من قرائي، الأمريكان الذين تركوا دينهم نتيجة قراءتهـم لكتابي. وبعضهم بارتباك يسـتطرد ليقول بأنه لم يجرؤ على أخبار أهله، أو إنه أخبرهم وحصل على نتائج مرعبة. ما يأتي هو نموذج لذلك. الكاتب طالب طب أمريكي.

«أحسسـت بدافـع لكتابة إيميل لأني أشـاركك وجهة نظرك بالنسـبة للديـن، وجهـة النظر التـي ربما تعرف أنهـا معزولة في أمريكا. نشـأت في عائلـة مسـيحية وبرغـم أنَّ فكـرة الدين لم تـرقَ لي أبدًا، إلا أننـي منذ مدة

قصيرة فقط، صارت لي الجرأة لاخبر أحدًا. هذا الشخص كان صديقتي والتي انتابها الرعب».

كنت أعرف بأنَّ إعلان الإلحاد يمكن أن يسبب صدمة ولكنها الآن تنظر إلى كشخص مختلف. لا تستطيع الوثوق بي، وتعلل ذلك بأنَّ أخلاقي لا تأتي من الله. لا أعرف إذا كنت سأجتاز تلك المحنة، ولا أريد أن أشارك أحدًا بمعتقداتي من المقربين لي لأني أخاف ردة فعل الكراهية... لا أتوقع ردًا منك. أنا أكتب فقط لأني آملُ بأنْ تتعاطف وتقاسمني انفعالي.

تخيّل أن تخسر شخصًا تحبه، ويحبك على أسس دينية. ويغض النظر عن رؤيتها لي بأن وثني من غير إله فإنَّ علاقتنا ممتازة بشكل تام. ذلك ذكرني بملاحظتك بأنَّ الناس يفعلون أمورًا غير معقولة باسم إيمانهم، شكرًا لإصغائك».

أجبت على رسالة الشاب السيئ الحظ، وأشرت إلى أنه أيضًا اكتشف شيئًا عن صديقته في نفس الوقت الذي اكتشفت هي شيئًا عنه. هل هي حقيقة شخص مناسب له؟ أشك في ذلك.

لقد ذكرت الكوميدية الأمريكية جوليا سويني والكوميديا العنيدة والمضحكة عن معاناتها لإيجاد شيء ما في الدين يستحق انقاذ الإله الطفولي من شكوكها كبالغة. بالنتيجة انتهت مساعيها نهاية سعيدة، وهي الآن نموذج محبب للملحدين الشباب في كل مكان. وربما تكون الخاتمة هي أكثر المشاهد إثارة للمشاعر في عرضها لترك الله. لقد جرّبت كل شيء ومن ثم....

«بينما كنت أمشي من مكتبي إلى بيتي عبر حديقتي الخلفية، انتبهت لذلك الصوت الخافت الصغير الهامس في رأسي. لست متأكدة من طول الفترة، ولكن فجأة أصبح أعلى بـ (ديسيبل) واحد. وهمس «ليس هناك إله» وحاولت أن أتجاهله. ولكنه أصبح أعلى بشكل بسيط. «ليس هناك إله.. ليس هناك إله..».. آه يا إلهي ليس هناك إله... ارتعشت في كل جسمي... أحسست وكأنني أنزلقُ من على ظهر الطوافة».

ثم فكرت، ولكنني لا أستطيع. لا أعرف إذا ما كان بإمكاني عدم الإيمان بالله. أحتاج لإله. أعني، لدينا تاريخ معه».

«لكنني لا أعرف كيف لا أؤمن بالله. لا أعرف كيف تفعل ذلك. كيف تستيقظ كيف تمضي يومك؟ أحسست بعدم التوازن... فم فكرت.. حسنًا إهدائي. لنجرّب وضع نظارات اللاإيمان بالله للحظة، لثانية فقط. فقط ضع نظارة اللاإيمان بالله وإلق نظرة حولك وثم ألقيها بعيدًا» ووضعت النظارة ونظرت حولي».

يحرجني أن أقولَ لكم بأنني أصبت بالدوار. بالواقع فكرت حسنًا كيف تبقى الأرض معلقة في السماء؟ تعني، بأننا نتجول في الفضاء؟ هذا ضعف كبير! أردت أن أجري والتقط الأرض عند وقوعها من الفضاء بيدي.

عند ذلك تذكرت أهااا نعم، الجاذبية والعزم الزاوي سيحافظون على دوراننا حول الشمس وربما لفترة طويلة جدًا عندما شاهد العرض ترك الله في مسرح لوس أنجلس. هزتني مشاهده بعمق. وخصوصًا عندما قصت جوليا عن ردة فعل أبويها عندما علموا من مقال صحفي عن وضعها.

المكالمة الأولى كانت من أمي وكان أصبه بالصراخ. ملحدة... ملحدة؟؟!!

ثـم هتـف لي أبي وقـال «لقـد خنـت عائلتـك، مدرسـتك، مدينتـك» وأحسسـت وكأنني قد بعت أسرارًا عسكرية للروس. وكلاهما قال بإنهما لـن يتكلما معي بعد الآن. أبي قـال، «لا أريدك حتى أن تأتي لجنازتي». بعد أن أغلق السماعة فكرت «فقط حاول أن تمنعني».

إنَّ موهبـة جوليا سـويني هي في أن تجعلـك تضحك وتبكي معًا في آن واحد:

«أعتقـد بأن أهلي أصيبوا بخيبة أمل بسـيطة عندما قلت لهم بأني لا اؤمن بالله بعد الآن، ولكن أن أكون ملحدة فهذا شيء آخر بالمرة».

كتـاب دان باركر فقدان الإيمان بالإيمان: من خطيب ديني إلى ملحد. هو قصة انقلابه التدريجي من كاهن متطرف مخلص يسافر من مكان لآخر ليخطب في الجموع إلى ملحد قوي وواثق من نفسـه في يومنا. ما يلاحظ بشـكل كبير، هو أن باركر أسـتمر في خطاباته الدينية لفترة بعد أن أصبح ملحدًا، ذلك لأنها المهنة الوحيدة التي يعرفها وشعر بأنه محبوس في شبكة من العلاقات الإجتماعية الإجبارية.

والآن يعـرف الكثيريـن مـن رجـال الديـن الأمريكيـين الآخريـن في نفـس الوضع الـذي كان فيه ولكنهم يثقون به فقـط، بعد قراءتهم لكتابه. لا يجـرؤون علـى إعلان الحادهـم حتى لعائلاتهـم، إلى حـد الرعب من ردة الفعـل المرتقبـة. إنَّ قصة باركر تنتهي نهاية سـعيدة وكبداية فإنَّ أبويه صُعقا في البداية بشـكل عميق ومحـزن ولكنهما أصغيا إلى عقلانيته الهادئة وبالنتيجة أصبحا ملحدين أيضًا.

كتب لي أستاذان في جامعة أمريكية واحدة بشكل مستقل عن أهلهما. أحدهما قال بأنَّ أمه تعاني من حزن مزمن لأنها تخاف على روحه الخالدة. والآخر كتب بأنَّ أباه تمنى أنه لم يولد، مقتنعًا تمامًا بأنَّ أبنه سيكون في جهنم للأبد. هؤلاء أساتذة جامعيون على درجةٍ عالية من الثقافة، واثقون من دراساتهم ونضجهم العقلي، ويفترض أنهم تركوا أهلهم خلفهم في كل مواضيع المعرفة، وليس فقط الدين. فكر بالصعوبات التي تعترض من هم أقل معرفة، وأقل استعدادًا بالثقافة والملكات البلاغية منهم، أو من جوليا سويني، ليستطيعوا النقاش من زواياهم الخاصة أمام أفراد العائلة القساة. كما كان الحال ربما مع العديد من مرضى جيل ميتون.

في بداية حديثنا التلفزيوني، وصفت جيل هذا النوع من التربية الدينية بأنه شكل من أشكال الأذى النفسي، وقد عدت لتلك النقطة، كما يأتي: «لقد استعملتي عبارة الإيذاء الديني، ولو طلبت منك المقارنة بين الأذي الحاصل من تربية الطفل ليؤمن بالجحيم.. فكيف تكون المقارنة بين ذلك وبين الصدمة الحاصلة من الإيذاء الجنسي؟ فأجابت: «هذا سؤال صعب جدًا.. أعتقد أنا، هناك الكثير من التشابه بالواقع، لأنه في الحالتين هو استغلال للثقة: إنه عن حرمان الطفل من حق الإحساس بالحرية والانفتاح والقابلة للإتصال بالعالم بالطريقة الطبيعية... أنه نوع من الاستصغار: إنه حرمان الفرد من أن يكون هو نفسه في الحالتين».

دفاعًا عن الأطفال:

زميلي الطبيب النفسي نيكولاس هامفري استعمل تعبير «العصي والحجارة» في محاضرته في منظمة العفو في أكسفورد عام 1997 بدأ همفري خطابه بمناقشة فكرة أن هذا المثل ليس صحيحًا دائمًا، ملقيًا الضوء على

الهايتيين المؤمنين بالفودو والذين ماتو على ما يبدو بتأثير فعل كوني، نفسي، إرهابي، بعد أيام قليلة من تعوذية مؤذية وقعت عليهم. وبعدها تساءل عمّا إذا يجب على منظمة العفو الدولية، المستفيدة من سلسلة المحاضرات التي شارك بها، أن تنظم حملة ضد الخطابات والنشرات المؤذية والمخربة وجوابه كان صارخًا بالرفض لمثل تلك المراقبة، حرية التعبير هي حرية أثمن من أن نتدخل بها. ولكنه استطرد بعدها ليفاجئ حتى نفسه كليبر إلى عندما دعا لاستثناء مهم جدًا: السماح المراقبة في حالة الأطفال الخاصة.

«التعليم الديني والأخلاقي وبخاصة للأطفال في المنازل حيث يسمح للأهل حتى أنه يتوقع منهم أن يقرّروا ما هو الحقيقي وما هو الزائف بالنسبة لأطفالهم ما هو الحق وما هو الباطل، سأجادل هنا، بأنَّ للإنسان الحق بألّا يشل عقلة بتعريضه لأفكار سيئة من آخرين، كائنًا من كان. فالأهل هنا لا يملكون رخصةَ الهيأة لتثقيف أولادهم بأي طريقة يختارونها شخصيًا. لاحق لهم بالحد من أفق المعارف لأطفالهم وتربيتهم في بيئة من العقائد والغيبيات أو الإصرار عليهم بأن يتبعوا الطريق المستقيم والضيق لإيمانهم الديني».

باختصار، يملك الأطفال الحق بألا تشوش عقولهم بأمور لا معنى لها. ويجب علينا كمجتمع أن نحميهم منها وبالتالي يجب علينا ألا نسمح للأهل بأن يعلّموا أولادهم على سبيل المثال، الإيمان الحرفي بحقيقة ما هو مكتوب بالكتاب المقدّس أو بأن الكواكب تتحكم بحياتم، كما هي الحال بمنعهم من أن يكسّروا أسنانهم أو حبسهم».

بدون شك، فإنَّ بيانًا قويًا كهذا يحتاج لئن يحظى بمميزات كبيرة. أليس الاعتداد به هراء كموضوع رأي؟ ألا يجب أن تدفعنا أخطاء العلم

المتعصّب الكثيرة لأن نكون حذرين؟ ربما يفكر العلماء بأنه من الهراء أن نعلّم التفليك أو أنَّ الكتاب المقدس الحرفي، ولكن هناك آخرون من الذين يفكرون بالعكس تمامًا، أليس لهم الحق لئن يعلّموا ذلك لأطفالهم؟ أليس من التكبّر أن نُصرَّ على أن يدرس الأطفالُ العلمَ؟

أشكر أهلي لأخذِهم بوجهة النظر بأنه يجب على الطفل أن يتعلم ليس بماذا يفكر بل كيف يفكر. إنَّ الأدلة العلمية عرضت عليهم بشكل عادل، بعد ذلك يستطيعون عندما يكبرون بأن يقرروا فيما إذا كان الكتاب المقدس يمكن أن يكون صحيحًا بالحرف أو أن حركة الكواكب يمكن أن تتحكم بحياتهم، هذا من حقهم.

النقطة المهمة هي أنه من حقهم وحدهم أن يقرروا ما يفكروا به، وليس من حق آبائهم أن يفرضوا ذلك عليهم بشكل إرغامي. وذلك بالطبع، مهم بشكل خاص عندما نفكر بأنَّ هؤلاء الأطفال سيكونون بوضع يمرّرون فيه ما «تشكّلوا» عليه من التلقين الذي تلقّوه سابقًا.

يقترح همفري بأنه ما دام أنَّ الأطفال صغار، وضعفاء وبحاجة للحماية، فإنَّ الأخلاق الحقيقة تأتي بشكلٍ ظنون أمينة عما سيختاروا أن يكونوا عليه عندما يكبرون. وقد ذكر مثالاً مؤثرًا عن فتاة صغيرة من 500 عام وجدت بقاياها متجمدة في جبال البيرو عام 1995 إنَّ علماء الإنسانيات الذين وجدوها كتبوا بأنها كانت ضحية طقوس أضحوية. وقد قال همفري بأنَّ هناك فيلمًا وثائقيًا قد عرض عن «الفتاة المتجمّدة» الصغيرة في تلفزيون أمريكا. وقد دُعي المشاهدون لئن:

«يدهشـوا مـن الالتزام الروحـي لكهنة الإنـكا وليقاسـموا الفتاة كبرياءهـا في رحلتهـا الأخـيرة وكذلـك فرحتها بإنها قـد اختيرت لشرف التضحية. والرسالة التي وصلت للمشاهدين من البرنامج كانـت في الواقـع بأنَ التضحية الإنسـانية كانـت بطريقتها الخاصة أحد الاختراعات الثقافية المدهشة، جوهرة أخرى في تاج التعدّدية الثقافية، إذا أردت القول».

همفري إصابة الروع، وأنا كذلك:

«عـلى رغم ذلك، كيف يمكن لأحـد أن يجرؤ حتى على أن يقترح ذلك؟ كيف يجرؤون على دعوتنا في غرف معيشتنا، ونحن نشاهد التلفاز، بأن نشـعرَ بالنشـوة ونحن نتأمّل طقسًـا لجريمة قتل: قتل طفـل مـن قبل جماعة من كبار السـن الأغبياء، منفخـين بالغيبيات والجهل؟ كيف يجرؤون على دعوتنا لئن نجد شيئًا جيدًا في أنفسنا بتأمّلِ فعل لا أخلاقي ضد الشخص آخر؟».

ومرة أخرى، فإنَّ القارئ الليبرالي ربما يشعر بوخزةٍ من عدم الارتياح. اللاأخلاقية تلك، بمقاييسـنا، لا شـك بأنها غبية، ولكن ماذا عن مقاييس الآنـكا؟ بالتأكيد، بالنسـبة للآنـكا كان ذلك فعلاً أخلاقيـا وبعيدًا عن أن يكون غبيًا، ومقررًا بكل من يحملون من مقدسات؟ الفتاة الصغيرة كانت بلا شـك إحـدى المؤمنات الصادقات بالدين الـذي تربت عليه، من نظن أنفسـنا لنسـتعمل كلمات مثل «قتل»، ونحكم على كهنة الآنكا بمقاييسنا عوضًا عن مقاييسهم؟ ربما كانت تلك الفتاة تطرب بالسعادة لمصيرها: ربما كانـت تؤمن حقيقة بأنها ذاهبة مباشرة لجنة أبدية، يدفئها شـعاع صحبتها لإله الشمس. أو ربما وأغلب الظن أنه كذلك، كانت تصيح من الرعب.

إنَّ نقطة همفري هنا، ونقطتي أيضًا، هي أنه بغض النظر عن كونها ضحية برغبتها أو لا، فإنَّ هناك سببًا يجعلنا نفترض بأنها لن تكون راغبة بذلك لو كانت تمتلك الوقائع. وكمثال: لنفترض بأنها تعرف بأنَّ الشمس هي عبارة عن كرة من الهيدروجين، حرارتها أكثر من 1972 مليون درجة، وتحول نفسها إلى هيليوم بالانصهار النووي، وأنها تكونت من قرص من الغازات والذي تشكلت منه بقية أجزاء المجموعة الشمسية بما فيها الأرض، بالتكاثف.. فرضًا، عند ذلك، لن تعبدها الفتاة على أنها إله، وهذا بدوره سوف يغير اعتباراتها لتكون ضحية لاسترضائها.

لا نستطيع لوم كهنة الآنكا لجهلهم، وربما يكون من الجور نعتهم بالغباء والبلادة. ولكنهم يلامون لدسهم لإيمانهم في عقلِ طفلٍ صغير جدًا على أن يستطيع القرار إذا ما كان يريد عبادة الشمس أم لا. والنقطة الإضافية لهمفري هي أن الفيلم الوثائقي المعاصر ونحن المشاهدون له، يلامون أيضًا لرؤيتهم للجمال في موت الطفلة الصغيرة» كشيء يغني معرفتنا بالتعددية الثقافية». وبنفس الطريقة مواقفنا تجاه العادات في الديانات المحلية، وتبرير العنف باسمها، ومرة تلو أخرى.

إنه المصدر الأساسي للتضارب الداخلي في عقول اللطفاء من الليبراليين من الناس، والذين لا يستطيعون من جهة تحمل المعاملة القاسية، ومن جهة أخرى قد دربوا على احترام ثقافة الآخرين ليس بأقل من احترامهم لثقافتهم وذلك من قبل المؤمنين بنسبية الأمور. إنَّ خِتانَ البنات بدون شك مؤلمٌ جدًا، ويمكن أن يؤثّر على المتعة الجنسية في النساء (بالتأكيد، ربما يكون ذلك هدفه بالأصل) ونصف العقول الليبرالية تريد إلغاء تلك الممارسات. والنصف الآخر، على أية حال، «يحترم» الثقافة

المحلية ويشعر بأنه ليس علينا أن نتدخل عندما يريدون «هم» أن يمثلوا بـ بناتهم.

النقطة بالطبع هي أن بناتهم هم في الحقيقة بنات أنفسهم ورغباتهم لا يجوز أن يتغاضى عنها. هناك سؤال مخادع هنا: ماذا لو أرادت الفتاة نفسها أن تختن؟ لكن هل ستفعل، عندما تكون على اطلاع على الموضوع كراشدة، وهذا لا يحصل أبدًا؟ همفري يركز على نقطة أنه ليس هناك امرأة فقدت فرصتها في الختان عندما كانت طفلة، وتتطوع لإجراء تلك العملية لاحقًا في حياتها.

وبعد مناقشة دارت حول الأيميش، وحقوقهم في تربية أطفالهم بطريقتهم، انزعج همفري من حماسنا كمجتمع لـ:

> الحفاظ على التعددية الثقافية. حسنًا، ربما تود أن تقول، ربما أنه من الصعب بالنسبة للطفل أن يربى لأبوين من الأميش، أو الحسيدي، أو الغجر ولكن على الأقل ستكون النتيجة تلك الاستمرارية للتقاليد الثقافية الساحرة. ألن تفتقر حضارتنا الإنسانية بذهاب تلك العناصر؟ أنه من المشين، ربما، أن يضحّي بأفراد للمحافظة على تعددية كهذه. ولكن إليكم هذا الرأي: إنه الثمن الذي ندفعه كمجتمع. باستثناء وأجد نفسي مرغمًا على تذكيركم، إننا لا ندفع، بل هو الأطفال الذين يدفعون.

هذا الموضوع بدأ بالحصول على إهتمام شعبي عام 1973 عندما اصدرت المحكمة العليا في الولايات المتحدة في قضية ويسكنسون ضد يودير، والتي أهتمت بموضوع حقوق الآباء في سحب أولادهم من

المدارس لأسباب دينية، الأميش هم أناس يعيشون في مجتمعات مغلقة في مناطـق مختلفة من الولايات المتحدة الأمريكية، وغالبًا ما يتكلمون بلهجة ألمانيـة قديمـة تُسـمّى بالدوتـش البنسـلفاني، ويتجنبون بحـدود مختلفة، الكهرباء والمحركات الدافعة والأزرار ومظاهر أخرى من الحياة العصرية. هناك بالتأكيد ما يمكن أن يكون استعراضًا جذابًا في منطقة تعيش عيشـة القرن السـابع عشر بنظر الأشخاص العصريين. ألا يستحق ذلك الحفاظ عليـه، من أجـل إغناء التعدديـة الإنسـانية؟ والطريقة الوحيـدة للحفاظ عليهـا هي في السـماح للأيميـش بأن يربـوا أبناءهـم بطريقتهـم الخاصة، وحمايتهـم من التأثير المخرّب للحياة العصريـة ولكن هنا نريد بالتأكيد أن نسأل: أليس للأطفال الحق في أين يكون لهم رأيهم في الموضوع؟

كان علـى المحكمـة العليا أن تحكم في 1972 عندما سـحب بعض آباء الأيميش أبناءهم من المدرسة الثانوية. وفكرة التعليم نفسها بعد سن معين كانـت مناهضة للقيم الدينيـة للايميش وبخاصة التعليـم العلمي. ولاية ويسكنسـون قاضت الأهـل وأخذتهم للمحكمة بدعـوى حرمان الأبناء مـن حقهم في التعليم وبعد المداولة وصلـت الدعوى للمحكمة العليا في الولايـات المتحدة والتي قررت بمعدل إلى لصالح الآباء وأغلبية الآراء، كـما كتـب رئيس مكتب العدل وارن برغر، تضمنـت ما يأتي: «كما نرى في السـجلات، إنَّ التعليم الإلزامي في أطفال الأيميش يشكل تهديدًا حقيقيًا يمكنه تقويض مجتمع الأيميش وممارسـاته الدينية الموجودة حاليًا وعليهم إمـا أن يتركوا الإيـمان وينصهروا في المجتمع العريض، أو أن يرغموا على الهجـرة لأماكـن أكثر تقبلاً لأمـور كهذه» أما عـن آراء الأقليـة كما يروي ويليـام دوغلاس فكانت عن سـؤال الأولاد أنفسـهم، هل يـودّون فعلاً

أن يتركوا دراستهم؟ بالتأكيد البقاء في دين الأيميش؟ نيكولاس همفري ربما كان سيذهب لأبعد من ذلك. حتى ولو وافق الأولاد على أن يبقوا ضمن الأيميش فهل سيكون رأيهم هو نفسه لو عرفوا ودرسوا بالانضمام للايميش؟ الحاكم دوغلاس ذهب لأبعد من ذلك بطريقة أخرى. فهو لم يجد أي سببٍ خاص للأخذ بعين الاعتبار وجهة نظر الأهل من الناحية الدينية في القرار عمّا إذا كان سيسمح لهم بمنع آبنائهم من الدراسة. لأنه لم كان الدين سببًا للاستثناءات، أفلن يكون هناك رأي علماني مما يجب أخذه بعين الاعتبار أيضًا؟ إنَّ الأغلبية في المحكمة العليا أخذوا قراراتهم من القيم الإيجابية لوجود نظام رهباني، يغني وجوده مجتمعنا. ولكن كما أشار همفري، فهناك فارق جوهري. إنَّ الراهبات يتطوعون لحياة الرهبنة بمحض إرادتهم... أطفال الأيميش لم يتطوعوا لأي شيء لقد ولدوا لهذا النظام ولم يكن لهم أي رأي في الموضوع.

هناك شيء يقطع الأنفاس بتنازلاته ولتضاربه مع الإنسانية، في موضوع التضحية من أي شخص، خصوصًا الأطفال على مذبح «التعددية» والحفاظ على القيم الدينية التقليدية. الباقي منا سعداء بسياراتنا وكومبيوتراتنا، لقاحاتنا ومضاداتنا الحيوية. ولكنك تجذب الصغار من الناس بعربتك وأغطيتك وسراويلك القصيرة، بلهجتك القديمة ومرحاضك الترابي، وتغني حياتك بذلك. وبالطبع يجب أن نسمحَ لك بأن تضع أولادك بالفخ الزمني للقرن السابع عشر.. وإلا فإننا نفقد شيئًا لا يعوض: جزء من التعددية الرائعة للمعرفة الإنسانية. إنَّ جزءًا صغيرًا مني يرى بعض القيمة في ذلك ولكن الجزء الأكبر من يحس بالغثيان بالتأكيد.

فضيحة تربوية:

رئيس مجس الوزراء في بلدي، طونى بلير، استعمل «التعددية عندما تحداه أحد أعضاء المجلس العام جينى تونغ ليبرر المنحة الحكومية لمدرسة في شمال شرق انكلترا والتي (ربما حالة وحيدة في انكلترا) تدرس نظرية الخلق الإنجيلية بحرفيتها. السيد بلير أجاب بأنه من المؤسف أن يكون موضوعًا كهذا مهمًا أمام امتلاكنا «لمناهج مدرسية متعددة وجيدة بقدر الإمكان».

المدرسة هنا هي كلية إيمانويل في غاتشهيد، وهي أحد «اكاديميات البلدة» وانشأت تحت رعاية الحكومة المفتخرة لبلير. وبعض الأغنياء طلب منهم وضع مبالغ بسيطة (مليونين جنية إسترليني في حالة إيمانويل) التي تدفع الحكومة مقابلها حوالى (عشرين مليونًا للمدرسة، إضافة لمصاريفها والرواتب الدائمة)، كما تعطي المتبرّعين حق تقرير أخلاقيات المدرسة، وتعيين المدير والموظفين ومن يحق له الدخول ومن لا يحق له ذلك، وأشياء كثيرة أخرى.

عشرة بالمئة من التبرّعات تأتي من السير بيتر فاردي، بائع سيارات غني وعنده رغبة حقيقية بإعطاء أطفال اليوم الثقافة التي يتمنى لو حصل عليها ورغبة أقل مصداقية بأن يطبعهم بقناعاته الدينية. للأسف تورّط فاردي من اتّباع الأساتذة الأمريكيين المتطرفين دينيًا وعلى رأسهم نيغل ماكويد، الذي يدير كلية إيمانويل بعض الأحيان وهو الآن مدرى كل مدارس فاردي.

إنَّ مستوى فهم ماكوي للعلوم يمكن أن نحكم عليه من خلال إيمانه بأنَّ العالم خلق منذ أقل من عشرة آلاف سنة ومن الاقتباس الأتي:

«ولكن القول بأننا تطورنا من الأنفجار، وبأننا كنا قردة، ذلك يبدو عديم المصداقية عندما تنظر إلى تعقيد الجسم الإنساني.. عندما تقول للأطفال بأنهم عبارة عن طفرات كيميائية بأنه ليس هناك غرض من الحياة فإنك لا تساعدهم على بناء الثقة بالنفس.

ليس هناك من عالم يعتقد بأنَّ الطفل هو «طفرات كيميائية». إنه استعمل الجملة في ذلك السياق هو بلا أي معنى معرفي، كما هو الحال في تصريح الخوري وأين مالكوم، رئيس كنيسة حياة المدينة في كاكني، في شرق لندن، والذي بحسب مقال في الغاردين في 18 نيسان 2006 نزاعات الأدلة العملية للتطور. إنَّ فهم مالكولم للأدلة يمكن قايسه من تصريحه بأن من الواضح أن هناك نقص في سجلات الحفريات لكائنات متوسطة المستوى في التطور. لو أن ضفدعًا تحول لقرد، ألا يجب أن يكون هناك ضفدرد؟.

حسنًا ليس العلم من اختصاص ماكويد أيضًا وعلينا للعدل، إنَّ نوجه عنايتنا لرئيس الهيئة العلمية التابعة له، ستيفن لايفيلد بدلاً عنه.

في 21 ايلول 2001 السيد لايفيل ألقى محاضرة في كلية إيمانويل عن تدريس العلوم وجهة نظر الكتاب المقدس. نص المحاضرة نشر على موقع مسيحي في الإنترنت ولكنك لن تجده الآن هناك، لقد رفعته المنظمة المسيحية في اليوم التالي بعد تعليقي عليه في مقال كتبته عنه في صحيفة الديلي تلغراف في 18 اذار 2002 وعرضت أفكاره لتشريح محرج. وعلى أية حال فإنه من الصعب محا أي شيء بشكل دائم من الإنترنت.

ذلك لأن محركات البحث يحصلون على سرعتهم بشكل جزيْء من تخزين نسخ من المعلومات في حواسيبهم وهذا يبقى لبعض الوقت حتى

بعـد إزالة المعلومـة الأصلية وأحـد الصحفيين البريطانيين أنـدور براون المسؤول الأول عن مواضيع القسم الديني في الإندبدنت استطاع تحصيل محـاضرة لايفيلـد، وتحميلهـا من غوغـل ونشرهـا بأمان مـن المحي على موقعه الخاص:

http://www.darwinwars.com/lunatic/lunatic/liars/layfield.html

سـتلاحظ بأنَّ الكلمات المختارة من قبل براون للرابط لها معنى مسـلي بحد ذاتها. ولكنها تفقد قدرتها على الإدهاش عندما تطلع على محتويات المحاضرة بذاتها.

وللمصادفـة فعندمـا كتب أحد القراء يسـأل كلية ايمانويل عن سـبب رفعهـا للمحـاضرة من الموقـع، حصل علـى الإجابة المراوغـة التالية من الكلية ومرة أخرى يسجلها أندرو براون:

"إنَّ كليـة إيمانويـل كانت في مركز مناظرة تتعلق بتدريس الخلوقية في المدارس وعمليًا في كلية إيمانويل تلقينا العديد جدًا من المكالمات الصحفية وذلك اسـتدعى أخذ كمية كبيرة من وقت المدير ومسـاعدية وكلهم لديه واجبـات ليقوموا بها ولذلك قمنا برفع محاضرة سـتيفن لايفيلد مؤقتًا من موقعنا».

بالتأكيد، مسـؤولو المدرسة كانوا مشغولين بشرح موقفهم للصحفيين عن تدريسـهم لنظريـة الخلق. ولكن لمـاذا إذن رفعوا نـص المحاضرة من الموقـع والتـي تـشرح تمامًا مواقفهـم من الموضـوع. ألم يكـن بإمكانهم أن يدلوا الصحفيين على الرابط الذي يجيب على كان أسئلتهم ويوفر عليهم الوقت؟ لا. لقد رفعوا محاضرة رئيس قسم العلوم وعليهم أن يخفوا شيئًا. إليكم هذا المقطع من بداية نص المحاضرة:

«دعونا نصرح منذ البداية باننا نرفض آن يكون مشاعًا في الوطن، وربما بشكل غير مقصود، ما قاله فرنسيس بيكون في القرن السابع عشر بأنه هناك كتابين (كتاب الطبيعة والكتاب المقدس) واللذان يجب دراستهما بشكل مستقل من أجل الحقيقة. أننا نقف بحزم وراء الافتراض بأنَّ الله تكلم بشكل مسؤول وغير قابل للخطأ في صفحات الكتاب المقدس. ومهما بدا ذلك هشًا. وبالأخص بالنسبة لغير مؤمن من مدمنين التلفزيون في ثقافة العصر، فنحن متأكدين أنه من أمتن القواعد لوضعها والبناء عليها».

عليك أن تقرص نفسك باستمرار لتعرف بأنك لا تحلم. ليس هذا كاهنًا في خيمة في الاباما ولكنه رئيس الهيئة العملية في مدرسة تصف فيها الحكومة البريطانية المال، وموضوع فخر واعتزاز لتوني بلير، وكونه مسيحيًا مخلصًا بنفسه فإنَّ السيد بلير كان على رأس حفل الافتتاح عام 2004 لإحدى المدارس الجديدة في سلسلة مدارس فاردي. ربما تكون التعددية ذات قيمة، ولكن التعددية هنا نوع من الجنون.

ويمضي لايفيلد بتصنيف المقارنة بين العلم والكتاب المقدس، ويصل لنتيجة، في كل حالة من الحالات حيث يبدو الموضوع متناقضًا، بأنَّ الكتاب المقدس يحتل المركز المفضل. لاحظ بأنَّ علم الأرض متضمن الآن في منهج الدراسة الوطني، ويقول لايفيلد «أنه من العقل لهؤلاء الذين يؤلفون فصول الكتب بأن يطلعوا على دراسات الطوفان الجيولوجية التي أجراها وايتكومب وموريس. «نعم الطوفان الجيولوجي» يعني ما تفكر به. إنه يتكلم عن سفينة نوح! بينما يمكن للأطفال أن يتعلموا ما يُشغف العقل من الوقائع بأن أفريقيا وأمريكا الجنوبية كانتا ملتصقتين

وتبتعدان عن بعضهما بالسرعة التي تنمو بها الأضافر. وإليك مقطعًا آخر من لايفيلد (رئيس الهيئة العلمية) عن طوفان نوح كتفسير لظاهرة سريعة ومن الماضي القريب، والتي هي تبعٌ للأدلة الجيولوجية، حدثت منذ ملايين السنين:

«يجب علينا الاعتراف في بناء المثال الكبير الجيوفيزيائي بأنَّ الطوفان العالمي المشروح في سفر التكوين في الكتاب المقدس صحيح بشكل لايقبل الشك وأن الأنساب (مثل ما ذكر في التكوين ومتى ولوقا) متصلة بشكل كبير، علينا بالحسابات بأن تلك الكارثة العالمية حدثت في الماضي القريب. وتأثيرها شامل وواضح في كل مكان. وذلك بالاعتداد بمبدأ الأدلة التي توجد في المستحاثات الصخرية، ومخزون الطاقة الهيدروكربونية الكبير (بترول، غاز وفحم) ووجود القصص الأسطورية لطوفان عظيم عند العديد من الحضارات في العالم. وموضوع إمكانية بناء سفينة مليئة بممثلين عن جميع الكائنات الحية وبقائهم واستمرار حياتهم فيها لسنة كاملة حتى وقت انحسار الماء مدون وبشكل جيد من قبل العديد ومنهم جون وودمارابي».

بشكل ما يبدو ذلك أسوأ من الاعتراف بعدم المعرفة لأشخاص مثل نايغل ماكويد أو البيشوب وإين مالكولم أعلاه، ذلك لأن لايفيلد مثقف علميًا، وإليكم مقطعٌ مدهشٌ آخر:

«وكما صرحت سابقًا فإنَّ المسيحين ولسبب جيد جدًا يعدّون العهد القديم والعهد الجديد مصْدَرين موثوقين فيما يتعلّق بما نؤمن به. لا يُدّانن كوثيقتين دينيتين فقط، ولكنهما أيضًا المصدر

الصحيح لتاريخ الأرض والذي نجهله بشكل خطير».

إنَّ النتيجة بأن الكتاب المقدس يقدم لنا المعلومات الحرفية عن التاريخ الجيولوجي سيصيب أي عالم دين ذي سمعة حسنة بالجفل. صديقي ريتشارد هاريس، بيشوف أوكسفورد وأنا كتبنا رسالة مشتركة لطوني بلير، وحصلنا على تواقيع ثمانية خوارنة وتسع علماء متقدّمين. ومنهم رئيس الهيأة العلمية الملكية (رئيس هيأة المستشارين العلمية لتوني بلير سابقًا).

مديري قسمي الفيزياء والبيولوجيا، الفلكي الملكي (والذي أصبح حاليًا مدير الهيئة) مدير متحف التاريخ الطبيعي، والسير دافيد اتيبورو، والذي هو ربما الشخصية الأكثر احترامًا في إنكلترا والخوارنة تضمّنوا واحدًا من الروم الكاثوليك وسبعة من الإنجيليين من رؤساء الهيآت الدينية في كل إنكلترا. وصلنا رد ممل وناقص من مكتب رئيس الوزراء، يلمح إلى النتائج الجديدة في امتحانات المدرسة بحسب تحريات مكتب الرقابة على التعليم. ربما لم يخطر للسيد بلير أنه إذا كان مفتشو مكتب الرقابة على التعليم قد اعطوا تقريرًا جيد عن مدرسة يقول رئيس قسم العلوم فيها بأنَّ كل الكون بدأ بعد استئناس البشر للكلاب وجعلها حيوانات أليفة، فلربما يكون هناك شيء من الخطأ في مقاييس هؤلاء المفتشين.

ربما يكون المقطع الأكثر إزعاجًا في محاضرة لايفيلد هو في نهايتها «ما الذي يمكن فعله؟». حيث عدَّ بعض التكتيكات لاستعمالها من قبل الأساتذة الراغبين بتقديم المسيحية المتطرفة في الحصص العلمية. وكمثال حث أساتذة العلوم على:

«دون كل فرصة تقدم فيها فكرة قدم الأرض (ملايين أو مليارات السنين) بشكل صريح أو ينوّه عنها في كتاب، أو سؤال امتحان أو من قبل زائر وأشّر باحترام للضعف فيها. وكلما كان ذلك ممكنًا علينا أن نعطي البديل (الأفضل دومًا) الإنجيلي في شرح نفس المعلومات. علينا أن نفحص بعض الأمثلة من كل كتب الفيزياء، الكيمياء والبيولوجيا في المقرّرات المفروضة كل بدوره».

بقية محاضرة لايفيلد لا تعدو عن كونها تعليمات للدعاية، مصدر لأساتذة البيولوجيا والكيمياء والفيزياء المتدينين، الذين يرغبون، مع بقائهم ضمن حدود المنهج الوطني، بتخريب الأدلة المبنية على المبادئ العلمية واستبدالها بالكتاب المقدّس، وفي نفس الوقت سيلتزمون بالتوجيهات العامة المقررة في الخطة الدراسية لكل المدارس.

في الخامس عشر من نيسان عام 2006 أجرى جايمس نوتي، أحد أكثر محرري ال (بي بي سي) خبرة مقابلة إذاعية مع السير بيتر فاردي. والموضوع الأساسي كان عن تحريات بوليسية لاتهامات أنكرها فاردي عن رشوى بلقب فارس شرف قد عرضت من قبل حكومة بلير لبعض الأغنياء، كمحاولة لإشراكهم في مخططات المدينة الاكاديمية.

نوتي سأل فاردي أيضًا عن موضوع نظرية الخلق، وفاردي نفى بأن تكون أكاديمية إيمانويل داعية لنظرية الأرض الشابة ونظرية الخلق لطلابها. واحد خريجي كلية ايمانول بيتر فرنش، صرح بشكل علني، «لقد درسونا بأن عمر الأرض ستة آلاف عام» فمن منهم يقول الحقيقة؟ حسنًا. لا نعرف ذلك، ولكن محاضرة سيفن لايفيلد وبشكل صريح جدًا وضعت الخطوط العريضة للموضوع. ألم يقرأ فاردي محاضرة لايفيلد؟

الا يعـرف فعلا مـا ينوي رئيس قسـم العلوم في أكادميتـه فعله؟ لقد جمع بيـتر فـاردي أمواله من بيع السـيارات المسـتعملة. هل ستشـتري واحدة منه؟ وهل ستبيعه كما فعل توني بلير مدرسة بعشر ثمنها وتعرض دفع كل مصاريف تشـغليها؟ لنكن متسـامحين مع بلير ونفترض بأنه، على الأقل، لم يقرأ محاضرة لايفيلد. أظن بأنَّ الأمل بأن ينتبه للموضوع الآن سـيكون مبالغًا فيه.

المدير الإداري ماكويد دافع عما راه بوضوح كإنفتاح في مدرسته وتبدو فيه المداراة واضحة بشكل ملحوظ:

«المثال الأفضل الذي يمكنني أن أعطيه عن الانفتاح هنا في شـكل محـاضرة فلسـفية كنا ألقيهـا. شـاكيل كان جالسًـا فيها وقـال بأن القـرآن صحيح وحقيقي» وكلار، تجلس هناك، قالت لا. الإنجيل صحيـح» وبدأنـا بالحديـث عـن التشـابهات والتناقضـات بينهما. واتفقنـا بأنه لا يمكن أن يكـون كلاهما على حق. وبالنتيجة قلت: «آسـف يا شـاكيل، أنت مخطئ الإنجيل هو الصحيـح» وهو قال: «آسـف يا سيد ماكوي، أنت مخطئ، بل هو القرآن». وبعدها ذهبنا للغـداء واسـتمرار في المناقشـة إنَّ هذا ما نريد لأطفالنـا أن يعرفوه لماذا يؤمنون به والدفاع عنه».

يـا لهـا من صـورة جذابة. شـاكيل وكلار ذهبا للغداء سـويًا يناقشـان بحماس القضايا ويدافعان عـن اعتقاديهما غير متناسـبين. ولكل هل هذا جـذاب في الحقيقـة؟ أليسـت في الحقيقـة صـورة محزنة تلك التي رسـمها ماكويـد؟ ما الذي يبني شـاكيل وكلار حججهما عليه؟ ما هي الأدلة التي أتـى بها كلاهمـا لدعم كلامه في نقاشـهما الحماسي والبناء؟ كلار وشـاكيل

زعـمًا كلاهما ببسـاطة بأنَّ كتابـه المقدس أفضل من الكتـاب الآخر. وهذا اكل شيء هذا كل ما يبدو أنهم قد قالوه وهذا كل ما يمكنك قوله بالتأكيد. عندما يكون ما درسـته هو أن الحقيقة تأتي من الكتاب المقدس عوضًا عن الأدلة. كلار وشـاكيل وكل أصحابهم لم يحصلوا على الثقافة. لقد خذلوا من قبل مدرستهم ومسؤوليها آذوهـم ليس جسديًا، ولكن عقليًا.

الوعي مرة أخرى:

والآن إليكـم صـورة جذابة أخـرى. في إحدى أيام عيـد الميلاد كانت صحيفتـي اليوميـة الأندبندنـت تبحـث عن صـورة للموسـم ووجدت واحـدة عاليـة مما يدفئ القلـب أخذت مـن مسرحية للميلاد في مدرسـة للأطفال. حيث لعب دور الحكماء الثلاثة كما هو مكتوب بالخط العريض في العنـوان، شـادريت (سـيخ)، مـشرف (مسـلم)، وعادل (مسـيحي)، جميعهم في الرابعة من العمر.

جذابـة؟ تدفـئ القلب؟ لا، ليسـت كذلـك لا هذه ولا تلـك، بل أنها مشـوه. كيف يمكن لشـخص شريف أن يفكّرَ بأنه من الصحيح أن نصم طفـلاً في الرابعة من العمر بالرأي الكـوني الديني لأبويه؟ لتوضيح ذلك، تخيل نفس الصورة مع عنوان مغاير بالشكل التاي «شادريت كينيزي صفة لفكرة اقتصادية) مشرف (نقدي) وعادل (ماركسي) جميعهم في الرابعة"

«هـل يعقل أن يكون هذا مقبولاً في رسـالة احتجاج غاضبة؟ بالتأكيد يجب ذلك. بالرغم من ذلك، وبسـبب الامتياز الغامض للدين، لم يسـمع أي صريـر ولم يسـمع أي شيء مماثـل في أي مناسـبة مماثلة. تخيـل فقط بأنَّ العنـوان أصبح «شـادريت (ملحد)، مـشرف (لاأدري) وعـادل (علماني

إنساني)، جميعهم في الرابعة من العمر» ألا يجب التحقق من أن آباءهم أهلٌ لتربية الأطفال؟ في إنكلترا حيث ينقصنا قانون يفصل الدين عن الدولة، يصبح الأهل الملحدون مع التيار ويتركون المدارس لتعلم أولادهم الديانة المهيمنة على الثقافة. هناك موقع أمريكي Thebright.net يصف الملحدين بـــ الأذكياء بالتشابه مع التسمية التي يسمى الشاذون جنسيًا أنفسهم بكلمة غاي. يشكك بوضع قواعد للأطفال في عريضة للتوقيع: إنَّ القرار بأن يصبح الطفل من مجموعة الأذكياء يجب أن يكون قرار الطفل نفسه، أي طفل قيل له بأن عليه أن يكون كذلك لايمكن أن يقبل في المجموعة».

هل تستطيع تخيل كنيسة أو جامع يصدر قرارًا معارض لنفسه كهذا؟ ولكن ألا يجب عليه أن يجبروا على ذلك؟ بالمصادفة وقعت على عريضة «الأذكياء» وأحد أسباب ذلك هو أنني كنت فضوليا لأعرف إذا ما كانت كلمة كهذه يمكن أن تدخل اللغة بطريقة هندسية مدروسة. لا أعرف وأود أن أعرف فيما إذا كانت كلمة غاي قد دخلت اللغة بطريقة مدروسة أو أنها حصلت بالصدفة. إنَّ حملة «الأذكياء» بدأت بداية مهزوزة عندما رفضها بعض الملحدين، خوفًا من أن يوصفوا بـــ «التكبر». إنَّ حركة الافتخار بالشذوذ، لحسن الحظ، تعاني من ذلك التواضع الزائف، والذي ربما كان سبب نجاحها.

في فصل سابق، كنت قد طرحت موضوع «رفع الوعي»، بدأ بمنجزات مناصري المرأة بجعلنا نجفل عند سماعنا عبارة مثل «رجال النوايا الطيبة» عوضًا عن أناس النوايا الطيبة. وهنا أريد أن أرفع الوعي بطريقة أخرى. أعتقد بأنَّ علينا جميعًا أن نجفل عند سماعنا بأنَّ طفلاً صغيرًا يوصم بأنه

يتبع ديـن معينا ما. الاطفـال صغار جدا علـى ان يقـرّروا وجهة نظرهم عن نشـوء الكون، الحياة والأخلاق. أنَ العبارة بذاتها «طفل مسيحي» أو «طفل مسلم» يجب أن تسمع وكأنها صرير ظفر على سبورة.

إليكم هذا التقرير بتاريخ 3 أيلول 2001 من راديو إيرلندا أف أم.

تلميـذات كاثوليكيات في المدرسـة واجهن معارضة مـن الموالاة عند محاولتهـم الدخول لمدرسـة الصليب المقدس الابتدائيـة للبنات الكائنة في شارع أرديون في شمال بلفاست. ضباط الشرطة الملكية والجيش البريطاني أزاحـوا المعارضين الذين حاولوا سـد طريق المدرسـة. ووضعت حواجز للسـماح للأطفـال بالمـرور عـبر المحتجـين للمدرسـة. الموالـون صخبوا واستهزأوا بالطائفية بينما الأطفال ومنهم من هو في سن الرابعة اصطحبوا مـن قبل ابائهم للمدرسـة وعنـد دخولهم من باب المدرسـة رمى الموالون للمعارضة المدرسة بالزجاجات الفارغة والأحجار.

بشـكل طبيعي، أي شـخص عادي سيجفل من حـدث كهذا يحصل للفتيـات الصغـيرات. أحـاول هنا أن أشـجّعَ الجفـل، أيضًا ضـد الفكرة بوصم الأطفال بــــ بنات كاثوليكيات في المدرسـة بحد ذاتها. (الموالون، كـما أشرت إليهـم في الفصـل الأول هـي تلطيـف يصـف الإيرلنديـين الشماليين البروتسـتانتيين تمامًا كما يستعمل التلطيف «الوطنيون» لوصف الكاثوليكيـين: أنـاس لن يـترددوا في وصـف الأطفـال كـ كاثوليكيين أو بروتسـتانتيين. ولكنهم يترددون بالنعت بنفس المواصفات الدينية مع أنها اكثر موضوعية للبالغين من الإرهابيين والعصابات).

مجتمعنا، ويتضمن أيضًا اللادينيون، قد تقبل الفكرة غير المعقولة عن أنه من الطبيعي ومن الحق أن يلقن الأطفال الصغار دين آبائهم وإلقاء اللافتات الدينية عليهم «طفل كاثوليكي»، طفل بروتستانتي، طفل يهودي، طفل مسلم وإلخ.. على الرغم من أنه لا يوجد لافتة للمقارنة: ليس هناك طفل محافظ، لا طفل جمهوري، أو ديموقراطي، الرجاء، أرجوكم أن تلفتوا انتباهكم لهذا الموضوع، وعند سماعكم لشيء كهذا افعلوا شيئًا. الطفل ليس طفلاً مسيحيًا، أو مسلمًا. بل هو طفل لأبوين مسيحين أو مسلمين وتلك التاريف، بالمناسبة هي طريقة عظيمة للفت انتباه الأطفال أنفسهم. الطفل الذي يقال له بأنه «طفل لأبوين مسلمين» سيعرف فورًا بأنَّ الدين هو شيء له أن يختاره أو يرفضه عندما يصبح في عمر يؤهله لذلك.

من المؤكّد بأنه من المفيد دراسة مقارنة الأديان وقد أثيرت شكوكي بالتأكيد عندما كنت في حوالي التاسعة من العمر وذلك من درس (أتى من أهلي وليس من المدرسة) عن أنَّ المسيحية التي تربيت عليها هي أحد الأنظمة الإيمانية العديدة المتناقضات في العالم. وفي بعض الأحيان يخيف ذلك رجال الدين عندما يلاحظونه. وبعد قصة مسرحية الميلاد في الأندبندنت، لم تصل أي رسالة لمحرر تشتكي من وضع لوائح على الأطفال ذو الأربع سنوات تصفهم بدياناتهم. والرسالة السلبية الوحيدة وصلت من «حملة التعليم الحقيقي» والتي قال المتحدث باسمها نيك سبتون، بأنَّ تدريس الديانات المتعددة خطر لأنَّ الأطفال في أيامنا يتعلمون أن الديانات جميعها لها قيمة متساوية، وهذا يعني بأنَّ دينهم ليس له أي قيمة خاصة» بالتأكيد، هذا ما يعنيه ذلك. حسنًا هل سيكون

هذا المتحدث باسـم المنظمـة قلقًا إذا ما قيل للطفل في مناسـبة أخرى، إنَّ التعريـف بـأنَّ كل الديانات لها نفس المصداقية هو خطأ. وكل له الحق بأن يظـن بأنَّ إيمانـه أفضل من الإيمانات الأخرى، سـواء كانوا من الهندوس، اليهود أو المسلمين أو المسيحين وإلا فما قيمة الإنسان؟

نعـم مـا قيمته بالتأكيد؟ وكم هو سـاذج ذلك الاعتقـاد! إنَّ الإيمانات متناقضـة فيـما بينهـا. وإلا فماذا يعنـي أن يكون إيمانك أفضـل؟ ولهذا فإن غالبيتهـم لا يمكـن أن يكـون «أفضـل مـن الآخريـن». لنـدع الأطفـال يتعلمـون الأديـان المختلفـة، لندعهـم يلاحظـون التضـارب ولندعهـم يسـتخلصون آراءهم الخاصة عن نتائج هذا التضارب. وإما عن موضوع كون أحدها صحيح، فلندعهم يقرروا ذلك بأنفسـهم عندما يصبحون في عمر يؤهلهم لذلك.

التعليم الديني كأي جزء من الثقافة الأدبية:

على أن أعترف بأنني مندهش من جهل المثقفين العام بالكتاب المقدس في يومنـا هذا أكثر من المـاضي، وربما أن الأمر ليس من موضوع عقود من الزمـن، فحتـى في 1954 واعتمادًا على معلومات روبـروت هيند في كتابه الفكـري لماذا تسـتمر الإلهه، فإنَّ اسـتطلاع غالوب في الولايـات المتحدة وجد مايلي. ثلاثة أرباع الكاثوليكيين والبروتسـتانتيين لم يسـتطيعوا تسمة أي نبي من العهد القديم. وأكثر من الثلثين لم يعرفوا من القى الموعظة من الجبـل.و عـدد كبير يظن بأن موسـى هو أحد تلاميذ يسـوع الأثنى عشر. هـذا واعيد هنـا كان في الولايـات المتحدة، والتـي هي أكثر تدينًا بشـكل درامي من كل البلاد الأخرى في العالم المتحضر.

إنَّ إنجيل الملك يعقوب من 1611 الطبعة المعترف بها، يتضمن بعض المقاطع من الأدب البارز بحد ذاته، والسرد الرفيع (و قد قيل لي بأن الطبعة العبرية الأصلية تتضمن ذلك أيضًا) ولكن السبب الرئيسي لئن يكون الأنجيل الإنكليزي أحد أجزاء التعليم الأدبي هو أنه مصدر رئيسي للثقافة الأدبية. ونفس الشيء يطبق على الإلهة الأغريقية والرومانية وقد درسناهم بدون المطالبة بالإيمان بهم وإليكم لائحة سريعة عن جمل استوحيت من الإنجيل والتي تستعمل بشكل متكرر في الأدب والمحادثات الإنكليزية ومن بعض الإشعار العظيمة للكيشيهات المبتذلة من الأمثال وحتى الثرثرة.

كن مثمرًا وتضاعف شرقي عدن. ضلع آدم. هل أنا حارس لأخي؟ إشارة قابلي قديم قدم ميتوشالح. باع حقوق ولادته. سلم يعقوب، معطف بألوان متعددة، النواة الغريبة، بلا عيون في غزة، دسم الأرض، العجل المسمن، غريب في الأرض الغريبة، الغابة المشتملة، أرض العسل والحليب، دع أناسي يذهبون، طنجرة اللحم، العين بالعين والسن بالسن، تأكّد بأن ذنوبك ستكشفك، تفاحة عينه، النجوم في فصولها، سمن في صحن الهى، مضيفوا مدين (وكثير من الجمل الأخرى وبعضها يقال نفسه بالعربية - المترجم)

كل واحد من تلك التعابير، الجمل أو الكيشيهات آت مباشرة من أنجيل الملك يعقوب. وبالتأكيد فإنَّ الجهل بالإنجيل يؤدي لفقر في إمكانية تقدير الأدب؟ وليس فقط الأدب الجاد ما يأتي قصيدة من إبداع اللورد جاستين باون:

المطر ينزل على فقط

وعلى الإنسان الظالم أيضًا

ولكن بشكل خاص على أنا

ذلك لأن مع الظالم شمسية.

ولكن المتعة تخبو إذا لم تكن تعرف تلميحات المقطع من أنجيل متى 5:45 لأنه يشرق شمسه على الأشرار والصالحين ويمطر على الأبرار والظالمين. وكذلك النقطة التي أشارت لها إليزا دوليتل في سيدتي الجميلة سوف لا تفهم من قبل من هو جاهل بنهاية حنا المعمدان:

«شكرًا جزيلاً أيها الملك، أقولها بأسلوب المتربي بشكل جيد، ولكن كل ما أوده هو».

بي. جي وولد هاوس، في رأيي هو أعظم كاتب للكوميديا الخفيفة باللغة الإنكليزية. وأنا أراهن أن نصف جمل اللائحة الإنجيلية التي نوهت عنها يمكن إيجاد تلميحات عنها في صفحاته. إن تشريعات وولدهاوس غني بعبارات انجيلية أخرى، وليست مما تضمنت لائحتي وليست مما يستعمل في اللغة التعبيرية أو الأمثال. لنستمع إلى القصة البعث لبيرتي ووستر عن الاستيقاظ مبكرًا مع الشعور بصداع الكحول: «حلمت بأنَّ أحدًا يغرس أشواكًا في رأسي وليست أشواكًا عادية، من التي يستعملها جيل وزوجته في هيبير، بل حارة لدرجة الاحمرار.. وبيرتي نفسه فخور جدًا بفوزه بالجائزة الفكرية الوحيدة التي حصل عليها في حياته كإنجاز عن معرفته بالكتاب المقدس.

مـا ينطبق على الكتابـة الكوميدية الإنكليزية ينطبق بشـكل أكبر على الكتابات الثقافية الجادة. إن حسـابات نصيب شاهين بينت بأن هناك اكثر من ألف وثلاثمائة عبارة إنجيلية في كتابات شكسبير منتشرة بشكل واسع وكبيرة المصداقية. وتقرير الأدب الإنجيلي منشـور في فيرفاكس، فيرجينيا (يجب الاعتراف بأنَّ التمويل آت من مؤسسة تمبلتون السيئة) يعطينا أمثلة كثيرة ويبين بشـكل عارم اتفاق أسـاتذة الأدب على أن عبارات الإنجيل ضروريـة لتقديـر المواضيـع التي يدرسـونها. وبدون شـك فالموضوع هو نفسـه بالفرنسـية والألمانية والروسية والإيطالية والإسـبانية وكل اللغات الأوروبية الأخرى.

وبالنسـبة للمتكلمـين بالعربيـة أو الهنديـة فالموضـوع ضروري أيضًا لجعلهم قادرين على تقدير التراث الأدبي للغاتهم. وأخيرًا ولختم الموضوع فإنـك لاتسـتطيع تقدير فاغنر (و الـذي قيل عن موسـيقاه بأنها أفضل مما تبدوا لسامعها) بدون أن تعرف طريقك حول الهة النرويج.

دعـوني هنـا أؤكد على نقطة ربما قلت ما يكفـي لإقناع قرائي القدامى بأن وجهة النظر الإلحادية لاتبرر رمي الكتاب المقدس، أو أي من الكتب المقدسة خارج نطاق ثقافتنا وبالتأكيد علينا أن نكن الولاء للتقاليد الثقافية والأدبيـة علـى سـبيل المثـال، اليهوديـة، الإنجيليـة أو الإسـلامية وحتى للتقاليـد الدينيـة المتبعـة في الزواج والجنـازات، بدون أن نفكـر بأن هناك نظـام إيمان بالخـوارق كان إلى جانب تلك التقاليد عبر التاريخ، نسـتطيع ترك الإيمان بالله دون خسران العلاقة مع التراث.

الفصل العاشر

الفجوة المهمة جدًا

«ما الذي يستطيع أن يحرّك المشاعر الروحية أكثر من النظر في تلسكوب بقطر 100 بوصة إلى المجرات البعيدة، أو أن تكون بين يديك متحجرة عمرها 100 مليون عام أو أداة حجرية عمرها 500000 سنة وأنت تنظر إليها. توقفك أمام الهواة الهائلة للمكان والزمان في وادي جراند كانيون، أو الإصغاء لعالم نظر في وجهِ الكون ولم يرمشْ له جفن؟ ذلك هو العلم العميق المقدّس»..

- مايكل شيرمر

«هـذا الكتاب يملأ فجوة مهمة جدًا» تلـك الدعاية تصلح لأننا نفهم المعنيـين المتضاديـن لهـا. وبالمصادفة كنت أفكـر بأنها نكتـة مخترعة ولكن ولدهشتي وجدت أنها استخدمت فعلاً وبكل براءة من قبل ناشر لكتاب «ملأ» فراغًا يحتاج لملئة في الأدب عن حركة ما بعد البناء».

http://www.kcl.ac.uk/kiss/schools/hums/french/pgr/tqr/htm1

يبـدو أنـه من المناسـب جدًا أن يكون هـذا الكتاب الزائـد عن الحاجة عن ميشـيل فوكـو، رونالد بارث، جوليا كريسـتيثا وآخرون من إيقونات الفرانكوفونية.

هـل يمـلأ الدين فراغًا نحتاج لملئـه؟ غالبًا ما يقال بـأن هناك فراغًا في الدماغ على شـكل الإلـه ويجب ملئه: توجد حاجة نفسـية للإله الصديق التخيـلي الأب، الأخ الأكـبر، المعـترف له، محل الثقة، وهـذه الحاجة يجب سـدها سـواء وجـد الله أم لم يوجد. ولكن هـل من الممكـن أن يكون من الأفضل أن نملأ تلك الفجوة الإلهي بشيء آخر؟، علم، ربما؟ فن؟ صداقة إنسـانية؟ حب الحياة في العالم الحقيقـي، وبدون إعتبارات لحيوات أخرى تلي القبر؟ حب الطبيعة، أو ما سماه عالم الحشرات العظيم أي، أو ويلسون بـــ البيوفوليا.

يعتقد بأنَّ الدين في وقت أو آخر قد لعب أربعة أدوار رئيسـية في حياة الإنسان ألا وهي: تفسير، وحث، وعزاء والهام. وتاريخيًا فقد طمح الدين لتفسـير وجودنـا والطبيعـة من حولنـا والكون الـذي وجدنا أنفسـنا فيه ودوره في أيامنا قد أخذه العلم بشـكل كامل، وقد تعرضت لتلك الفكرة في الفصـل الرابع. إما بالنسـبة للحث فـما أعنيه هو التعليـمات الأخلاقية

عن السلوك، وقد غطيت ذلك في الفصل السادس والسابع، وحتى الآن لم أبرر موضوعي لعزاء والإلهام، وفي هذا الفصل سوف نتعرض لهما بشكل وجيز، وكتمهيد للعزاء نفسه، أريد أن أبدأ بظاهرة طفولية تسمى «الصديق التخيلي» والتي بإعتقادي لها علاقة مباشرة مع الإيمان الديني.

بينكر:

في اعتقادي أن كريستوفر روبين ما كان ليصدق بأن صغير الخنزير بيغليت والدبدبوب بووه (شخصيات كارتونية) تكلمًا معه. ولكن هل كان وضع بينكر مختلفًا؟.

بينكر هذا ما أدعوه هو سري الخاص، وبينكر هو السبب في أني لا أشعر بالوحدة مطلقًا، يلعب على السرير، يجلس على الدرج، وعندما اكون مشغولاً بأي شيء بينكر يكون معي.

آه، أبي ذكي، إنه من الرجال الأذكياء،

وأمي هي الأفضل منذ بداية العالم، ومربيتي مربية.. وأنا أناديها نان ولكنهم جميعًا لا يرون بينكر.

بينكر يتكلم دائمًا، لأني أعلمه الكلام

بعض الأحيان يتكلم بشكل مضحك كالصرير

وبعض الأحيان يصرخ بزمجرة

ويجب أن أساعده لأن حنجرته تؤلمه.

آه، أبي ذكي، أنه من الرجال الأذكياء،

وأمي تعرف كل ما يمكن للمرء معرفته،

ومربيتي مربية، وأنا أناديها نان

ولكنهم لا يعرفون بينكر

بينكر شجاع كالأسد عندما يركض في الحديقة

بينكر شجاع كالفيل، وأبدًا.. أبدًا لا يبكي..

إلا مثل الآخرين عندما يدخلون الصابون في عينيه..

آه.. أبي.. أبي... أنه أبي من الرجال،

و أمي هي أمي.. كما بإستطاعة أي كان.

ومربيتي.. مربية.. وأنا أناديها نان

و لكنهم لا يحبون بينكر..

بينكر ليس طماعًا، ولكنه يحب الأكل...

و لهذا فعلي أن أقول للناس عندما يعطوني قطع الحلوى..

آه... بيكر يريد شوكولا، فهل يمكن أن تعطيني أثنتان؟

و بعد ذلك اكل أنا عنه، لأنه أسنانه جديدة

حسنًا، أنا أحب أبي.. ولكنه لا يملك الوقت للعلب.

و أحب أمي كثيرًا.. ولكنها تذهب بعض الأحيان..

و أحيانًا أعارض مربيتي عندما تريد تمشيط شعري بالفرشاة.

و لكن بينكر، دائمًا بينكر، موجود هنا معي.

أ. أ. ميلن، من قصيدة، الآن أصبحنا ستة.

هـل ظاهرة الصديـق التخيلي وهم قوى من صنـف مختلف عما نجعل الأطفال يصدقونه؟ أن تجربتي بهذا الصدد لن تساعد الكثير هنا. وكغالبية الأهل، فقد احتفظت أمي بمدونة عن كلماتي الطفولية. وبالإضافة لبعض التظاهرات البسيطة (أنا الآن هو الرجل على القمر.. المسرع.. أنا البابلي) فمن الواضح أنني كنت من معجبي التظاهر في المرتبة الثانية (الآن أن بومة تتظاهـر بأنها ناعورة) والتي يمكن إسـقاطها على (أنـا الآن صبي صغير يتظاهـر بأنـه ريتشـارد). لم أؤمن على الإطـلاق بأني أحد تلك الأشـياء، واعتقـد أن ذلـك صحيـح في حـالات اللعـق لجعـل الأطفـال يصدقون الأشياء. ولكن لم يكن لدى بينكر. ولو صحت اعترافات اولئك البالغين عن إصدقاء طفولتهم التخيليين فإن بعض هؤلاء الأطفال الطبيعيين على الأقـل كان مؤمنًـا حقًا بأن لديه صديقًا تخيليًـا وفي بعض الحالات يرونهم كهلوسة حقيقية وواضحة.

اشـتبه بأن ظاهرة بينكر الطفولية يمكن أن تكون نموذجيًا جيدًا لفهم الإيـمان الألوهـي عنـد البالغين. لا أعـرف إذا كان علـم النفس قد درس تلـك الظاهـرة من وجهة النظـر تلك، ولكـن بحثًا كهذا يسـتحق العناء. رفيـق ومحـل للثقة بينكر لمدى الحياة، ذلك بدون شـك أحـد الأدوار التي يلعبها الإله فجوة متروكة يستطيع الإله ملأها إذا أراد.

طفـل آخر، فتاة عندما «رجل صغير بنفسـجي» ويبـدو له حقيقي وله وجـود مرئي، ويظهر بلمعة خاطفـة في الهواء، مع صوت مدغدغ لطيف، يزورهـا بإنتظام وخصوصًا عندما تشـعر بالوحدة، وبتواتر يقل مع كبرها في السـن. وفي أحـد الأيـام وقبـل أن تذهـب للروضـة، الرجـل الصغير

البنفسجي أتى إليها، مسبوقًا بالبوق المدغدغ، ليعلن لها بأنه لن يزورها بعد الآن. أحزنها ذلك، وذلك الرجل البنفسجي قال لها بأنها تكبر الآن ولن تحتاج اليه في المستقبل. وعليه تركها الآن، لأن عليه أن يهتم بأطفال آخرين.

و وعدها بأن يعود إليها في حال حاجتها إليه بشكل اضطراري فعلاً. وقد عاد إليها، بعد عدة أعوام في الحلم، عندما كان لديها مشاكل شخصية تتعلق بما تريد أن تفعل في حياتها. فتح باب غرفة نومها وظهرت عربة محملة بالكتب يدفعها الرجل البنفسجي الصغير. وفسرت ذلك بأن عليها أن تذهب للدراسة في الجامعة، نصيحة أخذت بها وتبينت أنها جيدة فيما بعد. القصة تدفعني لذرف الدموع، وتقربني اكثر ما يمكن للحد الذي يمكنني أن أتفهم فيه دور المواساة والنصح للإله التخيلي. ولكنها تبدوا حقيقة جدًا لطفل، وتعطيه الراحة والنصائح الجيدة. وربما أفضل من ذلك: الصديق التخيلي والإله التخيلي عندهما الوقت والصبر لتكريس كل انتباههم على المعاني. وهما أرخص كثيرًا من المعالجين النفسيين أو المستشارين المحترفين.

هل تطورت الإلهة، بلعب دورها كناصحة ومواسية، من إشباه بينكر، كصنف من «البيندومورفوسيس» النفسي؟

البيدومورفوسيس هو استبقاء الشخصية الطفولية لبعد البلوغ. الكلاب البينكينية لها تلك الخاصية، فالبالغين منها يشبهون المولودين. وذلك أحد الأنماط المعروفة من خلال التطور، ومقبول بشكل واسع كنمط مهم يفسر بعض المواصفات الإنسانية كالجبين المتفخ والحنك الضيق عند الإنسان.

التطوريـون وصفونـا كقـرود أحداث، وذلـك صحيـح بالتاكيد لأن أحداث الشـمبانزي والغوريلا تشـبه الإنسـان باكثر ممـا تفعله الحيوانات البالغة. هل يمكن أن يكون الدين قد تطور بالأصل من تأجيلات متدرجة عـبر الأجيال، بدأ من النقطة التي يترك بها الأطفـال «بينكراتهم» تمامًا كما تباطنـا نحـن من خـلال التطور في تسـطيح حبهاتها واظهـار النتوءات في احناكنـا؟ افترض للكمال هنا، بأن علينـا أن نأخذ بعين الإعتبار الإمكانية المعاكسـة. عوضًا عن أن يتطور الإله من سـلفه بيكر، هل يمكن أن يكون بينكـر قد تطور من سـلفه الإله؟ يبـدوا ذلك أقل احتمالاً بالنسـبة لي وقد دفعنـي للتفكير بذلـك بينما كنت أقـرأ للسـيكولوجي الأمريكي جوليان جاينـس كتابه أصل الوعي بانهيار العقل الثنائب التشريعي، كتاب غريب كـما ينبـئ عنوانه عنـه. أحد تلك الكتـب التي هي إما نفايـات بكاملها أو إنتاج لعبقري. ولا شيء بينهما! ربما الاحتمال الأول هو ما أراهن عليه.

لاحـظ جاينس بأن اكثـر الناس يدركون عملياتهـم الفكرية كنوع من المخاطبـة بـين الأنـا ونصير داخـلي آخر في الـرأس. واليوم نعلـم بأن كلا الصوتين يعودان إليه، وعندما لا نعرف ذلك فإننا نُعامل على أننا مرضى نفسـيين. حدث ذلك لفترة وجيزة مع ايفلـين ووف، حيث قال لصديق: أنا لم أراك منذ فترة طويلة، ولكني أيضًا أنا قابلت بعض الناس لأنني هل تعلم؟ كنت مجنونًا لفترة بعد شفائه كتب ووف قصة محنة جلبرت بينفولد، حيث وصف فيه فترة الهلوسة والأصوات التي سمعها في رأسه.

جاينـس يقـترح نظريته بأنـه في وقت ما يـأتي 1000 ق م لم يكن الناس منتبهين إلـى وجود الصوت الآخر، نفس الصوت الذي سـمعه جلبرت بينفولد يأتي من الشخص نفسه. بل أنهم ظنوا بأنه كان صوت الإله: أبولو

مثـلاً، أو عشـتار أو يهـوه أو أغلب الظن إله محلي منـزلي يعطي نصائحًا أو أوامـرًا، جاينس اسـتطاع تحديد منطقـة صوت الإله في القسـم المعاكس للقسـم المتحكـم بالقـدرة على السـماع. إنَّ الكتـاب بالنسـبة لجاينس هو تحـول تاريخـي. عن الفترة التاريخيـة التي عرف فيها البـشر بأن الأصوات التي تبدوا خارجية هي في الحقيقة داخلية. جاينس يذهب حتى لأبعد من ذلـك بتحديد الفترة الزمنية لذلك الحدث هي نفسـها الفترة التي بدأ فيها وعي الإنسان بالظهور.

يوجـد مخطوط مصري قديم عن الإله الخـاق بتاه، والتي تصف الآلهة المختلفـة الأخـرى كأوجـه مختلفـة لـــــ صوت أو لسـان بتـاه. والترجمة العصريـة رفضت كلمة صوت واسـتبدلتها بـــ المفاهيم المجسـمة لعقل بتـاه. جاينـس رفض تلك القـراءة المثقفـة وفضل أن يأخـذ المعنى الحرفي بشكل جدي. الإلهة كانت هلوسات صوتية تتكلم داخل رأس الإنسان.

يذهـب جانيـس باقتراحاتـه لأبعـد من ذلك بـأن الإلهة تطـورت من ذكريـات الملـوك الميتين، والذيـن لا يزالون كما يقال يتحكمون بأشـيائهم مـن خلال الأصوات التخيلية في رؤوسـهم وبغض النظر عن كونك تجد لذلك أي مصداقية فإنَّ كتاب جاينس مثير للفضول بشكل كاف ليستحق مكانته بين كتب البحث الديني.

والآن لنعـد إلـى الإمكانيـة التـي اسـتعرتها من كتـاب جاينـس لبناء النظرية عن إن الإلهة والبينكرات تتقارب من ناحية التطور الفكري، لكن العكس من نظرية الفكر البيدومورفيوسـيسي لم تحصل فجائيًا في التاريخ، بل تطورت بشكل تدريجي بالتراجع نحو الطفولة عندما اعتدتُ أصوات الهلوسة والضهورات المرفقعة كأشياء غير حقيقية. بشكل يعاكس فرضية

البيدومورفوسيس، الآلهة المهلوس بها اختفت من عقول الكبار أولاً، وبعدها بدأت بالأختفاء في فترات أبكر وأبكر حتى الطفولة وفي أيامنا لم يبقى إلا ظواهر مثل بينكر أو الرجل البنفجسي الصغير.

المشكلة مع هذه الفرضية بأنها لاتفسر بقاء الإله عند البالغين في يومنا هذا. ربما كان من الأفضل أن لا نعامل الآلهة كأسلاف بينكر، أو العكس بالعكس، ولكن أن نعتبر كلاهما كأعراض جانبية لنفس الظاهرة النفسية. الإلهة والبينكرات لديهما القدرة على تحقيق الطمأنينة وإعطاء توجيهات واضحة لتجربة أفكار جديدة. وبهذا لا نكون قد ابتعدنا كثيرًا عن الفصل الخامس والأعراض الجانبية لنظرية تطور الدين.

العزاء:

حان الوقت لنواجه الدور المهم الذي يلعبه الدين في عزائنا: والتحدي الإنساني فيما لو لم يوجد الدين، لإيجاد شيء يحل محله. العديد من الناس الذين يعترفون بأنه ربما لا يوجد إله، وإنه ليس ضروريًا للأخلاقيات، يرجعون بما يظنون أنه الورقة الرابحة، الزعم النفسي أو العاطفي للحاجة لإله: لو رميت بالدين بعيدًا، يسألون بشكل مشاكس، فما الذي ستضعه ليحل محله؟ ما هو الشيء الذي ستوفره للمرضى، أو المفجوعين الباكين، أو المجرمين المعزولين عن المجتمع والذين يعتبرون الله صديقهم الوحيد المتبقي؟

أول شيء يقال هنا هو شيء لسنا بحاجة لقوله. إن قدرة الدين على عزاء الناس لا يجعله حقيقيًا. وحتى لو أننا قدمنا تنازلاً كبيرًا وحتى لو تبين بشكل حاسم بأن الأيمان بوجود الإله ضروري وأساسي للحالة

النفسية والعاطفية وأن كل الملحدين مصابون بقلق انتحاري بسبب الشعور بالذنب الكوني فلن يساهم أي مما سبق وبأي شكل مهما كان صغيرًا كدليل على أنَّ الإيمان الديني حقيقي. ربما تكون دليلاً يدعم الرغبة بإقناعك لذاتك بأن الله موجود، حتى لو لم يكن موجودًا، وكما أشرت سابقًا، فإنَّ دينيت في كتابه كسر التعويذة يفرق بين الإيمان بالإله والإيمان بالإيمان، الإيمان بأنه من المرغوب أن نؤمن، حتى لو كان الإيمان بحد ذاته خاطئًا. اؤمن يا سيد، فأعن عدم إيماني مرقس 9:24.

المؤمنون يدفعون لاحتراف الإيمان، بغض النظر عنِ اقتناعهم به أم لا. ربما لو كررت شيئًا بشكل كاف، فإنك ستنجح بإقتناع نفسك بأنه حقيقي. وأعتقد أننا جميعًا نعرف البعض ممن يسرون بالإيمان الديني، ويرفضون أي هجوم عليه، بينما يعترفون بتردد بأنهم لا يملكونه بأنفسهم.

و منذ قراءتى تفريق دينيت، بدأت أجد الفرصة لإستعمال ذلك مرارًا وتكرارًا وبالكد اكون مبالغًا عندما أقول بأن غالبية المحلدين الذين أعرفهم يخفون إلحادهم خلف واجهة دينية. هم أنفسهم لايؤمنون بأي شيء خارق، ولكنهم يحتفظون برقعة ضبابة من الإيمان اللاعقلاني، يؤمنون بالإيمان.

إنه لمن المذهل تعداد البشر الذين لايستطيعون التفريق بين (س) شيء حقيقي وإيمان البشر بكون (س) حقيقي هو أمر مرغوب به). أو أنهم لا ينتمون للفئة التي تقع بهذا الخطأ، ولكنهم يعتبرون الحقيقة غير ذات أهمية بالمقارنة مع شعور الإنسان... لا أريد الإنتقاص من شعور الإنسان ولكن لنكن صريحين هنا فيما نتكلم عنه هنا، هل هو الشعور والأحاسيس أم الحقيقة كلاهما مهمّان ربما، ولكنهما ليس نفس الشيء هنا.

في الحالـة التـي عرضتها، فإنَّ فرضيتـي مبالغ فيها بـل وخاطئة. ليس لدي أدلة على أنَّ الملحدين لديهم أي ميول عامة نحو التعاسة، أو الخوف القلـق. بعض الملحدين سـعداء. وبعضهـم الآخر بؤسـاء وبطريقة مماثلة فـإن بعض المسـيحيين، اليهود، المسـلمين، الهنـدوس والبوذيين تعسـاء، بينما آخرين منهم سـعداء. ربما تكون هنـاك أدلة احصائية عن العلاقة بين السـعادة والإيـمان أو عدمه. ولكني أشـك بـأن هناك تأثير قـوي لذلك، وعلـى كافـة الأحوال أجـد أنه من المثير السـؤال عما إذا كان هناك سـبب جيد للشعور بالاكتئاب لو عشنا بدون إله.

و سأنهي هذا الكتاب بالمحاججة، على العكس بأنه من السهل نصرح بأنه من الممكن لأحدنا أن يعيش حياة سـعيدة ومليئة بدون الخوارق والديانات. ولكن أولاً على أن أفحص الزعم القائل بأن الدين يوفر لنا العزاء.

العزاء تبعًا لقاموس أوكسـفورد، هو تخفيـف الحزن أو الضيق النفسي وسأقسم العزاء إلى صنفين.

- أولاً: العزاء المباشر المحسـوس، عندما يعلق شـخص على جبل في الليـل فإنه ربما يجـد العزاء في كلب كبير من نوع سـان برنار، بدون أن ينسـى بالطبع جاوبة البراندي المعلقة حـول عنقه. طفل باك يمكن أن يعزي بضمة من سواعد قوية وبكلمات تبعث الثقة في أذنية.

- ثانيًا: العزاء باكتشـاف واقع لم يكن بحسـب له حسـاب سـابقًا، أو اكتشـاف طريقة جديدة للنظر إلى واقع موجود. امرأة قتل زوجها في الحرب ربما تشعر ببعض العزاء عندما تعرف بأنها حامل بطفله، أو بأنه مات كبطل. وبإمكاننا أن نحصل على العزاء باكتشـافنا لطريقة تفكير

جديدة عن الوضع. يشير أحد الفلاسفة بأنه لا شيء يستحق الذكر يحصل عندما يموت إنسان كبير في السن. فالطفل الذي كان سابقًا قد مات منذ فترة طويلة، وليس بسبب توقفه عن الحياة فجأة بل لأنه قد كبر. إن كل واحد من «أعمار شكسبير السبع» يموت ببطء بأنتقاله من مرحلة لأخرى. ومن وجهة النظر تلك، فإن تلاشي الرجل العجوز لايختلف كثيرًا عن «موتاته» البطيئة خلال حياته.

و الرجل الذي لايتذوق وجهة نظر موته ربما يجد وجهة النظر الجديدة كعزاء، وربما لا.. ولكن هذا مثال فقط عن العزاء بالتفكير. أن نفي مارك توين للخوف من الموت شيء آخر: «أنا لا أخاف الموت، لقد كنت ميتًا لمليارات الأعوام قبل أن أولد، ولم يسبب لي ذلك أية مضايقات». ذلك البيان المختصر لا يغير شيئًا من الواقع بحتمية الموت. ولكنه يعطينا طريقة جديدة لرؤية تلك الحتمية وربما يكون فيها بعض العزاء.

توماس جفرسون أيضًا لم يكن يخاف الموت ولم يكن يؤمن بأي نوع من الحياة الآخرة بحسب ما يرويه كريستوفر هيتشنز: «و عندما بدأت أيامه بالغروب. كتب جفرسون اكثر من لإصدقائه بأنه يواجه النهاية القريبة بدون أن أمل أو خوف. وهذا يقول لنا تمامًا وبدون أي شك بإنه لم يكن مسيحيًا».

المفكرون المتينون ربما يكونوا جاهزين لتصريح برتراند راسل القوي في اطروحته عام 1925 ما أؤمن به:

أؤمن بأنني عندما سأموت فإنني سأتتعفن ولن يبقى شيء مني. لست شابًا ولا أزال أحب الحياة. ولكن على أن ازدري الإرتجاف برعب من

فكـرة الزوال. السـعادة بذاتها هي سـعادة حقيقية لأنها سـتصل لنهايتها، لايفقـد الحـب أو الفكـرة قيمتها بسـبب إنهما غـير دائمـين. الكثيرين من الرجال مضوا محمولين عن السـقالة بفخر وبالتاكيد فإن الفخر ذاته يجب أن يعلمنـا أن نفكـر بمكانة الإنسـان في العـالم. حتى عندما بـدأت نوافذ العلم المفتوحة بجعلنا نرتجف بعد الطمأنينة الدافئة للأسـاطير الإنسـانية التقليدية، فإن الهواء النقي يأتي بالحماس والمسـاحات الواسعة لها عظمتها الذاتية.

لقـد تأثـرت كثـيرًا بأطروحـة راسـل عندما قرأتهـا في مكتبة المدرسـة وكنت في السادسـة عشر. ولكنني نسـيتها، ومن الممكـن أن يكون الولاء اللاشعوري وراء ما كتبته في القسيس الشيطاني عام 2003.

هناك اكثر من مجرد العظمة في تلك النظرة للحياة، تبدو كئيبة باردة من تحـت الغطاء الآمن للجهـل. ولكن هناك الكثير مـن الإنتعاش بالوقوف منتصبًا في مواجهة وجهًا لوجه مع الريح الحادة القوية للإستيعاب: ييتس الريح التي تعصف عبر الطرقات المليئة بالنجوم.

كيـف يمكن أن يقارن الدين مع، مثـلاً، العلم في تأمين نوعي العزاء؟ للنظر إلى الصنف الأول، فمن المعقول جدًا بأن ذراع الله القوية وحتى لو كانت تخيلية تمامًا تسـتطيع العزاء بنفـس الطريقة ذراعي صديق، أو كلب السـان برنارد مع حاوية البراندي حول عنقه. ولكن بالطبع يمكن للطب العلمي أن يؤمن الراحة وعمومًا بشكل اكثر فعالية من البراندي.

لننتقـل الآن للصنـف الثاني، من السـهل الإيمان بأن الديـن يمكن أن يكـون فعالاً بشـكل كبير. والواقعـون في كوارث عظيمـة، مثل الزلازل،

يصرحـون غالبًا بأنهم حصلوا على العزاء مـن التفكير بأن ذلك كله جزء من المخطط الإلهي الغامض: لا شـك بأن شيئًا جيدًا سيأتي من ذلك مع الوقـت. وبالنسـبة لمن يخاف المـوت، فإن الإيـمان الصادق بـأن هناك 95 روحيًـا لاتفنـى يمكن أن يكون عزاء الـه إلا إذا كان يؤمن بأنه سـيذهب للجحيم، الإيمان الكاذب يمكن أن يكون بكل جزيئاته عزاء كما هو الحال في الإيمان الحقيقي حتى اللحظة التي ينجلى فيها الوهم وهذا ينطبق على الإيـمان غير الدينـي أيضًا. أن شـخصًا مصابًـا بسرطان مميـت ربما يعزي بكذبة من الطبيب بأنه قد شـفي، تمامًا كشخص قيل له بأنه شفي وبشكل صادق. ولا إيمان القلبي والصادق بالحياة بعد الموت لديه مناعة حتى ضد انجلاء الوهم اكثر من الطبيب الكاذب. إن كذبة الطبيب تبقى فعالة حتى تصبـح اعراض المرض غير قابلة للشـك ولكن الإيـمان بالحياة بعد الموت ليس له نهاية يتحرر فيها.

الإسـتفتاءات تنبئنا عن أن 95 % من شعب الأمريكيين يؤمنون بأنهم سـيحيون بعد موتهم. لا أمتلك نفسي من التساؤل ما هو عدد الأفراد من بـين من يزعمون ذلك، يؤمنون به فعلاً ومن صميم افئدتهم لو كانوا فعلاً صادقـين، ألا يجب عليهم جيمعًا أن يتصرفوا مثل القصة عن رئيس الدير مـن امبلفـورث؟ عندما قاله لـه الكاردينال بازل هيوم بأنه يحتضر، شـعر رئيس الدير بالفرح لأجله وقال: «مبروك إنها أخبار سارة فعلاً، كم أتمنى أن آتي معـك» رئيـس الدير علـى ما يبـدو كان مؤمنًا صادقًـا ولكن كون قصتـه نادرة وغير متوقعة هو السـبب الـذي يجعلها تشـد الإنتباه لدرجة إثارة الدهشة بالطريقة المشابهة للكرتون الذي تظهر فيه امرأة تحمل يافطة «مارس الحب، لا تمارس الحـرب» وهي عارية تمامًا وبجانبها رجل يقول

لنفسه «هذا ما ادعوه بالصدق!» لماذا لا يتصرف كل المسيحين والمسلمين بطريقة رئيس الدير عندما يسمعون بأن صديقًا قد توفي؟ وعندما يقول طبيب لإمرأة مؤمنة بأنه بقى في حياتها شهر واحد فقط. لماذا لا تضيء بالفرح والتوقعات المفرحة كما لو كانت قد حصلت على إجازة في سيشيل؟ لا استطيع الإنتظار. ولماذا لا يعطيها زوارها رسائل لتوصلها لمن رحلوا قبلها؟ قول للعم روبرت بأنني أحبه عندما ترينه...

لماذا لا يتكلم المؤمنون بتلك الطريقة عندما يكونون في حضرة إنسان محتضر؟ هل لأنهم لا يؤمنون بتلك الأمور ولكنهم يتظاهرون بالإيمان بها؟ أو أنهم يؤمنون بذلك ولكنهم يخافون عملية المموت. ولسبب وجيه إلا وهو أن جنسنا هو من الكائنات الوحيدة التي لا يسمح لها بالذهاب للبيطري ليضع حدًا لبؤسها بدون ألم. ولكن في تلك الحالة لماذا يأتي الإعتراض الاكبر على الموت الرحيم والإنتحار من الدين؟ في نموذج «رئيس الدير من الموت، ألا تتوقع بأن يكون المتدينون هم الأقل تعلقًا بالحياة الأرضية؟ ولكن بالرغم من ذلك فإن الحقيقة الصادمة تأتيك عندما تقابل شخصًا معارضًا بشكل عاطفي لموضوع الموت الرحيم أو المساعدة على الإنتحار. فإنك تستطيع المراهنة بكمية كبيرة من المال على كونهم متدينين والسبب الرسمي يمكن أن يكون بأن القتل خطيئة ولكن لماذا تعتبرها خطيئة إذا كانت تعتقد بصدق بأنها رحلة سريعة للجنة؟

أما موقفي من المساعدة على الإنتحار، فإنه مأخوذ من ملاحظات مارك توين، والتي كتبتها سابقًا. الموت لا يختلف عن عدم الولادة ساكون تمامًا كما كنت في أيام وليم الفاتح أو أيام الديناصور أو التريليوبايت. ليس هناك ما أخافه في ذلك ولكن عملية الموت يمكن وتبعًا لحظنا أن

تكون مؤلمة وغير سارة تجربة من النوع الذي اصبحنا معتادين كالحماية منه بالتخدير العام، مثل استئصال الزائدة الدودية وعندما يكون حيوانك الأليف في حالة احتضار مؤلمة، ستعلن وتوصف بالقسوة إذا لم تأخذه للبيطري ليعطيه تخديرًا عامًا لا يستيقظ بعده. ولكن عندما يمارس طبيب نفس العملية الرحيمة عليك أو على أي محتضر يتألم، فهو يخاطر بأن يصبح ملاحقًا بقضية قتل، وعندما سأحضتر فإني على أن أرحب بأن تؤخذ حياتي تحت التخدير العام، تمامًا كما لو كانت زائدة دودية ملتهبة، ولكن لن أحصل على هذه الحظوة لأنني عاثر الحظ كوني مولود كعضو في مجموعة الهومو سابيان الإنسان الحديث عوضًا عن على سبيل المثال كانيس فاميلياريس أو فليس كاتوس. على الأقل هذا هو الواقع إلا في حال انتقالي لمكان اكثر تنورًا مثل سويسرا، هولندا أو اوريغون، لماذا تلك الأماكن المتورة نادرة الوجود؟ غالبًا بسبب النفوذ الديني.

ربما يقال أليس هناك فرق هام بين سماحك بنزع زائدتك الدودية ونزع حياتك؟ في الحقيقة لا، ليس هناك فرق إذا ما كنت ستموت قريبًا على كل حال. وكنت ممن لديهم الإيمان الصادق بالحياة بعد الموت. لو كان لديك هذا الإيمان فإن الموت لا يعدو عن كونه ممرًا من هذه الحياة لحياة أخرى. ولكن عندما يكون الممر مؤلمًا فإن الحاجة تبدو أقل أهمية في عبوره بدون التخدير العام. أن إولئك الذين يرون في الموت نهاية بدلاً عن كونه ممرًا هم الذين يجب عليهم بسذاجة أن يرفضوا الموت الرحيم والمساعدة على الإنتحار، إلا أن اولئك هم الذين يدعمون الفكرة.

(في دراسة عن الموقف من الموت بين الملحدين الأمريكان وجد ما يلي: 50 % ارادوا الإحتفال بذكرى حياتهم، 99 % ايدوا فكرة المساعدة على

الإنتحار من قبل مختص للذين يرغبون بذلك. 75 % ارادوها لأنفسهم، 100 % رفضوا أي علاقة بمستشفيات داعمة للأفكار الدينية).

و بنفس السياق، ما هي استنتاجاتنا من ممرضة متمرسة من معارفي، ممن لديها خبرة عمر في إدارة بيت للعجزة، حيث الموت حدث يتكرر غالبًا؟ لقد لاحظت عبر السنين بأن الأفراد الاكثر خوفًا من الموت هم المتدينون، يجب أن تدعم ملاحظتها بالإحصاءات ولكن على فرض بأنها على حق فما الذي يحدث هنا؟ مهما كان الأمر فإنه لا يدعم قدرة الدين على طمأنة المتحضرين في حالة الكاثوليكيين ربما يخافون البرزخ؟ القديس الكاردينا هيوم وع صديقًا بالكلمات التالية: «حسنًا وداعًا إذن أراك في البرزخ على ما اعتقد» ما اعتقد هنا تبدو لي كغمرة من الشك في تلك العينين اللطيفتين العجوزتين.

أن التلقين عن حياة البرزخ يكشف لا معقولية عمل العقل عند رجال الدين. إنه نوع من جزيرة ايليس، غرفة انتظار لأروح الموتى بذنوب لا تكفي لإرسالهم للجحيم ولكنهم لا يزالون يحتاجون للتطهير والفحص قبل أن يتم ايداعهم في المنطقة خالية الذنوب في الجنة، وفي العصور الوسطى درجت عادة بيع الإنغماس من قبل الكنيسة مقابل المال. وهذا يعني الدفع خصم عدد من الأيام في البرزخ، والكنيسة وبكل دقة (و بفرضية تقطع الأنفاس) اصدرت شهادات موقعة تحدد عدد أيام العطلة المشتراة.

كنيسة الروم الكاثوليك مؤسسة قام ربحها على كلمة ابدعت خصيصًا لأجلها الحرام. ومن بين كل الأموال التي ربحتها بالإحتيال، فإن بيع الإنغماس يجب أن يعتبر بالتاكيد على أحدى الدراجات العليا من

النصب في التاريخ، مثيل قروسطي للغش النيجيري على الإنترنت ولكن بنجاح اكبر بكثير.

و حتـى مؤخـرًا عـام 1903 فـإن البابا التـي العاشر علـى الاكثار من أيـام الراحـة مـن الـبرزخ التـي يسـتحقها كل مـن في التـدرج الرئـاسي: الكاردينالات، مئتي يوم، رؤسـاء الأسـاقفة مئة يوم، الأسـاقفة خمسـون يومًـا فقـط. وفي هـذا الوقـت علـى كل الأحـوال لم يكن الإنغـماس يباع بالمال وحتى في القرون الوسـطى فلم يكن المال هـو العملة الوحيدة التي يسـتطيع البشر دفعها للخلاص من البرزخ. بإستطاعتك الدفع من خلال الصلـوات أيضًا، صلواتك أنت خلال حياتـك أو صلوات الآخرين من أجلك بعد موتك. والمال يسـتطيع شراء الدعاء ولكن غنيًا فبأسـتطاعتك شراء روحك إلى الأبد.

أن كليتـي في اكسـفورد، الكليـة الجديـدة، أنشـأت في 1379 (كانـت جديـدة حينها) من قبل أحد أعظم المحسـنين في ذلك القرن، ويليام أوف ويكيهام، اسـتقف ونشسـتر، أن أسـقفًا من العصور الوسـطى يمكن أن يصبـح بيل غيتس عـصره، ويتحكم بما يـوازي «طريـق المعلوماتية» نحو الله، ويحشـد الأموال الطائلة. ابرشـيته كانت واسعة بشكل استثنائي وقد اسـتعمل ويكيهام غناه ونفوذه لتأسيس مؤسستين تعليميتين عظيمتين، احداها في وينشتسر والآخرى في أوكسفورد.

التعليـم كان مهـمًا لويكيهـام، ولكن وبكلـمات التارخيين عـن الكلية الجديدة، فإنه نشر عام 1979 وفي الذكرى السـتمائية للتأسيس، بأن الهدف الرئيسي للكليه، كعطاء عظيم ليشـفع لروحه. لقـد أعطى لخدمة الكاهن وعشرة مسـاعدين وثلاثة مسـتخدمين وسـتة عشر مغنيًا بالكورال، وأمر

بأنه في حال فشل الكلية ماليًا بأن يكونوا هم الوحيدين الذين يبقى دخلهم ساريًا. ويكيهام ترك الكلية الجديدة بأيدي الهيئة الإدارية، مجموعة ذاتية الإنتقاء والتي استمرت بالوجود كعضو واحد لاكثر من ستمائة عام.

و المفترض أنه واثق بأننا أيضًا سنستمر بالصلاة لروحه عبر القرون.

و اليوم يوجد قسيس واحد (أنثى ماذا سيكون موقف الأسقف ويليام من ذلك) في الكلية وكذلك مستخدم واحد والصلوات المكثفة لويكيهام في البرزخ عبر القرون تقلصت إلى صلاتين في العام. وحده الكورال هو الذى يبقى قويًا وموسيقاه ساحرة بالتاكيد. حتى أنني أشعر ببعض الذنب، كأحد الأعضاء من الهيئة الإدارية، لخيانه الأمانة. وبمفهوم زمانه فإنه ويكيهام مساو لشخص غني في أيامنا من الذين يهبون الكثير من المال لمؤسسة تضمن له تجميد جسده وابقاءه معزولاً عن الهزات الأرضية والحروب النووية والأخطار الأخرى حتى زمن لاحق حيث يكون الطب قد توصل إلى معرفة كيفية ارجاعه وشفاء العلة التي كان يشكو منها. ولكن هل نحن الرفاق اللاحقين على اتصال مع المؤسس؟ لو كانت الإجابة بنعم فنحن إذن في صحبة جيدة. المئات من المحسنين ماتوا واثقين ممن وظفوهم، ودفعوا لهم، ليصلوا لهم في البرزخ. لا استطيع تملك نفسي من التساؤل كم من الأعمال الفنية والكنوز المعمارية في القرون الوسطى بدأت كعربون من أجل الأبدية والتي تمت خيانتها الآن.

و لكن ما يسحرني فعلاً عن التلقين عن البرزخ هو الأدلة التي اتى بها رجال الدين عنها: أدلة ضعيفة بشكل صارخ لتبدوا اكثر كوميدية من الثقة التي ترافقها. أن المدخل لقسم للبرزخ في الموسوعة الكاثوليكية فيه جزء يسمى «البراهين». والأدلة الأساسية على وجود البرزخ هو ما

يلـي. لو أن الميت ذهب للجنة أو جهنم ببسـاطة على أسـاس ذنوبه على الأرض، لما كان هناك أي معنى للصلاة والدعاء من أجله». ولماذا الدعاء للميت، إذا لم يكن هناك إيمان بأن قوة الدعاء لتؤمن بعض العزاء لأولئك الذيـن ليسـوا في منطقة الرؤيا للإلـه». ونحن فعلاً ندعـوا للميت، أليس كذلـك؟ وبالتـالي فالـبرزخ يجب أن يكـون موجودًا، وإلا فـإن الدعوات ليـس لهـا معنى!.. وهذا البرهـان هو مثال جدي على مـا يجري في عقول علماء الدين من العقلانية.

تلـك النتيجـة الخاطئـة الهائلـة، على مقيـاس أعرض توجـد في نشرة أخرى عن الحجة العزائية. يجب أن يكون هنالك إله، هكذا تبدأ لأنه لو لم يكن، فإن الحياة ستكون خالية، وعديمة المعنى، وقاحلة، صحراء معدومة الهدف وتافهة. كيف يمكن أن يكون من الضروري أن يسـقط المنطق عند الحاجـز الأول؟ ربما تكـون الحياة فارغة. ربما يكـون دعائنا للميت عديم الفائدة. وافتراض العكس يفترض أنه الحقيقة للنتيجة التي نريد أثباتها.

أن المنطـق القيـاسي هنـا لـف ودوران واضح.. الجياة بـدون زوجتك يمكن أن تكون حقًا لا تحتمل. قاحلة وفارغة ولكن مع الأسف فإن ذلك لايعني توقفها عن كونها ميتة. هناك شيء طفولي في الإفتراض بأن شخصًا آخـر (الأهـل في حالة الأطفـال والإله في حالـة البالغين) لديه مسـؤولية أعطاء حياتك معنى وهدف. إنها كلها قطعة من الطفولية لهؤلاء الذين في اللحظة التي يلوون بها كاحلهم، ينظرون حولهم لإيجاد شخص ليقاضوه. أحد ما يجب أن يكون مسـؤولاً عن سـلامتي، وآخر يجب أن يلام عندما أتـألم. أهي طفولية مشـابهة تلك التي تختبي حقيقـة وراء «الحاجة» للإله؟ هل نعود إلى بينكر مرة أخرى؟

وجهة نظر البالغين، على العكس من ذلك، هي بأن حياتنا مليئة بالمعني، مليئة ومدهشة بقدر ما نختار لها أن تكون. ونستطيع أن نجعلها مدهشة بالتاكيد. لو أعطى العلم العزاء من النوع اللامادي، فإنه يأخذني إلى موضوع النهائي......الإلهام.

الإلهام:

إنها مسألة ذوق شخصي وتبرير ذاتي والذي يفتقر للأسف بشكل ضئيل للتأثير الناتج عن استعمال اللهدة الخطابية عوضًا عن المنطق. لقد فعلت ذلك مسبقًا والكثيرون فعلوا ذلك ومن ضمنهم، كأمثلة من العصر الحديث، كارل سيغان في النقطة الزرقاء الباهتة، أي أو ويلسون في بيوفيليا. مايكل شرمر في روح العلم وباول كورتس في تاكيدات. وفي كتابي حل قوس قزح كنت قد جربت أن استعرض كم نحن محظوظين بأننا نعيش، لمعرفتنا بأن غالبية البشر الذين يمكن أن ينشأووا من يا نصيب الذي أن أي في الواقع لن يولدوا اطلاقًا. ولهؤلاء المحظوظين بشكل كاف ليكونوا هنا. صورت مدى الحياة القصيرة لنا كبقعة ضوء تزحف على مسطرة زمن عملاقة. كل ما هو قبل وبعد تلك البقعة يقع في الظلام الماضي الميت او المستقبل المجهول ونحن محظوظون بشكل غير عادي لنجد أنفسنا داخل بقعة الضوء تلك مهما كان زمن وجودنا ضئيلاً تحت الشمس. ولو ضيعنا ثانية منه مدعين الضجر أو الضيق (كالطفل). إلا يمكن أن نرى في ذلك فيه تحقير لهؤلاء المليارات من الذين لم تتوفر لهم الحياة في المقام الأول؟ والعديد من الملحدين قالوها بأفضل مما قلتها أنا، أن المعرفة بأن لدينا حياة واحدة فقط يجعلها أغلى بكل المعاني. أن وجهة نظر الملحد بذلك تناصر تاكيد الحياة وتحسينها. وبدون أن يلوث عقله

بوهم ذاتي أو التفكير الأملي أو الشعور بالرأفة على الذات وعلى أن الحياة تدين لهم بأي شيء كتبت أميلى ديكنسون:

إن كونها لن تأتي ثانية

هو ما يجعل الحياة حلوة بهذا الشكل.

لـو أن فنـاء الله سـيحدث فجوة، فإن كل من البشر سـيملؤها بشـكل مختلـف. وطريقتـي تضمنـت جرعـة كبـيرة مـن العلـم، المسـعي الأمين والمنظم لإيجـاد الحقيقة عن العالم الواقعي. وأرى أن مسـاعي البشر لفهم الكـون كتعهد لبناء النمـوذج. كل منا يبني في رأسـه نموذجًا للعالم الذي نجـد انفسـنا فيه والنمـوذج الأصغـر للعالم هـو النموذج الـذي احتاجه أسـلافنا للبقاء والإنتخاب الطبيعي هو الذي بنى برنامج المحاكاة ونقحه وجعله يتأقلم مع العالم المحيط بأسـلافنا في السافانا الأفريقية: عالم ثلاثي الأبعاد من عناصر متوسـطة الحجم، تتحرك بسرعات متوسـطة بالنسـبة لغيرهـا وكمكافـأة غير غير متوقعة فإن أدمغتنا صارت قوية بشـكل كاف لإستيعاب عالم اكثر غني من ذلك المتوسط النفعي الذين احتاجه اسلافنا من أجل البقاء. الفن والعلم يمثلان تلك المكافأة. دعوني أرسـم الصورة الأخيرة لإقناعكم بقوة العلم في تفتيح المخ وإرضاء النفس.

أم البراقع:

أحد أحزن الأشـكال التي نراها في شـوارعنا في هذه الأيام هي صورة لإمـرأة متشـحة بلبـاس أسـود لا شـكل له من قمـة رأسـها حتى أخمص قدميها، تسـتطلع العالم من خلال شـق ضيق. ليس البرقع اداة لظلم المرأة وقمع حريتها وجمالها وحسب:

و ليس فقط رسالة شنيعة عن السيطرة الذكورية والإمتلاك المهين للأنثى، أريد هنا أن استخدم الشق في البرقع كرمز لشيء آخر.

أن اعيننا ترى العالم من خلال شق ضيق ضمن طيف المجال الكهرطيسي. الضوء المرئي لا يعدو عن كونه بصيصًا ساطعًا في اللطيف المظلم الواسع. الذي يمتد من موجات الراديو في النهاية الطويلة واشعة غامًا على النهاية القصيرة. ومن الصعب تقدير الضيق ومن التحدي أن نتحمله.

لنتخيل برقعًا عملاقًا وبشق الرؤيا فيه عبارة عن انش واحد. فلو كان القسم العلوي فوق الشق يمثل النهاية للموجات القصيرة والقسم السفلي من اللباس الأسود تحت الشق يمثل النهاية الطيفية للأمواج الطويلة للضوء الغير مرئي. فما هو طول البرقع الذي يقع الطيف المرئي فيه عند الشق بعرض الأنش الواحد على نفس المقياس؟ من الصعب شرح ذلك بدون استعمال المقاييس اللوغاريتمية لأننا نتكلم عن أطوال هائلة والفصل الأخير من كتاب كهذا ليس بالمكان المناسب للبدء برمي معادلات لوغاريتمية يمينًا ويسارًا، ولكن يمكن أن تصدقني بأن ذلك البرقع سيكون أم البراقع جميعها. والنافذة بعرض انش واحد للضوء المرئي لا تتعدو عن كونها جزء مهملاً في الأميال العديدة التي تمثل القسم الغير مرئي من الطيف الموجة بدأ من الأمواج الراديوية وانتهاء بأشعة غامًا في قمة الرأس. وما يفعله العلم لنا هو أنه يفتح تلك النافذة ويوسعها لدرجة أن ما هو محبوس داخل ذلك اللباس الأسود سيصبح خارجه بالكامل تقريبًا ومعرضًا نفسه وحواسه لحرية منعشة ومنشطة.

التلسكوبات البصرية تستعمل عدسات ومرايا لمسح السماء، وما تراه هو عبارة عن نجوم تشع ضوء يقع في حيز الأمواج الضيق مما ندعون بالأمواج المرئية. ولكن تلسكوبات أخرى «ترى» موجات اكس أو الموجات الراديوية وتقدم لنا صورة عن سماء بديلة لسماء الليل. وعلى مقياس أصغر فإن بعض الكاميرات مع فلتر مناسب تستطيع «رؤية» الأشعة الفوق البنفسجية واخذ صور لزهور ترينا مجالاً غريبًا من الخطوط والبقع والتي هي مرئية وتبدو وكأنها مصممة لذلك، لعيون الحشرات والتي لا تستطيع عيننا المجردة رؤيتها أبدًا. عيون الحشرات لديها نافذة طيفية مشابهة لعيننا ولكنها مزاحة بكشل بسيطة للأعلى على البرقع والحشرات عميان بالنسبة للضوء الأحمر ومبصرون للأشعة الفوق البنفسجية لما سميته في أحدا محاضراتي في الكلية الملكية «الحديقة الفوق البنفسجية».

إن الاستعادة بموضوع النافذة الضيقة والتي تنفتح لإستقبال طيف أعرض تخدمنا في مجالات علمية أخرى. أننا نعيش في مركز المتحف المجوف للمقادير، نرى العالم بأعضائنا الحسية وجهازنا العصبي مهيأ لمعرفة وفهم مجال ضيق متوسط فيما يتعلق بحجوم تتحرك بسرعات متوسطة. نحن في نطاقنا عندما يتعلق الأمر بأشياء تتراوح بين بضعة كيلومترات (منظر من رأس الجبل) إلى أعشار المليمترات (رأس دبوس). وخارج ذلك النطاق تبدو حتى مخيلتنا معاقة ونحتاج لمعونة الأجهزة والرياضيات والتي نستطيع لحسن الحظ تعلمها واستعمالها. إن حيز الإحجام، المسافات أو السرعات التي ترتاح بها مخيلتنا لا تعدو عن نطاق صغير، يقع في متوسط نطاق عملاق من الإمكانيات، من المقاييس

الذرية الغريبة في نهايته الصغيرة إلى النطاق الفلكي للفيزياء الإينشتاينية في نهايته العظمى.

إن مخيلتنا قاصرة بشكل يائس عن التعامل مع مسافات خارج النطاق المتوسط المألوف لأسلافنا. نحاول أن نتخيل الإلكترون بشكل مرئي ككرة صغيرة، في مدار حول مجموعة كرات اكبر تشكل البروتونات والنيوترونات. ولكنها ليست كذلك على الأطلاق. الاكترونات ليست كرات صغيرة، إنها ليست مثل أي شيء نستطيع التعرف عليه. وليس من الواضح إن كلمة «مثل» تعني أي شيء عندما نحول الإقتراب من أفق الحقيقة البعيد. مخيلتنا ليست معدة بعد لإختراق الجوار الكوانتي. ولا شيء في ذلك النطاق يتصرف بالطريقة التي تتصرف بها المادة، التي تطورنا لمعرفتها وقوانينها.

و لا نستطيع التعامل مع الأشياء التي تسير بسرعة قريبة لسرعة الضوء. والحواس العامة نخذلنا، لأن الحواس العامة تطورت في عالم حيث لا تتحرك الأشياء بسرعة عالية وليس فيها أشياء صغيرة جدًا أو كبيرة جدًا.

في نهاية بحث شهير عن «العوالم الممكنة» كتب البيولوجي العظيم جي بي هالدين» وإلا فإن شكي الخاص هو أن الكون ليس فقط محيرًا اكثر مما نفترض، وإنما محير اكثر مما نستطيع أن نفترض.. وأنا أشك بأن الكون أغرب مما نتصور ولكنه أغرب مما نستطيع أن نتصوره حتى أتوقع بأنه توجد أشياء اكثر في السماء والأرض اكثر من التي حلمت بها أي فلسفة ما أو تقدر أو تحلم بها.

أن من أهديت هذا الكتاب لذكراه قد كسب عيشه من غرابة العلم، ودفعهـا لتكـون كوميديـة. ومـا يلي مأخـوذ مـن نفس الخطـاب الذي اقتبسـت منه سـابقًا في هـذا الكتاب في كامبريدج عـام 1998 إن الواقع بأننـا نعيـش في قعر بئـر الجاذبية على سـطح كوكب يغطيـه غاز ويدور حـول كرة نووية ملتهبة على بعد تسـعين مليون ميـل وأعتبرنا أن ذلك طبيعـي يجـب أن يعطينا فكـرة على مدى انحـراف الإعتبـارات لدينا. وبينما لعب كتاب الخيال العلمي على سـاحة غرابة العلم لرفع مستوى احساسـنا بغموضه، اسـتعمل دوغلاس ادم نفس الأفـكار لأضحاكنا (و الذيـن قرأوا كتابه دليل المسـافرين عبر المجرة ربـما يفكر بـــــ دافع اللااحتمالات اللانهائية، مثلاً).

الضحك جدليًا ربما يكون أفضل رد فعل على بعض الغرائب المحيرة في الفيزياء الحديثة وأفكر بعض الأحيان بأن البديل لها، هو البكاء.

فيزيـاء الكم، الـذروة المخلخلة في إنجازات العمـل للقرن العشرين، تعطينـا نبـوءات دقيقة بشـكل مدهش عن العـالم الحقيقي ريتشـارد فاينما شـبه دقة قياس المسـافات بنسـبة قياس عـرض أمريكا الشـمالية بأرتياب بقدر عرض شـعرة من رأس انسان. وهذا النجاح في التنبؤ يجعل نظريات فيزياء الكم حقيقة بشـكل ما، حقيقة كأي شيء نعرفه، حتى اكثر الوقائع شيوعًا مما نعرفه.

و رغم ذلك فإن الإفتراضات التي تتطلبها النظريات الكمية، لإعطاء تلـك الدقـة في التنبؤ، غامضـة لدرجة أن فاينمان العظيـم بذاته أجبر على التصريـح بالعبـارة التاليـة (هناك العديد مـن الروايات عن تلـك العبارة

وما سـأذكره هو التعبير الاكثر أناقة) أو فكرت بأنك تفهم نظرية ألكم... فأنت لا تفهم نظرية الكم (و هناك تعبير مشـابه لنيلز بور أيًا منا لم يصعق بنظرية الكم فإنه لم يفهمها).

نظرية الكـم محيرة لدرجـة أن الفيزيائيين يلجأون لبعض التفسـيرات المتناقضـة لهـا. ويلجـأون هي الكلمـة الصحيحة. دافيد دويتـش في كتابه نسـيج الحقيقة يتخذ تفسير «العوالم المتعددة» لنظرية الكم، ربما لأنها اسوأ ما يمكن أن تقول عنها بإنها تبذير غير معقول. أنها تسلم بوجود عدد كبير ويتزايـد بسرعة من الاكوان، متواجدة بشـكل متـواز ولا يمكن لأحدها اكتشـاف الآخر إلا من خلال الكوة الضيقة لتجـارب الميكانيك الكمي. وفي بعـض الاكـوان أنا ميت منذ زمـن، وفي جزء صغير منهـا، فأنت لك شارب أخضر وهكذا.

و تفسـير «كوبنهاغن البديل» هو مسلمة أخرى من نفس النوع ليست تبذيرًا ولكنها متناقضة بشـكل صارخ. ارفين شرودينغر سخر منها بمثاله عـن القطة. وقطـة شرودينغر محبوسـة في علبة مع نظام قاتـل فيها يقدحه حدث ميكانيكي كمي.

و قبـل فتـح العلـم، فإننا لا نعـرف إذا كانت القطة ميتة أم لا. بحسـنا العـام، ولكـن بالرغم من ذلك فـإن القطة إما حية أو ميـة بداخل العلبة. وتفسـير كوبنهاغـن يناقص الحس العام وكل ما لدينـا قبل أن نفتح العلبة هو الإحتمال. وفي اللحظة التي نفتح بها العلبة، فإن التابع الموجي يسـقط ونبقى مع حدث واحد: القطة ميتة، أو القطة حية. وحتى لحظة فتح العلبة فأن القطة ليس بحية وليست بميتة.

و تفسير «العوالم المتعددة» لنفس الحدث هو أن القطة في أحد الاكوان ميتة، وفي الآخر حية. لا يرضى أحد التفسيران الحس العام أو الحدس لدى الإنسان. والفيزيائيين المفتولي العضلات لا يأبهون. وما يهمهم هو العمل الرياضي وأن التنبؤات تصدق بالتجربة. ومعظمنا نبدوا ممثين بالنسبة لهم ونبدوا وكأننا نحتاج إلى تمثيل مرئي لما يجري في الحقيقة. وأنا أفهم على فكرة بأن شرودينغر بالأصل قد عرض مسألة التجربة الفكرية للقطة بهدف استعراض ما بدا له سخيفًا في تفسير كوبنهاغن.

البيولوجي لويس والبريت يؤمن بأن الحيرة في الفيزياء الحديثة هي فقط قمة جبل الثلج. العلم بشكل عام، بعكس التكنولوجيا، يعارض الحس العام، إليكم أحد الأمثلة المفضلة: كل مرة تشرب فيها كأسًا من الماء، يوجد احتمال جيد بأن تبتلع على الأقل جزيئًا واحدًا قد مر في مثانة اوليفر كروموبل. ذلك لا يعدو عن كونه نظرية إحتمالات بدائية. لأن عدد الجزيئات في كأس الماء اكبر بها لا يقاس من عدد الكؤوس في العالم. وبالتالي فكل 1859 مرة نمسك فيها كأسًا مليئًا بالماء، فإن ننظر للنسبة العالية لجزيئات الماء الموجودة في العالم. بالطبع لا يوجد أي شيء مميز فيما يختص بكروموبل، أو المثانات. لم تتنفس جزيئًا من الأزوت من الذي تنفسته الأغوانة الثالثة على يسار شجرة السيكاد الطويلة؟ ألست سعيدًا لكونك تعيش في عالم حيث يمكن اطلاق تخمينات كهذه ولديك الملكات لمعرفة السبب؟ وكذلك إمكانية تفسيرها للآخرين، وليس كرأي أو أيمان ولكن كأمر يرغمون على تقبله عندما يفهمون وجهة النظر العقلانية لطرحك؟ وربما يكون هذاه السمة هي ما قصده كارل ساغان عندما شرح الدافع لكتابة الكون الملعون بالأشباح: العلم كشمعة في الظلام:

«عدم شرح العلم يبدو لي كشيء منحرف. فعندما تقع في الحب، فإنك تود إخبار العالم. هذا الكتاب هو تصريح شخصي يعكس قصة حب حياتي للعلم».

التطور لأشكال الحياة المعقدة، ووجودها في كون يتبع القوانين الفيزيائية، مفاجىء بشكل رائع بالتاكيد هل يمكن أن يكون كذلك لو لم تكن المفاجأة شعورًا موجودًا فقط في الأدمغة التي هي عبارة عن ناتج عن تلك العملية المفاجأة. إذن، هناك الحسن الأنثروبي، وبه لا يجب أن يكون وجودنا مفاجئًا. أود التفكير بأني أتكلم بالنيابة عن زملائي من البشر وأصر على أن ذلك، بالرغم من كل شيء مفاجئ للغاية.

فكر بالموضوع على كوكب واحد وربما وحيد في الكون، جزيئات والتي بشكل طبيعي لا تفعل أي شيء معقد اكثر من قطعة صخر. جمعت بعضها في قطع بحجم الصخرة بتعقيد هائل يجعلها قابلة للركض، القفز، السباحة، الطيران، الرؤية، السمع، التقاط واكل قطع معقدة أخرى تتحرك وفي بعض الأحيان قابلة للتفكير والشعور والوقوع في الحب مع قطع أخرى من المواد المقعدة. نحن نفهم الآن كيف حدثت تلك الخدعة ولكن فقط منذ عام 1859.

قبل ذلك كانت تبدو محيرة جدًا جدًا بالتاكيد والشكر لداروين فإنها بالكاد محيرة. داروين أمسك بالنافذة الضيقة للبرقع وسحبها فاتحًا إياها، وترك طوفان من الفهم يتدفق، جديد يثير الشعف قوته ترفع الروح الإنسانية لم يصل لها ربما أحد قبله، إلا ربما معرفة كوبرنيكوس بأن الأرض ليس مركز الكون.

قل لي: ساكل الفيلسوف العظيم لودفيغ ويتغينشتاين صديقه» لماذا يقول الناس دائمًا بأنه كان من الطبيعي للإنسان أن يفترض بأن الشمس تدور حول الأرض عن افتراضه بأن الأرض تدور؟ أجاب الصديق، حسنًا من الواضح أن ذلك حدث لأنه كان يبدو وكان الشمس تدور الأرض. وأجاب ويتجنشتاين، حسنًا كيف كان يجب أن تبدو وكأن الأرض تدور؟ بعض الأحيان اقتبس هذه العبارة من ويتجنشتاين في محاضراتي واتوقع أن يضحك المستمعون ولكن بدلاً عن ذلك يقعون في سكوت الصدمة.

إن العالم المحدود الذي تطورت فيه ادمغتنا، تبدو الأشياء الصغيرة اكثر حركة من الكبيرة التي تبدو وكأنها الخلفية الثابتة للحركة. وعندما يدور العالم، فإن الأشياء التي تبدوا كبيرة لأننا قريبة مثل الجبال والأشجار والأبنية، وحتى الأرضية بذاتها، كلها تتحرك بتواقيت مع بعضها ومع الذي يلاحظ الحركة، وبحركة نسبية بالنسبة للأجرام السماوية مثل الشمس والنجوم. إن أدمغتنا التي تطورت تعطينا وهما عن حركاتهم عوضًا عن الجبال والأشجار على السطح.

أود الآن أن اتابع الكلام عن النقطة أعلاه، عن أن الطريقة التي نرى بها العالم، والسبب الذي نشعر بسببه بأن بعض الأشياء سهلة الفهم بشكل حدسي والأخرى صعبة، هي أن أدمغتنا نفسها هي أعضاء تطورت، كومبيوترات، تطورت لتساعدنا على البقاء في العالم، سأستعمل كلمةالعالم المتوسط، حيث الأشياء المهمة للبقاء لم تكن كبيرة أو صغيرة جدًا، في عالم كانت الأشياء فيه إما ساكنة أو تتحرك ببطء بالنسبة لسرعة الضوء، وحيث يمكن اعتبار الإحتمالات الصغيرة كمستحيلات. إن

نافذة البرقع الفكري ضيقة لأننا لم نحتاج لأعرض منها لتساعد اسلافنا على البقاء.

العلم علمنا، بعكس كل الحدس التطوري، بأن ما يبدو صلبًا كالكريستال والحجر هو في الحقيقة مكون بكليته من الفراغ. والتشبيه المألوف الذي يمثل الذرة كذبابة في منتصف ملعب رياضي. والذرة التالية لها تقع خارج الملعب. أصل واكثف وأقسى حجر، إذن في الحقيقة هو تقريبًا فراغ تام، تنتشر فيه بعض الجزيئات البعيدة عن بعضها لدرجة إنه يمكن أن نمهلها، لماذا إذن تبدو الصخرة صلبة وتعطينا الشعور بأنها منيعة؟

لن أحاول تخيل ماذا ستكون إجابة ويتجنشتاين على سؤالي. ولكن كبيولوجي تطوري، سأجيب بالشكل التالي. أن أدمغتنا تطورت لتساعد أجسامنا لإيجاد طريقها عبر العالم الذي هو على المقياس الذي تتعامل به تلك الأجسام. لم نتطور للتجول في عالم الذرة. ولو كان الأمر كذلك، فلربما كانت أدمغتنا قادرة على رؤية الحجارة على أنها مليئة بالفراغ.

الحجارة تبدوا صلبة وقاسية لأيدينا لأن أيدينا لا تستطيع اختراقها ليس له علاقة بالمسافات التي تفصل الجزيئات التي تشكله أو حجومها. ولكنه تتعلق بحقل القوى المتعلق بتلك الجزيئات المتباعدة في الأشياء الصلبة. ومن المفيد لأدمغتنا أن تكون احساسًا بالصلابة والقساوة لأن ذلك يساعدنا على أن تتحرك أجسامنا عبر عالم تكون فيه الأجسام التي ندعوها بالصلبة غير قادرة على احتلال مكان غيرها.

كوميديا صغيرة للراحة هنا، من كتاب «الرجل الذي يحدق بالعنزات» لجون رونسون:

«إنها قصة حقيقية في صيف عام.... الجنرال البرت ستوبلبين الثالث يجلس خلف مكتبه في ارلنعتون، فرجينيا، ويحدق بالحائط الذي علقت النياشين العسكرية. إنها تعطي تفاصيلاً عن ماضيه العسكري الطويل والمميز. إنه رئيس المخابرات العسكرية الأمريكية وستون ألف جندي تحت أمرته.. ينظر عبر تلك النياشين إلى الحائط. هناك شيء عليه أن يفعله حتى ولو كانت أفكاره تعطيه شعور بالخوف».

يفكر بالخيارات التي أمامه، يستطيع البقاء في المكتب أو يذهب للمكتب المجاور. هذا هو خياره، وقد عقد العزم على فعل ذلك. سيذهب للمكتب المجاور.. انتصب واقفًا تحرك من خلف طاولة مكتبه وبدأ بالمشي. أعني هنا بأنه يفكر بالتالي، ما اكثر الأشياء الموجودة في الذرة؟ فراغ! واسرع الخطى. مما أنا مشكل؟ فكر مليًا.. ذرات! يهرول الآن. وما الذي يشكل الحائط أو معظمه؟ ذرات! وكل ما علي هو أن ادمج الفراغات.. وبعدها خبط الجنرال انفه بشدة على حائط مكتبه. اللعنة لقد فشل الجنرال ستوبيلين بالذهاب للمكتب المجاور عبر الحائط»

الجنرال ستوبيلين يمكن أن يوصف كشخص «يفكر خارج الصندوق» وفي موقع لمنظمة يديرها الآن مع زوجته بعد تقاعده. تسمي healthfreedonUSA ومكرسة لمنتجات صحية (فيتامينات، معادين، وحموض أمينية الخ). زهورات ومنتجات هوميوباتيية ومغذية ومواد طبية أخرى واطعمة صحية (بدون سماد، أو مضادات حيوية). وبدون شركات (مع أن ذلك اجباري بأمر حكومي) تحدد الجرعات وتتحكم بالعلاج وليس هناك أي إشارة إلى السوائل الجسدية القيمة.

و لأننا تطورنا في العالم المتوسط فإننا نجد أنه من السهل بشكل حدسي أن نفهم أفكارًا مثل: عندما يتحرك الجنرال بسرعة متوسطة والتي تتحرك بها اشياء أخرى في العالم المتوسط، ويصطدم بشيء جامد ينتمي للعالم المتوسط كحائط مثلاً، فإن تقدمه يتوقف بشكل مؤلم وأدمغتنا ليست مجهزة لتخيل الحال عند النيوترينو وهو يمر عبر الحائط، من خلال الفجوات الواسعة التي يتشكل منها الحائط «فعلاً» ولا يستطيع فهمنا التعامل مع ما يحدث عندما يتحرك الأشياء بسرعات قريبة لسرعة الضوء.

الحدس الإنساني بدون مساعدة، تطور وتعلم في مدرسة العالم المتوسط يجد من الصعب أيضًا تصديق غاليليو عندما يقول بأن قذيفة مدفع وريشة وبعدم وجود الإحتكاك مع الهواء، ستصلان للأرض بنفس اللحظة عند وقوعهما من برج عال.

ذلك لإنه في العالم المتوسط، يوجد احتكاك الهواء بشكل دائم. ولو تطورنا في الفراغ، لتوقعنا أن تصل الريشة وقذيفة المدفع في نفس اللحظة. نحن مقيمون وتطورنا في العالم المتوسط، وهذا يحد من قدراتنا التخيلية النافذة الصغيرة لبرقعنا تسمح لنا، إلا في حالة كوننا موهوبين بشكل خاص ومتعلمين بشكل جيد، أن نرى العالم المتوسط فقط.

هناك بعض الحاجات التي يجب علينا نحن الحيوانات أن نعيش معها وليست في العالم المتوسط، ولكنها في العلم الميكروي للذرات والالكترونات أيضًا. الإشارات العصبية التي نفكر من خلالها ونعتمد عليها في تخيلاتنا تقع في العالم الميكروي. ولكن اسلافنا في الغابات لم يحتاجوا لعمل أي شيء بخصوص ذلك، لم يتخذوا قرارات أبدًا من التي يمكن أن يساعد على اتخاذها الفهم للعالم الميكروي. ولو أننا كنا بكتريا

ونكافح بشكل دائم ضد حركات الجزيئات حولنا، سيكون الأمر مختلفًا. ولكننـا المتوسـطيون كبيرون جـدًا في الحجـم لنلاحظ الحركـة الصغيرة. وبالشـكل ذاته فإن حياتنا محكومة بالجاذبية ولكننا لانأبه تقريبًا لقوة الشد السطحي المرهفة في السـوائل. أن حشرة صغيرة ستحتفظ بتلك الأولوية ولن تجد أن قود الشد السطحي مرهفة أبدًا.

ستيف غراند في كتابه الخلق: الحياة وكيفية صناعتها. يقسو بشكل ما على آرائنـا بالمادة نفسـها. لدينا الميل للتفكير بأن الأشـياء الصلبة فقط هي «حقًا» أشـياء. الأمواج الكهرطيسـية وتموجاتها في الفراغ تبدوا غـير حقيقية. علماء القـرن التاسـع عشر الفيكتوريـين تخيلوا بأن الأمواج يجـب أن تكون أمواجًا في وسـط ما. ولم يعرف ذلك الوسـط. لذلك اخترعوا واحـدًا واطلقوا عليه أسـم الأثير المضيء ولكننا نجد المادة الحقيقية مريحة لفهمنا فقط لأن اسـلافنا تطوروا للبقاء في العالم المتوسط حيث المادة تكون بناء مفيدًا.

من ناحية أخرى، حتى نحن المتوسـطون نستطيع أن نرى بأن الدوامة المائيـة هـي «شيء» ببعض ما يشـبه حقيقة الحجـر، حتى ولـو أن المادة في الدوامـة تتغير بإسـتمرار. وفي الصحـراء التنزانية وتحت ظـل أول دونيو ليغـاتي، البركان المقدس في ماسـاوي توجد كومة هائلـة الكبر من الرماد منذ الإنفجار عام 1969. وتأخذ شكلها من الريح، ولكن ما هو جميل هو إنها تتحرك كجسـم، أنها ما يعرف بالبارشـان (تلفـظ باهكاهن). الكومة كلهـا تمـشي عبر الصحراء بإتجاهُ الغرب وبسرعة حـوالي 17 مترًا في العام. وتحافظ على شـكلها الهـلالي وتزحف بإتجاه القـرون. الريح تهب وتحمل الرمـل عاليًـا وعندما تصل حبة الرمـل للقمة تهبط الأسـفل على المنزلق الحاد داخل الهلال.

و بالواقـع، فحتى البارشـان يبـدو ك «شيء» اكثر مـن موجة». الموجة تبدو وكأنها تتحرك بشـكل أفقي عبر البحـر، ولكن جزيئات الماء تتحرك عموديًـا. وبنفس الشـكل، فإن الأمـواج الصوتية ربما تسـافر من المتكلم للسـامع، ولكـن جزيئات الهـواء لاتفعل ذلـك: لأن ذلك سـيصبح ريحًا وليـس صوتًـا. وقد أشـار سـتيف غرانـد بأننا أشـبه بالأمواج مـن كوننا «أشياء» دائمة. ودعا قراءه للتفكير:

....«بتجربة من الطفولة. شيء مما تذكره بشـكل واضح، شيء بإستطاعتك رؤيته، الإحساس به وحتى ربما الإحساس برائحته ما لو كنت هناك. وبالنظر لأمر كهذا، فقد كنت هناك في ذلك الوقت، أليس كذلك؟ وإلا فكيف يمكنك أن تذكره؟ والآن إليكم القنبلة: إنـك لم تكن هناك. ولا ذرة واحدة من جسـمك اليوم كانت هناك عندما حصلت تلك الحادثة. المادة تسـيل من مكان لآخر وتتجمع بشـكل مؤقت لتشـكلك. ولذلك فهمها كنت، فإنك لسـت المادة التـي تتكـون منهـا. وإذا لم يكن بإسـتطاعة ذلك إيقاف الشـعر في مؤخـرة العنق لديك، فإقـرأ هذا ثانية حتى يحصل ذلك، لأنه ذلك مهم».

إن بالحقيقـة ليسـت كلمـة نسـتطيع اسـتخدامها بثقة بسـيطة. ولو أن للنيوترينو دماغًا تطور من اسـلاف نيوتريونية الحجم، لقال بأن الصخور بالحقيقـة تتكـون غالبًـا من فضـاء فـارغ. لدينا أدمغـة تطـورت في العالم المتوسـط لأسـلافنا، الذين لم يسـتطيعوا المشي عبر الصخور، وبالتالي فإن الحقيقة خاصتنا ليسـت بالحقيقة التي تكون فيها الصخور صلبة. بالحقيقة بالنسـبة لحيـوان، هي ما يحتاج دماغـه لها أن تكون وذلك لمسـاعدته على

البقاء. ولأن أنواع الكائنات المختلفة تعيش في عوالم مختلفة، سيكون هناك أنواع أشكالية من بالحقيقات.

ما نراه في العالم الحقيقي ليس العالم الحقيقي بدوو تزويق ولكنه نموذج للعالم الحقيقي، منظم ومعدل بمعلومات الحواس نموذج مبنى بشكل مفيد للتعامل مع العالم الحقيقي. طبيعة هذا النموذج تعتمد على نوعنا كحيوانات. الحيوان الطائر يحتاج لعالم بنموذج مختلف عن الحيوان الماشي. والحيوان الزاحف أو الطائر. أن المفترس نموذج مختلف عن الضحية وحتى لو كانت عوالمهم متقاطعة.

دماغ القرد يجب أن يكون له برنامج يحاكي الأغصان والحجوم الثلاثية الأبعاد. بينما دماغ حيوان البوتمان لا يحتاج برنامج ثلاثي الأبعاد، لأنه يعيش على سطح مستنقع في العالم الثنائي الأبعاد لادوين ابوت. ودماغ حيوان المول يستدعي برنامجًا مخصصًا للتعامل مع ما تحت الأرض. وجرذ المول العاري ربما كان له برنامج مشابه لحيوان المول. ولكن السنجاب، على الرغم من أنه يعيش كما جرذ المول، ربما كان له برنامج اشبه ببرنامج القرد عن العالم الذي حوله.

لقد استعرضت في كتابي، صانع الساعات الأعمى وغيره، بأن الوطاويط يمكن أن ترى بإذانها. ونموذج العالم الذي تحتاجه، لأجل تمكينها من التوجه خلال العالم الثلاثي الأبعاد لإلتقاط الحشرات، يجب أن يكون مماثلاً بالتاكيد للنموذج الذي يحتاجه الطائر لتنفيذ نفس العملية. الواقع بأن الوطواط يستعمل الصدى لتعديل معطياته للنموذج، بينما يستعمل الطائر الضوء، هو فقط مسألة عرضية. واقترحت بأن الوطاويط، يفهمون رموزًا مثل «أحمر» و«أزرق» كأشكال داخلية لرموز

تتعلق بالصدى مثل القوام السمعي لسطح ما: تمامًا كما يفهم الطائر اشكال تمثل اطوال أمواج الضوء الطويلة والقصيرة. والنقطة هنا هي أن طبيعة النموذج محكومة بكيفية استعمالها من قبل من يحس النموذج. ودرس الوطواط هو ما يلي. أن التشكيل العام للنموذج الأدراكي على عكس المتغيرات التي تتغير دائمًا بحسب الإحساسات العصبية لا تعدوا عن كونها تبنيات لطريقة الحيوان في العيش ولا تختلف عن الجناح أو الرجل أو الذيل.

«هالداين، في مقاله عن «العوالم المحتملة» والذي اقتبست منه أعلاه، قال شيئًا مماثلاً عن الحيوانات التي تسيطر حاسة الشم على عوالمها. كتب بأن الكلاب تستطيع التمييز بين نوعين متشابهين جدًا من الحموض الدسمة حمض الكابريليك وحمض الكابريوك وكل منهما ممدد بنسبة واحد في الميون. والفرق الوحيد بين هذين الحمضين هو أن سلسلة كابريليك أطول من سلسلة كابريوك بذرتي كربون فقط. وتخمين هالداين، بأنه ربما كان من الممكن للكلب أن يصنف الحموض، بحسب ترتيب وزنها الجزيئي بناء على رائحتها، تمامًا كما يصف انسان اوتار البيانو بحسب اطوالها بناء على النوطات».

هناك حمض دسم آخر، كابريك مماثل الحمضين الآخرين، مع ذرتي كربون اضافتين في السلسلة الجزيئية. وربما يستطيع الكلب الذي لم يتعرف على حمض كابريك بعد أن يتخيل رائحته ولن يسبب له هذا مشكلة اكبر من التي نحصل عليها عندما نتخيل ترومبيت يعزف نوطة أعلى من التي سمعناها مسبقًا. وبالنسبة لي يبدو معقولاً جدًا افتراض بأن الكلب، أو الكركدن يمكن أن يعالجا مزيجًا من الروائح كما هو الحال في الهارموني

الموسيقى وربما يكون هناك تنازعات شمية ربما لا يكون هناك لحن، لأن اللحن مبني على نوطات تبدأ أو تنتهي مع توقيت محدد، على عكس الروائح وربما تستطيع الكلاب والكركدنات أن تشم بالألوان. ونفس الجدل يمكن أن يحصل في حالة الوطاويط.

و مرة أخرى، فإن المفاهيم التي ندعوها بالألوان هي أدوات تستعملها ادمغتنا لإعطاء مواصفات هامة لتمييز العالم الخارجي. الأشكال المفهومة ما يدعون الفلاسفة بـــ كواليا ليس لها معنى ذاتي متصل بطول معين لموجة الضوء. بل إنها مجرد لافتات متوفرة للدماغ والتي تبني على أساسها حقيقتها الخارجية وذلك لصنع التمايزات والتي تعني بشكل خاص شيئًا ما للحيوان المعني بالأمر. وفي حالتنا أو حالة الطير فأنها تعني اختلاف طول الموجة الضوئية. وفي حالة الوطاويط فأنه افترضت، إنها ربما تعني اختلاف السطح بإختلاف نوع موجة الصدى أو قوامها، ربما حمراء بالنسبة للسطح اللامع، وزرقاء بالنسبة للمخملي وخضراء للمادة الخشنة. وفي حالة الكب أو الكركردن، فلماذا لا تكون رائحة؟ أن قدرة تخيل عالم غريب للوطاويط أو الكركدنات، عالم زاحف البحيرة أو جرذ المول، عالم البكتريا أو الصراصير، هي واحدة من المميزات التي أمنها لنا العلم بشدة للقماش الأسود لبرقعنا ودفعنا لنشاهد المجال الأعرض هناك في الخارج وذلك لأجل سعادتنا.

إن الإستعارة عن العالم المتوسط عن المجال الوسطي للظواهر التي تضيق من سطح الشق لمجال رؤية البرقع لدينا يمكن تطبيقها أيضًا على مجال أو طيف آخر. يمكننا أن نضع سلمًا لـــ اللاحتمالية، وبنافذة ضيقة مشابهة للتي نرى من خلالها ضمن حدود إمكانياتنا الحدسية والتخيلة

وعلى طرف ذلك السلم اللاإحتمالي نحد ما ندعوه بالمستحيل. المعجزات احداث بعدم احتمالية عظيمة التطرف.

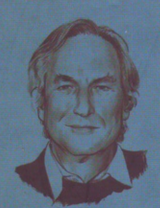
كان يلوح تمثال مادونا بيده لنا. أن الذرات التي يتكون منها هذا النصب تتذبذب للإمام والخلف. وبسبب وجود عدد كبير منها، وبسبب عدم اتفاقها المسبق على الحركة بإتجاه واحد، فإن اليد، كما نراها في العالم المتوسط، تبقى ساكنةً صخرية. ولكن الذرات المهتزة في تلك اليد يمكن أن يحدث لها وأن تتحرك كلها في اتجاه واحد في نفس الوقت. ومرة أخرى، وأخرى... وفي هذه الحالة ستتحرك اليد، وسنراها تلوح لنا. ذلك يمكن أن يحدث ولكن احتمالات عدم الحدوث كبيرة جدًا بحيث أنك لو قررت أن تكتب النسبة عند بداية الكون، فإنك لن تنته بعد من كتابة الأصفار في يومنا هذا. أن القدرة على حساب احتمال كهذا، احتمال أن نحدد ما يعنى قرب المستحيل هو مثال اخر على التحرر الحسن الذي يؤديها العلم للروح الإنسانية.

أن التطور في العالم المتوسط قد زودنا بإمكانية مريضة للتعامل مع أحداث بعدم احتمالية عالية. ولكن في الفضاء الكوني الواسع، في الأزمنة الجيولوجية، فإن الأحداث التي تبدوا مستحيلة تصبح حتمية. العلم يفتح النافذة الضيقة التي تعودنا رؤية طيف الإحتمالات من خلالها. لقد تحررنا بالحسابات والعقلانية وصار بإمكاننا التعامل من مجالات احتمالية كانت في زمن ما خارج نطاقنا أو أنها مملوكة من قبل التنانين. وقد اصبحنا قادرين على استخدام عرض النافذة كما في الفصل الرابع، حيث تعرضنا للإحتمالات عن نشوء الحياة وكيف يمكن لحدث بإحتمال قريب للمستحيل أن يحصل بوجود عدد كاف من الكواكب ووقت طويل

بشكل كاف، وحيث تعرضنا لطيف إمكانيات الاكوان الممكنة، ولكل منها قوانينه وثوابته، وكذلك الضرورة الأنثروبية التي جلعتنا نوجد في أحد قلة من الأماكن الرفيقة للحياة.

كيف يمكننا تفسير هالداين محير اكثر مما نستطيع الظن؟ محير اكثر من الإستطاعة على الظن، مبدئيًا؟ أم فقط محير اكثر من استطاعتنا على الظن، بالأخذ بعين الإعتبار محدودية عقولنا المتطورة كصنعة من العالم المتوسط؟ هل نستطيع بالتمرين والتدريب، أن نعتق أنفسنا من العالم المتوسط، ونرمق برقعنا الأسود، ونصل لمستوى حدسي ورياضي لفهم الأمور الصغيرة جدًا، والكبيرة جدًا والسريعة جدًا؟ لا أعرف الإجابة على ذلك، ولكنني أطير من الفرح لكوني أحيا في الوقت الذي تدفع فيه الإنسانية حدود الفهم والأفضل من ذلك ربما سيكون اكتشافنا بأنه ليس هناك حدود لذلك.

The God Delusion



عندمـا يتخطى أحدنا المألوف فإن النيران تطلق فـي وجهه من كل حدب وصوب. النار التـي أكلت كل الماضي وحولته إلى ما نحن عليه من ثقافة وتحضُّر، على الرغم من كل المنغِّصات الأخرى، ما هي إلا نار الإقصاء والإبعاد والادعاء بأحادية القراءة. داروين ذلك المتدين الناسـك هو من أطلق نظرية التطور من خلال كتابه «أصل الأنواع» لو أنه كان موجودًا قبل 200 عام من نشـره لأفكاره، لحوكم بتهمة السحر وأحرِق وتحول ملعون تسبه الأجيال وتغني حباً بمشعلي محرقته. لكنه طرح أفكاره بعد تهذيب الأحادية التي أكلت الكثير من المنجزات البشرية بنيران البشرية نفسها.

لنسـمع ما يقوله النـاس عن أفكاره، لنسـمع المؤمنين من الطرفين عــن إيماناتهم. ريتشـارد دوكينز، أحد هؤلاء الأحاديين، فالعلم عن دوكينـز لا يتحمل إلا قراءة واحدة، هذا المتطلع وصاحب الاختصاص في تبسـيط العلم للجمهـور والعالم في الجينات، يحاول أن يبني عالمًا من دون أديان أو اعتقادات **وهو اعلم الاعتقاد هو الإنسان نفسه**.




ISBN: 978-9953-592-43-5



بكل لغات الوطن